

الغناهل



الشمائل

المناهل

تصدرها

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

الرباط - المغرب



جمادى الثانية 1395
يونيه 1975

العدد الثالث
السنة الثانية

نظم مثلث قطرب وشرحه

عبدالله كنون

هناك الفاظ تشبه حروفها ، ويختلف شكل اولها باختلاف المعنى ، فالفتوح له معنى غير معنى المكسور ، والمضموم كذلك معناه غير معنى هذين ، وهى المعروفة بالمثلثات ، واحدها مثلث . وقد كان اول من اثار انتباهه ، هو الاغوى الكبير المشهور بقطرب ، واسمه محمد بن المستنير ، تلميذ سيبويه ، وهو الذى اطلق عليه لقب قطرب ، تشبيها له بهذه الدويبة التى تسمى بذلك الاسم لحركتها الدائبة ، وجمع صاحبنا هذه الالفاظ فى كتاب صغير يعرف بمثلث قطرب اعتنى به الناس كثيرا ، والى فى موضوعه بعده غير واحد من اهل العلم كابن السيد البطليوسى وابن مالك صاحب الالفية والفيروزباده صاحب القاموس . وآخر من

علمت انه الف فيه الشيخ حسن قويدر الخليلي من اهل القرن الثالث عشر الهجرى ، له فيه رجزية بديعة النظم اولها :

يقول من اساء واسمه حسن لكن له ظن بمولاه حسن

وهى مطبوعة بالمطبعة الاميرية فى بولاق عام 1301 هـ .

وانا فى هذا البحث القصير لا يهمنى من هذه المؤلفات فى المثلث الا ما عنونت به البحث وهو نظم مثلث قطرب وشرحه ، فكتاب قطرب نفسه لا اتعرض له ولا لما كتب عليه من ذيل او شرح ، لان ذلك يطول .. وما بعثنى على الاهتمام بهذا النظم الا طرافته والاسلوب الذى تناول به موضوع المثلثات ، وهو موضوع لغوى بحث ، فأحاله بحسن تأتيه وبطريقة التورية الى عمل ادبى جميل ؛ الى شعر غزلى يكاد القصد منه ، وهو نظم المثلثات يخفى على قارئه .

وهذه الطريقة هى التى ارتكبتها ناظم آخر لعلم مصطلح الحديث ، وهو العلامة ابن فرح الاشبيلى نزيل دمشق ، ففرغ معانى المصطلح فى قصيدة غزلية رائعة ، بلغت غاية الشهرة وتعرف بقصيدة (غرامى صحيح) ، اخذا من الجملة الاولى فى مطلعها الذى يقول فيه صاحبها :

غرامى صحيح والرجاء فيك معضل وحزنى ودمعى مرسل ومسلسل

فورى فى هذا المطلع بأربعة القاب من القاب الحديث الشريف ، وهى الصحيح والمعضل والمرسل والمسلسل ، وذلك من حيث لا يشعر السامع او القارئ بمقصده ، ومن ثم قيل ان هذه القصيدة لو قرئت على عربى قح لما فهم منها غير الغرض القريب وهو التغزل ، اما الغرض البعيد وهو نظم الاصطلاح فانه لا يخطر له ببال .

ولاستحسان هذه القصيدة شرحها كثير من العلماء ونسج العلامة الصبان على منوالها قصيدة فائية يقول فى مطلعها :

صلوا صحيح غرام صبره ضعفا ويدلوا قطع من فى حسنكم شغفا

ولا اقول ان ابن فرح قلد ناظم المثلث ولا ان صاحبنا هذا قلد ابن فرح ،
فهما كانا متعاصرين وكان ناظم المثلث احرى ان يكون هو المقلد لابن فرح ،
لما علم من ان الاندلسيين هم مبتكرو هذه الفنون من القول والرمز في
نظمهم للعلوم ، كما فعل الشاطبي في قصيدته المشهورة في علم القراءات
والخزرجي في قصيدته العروضية . . . ولكننا هنا بصدد لون آخر من النظم
وهو استغلال نوع التورية من محسنات البديع ، وصاحب نظم المثلث
وان عاصر ابن فرح ، فهو متقدم عليه في الوفاة بنحو عشر سنين ،
ولذلك ينتفى النرجيح بينهما في الاسبقية لهذا الاسلوب في النظم ،
وما يبنى على ذلك من تقليد احدهما للآخر .

وقد وهم بعضهم في نسبة هذا النظم لقطرب نفسه ، كما يفهم من
كشف الظنون وتبعه على ذلك صاحب معجم المطبوعات . . . مع ان في
آخر النظم ما ينفي ذلك ، ويثبت ان الناظم شخص آخر غير قطرب .
نبه على هذا الاستاذ خير الدين الزركلي في قاموس الاعلام . والناظم
الحقيقي هو عبد الوهاب المهلبى البهنسى المتوفى سنة 685 كما في
قاموس الاعلام ؛ وبروكلمان ؛ وفي نسخة خطية من النسختين اللتين تحت
يدى ؛ وعليهما اعتمادى في النص الذى ساقدمه من هذا النظم . فقد
ختمت هذه النسخة ببيتين اشك في نسبتها للناظم لهلهلة نظمها وان
كنت لا اشك في ان صاحبها كان يعرف من هو الناظم وراى خلو النظم
من اسمه ؛ وربما اطلع على الوهم المشار اليه في نسبة النظم لقطرب ،
فنظم البيتين وذيل بهما المنظومة الجميلة التى تستحق التعريف بصاحبها .
وسأشير الى هذين البيتين عند تقديم النص في التعليق ، وفي النسخة
الخطية الاخرى وهى بخط الوالد نسبته كذلك للمذكور الا ان فيها
عوض البهنسى البهنسى ، مع زيادة وصف الاندلسى ولعله تحريف ،
وتأكيدى على نسبة النظم للبهنسى من هذه الطرق ، لكون مترجميه لم
ينسبوا له تأليف ايا كان ، لا هذا النظم ولا غيره ، وان وصفوه بأنه كان
فقيها اصوليا نحويا نظارا ، وانه ولى قضاء مصر والوجه البحرى ، ومن
قوة عارضته ان الشيخ شهاب الدين القرافى حضر عنده مرة وقت
الدرس ، وهو يتكلم فى الاصول فشرع القرافى يناظره وصاحبنا يعلو

بكلامه عليه ، فقام طالب يتكلم بينهما ، فاسكته وقال له : فروج يصيح بين الديكة .

وقد ثبتت ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي وبغية الوعاة للسيوطي وشذرات الذهب لابن العماد .

على ان النظم نفسه لم يشتهر وينتشر بما فيه الكفاية حتى يصير متداولاً ومعروفاً بين جميع الناس ، وغاية ما يذكر منه مطلعاه او الشطر الاول من المطلع ، واشهر منه عند العلماء شرحه الذي نتكلم عليه قريباً . ولعل ذلك لانه يعتبر كمنظومة غزلية انما تهم اهل هذا الشأن في حين ان الشرح يعتبر متناً لغوياً يستظهر به في تفسير معاني هذه الالفاظ .

ويذكر بروكلمان ان المستشرق فلمر نشره سنة 1857 ونشره ايضا الاستاذ محمد بن شنب في الجزائر سنة 1907 . ولم اقف على اى منهما . واود عند العثور عليهما ان اجد فيهما ما يكمل هذا البحث ويطعمه بما ليس فيه .

واعتمادى في النص الذى اقدمه على نسختين في خزانتنا الكنونية ، احدهما بخط الوالد رحمه الله والاخرى بخط غيره ، وهى على ما يظهر اقدم قليلا وان كانت اكثر تصحيفا . وقد اجتهدت في ان اخرج منهما نسخة صحيحة بقدر الامكان ، مساهمة في نفض الغبار عن هذا الاثر الادبى النفيس ، وتعاوننا مع العاملين على خدمته . . ولهذا المعنى قلت (النص الذى اقدمه) ولم اقل (الذى انشره) تفاديا من التزامات النشر العلمى التى تقتضى مقابلة اكثر ما يمكن من النسخ المخطوطة بعضها مع بعض والاطلاع على الطباعات السابقة للكتاب . فاننا لا ادعى شيئا من ذلك ، وانما اعطى صورة ما عندى تفيد في ترويج هذا النظم وتسهم في تحقيقه ولو بأقل نصيب .

ذلك ما يتعلق بنظم المثلث ، واما شرحه فاننا اعنى به الشرح المنظوم على نسقه وترتيبه وهو المسمى بالمورث لمشكل المثلث المنسوب

خطأ في ايضاح المكون ذيل كشف الظنون لعبد العزيز الديريني الدميري سنة 694 . . وذلك لانه كما نرى توفي بعد ناظم المثلث بتسع سنوات ، فيبعد ان يكون شارحا له من غير ان تكون بينهما علاقة كالتمهذة او الصداقة تمكنه من الاطلاع على النظم وتبعثه على شرحه ، ولم نطلع على شيء من ذلك ، فيبقى الاستبعاد حافا بهذه النسبة . . ثم ان ترجمته ليس فيها ذكر لهذا الشرح ، على حين جاء فيها ان له ارجوزة في علم التفسير تزيد على 3000 بيت ، وكتبا اخرى منها طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب في التصوف وهو مطبوع معروف .

واقطع من كل هذا في عدم صحة نسبته اليه انه جاء في آخره . اعنى الشرح ، التصريح بأن صاحبه مغربي ، والديريني مصري لا شك فيه .

وكنيت ابحت عن عبد العزيز المغربي هذا الذي يمكن ان يكون ناظم الشرح ، فوقفت على شخص بهذا الاسم هو عبد العزيز بن عبد الواحد المغربي المكناسي شيخ القراء بالمدينة المنورة ، الامام العالم الاديب ، كما وصفه ابن العماد في الشذرات ، وزاد قائلا انه كان فاضلا علامة متفنا شاعرا صالحا دمث الاخلاق كثير التواضع له عدة منظومات في علوم شتى منها منهج الوصول ومهيع السالك للاصول في اصول الدين ، ونظم جواهر السيوطي في علم التفسير ، ودرر الاصول في اصول الفقه ، ونتائج الانظار ونخبة الافكار في علم الجدل ونظم العقود في المعاني والبيان وتحفة الاحباب في الصرف وغنية الاعراب في النحو ونزهة الالباب في الحساب والدرر في المنطق . . الخ وتوفي سنة 964 ، فقلت ولم لا يكون له ايضا المورث لمشكل المثلث ، نظما مسمى كسائر الانظام الاخرى التي نسبها له صاحب الشذرات في هذه الترجمة لا سيما واسمه عبد العزيز وهو موصوف بالمغربي كما في النظم . . وزال الاشكال بالتصريح بنسبة هذا الشرح له عند بروكلمان مسمى باسمه المورث ونسبة صاحبه الى مكناس ، وذكر وفاته سنة 964 ، والنص على ان شرحه هذا نشر في فاس سنة 1317 هـ ، وهو يعنى بنشره ظهوره في كتاب مجموع المتون الكبير الذي طبع بفاس على الحجر مرارا ، منها الطبعة التي اشار اليها في تلك السنة . وبروكلمان لا يقول ذلك الا لكونه

راى التصريح باسم صاحبه الحقيقى فى بعض النسخ المعتمدة او عند احد المؤلفين ممن لم نطلع عليهم ، وطبع هذا الشرح مجردا عن النظم المشروح ، مما يدل على الاهتمام به اكثر من النظم ، وذلك ما المعنى اليه آنفا من كونه بين اهل العلم اشهر من اصله . ثم ان طبعته هذه تعطينا نسخة ثالثة زيادة على المخطوطتين اللتين تحتويهما خزانتنا ، وهما تشتملان على النظم وشرحه معا .

ولكنى لم اجعلهما اصلا ، بل اعتمدت على الشرح المطبوع وبنيت عليه ترتيب النظم وتصحيحه ، اذ كان قد تداولته ايدى العلماء ورددته السنتهم ، ومن املاءاتهم حفظنا بعض ابياته ولا شك انه انما اثبت فى مجموع المتون عن عدة نسخ كما هو الشأن فى المتون الاخرى ، ولا يفوتنى فى الاخير ان اثير الى ان كلا من النظم وشرحه ، من مجزو الرجز ، وعلى قافية الباء المكسورة مع تقفية الاشطار الثلاثة من كل بيتين بالحرف الاخير من اللفظ المثلث المنظوم او الشروح الا قليلا ، فهما اى النظم وشرحه على شكل الرباعيات المعروفة فى الشعر العربى .

وهذا هو النظم المستخرج من النسختين بعد مقابلته على الشرح المطبوع :

يا مولعا بالغضب	والهجر والتجنب
فى جده واللمع	حبك قد برح بى
ان دموعى غمر	وليس عندى غمر
يا ايها ذا الغمر	اقصر عن التمتع
بدا وحيى بالسلام	رمى عدوى بالسلام
اشار نحوى بالسلام	من كفه المختضب
تهيم قلبى بالكلام	وفى الحشامنه كلام
فسبرت فى ارض كلام	لكى انال مطلبى

ثَبَّتْ لَأَرْضِ حَرَّة
فَقُلْتُ يَا ابْنَ الْحَرَّة
جَدُّنَا لَدِيمِ حِلْمٍ
وَلَا هُنَا لِي حِلْمٍ
حَمَدْتُ يَوْمَ السَّبَبِ
عَلَى بَنَاتِ السَّبَبِ
خَدَّدَ فِي يَوْمِ سَهَامٍ
كَالشَّمْسِ إِذَا تَرَمَى السَّهَامُ
دَعَاوتِ رَبِّي دَعَاوَهُ
وَقَالَ عِنْدِي دَعَاوَهُ
دَلَفْتُ نَحْوَ الشَّرْبِ
فَانْقَلَبُوا بِالشَّرْبِ —
رَامَ سُلُوكَ الْخُرْقِ
إِنْ بَيَّانَ الْخُرْقِ
زَادَ كَثِيرًا فِي اللَّحَا
لَمَّا زَايَ شَيْبَ اللَّحَى
طَرَحَنِي بِالْقَسْطِ
فِي قِيهِ عَرَفَ الْقَسْطِ
ظَبِي ذَكَى الْعَرَفِ
وَأَمَرَ بِالْعَرَفِ
كَأَنَّنِي فِي لَمَمِهِ

مَعْرُوفَةٍ بِالْحَرَّةِ
أَرِثْ لِمَا قَدْ حُلَّ بِي
وَمَا بَقِيَ لِي حِلْمٍ
مَذْغَبْتُ يَا مَعْذِبِي
مَذْجَاءَ مَحْذَى السَّبَبِ
فِي الْمَهْمَةِ الْمُسْتَعِيبِ
قَلْبِي بِأَمْثَالِ السَّهَامِ
بِضُؤُوثِهَا الْمَلْتَمِيبِ
لَمَّا أَتَى بِالْدَعَاوَةِ
أَنْ زَرَقْتُمْ فِي رَجَبِ
فَلَمْ أَذْذِ عَنْ شَرْبِ
وَلَمْ يَخَافُوا غَضَبِي
مَعَ الظَّرِيفِ الْخُرْقِ
مَنْهُ ، رَكُوبِ السَّبَبِ
مَنْ بَعْدَ تَقْشِيرِ اللَّحَا
صَرَمَ حَبْلَ السَّبَبِ
وَلَمْ يَزِنْ بِالْقَسْطِ
وَالْعَنْبِرِ الْمَطْيَبِ
وَأَخَذَ بِالْعَرَفِ
سَنَامَ رَفِيعِ الرَّتَبِ
مَذْ شَابِ شَعْرِ اللَّمَمِ

وما بقي لي لمة
لما اصاب مسكني
وكان فيه مسكني
ملت دموعي حجري
لو كنت كابن حجر
ناول برد السقط
فلاح رمى السقط
صاحبني في صره
وما بقي في الصره
ضمنته نبت الكلا
فشق قلبي والكلبي
عال كريم الجدد
الفيتة كالجدد
غنى وغنت الجوار
فأسمعوا صوت الجوار
فداره قد عمرت
وارضه قد عمرت
قولا لاطيار الحمام
اما ترى يا ابن الحمام

ولا لقي من نشب
فلاح نسيم المسك
وراحتني من تعبتي
وقل فيه حجري
لضاع فيه ادبي
من فيه ، غير السقط
من خده كالشهب
في ليلة ذي صره
خردلة من ذهب
بالحفظ مني والكللا
عمدا ولم ير تقب
وفعله بالجدد
المعضل المضطرب
بالقرب مني والجوار
ثم انثنوا بالطرب
ونفسه قد عمرت
من بعد رسم خرب (1)
يبكينني الى الحمام
ما في الهوى من كرب

(1) يلاحظ ان المثلث هنا من باب الفعل لا من باب الاسم وان اختلاف معاني الفاظه باختلاف شكل عينه وربما كان هذا مما ادرج في النظم وشرح عليه الشارح وهو ليس منه .

سار مجدا في الملا
ولبس له لين الملا
شكلته كشكلى
وغلبنى بالشكل
هذى علامة الرقاق
هل نطقوا بعد الرقاق
وجدته كالقمة
مطرحا كالقمة
لا تركزن للصل
واحذر طعام الصل
يسفر عن عيني طلا
وطلية من الطلى
فام قلبى امه
فاستمعوا يا امه
لما رايت دله
نظمت في وصفى له

وأبحر الشوق ملا
فقلت يا للمعجب
تيمنى بالشكل
في حبه ، واحر بى
فانظر الى اهل الرقاق
بالصدق او بالكذب
في جبل ذى قمة
قلت له احفظ مذهبي
و لا تلذ بالصل
وانهض نهوض المحتبى
ووجنة تحكى الطلا
اغيد لم يحتجب
عند نزول الامه
بحقكم ما صار بى
وهجره ومطله
مثلا لقطرب (2)

وهذا هو الشرح على الترتيب المذكور :

(2) فى النسخة الثانية من المخطوطتين يجرى بعد هذا البيتان المشار الى انهما تضمنتا اسم الناظم وهما ليسا له على ما قدمت ، ونصهما :
نظمها يضىء كالشهاب قاضي النحاسة والادب
الفه عبد الوهاب وفحل اهل المذهب
ولا يخفى ما فى البيت الاخير من النظم ، من الدلالة على ان صاحبه غير قطرب كما نبه على ذلك فى قاموس الاعلام .

حمداً لبارئى الانعام
ما نباح فى دوح حمام
والله وصحبه
ببيليه فى حبيبه
وبعد فاقضيد بتمنا
قد كان قبل نظمها
مقدما فتحا على
وهكذا على السولا
سميته بالمورث
من غير ما تريث
وسل من المولى العلى
ثم قبول العمل
صلى عليه ذو العلا
ربع فاضحى مبقلا

ثم الصلاة والسلام
على الرسول العربى
ومن تلا من حزيه
على ممر الحقيب
نظمته شرح لما
مثلاثا لقطرب
كسر فضم مسجلا
نظما على الترتب
لمشكل المثلث
من لى بنيل الارب
غفران كل الزلل
بالمصطفى المقرب
ما هطلت مزن على
من كل نوع طيب

* * *

الغمر ماء غزرا
والغمر ذو جهل سرى
تحية المراء السلام
والعرق فى الكف السلام

والغمر حقد سترا
فيه ولم يجرب
واسم الحجارة السلام
رووه فى لفظ النبى (3)

(3) يشير الى قوله (ص) على كل سلامى من احدكم صدقة الحديث

أما الحديث فالكلام
والموضع الصلب الكلام
والحرارة الحرارة
والحرارة المختارة
الحلم ثقب في الأديم
والحلم في النوم العميم
السبب يوم عبدا
والسبب نبت وجدا
لشدة الحر السهام
ولضياء الشمس السهام
ودعوة المبدد الدعاء
ودعوة ما صنعما
الشرب جمع الندما
والشرب فعل علما
الخرق ما قد عظمما
والخرق حمق لؤما
عذلك للمرء اللحا
وجمع لحية لحى
القسط جور رفضا
والقسط عود مرتضى
المعرف ربح طيب

والجرح في امرئ الكلام
اللبس والتصلب
والحرارة الحرارة
من محصنات العرب
والحلم من خلق الكريم
بالصدق أو بالكذب
والسبب نعت حمدا
في معمر أو سبب
وللنبال قل سهام
في مشرق أو مغرب
ودعوة المرء ادعاء
للاكل وقت الطلب
والشرب حظ قسما
وقيل ماء العنب
والخرق حر كرمما
فمنه كن ذا هرب
وقشرة العود اللحا
بالضم والكسر حبي
والقسط عدل قرضا
لعرفه المطيب
والعرف صبر يندب

والعرف امر يجب
لجنة قل لمة
وجمع ناس لمة
المسك جلد يا غلام
والمسك بلغة الطعام
الحجر في الثواب امام
وحجر والد الهمام
السقط ثلج قد عرا
والسقط زند قد وري
قل ثلة في صرة
وخرقة في صرة
العشب يدعى بال كلا
وجمع كلية كلى
السجد والسد الاب
والجد عند العرب
جارية احدى الجوار
ورفع صوت الجوار
وداره قد عمرت

عند ارتكاب الربيب
وشعر راس لمة
من عجم او عرب
والمسك من طيب الكرام
تكفى الفتى من نشب
والحجر بالبيت الحرام (4)
امرى قيس عربى
والسقط ما ترمى المرا
في ضوئه والغييب (5)
وقرة في صرة
مشدودة من ذهب
واللحراسة الكلا
لكل حى ذى اب
والجد ضد اللعب
البئر ذات الخرب
ومصدر الجار الجوار
من وجع او طرب
عمارة و عمرت

(4) فى الشرح المطبوع ثبت هنا بيت النظم بدل بيت الشرح ولم يرد الشرح الا فى نسخة
الوالد .
(5) سقط هذا التفسير من الشرح المطبوع والمخطوطة الثانية ولم يثبت الا فى نسخة
الوالد .

نفس الفتى وعمرت
طير شهير الحمام
وعلى ما جاء الحمام
جماعة الناس الملا
ولبسهم هي الملا
الشكل عين المثل
والشكل قيد الغل
متصل الرمل الرقاق
والخبز ان رق الرقاق
وسؤرايث قمه
بكسرهما والقمة
الصل صوت بين
والصل لحم منتن
ظبي كحيل : الطلا
وطلية من الطلا
شجرة راس امه
لنعمه وامه
اما الغزال فالرشا

ارضك بعد الحرب
والموت قل فيه الحمام
على فتى منتسب (6)
و قل اوانبيهم ملا
من عبقري مذهب
والشكل حسن الدل
مخافة التوثب
وفي مسيل الماء الرقاق
يقال عند العرب
وراس طود قمه
مزيلة للقشب
والصل حنش لين
طبخ او لم يطبخ (7)
والخر قل فيها الطلا
جيد الفتى المهذب
تدعى وقالوا امه
من عجم وعرب
والحل للدلو الرشا (8)

(6) هو الحمام بن المنذر الصحابي الجليل .

(7) ثبت في الشرح المطبوع هنا بيت النظم بدل الشرح .

(8) ما بين الرقمين (2) من الشرح ثبت في المطبوع وفي النسخة الثانية من المخطوطتين ولم يثبت مشروحه في نظم المثلث من المخطوطتين فأثبتناه لمزيد الفائدة ، ولاحتتمال وجود مشروحه في أصل آخر . . وهذا ايضا مما يدل على انتشار الشرح اكثر من النظم .

وبذل مال الرشاشا
حب القرنفل الزجاج
وللقوارير الزجاج
كناسة البيت اللقا
وانت احرقنت اللقا
الحممة اسم المنة
والقوة اسم المنة
المتن للمرء القرا
وجمع قرية قري
ريق الحبيب الظلم
فحل واما الظلم
القطر غيث ساكب
والقطر عود جالب
هذا تمام شرح ما
من ادباء العلما
هذبه للحب -
عما جنى من ذنب
مصليا مسلما
والال والاصحاب ما

طنجة

لحاكم مستكلب
وزج الارماح الزجاج
وهو سريع العطب
والزحف للحرب اللقا
من غسل باللهب
والامتنان المنة
وهو دليل الفلب
ونزل ضيف القرا
كمكة ويثرب
وفي النعمان الظلم
فالجور من ذى غضب
والقطر صفر ذائب
من عدة فى المركب (9)
نظم من تقديما
مثلا لقطرب
رجاء عفو الرب
عبد العزيز المغربى
على رسول كرما
لاح بريق يثرب

عبد الله كنون

(9) هنا يصف الشارح نفسه بأنه مغربي فيدفع نسبة شرحه الى الغير كما اشرنا لذلك فى البحث .

الثقافة

لغة ، وفكرة ، وتنظيماً

محمد العربي الخطايبى

الثقافة كلمة حية متطورة من حيث مدلولها اللغوي وأبعادها الفكرية والوجدانية ومراميها الانسانية والاجتماعية ، فهي ، من جهة ، صفة من صفات العقل والنفس ، ومن جهة أخرى نمط من التفكير والسلوك الوجداني ومنهاج لتقويم المزايا الروحية والعقلية والحسية . والثقافة بعد هذا وذاك مؤسسة رائعة أوجدها العقل الانساني المبدع ، وتعهدتها الاجيال المتعاقبة بالشذب والتكميل والاثراء حتى غدت برهانا على عبقرية الانسان ونزوعه الدائم الى الكمال ، ولعلها المؤسسة الوحيدة التي يلتقي عندها البشر من مختلف الاجناس فى وفاق وانسجام ويطمئنون اليها اطمئنان المرء الى شيء عزيز عليه أثير عنده ، يحرص على استبقائه .

الثقافة ، لفظة

معنى الثقافة عند العرب الاقدمين الفطنة والحدق وسرعة الفهم ، وهي من ثقف الشيء ثقفا وثقافا أي حدقه وتعلمه بسرعة. قالت العرب : رجل ثقف أي فطن ، فهم ، حاذق . وزاد محمد بن منظور في (لسان العرب المحيط) قوله : « والمراد انه - أي الرجل الثقف - ثابت المعرفة بما يحتاج اليه » . وهذا التعريف من ابن منظور يقرب المدلول اللغوي لكلمة الثقافة مما نفهمه نحن المحدثين منها ، ذلك أن « ثبوت المعرفة » من علامات المثقف بالمفهوم العصري .

ان تعريف لفظ الثقافة بأنه الحدق والفطنة والفهم ، على نحو ما أوردته المعاجم العربية القديمة ، ربما لا يقارب الا من زاوية بعيدة ما نفهمه نحن المحدثين من كلمة « الثقافة » ذلك انه اذا كانت الفطنة والفهم والذكاء من الصفات الفطرية التي يودعها الله في عقول من يشاء من الناس ، والتي يستعبد اكتسابها بالتعلم ، فان اضافة الحدق الى هذه الصفات العقلية ربما يعطي للفظ الثقافة معناه الايجابي ، اذ ان الحدق مهارة تكتسب بالتعلم والمراس ، وتكتمل بالمزاولة الدائبة . اذن فالرجل « الثقف » عند العرب الاقدمين ، هو الذي يتصف بصفات عقلية خاصة : « الفطنة والفهم » ويكتسب الى جانب ذلك « الحذاقة » « وثبوت المعرفة »

ويبدو ان صيغة المثقف لم تكن شائعة بين العرب في العصور الذهبية للحضارة الاسلامية كما كان شائعا عندهم اوصاف من مثل العالم . والاديب ، والمحدث ، والمشارك ، والحافظ ، والفقيه ... الى غير ذلك من الاوصاف التي اطلقها اجدادنا على مثقفيهم . والراجح عندي أن لفظ « المثقف » لم يعرف الا في عصر النهضة الحديثة شأنه في ذلك شأن الفاظ أخرى كالمفكر والفنان والرسام - بمعناها الذي نعرفه اليوم - وربما يكون رجال النهضة الحديثة قد استخدموا هذا اللفظ في مقابل الكلمة الفرنسية Intellectuel التي تترجم ايضا بالمفكر .

اما في اللغات الاوربية فان كلمة Culture اصلها من اللاتينية Cultura ، ومعناها الاول خدمة الارض وفلاحتها وغرس

بعض انواع النبات ، وقد يكون معناها ايضا استفلال بعض المنتوجات الطبيعية . وقد تطور مفهوم هذه الكلمة من خدمة التربية الى تعهد العقل واستثمار الملكة ، وقد اشتهر عن سيشرون قوله : « الفلسفة هي خدمة العقل » أي تثقيفه . وقال المؤرخ المعاصر ويل ديورانت ، صاحب كتاب « قصة الحضارة » ان الثقافة مرتبطة بالفلاحة كما ان المدنية مرتبطة بالمدينة « ، وهو يشير بذلك الى الاصل اللغوي لكلمتي Culture و Civilization

وواضح ان الاصل اللغوي اللاتيني لكلمة Culture ، وما هو قريب منها من نحو Culte بمعنى العبادة او التقديس ، لا يعنينا في هذا المقام الا بقدر ما يعيننا مدلول « تثقيف الرماح » عند العرب الاقدمين ، أي تسويتها اذ نستعير هذا المعنى فنقول تثقف العقل ، أي تقوم واستقام.

الثقافة ، فكرة :

عرف مجمع اللغة العربية بالقاهرة الثقافة بكونها « كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو في المجتمع؛ و فرق بينها وبين الحضارة على أساس أن الأولى ذات طابع فردي وتنصب بخاصة على الجوانب الروحية ، في حين أن الحضارة ذات طابع اجتماعي ومادي » ويقول الدكتور جميل صليبا في معجمه الفلسفي بأن « الثقافة ، بالمعنى العام ، هي ما يتصف به الرجل الحاذق المتعلم من ذوق ، وحس انتقادي ، وحكم صحيح أو هي التربية التي أدت إلى اكتسابه هذه الصفات».

يعرف المعجم الموسوعي الكبير (لاروس) Grand Larousse Encyclopédique الثقافة بأنها « تنمية شتى ملكات العقل واثراؤها ببعض التمارين الفكرية » وبأنها « حالة العقل الذي يتم اثراؤه على هذا النحو » .

ومن هنا نرى ان ما قاله ابن منظور عن « ثبوت المعرفة بما يحتاج اليه » لا يبتعد كثيرا عن تعريف « لاروس » للثقافة ، وذلك من حيث النتيجة التي تحصل من ترويض العقل وتقويمه .

لقد اشتهر عن الاديب والسياسي الفرنسي ادوار هريو E. Herriot قوله : « الثقافة هي ما يتبقى حينما ننسى كل شيء » ، وهو يقصد أن الثقافة هو ما يرسخ في الذهن ويمتزج بالوجدان ويقومهما بفضل المعرفة المكتسبة .

ان هيريو - الذي كان هو نفسه ذا ثقافة موسوعية - قصد ولا شك الى تجنب تقويم مدلول الثقافة - كفكرة - بمعيار كمي يجعل منها قيمة كيفية خالصة . وهو بذلك قريب مما قصد اليه ابن منظور حينما قال : « بأن الثقافة هي ثبوت المعرفة بما يحتاج اليه » .

ويروي الدكتور صليباً عن روستان D. Rostan قوله : « العلم شرط ضروري في الثقافة ، ولكن ليس شرطاً كافياً ، انما يطلق لفظ الثقافة على المزايا العقلية التي اكسبنا اياها العلم ، حتى جعل احكامنا صادقة ، وعواطفنا مهذبة » وحيداً لو استعمل روستان لفظاً « المعرفة » عوضاً عن كلمة « العلم » .

واذا كان هنا ، بايجاز ، هو مفهوم الثقافة عند الفرنسيين ومفكري الشعوب اللاتينية بوجه عام فان الانجلكسونيين يربطون في الاغلب الاعم بين فكرتي « الحضارة » و « الثقافة » ، ومنهم من يعتبر اللفظين مترادفين في مدلولهما العام .

ان الموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britannica لم تورد في طبعتها التي ظهرت سنة 1929 سوى مادة « الحضارة » Civilization وذلك في بحث قيم كتبه روبنسون James Harvay Robinson ويفهم من سياق بحثه ان للحضارة والثقافة عنده مدلول واحد .

وحينما اعاد اصحاب الموسوعة البريطانية طبعها سنة 1969 اثبتوا مقال المستر روبنسون بنصه ، وذلك في مادة جعلوا عنوانها في هذه الطبعة « الحضارة والثقافة » الا انهم ذيلوا المقال باضافة جديدة جعلوها تحت عنوان « مفاهيم الحضارة والثقافة »
Concepts of culture and civilization

مؤكدين بذلك ، ولا شك ، التطور الذي آلت اليه الثقافة وما اكتسبته من معنى خاص بها يميزها عن معنى الحضارة وذلك دون اغفال للصلات القائمة بينهما .

وقد جاء فى هذا التذييل ما ترجمته : « ان الثقافة هي منهاج الحياة الذي تسلكه جماعة بشرية ما ، ويدخل فى ذلك أنماط من السلوك تكتسب بالتعلم أو تقوم على قواعد ثابتة ينفجها فرد ويعاينها ويقرها فرد آخر ينتمى الى نفس المجموعة . وبمعنى أعم تهتم الثقافة بأنماط الحياة التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان الأعجم » ، وتقرأ فى نفس المادة من الموسوعة البريطانية « أن كل الناس يستعملون اللغة والرموز ، ولهم تراث اجتماعي يتلقونه بالتعلم ، وهم يعملون فى مجتمعات ذات كيان تنظيمي انساني متميز » .

وواضح أن هذا التعريف الأخير يفلب عليه المشرب الانثربولوجي لمفهوم الثقافة ، الذي ينظر الى كل مجموعة بشرية على حدة من حيث تراثها الثقافي والحضاري . وفى هذا المعنى يقول مجدي وهبة فى معجم مصطلحات الادب « بأن الثقافة هي احدى السمات المميزة لاحدى مراحل التقدم فى حضارة من الحضارات » .

ويفهم بعض مفكري الالمان من الثقافة أنها الدين والفلسفة والفن من جانبها الشكلي الذاتى ، بينما يفهمون من الحضارة أنها - اجتماعيا وموضوعيا - التكنولوجيا والمعلومات العلمية المتراكمة . وكان هذا الاتجاه فى التفريق بين الحضارة والثقافة ، يذكر بالعلاقة القائمة بين الجوهر والمادة ، اذا اعتبرنا ان الثقافة هي الاصل والحضارة فرع منها .

ويبدو أن العرب كانوا يطلقون ، فى العصر الذهبي للحضارة الاسلامية وصف « الاديب » على المثقف بمفهومنا العصري . ويروي ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » عن عبد الله بن قتيبة قوله : « من اراد ان يكون عالما فليطلب فنا واحدا ، ومن اراد أن يكون أديبا فليتفنن أو فليتوسع فى العلوم » .

والادب ، بهذا المعنى ، يقارب مدلول الثقافة . يقول ابن العميد « كتب الجاحظ تعلم العقل أولا ، والادب ثانيا » ، وقد كان الجاحظ نموذج المثقف العربي القديم كما كان ابن قتيبة وابن حزم وابن خلدون وعباس بن يحيى والقزويني والسيوطي وغيرهم من أعلام الثقافة العربية .

ومن الطريف أن كلمة « وين » - أدب - عند الصينيين . إنما تدل في أصلها على الثقافة ، أو الحضارة الانسانية بمعناها الواسع . والشكل الذي ترسم به هذه الكلمة في اللغة الصينية مستوحى من تخيلات جمالية مصدرها رؤية الرسوم البدئية في فرو النمر أو اكتشاف مثل هذه الرسوم في قبة السماء أو على أديم الأرض .

وقد نظرت في أمر الثقافة والحضارة وما قد يوجد بينهما من اختلاف في الدلالة والمضمون رغم الترابط البين القائم بينهما فوصلت الى استنباط الصيغة - أو الصيغ - التي أسوقها فيما يلي على سبيل التسلية الفكرية لا كقاعدة يعتمد عليها :

أقول : أن قيام المدن ، ونشأة الحرف والصناعات فيها ، واتفاق سكانها على اصطناع التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وما يتطلبه ذلك من تعبيد الطرق ، واستئناس الماشية والطيور ، وتنظيم الانتاج الصناعي والزراعي ، والمبادلات التجارية ، كل ذلك يعد من الحضارة . ويدخل فيه اختراع الكتابة والرموز وفنون الطباعة ، وصنع الآلات الموسيقية وتجويدها وتنويعها .

أما استعمال اللغة لأغراض الشعر والنثر البياني والتعبير عن الفكر الراقى ، وتأمل ما فى الطبيعة والكون من جمال أو قبح ومشاهدة ظواهرها قصد تفسيرها عقليا أو وجدانيا ، علميا أو فنيا ، عن طريق الفلسفة والعلوم والآداب والموسيقى والنحت والتصوير والفن المعماري ، كل ذلك يعد من الثقافة ، ويدخل فى هذا التزام الجماعات البشرية بأنماط معينة من السلوك الخلقي والاجتماعي الذي يمليه ، فى العادة ، الدين والفلسفة والفنون والآداب التي ينشأ عن شيوعها ورسوخ تعاليمها وإحياءاتها معتقدات وعادات تطبع المجتمع .

باختصار ، كل ما يتصل بالتنظيم الشكلي والتفصيلي لحياة الجماعات البشرية المختلفة ويقيم بينها التعاون وينظم طرق الكسب والمعاش وتوفير الامن والطمأنينة في ظل الشرائع والقوانين والاعراف يمكن عده من الحضارة . وكل ما يستهدف بلوغ الكمال عن طريق المعرفة واستغلال الملكات العقلية والطاقة الروحية والوجدانية ، وما ينشأ عن ذلك من انماط الحياة والسلوك ، فهو ثقافة .

فالحضارة اذن عرض لا جوهر ، وهي مظهر لحياة الجماعات البشرية وميلها الفطري الى الانتظام في مجتمع مدني مستقر . اما الثقافة فهي جوهر كل مسعى بشري يحاول ان يضفي على الحياة معنى ساميا متعاليا بتفسير مظاهرها واحداثها تفسيراً يستلهم المثل الانسانية العليا ويصوغها في قالب جمالي مقبول .

ولعل ما قاله جوهان فون هيردر J. Von Herder من ان « كل انسان يكتسب ثقافة ويسهم فيها ، وليس كل الناس قد ولدوا داخل حضارة او يحملون حضارة » لعل هذا القول يفسر بايجاز وتركيز الفوارق بين مدلول الثقافة والحضارة . ذلك ان الانسان مفكر - خلة وفطرة - وهو مدفوع الى تأمل ما في الطبيعة والكون من ظواهر واسرار ، والى الاعراب عن نفسه بالقول او بالفعل والى مقارنة تجربته الذاتية بتجارب غيره ، فهو بذلك مكتسب للثقافة بالضرورة مشارك فيها بطبعه الاجتماعي . اما الحضارة فانها لا تقوم الا باستقرار الانسان واضطراره الى التعايش مع غيره في مجتمع مدني منظم يتعاون افراده ويتبادلون المنافع ويتوزعون فيما بينهم الاعمال بالاختيار او بالضرورة . من ذلك تنشأ الحضارة وتكون .

لقد سمعنا وقرأنا عن رسوم بديعة حية يتجلى فيها ذوق فني رفيع اكتشفت على جدران بعض المغاور في فرنسا واسبانيا وفي الصحراء الغربية . ان تلك الرسوم التي تعبر بألوان رائعة عن احساس اصحابها وتطلعاتهم الفكرية والوجدانية تعطينا الدليل على ان الرسامين البدائيين الذين ابدعوها في عصر ما قبل التاريخ كان لهم ذوق مهذب وملكة فنية مصقولة ، فهي اذن تعرب عن نوع ثقافتهم دون ان تدل على انهم كانوا ذوي حضارة ومدنية .

تنوع الثقافات :

اعتبر الفيلسوف جون ديوي « أن مشكلة المجتمع المدني هي في أساسها مشكلة تبادل الافكار » ، فاذا اخذنا المجتمع بمعناه الانساني الواسع فاننا نلاحظ أن التبادل الفكري بين الشعوب المختلفة لم ينقطع ابدا . فمنذ اقدم العصور والناس من مختلف الاجناس يتبادلون الافكار عن طريق الفتوح ، والتجارة والسفارات والهجرة الطوعية أو الاختيارية ويعرضون معتقداتهم وماداتهم وأنماط حياتهم كما يعرضون بضائعهم وأزياءهم فيؤثرون في غيرهم ويتأثرون . هكذا انتقلت الكتابة ، والاديان والفلسفات والعلوم والآداب من شعب الى شعب ، ومن اقليم الى آخر .

وبالرغم من أن الامم والاجناس المتباينة قد احتفظ كل منها بقدر معين من الثقافة يميزها وتختص به دون غيرها إلا أن الافكار الكبرى والاتجاهات العظيمة ، دينية كانت أم فلسفية أم علمية أم أدبية وفنية قد انتقلت بالتواتر وتفاعلت بالاحتكاك فتولدت عنها ثقافة انسانية تشترك فيها عطاء واخذا ، جميع شعوب الارض .

لقد لاحظ الفيلسوف المعاصر ، رتشارد ماك كيون « أن انقسام الانسانية الى جماعات مختلفة تحرص كل منها على بعض الافكار وبعض القيم ، وكذلك انقسام الناس حسب الوظيفة الاجتماعية ، يمكن أن يؤدي الى التوتر أو الى التقدم ، ثم ان الاختلاف ، بل حتى الصراع حول الافكار والقيم قد ساعد على تقدم المعارف والفنون والمجتمع » ، هذا الكلام يلخص فكرة هذا الالتقاء الرائع الذي تم ويتم بين شعوب الارض ، عن طريق الائتلاف أو الاختلاف ، التفاهم أو الصراع ، هذا الالتقاء الذي خلف تراثا ثقافيا يتسم بالمشيوع ويصطبغ بالصبغة الانسانية . وهو تراث لم تقو على تبديده تيارات التعصب والاستئثار والاستبداد الفكري الذي ساد في هذه الامة أو تلك في عصر أو في آخر من عصور التاريخ .

ان الحواجز القولاذية أو الخيزرانية التي أرادت أن تضربها بعض الامم للحيلولة دون تبادل الافكار بين سكان الارض لم تكن لتمنع هذه

الافكار من «التسرب» والانتشار ؛ حدث هذا فى العصور التى كان الاستبداد
الاعمى ينصب للعلماء والمفكرين المشانق ويضرم فى اجسامهم واعمالهم
النيران ، وهو يحدث الان فى هذا العصر ، عصر المواصلات السريعة
المذهلة . غير ان الافكار والنظريات والحقائق العلمية تثبت وتنتشر .
وآخر الامثلة على ذلك رواج مؤلفات باسترناك وسولجنتسين فى جميع
انحاء المعمور رغم المنع الذى تعرضت له فى بلاد اصحابها ولم تقو الثورة
الثقافية الصينية الجارفة على ان تحجب عن الناس تعاليم « كونفشيوس »
الانسانية العريقة كما لم يستطع الاستبداد فى عصور سلفت ان يمنع
آراء رجال من امثال الغزالي وكوبرنيك وغاليليو ومونسكيو وفولتير وروسو
من الرواج فى كل مكان واحداث التأثير على الناس وعلى الاتجاهات
الاجتماعية والفكرية .

لقد راجت فكرة الايمان بوجود خالق مدبر للكون دعا اليها انبياء من
البشر منذ عصور لا تعيها الذاكرة ، وانتقلت بين الامم والشعوب معتقدات
عن الخير والشر ، عن الاجر والعقاب ، عن البعث والحياة الاخرى ، كما
ذاعت بين الناس فى مختلف الامصار آراء ومعتقدات عن الكون والطبيعة
واصل الانسان وعلاقته بالقوى المدبرة للعالم فنشأت الفلسفات والفنون ،
والسحر والتنجيم ، وانتشرت الديانات . وقد اخترع الانسان الصور
والرموز ليصبر بها عن افكاره ويترجم بها الوقائع اليومية والاحداث الهامة ،
وما لبث ان تطورت الكتابة وانتشرت . وانتقل الشعر من جماعية الى
جماعية كما انتقلت فنون النحت والزخرفة والتصوير . وما زال ذلك هو
الشأن فى تعانق الثقافات منذ اقدم العصور الى وقتنا هذا . وان الانسانية
لتذكر اليوم بالفخار والتمجيد الوانا وضروبا من ثقافات ما بين النهرين ،
ومصر الفرعونية ، والصين ، والهند ، واثينا ، والاسكندرية ، وبيزنطة ،
وروما ، ودمشق ، وبغداد ، وفاس ، وقرطبة ، والقاهرة ؛ والثقافات التى
ترعرعت فى عصر النهضة التى انبثق عنها تقدم عظيم فى الفنون والآداب
والعلوم والتى احدثت ، بفضل رجالها وبما اخذته عن الثقافة الاسلامية فى
عصور ازدهارها ، اثرها الفعال فى ثقافة العصر الحديث . وقد نشأ عن
هذا الاحتكاك الخلاق - الذى ساهمت فيه الحروب والمبادلات الدبلوماسية
والتجارية ، والرحلات والهجرات ، « واقع ثقافى عالمي » فرض اعتبار

الآثار الفكرية والفنية والادبية والعلمية ثراثا انسانيا مشاعا لا تستأثر به
مالة دون اخرى .

وهكذا فان كثيرا من الآثار الخالدة التي ابدعتها العبقريّة الانسانية
قد فقدت جنسيتها الاصلية وغدت متاعا فكريا وروحيا للناس في كل ارض
يدرسها الدارسون من كل الشعوب ويستلهمها المفكرون والادباء والفنانون
في كل مكان . وقد انتقلت الكنوز الاثرية النفيسة ، والمخطوطات النادرة،
واللوحات العظيمة ، والتماثيل البديعة . انتقلت من امكنتها الاصلية
لتستقر في اشهر المتاحف وخزانات الكتب في مختلف امصار المعمور ،
وتناقلت الاجيال والشعوب المتباينة روائع الالحن الموسيقية . ولاقت
كل هذه الآثار عناية فائقة من الدارسين والمنقبين وذوي المواهب
المبدعة .

ان المثقفين في جميع انحاء العالم لا ينقطعون عن النظر في محتويات
الواح ما بين النهرين ، و « كتاب الموتى » وانشيد اخناتون ، واسفار
الفيدا ، وتأملات بوذا ، وحكم لوتسو ، وتعاليم كونفشيوس ، وكتب
سقراط وارسطو وافلوطين والفارابي وابن سينا والفزالي وابن رشد وابن
طفيل وسان أغسطين وبيكون ورابلية وابن خلدون وتوما الاكوينى ،

وما تزال النحوت البديعية والفنون المعمارية الياقية تلهم القرائح في كل
مكان وتثير اعجاب ملايين الناس من مختلف الاجناس ، اذ يجدون متاعا
روحيا ونفسيا وفكريا في معابد تل العمارنة بأعالي مصر ، ومعابد مونارراك
بالهند وتماثيل بوذا في الصين والكمبودج وبورما واليابان ، ويجدون
نفس الروعة الفنية في مسجد قايت باى بالقاهرة وجامع قرطبة ومسجد
مبات خان بباشاور ، وتستهوئ نفوسهم بنفس القدر نفائس النحت
التجسيمي مثل « الرقصة الكونية لشيغا » و « كاتب صقارة الفرعوني »
و « انتصار ساموثراس » و « عبد ميكيل انجيلو » ، كما تبعث الراحة في
قلوبهم لوحات الخالدين « كجو كوندا » « دي فينشى » و « بوهيمية هالس »
و « طاحونة هويما » و « بيشابي في الحمام » لرامبرانت ، و « حسناء
كوبا » و « مستحمت براكونار » ، و « الحرية تقود الشعب » للدلاكروا .

وتشير الاعمال الم يقية الخالدة أحاسيس الناس وتلهم الكثيرين منهم ، فيذكرون بالاعجاب والنشوة آثار الينوني ، وباخ ، وموتسار ، وهيدن ، وبيتهوفن ، وفيردي وشتراوس ، ولا أتحدث عن المحدثين والمعاصرين من عباقرة الرسم والنحت والموسيقى والغناء .

انه التراث الثقافي المشترك يعيش بين البشر من مختلف الاجناس والالوان والمعتقدات فيسموا بنفوسهم ويبعث فيها الرضا والاطمئنان ، ويفتق فيهم حب المثل العليا ويشيع بينهم الالفة والتعارف ، ويعرفهم بأنفسهم . وتلك هي رسالة الثقافة الحق .

الثقافة ، مؤسسة :

ان تنظيم العلاقات الثقافية الدولية ، بالمفهوم الجديد للكلمة ، قد بدا في اوربا في اواخر القرن التاسع عشر ، اذ نشطت حركة تبادل الافكار والاعمال الفنية والادبية والعلمية ، وبدأت الحكومات تتدخل مباشرة في تنظيم هذا التبادل وتوسيعه . يقول لوى ضولو Louis Dollot في كتابه « العلاقات الثقافية الدولية » : « ان حرب 1914 - 1918 قد نمت هذا الاتجاه وحثت الدول على أن تتولى هي نفسها مسألة العلاقات الثقافية ، وبذلك أحدثت في كثير من الاقطار اجهزة حكومية مختصة بأمور التبادل الثقافي ، وانشأت عصبة الامم المعهد الدولي للتعاون الفكري » الذي افتتح أعماله في باريس سنة 1925 . وتعتبر هذه المؤسسة الثقافية نواة (اليونسكو) أي منظمة التربية والعلوم والثقافة التي تأسست على اثر الاجتماع الذي عقد في لندن في شهر نوفمبر 1945 بحضور ممثلي أربع وأربعين دولة أعلنوا في نهاية اجتماعهم « ان الحروب تنشأ في أفكار الناس ، ففي أفكار الناس يجب ان تقام حصون السلام » ، ان هذا القول الرائع المتسم بمسحة مثالية انما يدل على ارادة رجال الفكر والراي في العالم ورغبتهم في أن تسهم التربية والثقافة والعلوم في تشييد حصون السلام والامن عن طريق التعاون وتبادل الافكار واستكشاف ما في الآثار الانسانية البديعة من

معاني التقارب بين الاجناس ومفازي الحق والخير والجمال لاستلهاما في
ايجاد تيار عالمي للافكار تلتقي عنده الشعوب والامم بعيدة عن التعصب
والاثرة .

عين مديرا عاما لهذه المنظمة في اول نشأتها عالم اديب ذائع الصيت
ثابت النفوذ في عالم الفكر هو جوليان هوكسلي الانجليزي الذي طبع منظمة
التربية والعلوم والثقافة بروحه الوقادة وفكره النير وانسانيته الحية .

وقد سارت هذه المنظمة في الاتجاه الذي رسمته لنفسها متخطية
الصعاب التي اعترضت طريقها في عالم شديد التعقيد ، اقتصاديا
وسياسيا واديلوجيا ، فحققت في المجال الثقافي اعمالا عظيمة على
المستوى العالمي نذكر منها « تاريخ الانسانية » الذي شارك في تأليفه
صفوة علماء التاريخ والحضارة في العالم ، والذي يعتبر معلمة تسجل
التطور العلمي والثقافي الذي حققته الانسانية منذ فجر التاريخ .

ومن الاعمال الثقافية الرائعة التي ساهمت فيها اليونسكو بأكبر
نصيب صيانة آثار النوبة في صعيد مصر ، وانقاذ كنوزها الفنية القيمة
الموزعة بين 23 معبدا ، واقدمت المنظمة على رفع عاديات الزمن
والطبيعة عن معبد يورويودور (أندونيسيا) الذي ينتصب فيه تمثال
عظيم يجسم بوذا وهو في حالة استفراق تألمي يتحد فيه بالزفانا
(الحقيقة السامية) ، كما ساهمت اليونسكو وتساهم في حفظ التراث
الثقافي الانساني وحمايته في السلام والحرب عن طريق اتفاقات دولية
اشرفت المنظمة على وضعها وابعادها ، والتزمت بالسهر على احترامها .

ومن الهيئات الدولية التي تتصل بخدمة الفكر والثقافة من جانب
خاص « المنظمة العالمية للملكية الفكرية » التي يوجد مقرها بجنيف والتي
جعلت من بين اهدافها النهوض بحماية الملكية الفكرية عن طريق التعاون
بين الدول ، وهي بذلك تسهر على تطبيق عهود دولية منها اتفاقية بيرن
لحماية الآثار الادبية والفنية المبرمة سنة 1886 والتي تمت مراجعتها في
باريس سنة 1971 . اما الاتفاق العالمي حول حقوق المؤلف المبرم سنة

1951 والمراجع سنة 1971 ، فهو فى عهدة منظمة التربية والعلوم والثقافة .

هذا وقد أنشأت الدول أقساما للعلاقات الثقافية فى وزارات خارجيتها ، وملحقين أو مستشارين ثقافيين فى سفاراتها بالخارج قصد تنشيط التبادل الفكرى والعلمى على الصعيد الثنائى ، وفتحت الجامعات أبوابها للطلاب الأجانب وازدهرت حركات تبادل الآثار الأدبية والفنية والعلمية بين الأمم ، فانتقلت فرق المسرح والموسيقى والرقص والغناء من قطر إلى آخر ، وخرجت « موناليزا » الباسمة من رواقها المتحفى لتنتقل شرقا وغربا كاشفة عن أسرارها وعن سر عبقرية رسامها الخالد ليوناردو دى فينشي ، وسافر « توت عنخ أمون » من بلاده إلى أقطار أخرى معرّفا بالحضارة المصرية العريقة ، وتسابق المحققون إلى مخابىء المخطوطات النفيسة ونشرها وعرفوا بها وعلقوا عليها ، وتقاطر علماء الآثار على مواطن الحضارات القديمة ينقبون فى أعماق الأرض والبحار عن الكنوز التاريخية الدفينة فى النوبة وفيما بين النهرين وفى بقاع الشرق الأقصى وأمريكا الجنوبية ، وأوشكت « أتلنتا » أن تخرج من حيز الأسطورة إلى عالم الحقيقة الأثرية ؛ وتناقل عباقرة الألحان روائع السمفونيات والأوبرات يجولون بها فى أرجاء المعمور مبشرين بالصفاء الروحي الذي توحى بها الآثار الموسيقية الخالدة . وانشرت فى مختلف متاحف العالم آثار الرسامين والنحاتين الكبار من أمثال فان جوج وسيزان ومونييه ورودان وجياكوميتي وبيكاسو .

وقد عمدت معظم الدول – أمام هذا الانبعاث الثقافي الهائل – إلى أحداث وزارات مختصة بالشؤون الثقافية للإشراف على حفظ التراث وصيانة الآثار الفكرية والفنية والمعمارية والنهوض بحركة الثقافة وتنشيط التبادل فى مضمارها . وبذلك تعددت المعاهدات الثقافية الثنائية بين الدول ، واحتلت القيم الثقافية مكانا بارزا فى سياستها .

وكان من نتائج الالتقاء الرائع بين الأمم على صعيد الثقافة أن اضمحلت الفكرة التي كانت سائدة فى القرن التاسع عشر والتي كانت تعتبر أن

أوروبا وحدها هي مركز الابداع ، وأن « الثقافة » لفظ لا يمكن أن يطلق الا على القيم الفكرية والادبية والفنية الاوربية . وباضمحال هذا الفهم الخاطيء احتلت الثقافات الزنجية والانكية والازتكية والماياوية وثقافات الشعوب الاسيوية مكانها في جوق الامم ، فأحدثت تأثيرها البارز في الآداب والفنون العالمية .

اما الثقافة العربية فقد دخلت بدورها في طور الاحياء والاثراء ، فتأسست مجامع اللغة في دمشق والقاهرة وبغداد لتجديد العربية وتطويرها ، وازدهرت حركة الفكر والادب والفن ، وساهمت الجامعات ومراكز النشر في احياء التراث العربي وشذبه والتعريف به ، ونشطت المبادلات الثقافية بين مختلف البلاد العربية وبرزت الى الوجود منظمة التربية والثقافة والعلوم العربية ، وأخذت لغة الضاد تحتل مكانا عالميا مرموقا بعد ان أصبحت لغة رسمية في اليونسكو ومنظمة التغذية والزراعة، ومنظمة الصحة العالمية ، ومنظمة العمل الدولية ، وغيرها من الهيئات، ونقلت امهات الكتب العربية الى اللغات الاجنبية لا سيما بواسطة اليونسكو التي أخذت على عاتقها نشر روائع الفكر الانساني وساهم المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي الذي يوجد مقره بالرباط مساهمة عظيمة في توحيد المصطلحات العلمية والفنية والقانونية والحضارية ، ووضع المعاجم التي تدعو اليها حاجة العصر .

واحييت الدول العربية تراثها الفني في الموسيقى والغناء والرقص والزخرفة فتعددت بذلك منابع الالهام الثقافي التي تنبثق كلها من القيم العربية التي اثرت ايما تأثير في الثقافة العالمية . واتجه الاهتمام في كل الاقطار العربية الى رعاية المعالم الاثرية التي تزخر بها بلادنا ، مع مواصلة اعمال التنقيب عن كنوز اثرية جديدة في أماكن شهدت التقاء أكبر الحضارات التي عرفها العالم .

لعل ميزة هذا العصر ، أن الثقافة ، كالتربية ، أصبحت حقا لكل الناس ، الذكور منهم والاناث ، لهم ان يستمتعوا بمزاياها الفكرية والوجدانية وأن يساهموا فيها ، وان تتاح لهم فرص متكافئة لتثقيف

مقولهم وتربية احساسهم بالجمال وتهذيب اذواقهم واشاعة الآثار الانسانية الرائعة بينهم بواسطة المتحف والمعرض والكتاب والمسرح وغيرها من مراكز الثقيف .

لقد جاء فى التصريح العالمى لحقوق الانسان : « ان لكل فرد الحق فى ان يشارك بحرية فى الحياة الثقافية للجماعة ، وان يستمتع بالفنون ، وان يسهم فى التقدم العلمى وفيما ينتج عنه من خير ، وان لكل امبرىء الحق فى رعاية المنافع المعنوية والمادية التى تنشأ عن كل انتاج علمى او ادبى او فنى يكون هو صانعه » .

الثقافة ، ثقافتان :

انتقل الآن الى قضية اخرى من قضايا الثقافة تستأثر هي ايضا باهتمام المفكرين فى عدد من الاقطار الشرقية والغربية . وهي قضية الدور الذى يجب ان تلعبه كل من الثقافة العلمية والثقافة الادبية فى حياة الانسان والعلاقة القائمة بين رجال الثقافتين . وهل يجب ان تكون المعرفة التقنية ام العلوم الانسانية او كلاهما اساس التعليم والتربية فى العالم الحديث .

لقد اثارت هذه القضية اهتمام المربين والمفكرين ورجال الادب والعلم ، وكانت موضوع نقاش ودراسة فى بعض المؤتمرات والاجتماعات . وقد وقع حول هذه القضية جدل فكري اثارته محاضرة القاها تشارلز سنو C. Snow - وهو من رجال العلم والادب فى بريطانيا - بجامعة كمبردج سنة 1959 ، واصدر بعدها كتابا بعنوان : « الثقافتان والثورة العلمية » .

وقد بين « سنو (*) » الهوة السحيقة التى تفصل بين ذوي الثقافة

(*) اعتمدت فى هذا الباب على بحثين نشر احدهما فى مجلة (الهلال) المصرية والآخر فى مجلة (اصوات) الانجليزية وعلى كتاب صدر بالفرنسية لتشارلز سنو بعنوان « الثقافتان » Les deux cultures ترجمه كلود نويل C. Noël ونشره جان جاك بوفى J.J. Pauvet سنة 1968 .

التي أساسها العلم ورجال الثقافة القائمة على الآداب والفنون والعلوم الإنسانية بوجه عام فقال : « كل من يتحرك في الأوساط الفكرية العلمية والأدبية يلاحظ أن هناك درجات متفاوتة من التفاهم وعدم التفاهم . واعتقد أن محور ذلك هو الجهل التام بالعلم في بعض تلك الأوساط ، ونظرا لأننا نعيش في هذا الجو ذاته ، فأننا لا ندرك مدى تأثير هذا الجهل في صبغ ثقافتنا التقليدية بطابع لا علمي إلى حد يكاد يكون أحيانا معاديا للعلم وأن لم نعرف نحن بذلك . وإذا كان المستقبل يسيطر على عقول العلماء ، فإن الثقافة التقليدية تستجيب لذلك بأن تمنى أن لا يتحقق هذا المستقبل . وما زالت الثقافة التقليدية هذه التي لم تتأثر كثيرا بظهور الثقافة العلمية ، توجه العالم الغربي » .

وتحدث سنو عن التباعد الموجود بين الفريقين وانعدام الفهم المتبادل بينهما حتى أن الأمر ليصل أحيانا إلى العداء وخاصة بين بعض الشبان . « أن من درس العلم يتحدث بلغة تكاد تكون مختلفة عن تلك التي يتحدث بها طالب الدراسات الإنسانية . فبينما لا يعرف الأول عن روائى شهير مثل تشارلز ديكنز أكثر من اسمه الأ قليلا ، فإن الثاني لا يعرف عن قانون لرموديناكا حتى مجرد اسمه » .

« وكل فئة تحمل في نفسها صورة مشوهة للفئة الأخرى ويرى سنو أن الانفصال بين الثقفتين ضار بالشعوب والمجتمعات ، وأنه ضياع عملي وفكري وأخلاقي » .

وبينما يرى سنو أن التصنيع يجب أن يكون أساس التعليم يرى من تصدوا للرد عليه ، وفي مقدمتهم ليفز ، أن أساس الثقافة هو المعرفة التامة بلغة البلاد وأدبها ، وأن دراسة هاذين الفرعين هو الأساس الوحيد لتنمية الذكاء والوعي .

وليفز يتفق مع سنو فيما يراه من أن مستقبل العالم أساسه التقدم العلمي والتكنولوجي . ويرى أن التقدم الإنساني بسبب هذا سيتم بسرعة مذهلة وإلى درجة تجعل من الضروري أن تكون الإنسانية في كامل وعيها ونبورها العقلي . وأننا تجاه هذا التقدم العلمي التكنولوجي في حاجة إلى تنمية الحواس الإنسانية وإلى الذكاء والقوة المبنية على التجربة ورد

الفعل الانساني تجاه ما يواجهه البشر من تحد . ومن الجدير بالذكر أن سنو قد توقع في كتابه الذي اصدره سنة 1963 ظهور « ثقافة ثالثة » تكون صلة وصل بين الثقافتين الانسانية والعلمية ، ويلتقى عندها رجال الاجتماع والمؤرخون والديمقراطيون وعلماء النفس والمهندسون المعماريون.

ومن الملاحظ أن الهوة التي تفصل بين الثقافتين تكاد تكون عامة في اقطار اوربا وبعض الدول المتقدمة في افريقيا وآسيا . والسبب واضح جلى يكمن في نظم التربية والتعليم التي بقيت جامدة في معظم اقطار اوربا والبلاد التي اخذت عنها هذه النظم .

لقد غيرت المدنية الآلية حياة المجتمعات والافراد ، وحدثت العلوم التكنية اعظم انقلاب في المفاهيم والمقاييس ، وغيّرت اتجاه العالم ، وأصبح العقل العلمى الذى اتاح للانسان سيطرة واسعة على الكون يهدد الانسان باستعباده .

وازاء ذلك ظلت نظم التربية والتعليم جامدة في عدد من الاقطار تستوحى نظريات ومبادئ عتيقة لا تسير الزمن الذى نعيش فيه . وقد أرسل كثير من رجال التربية في الغرب صيحات ينادون باصلاح انظمة التعليم ، وذلك تجاه التقدم السريع الذى يعرفه العالم في مضمار العلوم والتكنولوجيا .

ولعل اكبر نقص يمكن ان يلاحظ في نظم التعليم ، هو التخصص المفرط الذى يسد في وجه الطلاب الثقافة ككل لا يتجزأ ، ويحشو رؤوسهم ويوجه مهاراتهم الذهنية واليدوية للحياة المادية الصرفة ، او يلقيهم العلوم الانسانية وحدها .

وقد قال العالم والمفكر الانجليزي المعاصر (نورث وايتهد) :

« أن ما ينبغي أن نهدف اليه هو اعداد الرجل الذى يجمع بين الثقافة والمعرفة البارة في منحى معين من المذاهب ، فالمعرفة البارة تتيح لذلك الانسان نقطة الانطلاق ، أما ثقافته فهي حرية ان تقوده الى اغوار الفلسفة وان تعرج به الى سماء الفن » .

وقد حدد هذا المفكر الكبير رسالة الجامعة بقوله :

« أن مبرر قيام الجامعات أنها تحفظ الصلة بين المعرفة وتذوق الحياة ، بأن تربط الشباب والكهول في النطاق التخليى للتعلم .

« واننا اذا عززنا خيال الشباب بالتنظيم امكن الاحتفاظ بقوته الى درجة كبيرة طوال العمر » . لذلك « فان كل تربية حقيقية يجب ان تفسح مجالا للثقافة الانسانية الكفيلة باقامة التوازن مع العلوم التقنية وتقوية النظر البعيد عن الغموض القريب من الواقع » .

كما يجب على التربية « أن تعمل — في رأى وايتهايد — على انماء المخيلة والقيم الجمالية الى جانب الفكر » وذلك حتى تتفاسق ملكات الفرد فتتآلف المجتمعات ويزول التباعد الذى يفصل بين طبقات المثقفين من جهة وبينهم وبين سواد الناس من جهة اخرى .



ان الثقافة خير كلها ما قامت على المثل الانسانية المشتركة ، والانسان هو صانع الخير باذن الله ، وهو مصدر الشر اذا زاغ وانحرف . ومسيرة الثقافة فى تعبيرها الروحى والفلسفى والعلمى والادبى والفنى انما هى تلخيص لهذا الصراع بين الخير والشر ، وكلاهما جبلت فى طبع البشر .

محمد العربي الخطابي

الرباط

حماية الإسلام للنسب وموقفه حيال ماقررت في هذا الصدد الشرائع السابقة

د. علي عبد الواسع وافي

وجه الإسلام قسطا كبيرا من عنايته نحو تدعيم نظام الاسرة ، وتخليصها من شوائب الضعف ، واحاطتها بما يكفل لها الصلاح والاستقرار . فلم يغادر اية ناحية من نواحيها الا اقامها على نظم رشيدة ، وقضى على ما كانت تسير عليه الشرائع السابقة له من طرائق معوجة فاسدة في هذا السبيل .

ولما كانت الانساب هي قوام القرابة في الاسرة ودعامة الرابطة بين افرادها ، فقد حرص الاسلام ايما حرص على حمايتها من كل ما يؤدي الى اختلاطها او يوهن حرمتها .

ويبدو حرصه هذا في مواطن كثيرة من اهمها الغاؤه لخمسة نظم فاسدة كانت مقررة في كثير من الشرائع السابقة له ولا تزال مقررة في

كثير من الشرائع الحاضرة ، وهى : نظام التبنى ؛ ونظام الاعتراف بالولد ؛ ونظام الادعاء ؛ ونظام الخلع ؛ ونظام اهدار نسب المرأة بعد زواجها

وسنمقد لكل نظام منها فقرة على حدة ، مبينين موقف الاسلام حياله ، واثار هذا الموقف فى حماية الانساب ، وموازين بين موقفه وموقف الشرائع الاخرى . وسيكون معظم اعتمادنا فى تفاصيل هذه الاحكام على مذهب الامام الاعظم ابى حنيفة النعمان .

— 1 —

نظام التبنى

يجيز هذا النظام للانسان ان يتخذ فردا غير منحدر من صلبه ولدا له ، فيعامل هذا الغريب معاملة اولاده امام المجتمع وامام القانون ، وينعم بحقوقهم ، وتقع عليه اعباؤهم وواجباتهم .

وقد عمل بهذا النظام كثير من الامم فى العصور القديمة والوسطى ، ولا يزال معمولاً به فى كثير من الامم الغربية وغيرها فى العصر الحاضر بشروط واوضاع تختلف باختلاف الامم التى اخذت به . وكان العرب فى الجاهلية يطبقونه فى نطاق واسع ، حتى لقد كان يندر ان تجد من بين سرااتهم واوساطهم من ليس له ولد او اولاد بطريق التبنى . ولقد تبنى الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه قبل رسالته ، جرياً على عادة العرب ، زيد بن حارثة ، مع انه كان معروف الاب والام ، فكان يدعى زيد بن محمد .

ولا يخفى ما يودى اليه نظام التبنى من اختلاط فى الانساب ، وتوهين لحرمة القرابة ، واضعاف لوشائج الدم ، وانفساد لمقومات الاسرة ، واثارة لعوامل الفتنة والضعف ، واضرام لنار الشقاق والنزاع بين العشائر والاسرات .

ولذلك حرمة الاسلام تحريما باتا ، وانكره القرآن في عبارات قوية تتم على شدة تعارضه مع الدعائم السليمة التي ينبغى أن يقوم عليها نظام الاسرة الانسانية . وفي هذا يقول الله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . . وما جعل ادعياءكم ابناءكم » والادعياء هم الذين كان الناس يتخذونهم اولادا بطريق التبني « ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهdy السبيل . ادعوهم لأبائهم هو اقسط عند الله » اي اعدل عند الله « فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم » (1)

وبهذا النص الكريم الغى الاسلام التبني الغاء باتا ، فان نسب اولاد التبني كلهم الى آبائهم الحقيقيين ؛ أما الذين كانوا لا يعرف لهم اباء فاكتفوا بنسب الاسلام وصاروا اخوة وموالي للمسلمين . وفي هذا يقول عبد الله بن عمر « ما كنا ندعو زيد بن حارثة الا زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : « ادعوهم لأبائهم هو اقسط عند الله » فدعونا عند ذلك زيد بن حارثة » .

وجاءت احاديث الرسول متوعة من ينتسب الى غير ابيه بأشد عقاب يوم القيامة ؛ بل ان بعضها يجعل هذا الانتساب ضربا من ضروب الكفر . وفي هذا يقول عليه السلام : « من ادعى الى غير ابيه ، وهو يعلم أنه غير ابيه ، فالجنة عليه حرام » ؛ وفي حديث آخر : « ليس من رجل ادعى الى غير ابيه وهو يعلم الا كفر » .

ولحرص الاسلام على القضاء على هذا النظام وازالة جميع آثاره ، ولقوة تأصله في نفوس العرب ، لم يكتف الاسلام بالغائه بالقول ، بل رأى كذلك ان يقضى عليه بطريق عملي وبفعل الرسول نفسه ، فأوحى الله تعالى الى نبيه أن يتزوج زينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة الذي كان الرسول عليه السلام قد تبناه قبل الرسالة ، ليسبب للناس بطريق عملي انه لا تبني في الاسلام وان الدين الجديد قضى على هذه القرابة المصطنعة ، ومحا جميع آثارها ، وأحل ما كانت تحرمه ، ومن ذلك زواج الرجل بمطلقة من تبناه ، وذلك ان العرب في الجاهلية ، لانزالهم المتبني (بفتح النون) منزلة الابن من جميع الوجوه ، كانوا يحرمون على من تبناه ان

(1) آيتي 4 ، 5 من سورة الاحزاب .

يتزوج بمطلقة ، كما يحرم على الاب الزواج بمطلقة ابنه من صلبه ، فجاء زواج الرسول عليه السلام بمطلقة زيد بن حارثة تقريراً عملياً لالغاء هذا النظام وما يترتب عليه . وقد ذكر القرآن هذا السبب بصريح العبارة اذ يقول : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا » (2) . ولتوكيد هذا الحكم يقول الله تعالى في الآية التي بين فيها من يحرم الزواج بهن : « حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت . . . وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم » اي ان الابناء الذين يحرم على الآباء الزواج بمطلقاتهم هم الذين ينحدرون من اصلابهم لا الذين يجيئون عن طريق الادعاء والتبني الذي قضى عليه الاسلام .

هذا ، ويلاحظ أن ثم فرقا جوهريا بين التبني الذي نتحدث عنه والاقرار بالابوة الذي يعتمد عليه الفقه الاسلامي ويعتبره دليلاً على ثبوت الابوة للمقر والبنوة للمقر له . وذلك ان الاقرار بالابوة معناه ان يعترف شخص بأبوته لشخص آخر ، أي بأن هذا الشخص الآخر قد جاء من صلبه . ففي هذه الحالة تثبت القرابة بينهما على الوجه الذي اقر به ، ويترتب عليها ما يرتبه الشرع على هذه القرابة من حقوق وواجبات ، على شرط الا يقوم دليل على بطلان اقراره ولا يلقي اعتراضاً من المقر له ولا من غيره ، وان يكون الفرق بين سنيهما يجعل ابوة المقر للمقر له ممكنة من الناحية الطبيعية ، او كما يقول الفقهاء ان يكون ممن يولد مثله لمثله ، وان يكون المقر له غير معروف له نسب آخر (3) . على حين ان التبني معناه ان يتخذ انسان فرداً غير منحدر من صلبه ولداً له مع اعترافه بأنه غير منحدر من صلبه .

ويذلل الاسلام وسائل الاعتراف بالابوة في حالة اللقيط بوجه خاص ، فيقرر أن نسبه يلتحق بمن التقطه اذا اقر بأبوته له ، اي اعترف بأنه ولده جاء من صلبه ، او يلتحق بأي شخص آخر يعترف بذلك اذا لم يدعه

(2) آية 37 من سورة الاحزاب .

(3) انظر ص 198 وتوابعها من الجزء السادس وصفحة 223 وتوابعها من الجزء السابع من كتاب « بدائع الصنائع » للكاساني ، في فقه أبي حنيفة .

الملتقط لنفسه . واذا اعترف الملتقط ببنوته واعترف بها كذلك شخص آخر فان الملتقط يكون اولى به ، وذلك على شرط ان يكون اللقيط غير معروف النسب وان يكون ممن يولد مثله لمثل من اعترف بأبوته له ، فيصبح اللقيط بعد هذا الاعتراف من اولاد المعترف ، ويعامل معاملتهم من جميع الوجوه .

ويلحق باللقيط كل شخص غير معروف النسب ، فان الاسلام يذل كذلك وسائل الاعتراف ببنوته ويقرها بالشروط السابق ذكرها .

وقد قصد الاسلام بذلك ان يشجع الناس على حماية اللقطاء ومجهولي النسب وان يحقق لهؤلاء واولئك من رعاية الاسرة ، والفة القرابة ، والتنشئة الصالحة ، والحقوق المدنية ، ما لا يمكن ان يتحقق لامثالهم بدون هذا الاجراء .

— 2 —

نظام الاعتراف بالولد

يقتضى هذا النظام الا يلتحق نسب الولد بأبيه الشرعى الا اذا اعترف به اعترافا صريحا ورضى ان يلتحق نسبه به . وكان هذا النظام سائدا عند كثير من الامم في العصور القديمة .

فعند قدماء الرومان مثلا كان اذا ولد لعميد الاسرة او لاحد ابنائه ولد من زوجته الشرعية وجب تقديمه للعميد ، وذلك بأن يوضع على عتبة حجرته ، فان قام وضمه الى صدره كان ذلك اعترافا منه ببنوته ، وان تركه ملقى على العتبة اعتبر اجنبيا عيه وعن أسرته (4) .

وكذلك كان شأن العرب في الجاهلية ، فكانت البنوة في كثير من عشائهم لا تثبت لمن يجيء من الزوجة الشرعية الا باعتراف صريح من

(4) انظر كتابنا « الاسرة والمجتمع » الطبعة السادسة صفحات 9 - 14 .

الزوج (5) . وكانوا اذا شكوا في مولود استفتوا اصنامهم في حقيقته . قال ابن الكلبي في كتابه « الاصنام » في اثناء كلامه عن هبل : « وكان لتريش اصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان اعظمها عندهم هبل ، وكان فيما بلغنى من عتيق احمر على صورة الانسان ، مكسور اليد اليمنى ، ادركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب ، وكان اول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، وكان يقال له هبل خزيمة . وكان في جوف الكعبة قدماه سبعة اقداح مكتوب في اولها « صريح » وفي الآخر « ملصق » فاذا شكوا في مولود اهدوا له (اى لهبل) هدية ، ثم ضربوا بالقداح ، فان خرج « صريح » الحقوه ، وان خرج « ملصق » دفعوه . »

ولا يخفى ما ينطوى عليه هذا النظام من استهانة بحرمة الزواج ، واستخفاف بميثاقه ، واستبداد بشئون الاسرة ، واخضاعها لاهواء الازواج ونزواتهم ، واضطراب في الانساب ، ونيل من كرامة الزوجات ، وتعريض الاولاد للضياع ، وحرمانهم من اعز حقوق الانسان والزمها للحياة ، وتفرقة ظالمة بين الاخوة والاخوات ، وزلزلة عنيفة لدعائم النظام العائلى ومقوماته على العموم .

ولذلك حارب الاسلام هذا النظام في جميع مظاهره ، ولم يأل جهدا في القضاء عليه ، وقرر أن « الولد للفراش » (6) ، أى ان من يجيء من الاولاد ثمرة لفراش شرعى يلتحق نسبه بالزوج من غير حاجة الى اعترافه به اعترافا صريحا ، واخذت الشريعة الاسلامية بهذا المبدأ حتى في الحالات التى يبدو فيها تعذر اتصال الزوج بزوجه ، كما اذا عقد مشرقى على مغربية وظل كل منهما مقيما في بلده ، ولم يعرف بين الناس اتصاله بها ، ثم جاءت الزوجة بولد بعد انقضاء مدة الحمل ، فانه يثبت نسبه من الزوج بدون حاجة الى اعترافه به اعترافا صريحا (7) .

(5) المرجع السابق .

(6) هذا نص حديث شريف .

(7) انظر ص 332 من الجزء الثاني من كتاب « بدائع الصنائع » للكاساني .

ولا يقيم الاسلام في ذلك وزنا لمظاهر الوراثة وآراء الخبراء في شئونها . فكل ولد يولد على فراش صحيح مشروع يلحق الاسلام نسبه بالزوج صاحب هذا الفراش بقطع النظر عن قوانين الوراثة ومبلغ شبهه بالزوج ، اذ من المحتمل أن يكون قد انتقل اليه بعض صفات كانت موجودة في جد قديم من اجداده ولم تكن ظاهرة في ابيه ، وانما كانت مستكنة فيه . وقد اخرج البخاري في صحيحه قال : « حدثنا يحيى بن قزعة حدثنا مالك عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن ابي هريرة ان رجلا اتى النبي عليه السلام فقال : يا رسول الله . ولد لي غلام اسود (اى ان لونه مغاير للون ابيه وهو لذلك يشك انه قد جاء من مائه) فقال عليه السلام هل لك من ابل ؟ قال نعم . قال ما الوانها ؟ قال حمر ، قال هل فيها من اوراق (اى لونه كلون الرماد) ؟ قال نعم ، قال فأنى ذلك ؟ قال لعله نزع عرق ، قال فلعل ابنك هذا نزع عرق « (8) . وتعنى عبارة « لعله نزع عرق » انه من المحتمل ان يكون قد ورث هذه الصفة من جد قديم من اجداده ، وذلك ان الفرع قد ينتقل اليه بطريق الوراثة بعض صفات كانت ظاهرة في احد اجداده ، من جهة الاب او الام من الدرجة الاولى او من الدرجات التالية لها ، ولم تكن ظاهرة في اصله المباشر ، وان كانت موجودة لديه في صورة مستكنة (9) . ولا يخفى ما يدل عليه هذا الحديث على ما كان للرسول عليه السلام من حذق في هذه الشئون ، واسلوب حكيم في الاقتناع .

وقد حدث ان جارية كانت ملكا لزمنة صهر الرسول عليه السلام (والد سودة بنت زمعة زوج الرسول) قد جاءت بولد بعد وفاة سيدها فتنازعه اثنان : احدهما عبد بن زمعة (اخو سودة) الذي قرر ان يـهـ اخوه ، لان الجارية كانت ملكا لابيه وفراشا له ، والآخر سعد بن ابي وقاص الذي ذهب الى انه ابن اخيه عتبة بن ابي وقاص ، لان عتبة قد اعترف له قبل موته بأنه قد اتصل بهذه الجارية وانها علقت منه بحملها هذا ، وطلب اليه ان يضمه اليه بعد وفاته بوصفه ابن اخيه ، ورفع

(8) انظر صحيح البخاري في باب اللعان واذا عرض بنفي الولد .

(9) انظر كتابنا « الوراثة والبيئة » الطبعة الثانية ص 43 ، 44 .

أمرهما إلى الرسول عليه السلام . فنظر عليه السلام إلى الولد فإذا هو من الناحية الوراثية أشبه الناس بعتبة بن أبي وقاص ، ولكنه مع ذلك حكم به لعبد بن زمعة ، لأنه ولد على فراش أبيه ، والقاعدة الإسلامية أن « الولد للفراش » كما تقدم .

وقد استثنت الشريعة الإسلامية من ذلك حالة ما إذا ثبت لدى الزوج أن زوجته قد خانت أمانته وعلقت من غيره أو جاءت بولد من غيره ، ووجه إليها هذا الاتهام صراحة ، ورفعت الزوجة أمرها للقضاء لتقذفه أياها ، أو رفع هو أمره للقضاء ، ولم يكن له على ادعائه شهداء تثبت بشهادتهم جريمة الزنا على الزوجة . ففي هذه الحالة يجرى القاضي بينهما الملاعة المبينة إجراءاتها وصيغها في أول سورة النور ، فيطلب إليه أن يقسم أربعة أيمان يقول في كل يمين منها أقسم بالله أني لـ من الصادقين فيما رميتها به ، ويقول في الخامسة لعنة الله عليه أن كان من الكاذبين . ثم تشهد المرأة بعده لنفسها أربع مرات كذلك تقول في كل مرة منها أشهد بالله أنه لمن الكاذبين فيما رماني به ، وتقول في الخامسة غضب الله عليها أن كان من الصادقين . وفي هذا يقول الله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله أنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه أن كان من الكاذبين . ويدرا عنها العذاب (أي يدرا أنها عقوبة الزنا) أن تشهد أربع شهادات بالله أنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها أن كان من الصادقين » (10) . — وبعد أن يحلف كلاهما هذه الأيمان المغلظة ، ويجرى بينهما هذا الإجراء الذي يسميه الفقهاء « الملاعة » لوجود كلمة « اللعنة » في شهادة الرجل ، يفرق القاضي بينهما ، ويعتبر الولد الذي أجريت بسببه هذه الخصومة أجنبيا عن الزوج ويلحق بأمه وحدها .

وان تأملا يسيرا في هذا الإجراء ، وما يحيط به من مراسم وطقوس ، وفي صيغ الأيمان المغلظة التي يحلفها الزوج وتكرارها عدة مرات ، أن

(10) آيات 6 - 9 من سورة النور .

تأملنا يسيرا في هذا كله لكاف في الدلالة على أن الاسلام ينظر الى هذه الحالة على انها حالة استثنائية شاذة لا يجوز للزوج أن يلجأ اليها الا عند الضرورة القصوى ، حينما يقوم لديه الدليل القاطع على صدق دعواه ، ومن ثم يمكن اعتبار هذا الاجراء نفسه وسيلة لحماية الانساب وتخليصها من شوائب الريبة .

هذا الى أن الاسلام قد اعطى الزوجة في هذه الحالة فرصة لتبرئة نفسها ولتكذيب زوجها فيما اتهمها به ، ولدرء العقوبة عنها ؛ وذلك بأن تقسم الايمان الخمسة المبينة فيما سبق ، فينتهي الامر في نتائج العملية الى اعتبار كل منهما صادقا فيما يتعلق بمسئولياته والتزاماته ، فلا يلحق الولد بالزوج ، ولكن لا تعد الزوجة آثمة ولا توقع عليها عقوبة ما ، واذا قذفها أحد بالزنا او قذف ولدها بأنه ابن زنا فانه يقام عليه حد القذف ، فيجلد ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة أبدا ، عملا بقوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، واولئك هم الفاسقون » (11) .

وتسرى هذه الاحكام جميعها حتى لو ظهر كذب المرأة بحسب قوانين الوراثة . فقد أجرى الرسول عليه السلام ملاعنة بين هلال بن أمية وزوجته التي رماها بالزنا وقرر أنه رآها متلبسة به مع شريك (12) بن سحماء ، وهذا هو أول حادث ملاعنة في الاسلام ، وهو الذي نزلت بشأنه الآيات السابقة ذكرها . وبعد أن اقسما ايمان الملاعنة المبينة آنفا ، فرق الرسول بينهما ، وقضى ألا يدعى ولدها لاب ، والا يرمى بأنه ابن زنا ، ولا ترمى هي بالزنا ، لان ايمانها قد درأت عنها وعن ولدها هذه التهمة ، وان من رماها او رمى ولدها بذلك يقام عليه حد القذف . ولكن الرسول عليه السلام قد عقب على ذلك فقال : « انظروها : فان جاءت به اصبهب اثبيح حمش الساقين فهو لهلال ، وان جاءت به اورق جعدا جماليا خدلج الساقين سابغ الاليتين فهو لشريك بن سحماء (الذي

(11) آية 4 من سورة النور .

(12) في معجم المصباح المنير في مادة « شرك » : « وباسم الفاعل وهو شريك سمي ، ومنه شريك بن سحماء الذي قذف به هلال بن أمية امراته » .

رماها به زوجها) (13) ، فجاءت به متوافرة فيه هذه الاوصاف الاخيرة .
فقال صلى الله عليه وسلم : « لولا ايمانها لكان لى ولها شأن » (يقصد
الايمان التى حلفتها ان زوجها كاذب فيما رماها به والتى درات عنها
تهمة الزنا وما يترتب عليها) .

وفى هذا كله اقوى دليل على حرص الاسلام على حماية الاعراض
والانساب وحسن توفيقه بين هذين الغرضين عند تعارضهما .

— 3 ، 4 —

نظام الادعاء ونظام الخلع

اما نظام الادعاء فانه يبيح لعميد الاسرة ان يضم اليها فردا غريبا
عنها ، فيصبح عضوا فيها له ما لبقية اعضائها من حقوق وعليه ما عليهم
من واجبات ؛ واما نظام الخلع (بفتح الخاء) فانه يبيح له ان يخلع احد
اعضائها الاصليين عن ذمتها ويقطع صلتها به ، فيصبح « خليعا »
اجنبيا عنها من جميع الوجوه .

وقد اقرت هذين النظامين امم كثيرة فى العصور القديمة والوسطى
بشروط واوضاع تختلف باختلاف اتجاهاتها فى التشريع .

فقد كان لعميد الاسرة الرومانية Pater Familias الحق فى ان
يدخل فيها من يشاء بطريق الادعاء ، فيصبح من ادخله عضوا فى أسرته ،
له ما لافرادها من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات ، وكان له الحق

(13) الصهب محرقة حمرة أو شقرة فى الشعر ، فهو أصهب ، وأصيهب فى الحديث
تصغير أصهب ، والشج بفتحيتين ما بين الكاهل الى الظهر ، والأثيج العريض الشج أو
الناتئ ، والأثيج فى الحديث تصغيره . وحمش الساقين دقيقهما . والجعد من الشعر
خلاف السبط أو القصير . والاورق ما كان لونه كلون الرماد ، ورجل جمالي بضم
الجيم وكسر اللام وتشديد الياء عظيم الخلق أو طويل الجسم . والخدلج بفتح الخاء
والدال وتشديد اللام المفتوحة الممتلىء الذراعين والساقين .

كذلك فى أن يخرج منها من يشاء فىصبح اجنبيا عنها ، بل يفقد صفة المواطن الرومانى ، ويصبح « خليعا » اذا لم يتح له الالتحاق بأسرة اخرى .

ونم يكن ادعاء العميد ملزما له الى الابد ، بل كان فى استطاعته ان يرجع عن اعترافه بصدد احد الاعضاء ، فيخرج من يشاء عن نطاق الاسرة ، بأن يبيعه بيع الرقيق او يقبل انضمامه الى اسرة اخرى عن طريق ادعائها له ، او يتبرا منه ولا تقبل اسرة اخرى انضمامه اليها ، فىصبح خليعا لا اسرة له .

وكذلك كان الشأن فى الاسرة اليونانية ، فكان « لجمع العصابة » فى كل عشيرة الحق فى أن يدخل فى العشيرة من يشاء بطريق « الادعاء » ، ويخرج منها من يشاء بطريق « الخلع » على غرار ما كان متبعيا فى الاسرة الرومانية .

وكان العرب فى الجاهلية يطبقون كذلك نظامي « الادعاء » و « الخلع » فى اوسع نطاق ، وكانوا يلجئون الى نظام الخلع فى الغالب لمجازاة احد افراد العشيرة لخصال او اعمال تتعارض مع عرفها او نظمها او آدابها او عقائدها ، فاذا وقع عليه هذا الجزاء اصبح خليعا غريبا عن عشيرته ، لا تعده من افرادها ، فلا تؤخذ بجرائر اعماله ، ولا تتأثر له اذا قتل . وقد طلب كفار قريش الذين ضاقوا ذرعا بمحمد عليه السلام وبدينه الجديد الى عمه ابي طالب ان يخلعه على اساس نظامهم هذا ، حتى يستطيعوا قتله بدون أن يخشوا مطالبة بنى هاشم بثأره . ولكن ابا طالب مع عدم ايمانه بالدين الجديد لم يذعن لرغبتهم حفاظا منه على حقوق الرحم ، ولانه لم يعهد فى ابن اخيه من الخصال الا ما يشرف به بطن بنى هاشم . فعرضوا عليه أن يتنازلوا له عن احد ابنائهم يضمه الى أسرته على أن يتنازل لهم عن محمد ويسلمه لهم على طريق الادعاء والخلع المتبادلين ، فرد عليهم بهذه الاجابة الرشيدة : « لبئس الصفقة التى تعرضونها على : تعطونى ابنكم لاطعمه واربيه وارعاه ؛ على أن تأخذوا ابنى لتقتلوه !! » .

ولا يخفى ما يؤدي اليه نظاما « الادعاء » و « الخلع » من اختلاط في الانساب ، وتوهين لحرمة القرابة ، واضعاف لوشائج الرحم والدم ، وافساد لمقومات الاسرة ، واثارة لعوامل الفتنة والضعف ، واضرام لنار الشقاق والنزاع بين العشائر والاسرات ؛ ولذلك حرهما الاسلام تحريما باتا ، وقرر ان القرابة ليست هبة تمنح ولا رداء يخلع ، وليست خاضعة لارادة الناس ولا لاهوائهم ، وانما هي وشيجة دم لا يلقاها من لم يعطها له منبته ، وعروة وثقى تنبعث عن لحمه النسب ولا تنقسم عن ارتبط بها .

ولم تستثن الشريعة الاسلامية من ذلك الا حالتين : اوجبت في احدهما قرابة غير قائمة على صلات الدم ؛ واجازت في الاخرى هذه القرابة ؛ مراعية في هذه وتلك صالح الافراد والصالح العام .

(اما احدهما) فتتمثل في نظام « مولى العتق » وهو الذى يصبح بمقتضاه العبد بعد عتقه عضوا في اسرة سيده السابق ، يشترك مع افرادها في كثير من حقوقهم وواجباتهم ، حتى لقد كان يجب عليها ان تدفع عنه الدية اذا ارتكب جناية توجب الدية على اسرة الجاني ، كما تفعل حيال اعضاءها الاصليين ؛ وكان سيده السابق يرثه اذا مات ولم يترك عسبة ؛ ويصبح اهلا لجميع الوظائف والمناصب التى يمكن ان يتولاها احد افراد الاسرة ، حتى ارقى منصب فى الدولة وهو منصب الخلافة نفسه . وفى هذا يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « مولى كل قوم منهم » ، ويقول عمر بن الخطاب حينما طلب اليه فى مرض موته أن يرشح احدا لتولى الخلافة من بعده : « لو كان سالم مولى ابى حذيفة حيا لوليته » . وسالم هذا كان رقيقا لابي حذيفة القرشى ، وقد أصبح بعد عتقه فردا من افراد اسرة ابى حذيفة ، واصبح بذلك اهلا لجميع المناصب التى يرشح لها حر قرشى حتى منصب الخلافة نفسه (14) .

(14) انظر كتابنا « الحرية فى الاسلام » صفحتي 55 ، 56 .

وقد قصد الاسلام من ذلك الى غرض انساني سام وهدف عظيم نبيل ، وهو ان يكمل نعمة الحرية للعبد بعد تحرره ، فيجعله مساويا في الحقوق والواجبات لافراد الاسرة التي كانت تملكه ، ويجعل له من هذه الاسرة درعا تحمى حرите الطارئة ، وتدرا عنه ما عسى ان يوجه اليه من عدوان ، ويسبغ عليه فوق هذا وذاك صفة من اهم الصفات الاجتماعية التي يمتاز بها الحر عن العبد ، اذ يعد الاول عضوا في اسرة وعشيرة ، بينما يعد الثاني فردا لا اسرة له ولا عشيرة .

(واما الاخرى) فتتمثل في نظام « مولى الموالاة » . وذلك ان الشريعة الاسلامية تجيز لغير العربي اذا كان مجهول النسب ان يتخذ له وليا من اسرة عربية معروفة يرتبط معه بعقد صريح ، فيصبح بمنزلة عضو في اسرة هذا الولي ، يدفع عنه الولي الدية اذا ارتكب جناية توجب الدية ، ويرثه اذا مات ولم يترك وارثا ، ويسمى من يكتسب القرابة عن طريق هذا العقد « مولى الموالاة » .

وقد قصد الاسلام من هذه الرخصة ان يحقق للمستضعفين من الناس سندا وحماية في المجتمع الذي يعيشون فيه ، ولذلك لم ييجها الا لشخص غير عربي مجهول النسب ؛ لان العربي ليس في حاجة الى هذه الحماية ، فهو محمى بعشيرته ؛ وذو النسب المعروف من غير العرب ليس في حاجة اليها كذلك ، لانه في ظلال اسرته ، وانتماؤه لغيرها يؤدي الى اختلاط الانساب واضطراب الاسس التي يقوم عليها نظام القرابة .

ويلاحظ ان ثم فرقا جوهريا بين ادعاء الغريب الذي حرمه الاسلام والاقرار بالنسب الذي يعتمده الفقه الاسلامي ، ويعتبره دليلا على ثبوت القرابة . وذلك ان الاقرار بالنسب معناه ان يعترف شخص ان آخر اخ له مثلا ، ولا يقوم دليل على بطلان اقراره ، ولا يلقي اعتراضا من المقر له ولا من غيره ، ويكون المقر له مجهول النسب من قبل . ففي هذه الحالة تثبت القرابة بينهما على الوجه الذي اقر به ، ويترتب عليها جميع

ما يرتبه الشرع على القرابة من حقوق وواجبات (15) . وذلك كما فعل معاوية اذ اقر بأخوة زياد ، وهذا مظهر من حرص الاسلام على حماية الانساب ، وحفاظه على روابط الرحم ووشائج القرابة ، على حين ان ادعاء الغريب الذى حرمة الاسلام واقترته شرائع اخرى معناه ان يضم رئيس الاسرة الى افرادها شخصا اجنبيا عنها مع اعترافه بأنه لا تربطه به اية رابطة من روابط الدم ، فيكتسب هذا الغريب قرابة قانونية عن طريق هذا الادعاء .

— 5 —

حماية الاسلام لنسب المرأة المتزوجة

يقرر الاسلام ان نسب المرأة لا يناله تغيير ما بعد زواجها . فتظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها ونسبها الاصلى ، ولا تحمل اسم زوجها مهما كانت مكانة هذا الزوج . فزوجات الرسول عليه الصلاة والسلام اتفنسن كن يسمين بأسمائهن واسماء آبائهن وينتمين الى عشائرن الاصلية ؛ فكان يقال عائشة بنت ابي بكر وكانت تنسب الى تيم عشيرة أبيها ، وحفصة بنت عمر وكانت تنسب الى عدى رهط عمر . . . وماكن يحملن اسم زوجهن ولا ينتسبن الى هاشم رهط النبى ، مع انهن كن زوجات لخير خلق الله .

ويظهر سمو هذا التشريع ومدى حمايته للانساب بالموازنة بينه وبين كثير من الشرائع التى تهدر نسب المرأة بعد زواجها ، فتجردها من اسمها واسم أسرتها وتحملها اسم زوجها واسم أسرته ، وعلى هذا النظام سار كثير من الامم فى العصور القديمة وبخاصة اليونان والرومان ؛ ولا تزال الامم الغربية تسير على هذا النظام الجائر الى الوقت الحاضر .

د . على عبد الواحد وافي

الرباط

(15) انظر ص 228 من الجزء السابع من كتاب « بدائع الصنائع » للكاساني .

مخطبات الفتح الإسلامي في المغرب*

عبد العزيز ابن عبد الله

سوف لا أتحدث في هذا العرض الوجيز عن الآثار المغربية ((العادية)) antiques إلا من زاوية واحدة كمدخل الى الفن الاسلامي في المغرب العربي ، فقد بنى الفينيقيون في عام واحد (حوالي سنة 1101 ق م) مدينتين في كل من تونس والمغرب الاقصى يعتبران اقدم حاضرتين في هذا الجزء من العالم وهما أوتييك Utique قرب تونس وليكسوس (1) Lixus قرب العرائش ثم في عام 814 ق م مدينة Carthage اي قرية حداث

(*) خلاصة محاضرة القاها الكاتب في المؤتمر السابع للآثار الذي انعقد بمدينة العين بدولة الامارات العربية المتحدة في 16 و 17 دجنبر 1974 .
(1) ليكسوس : تقع على مسافة اربعة كلمترات شمالي العرائش على الضفة اليمنى لنهر اللكوس وهي فينيقية الاصل احتلها الرومان واقاموا بالقرب منها ضريح هرقل وهي معروفة عند المؤرخين بمدينة الشمس او تشميس التي يقال بان حدائق هسبيريدس ذات الفواكه الذهبية موجودة بها على خلاف ما يراه آخرون من وجودها في الجزر الخالدات وهي الجزر ((السعيدة)) السبع التي احتلها الاسبان في القرن الخامس عشر ، ويرى علماء الآثار ان هذه المدينة تحتوي على كنوز فنية لا تقدر لذلك اولى المسؤولين من الاثريين هذه الحاضرة الازلية عناية خاصة . وقد عثر على البناء الفينيقي في الطبقة السفلى على عمق بضعة امتار وفوقه البناء الروماني على طبقتين اعلاها المدينة الامبراطورية ثم طبقة اخيرة يظهر انها راجعة لصدر الاسلام نظرا للعثور فيها على قطع خزفية عربية ملونة ومنقوشة بحروف كوفية علاوة على بقايا مسجد بمحرابه وفنائه ، اما النماذج الاثرية القديمة فهي اوان من الفخار تطور صنعها فدهنت ايام الفينيقيين باللون الاحمر وكذلك قناديل متنوعة ، كما عثر على بقايا دور بونيقية مبنية من الحجارة تحتوي على غرف مستطيلة كالفرف المغربية الحالية وارضها مبلطة بالسيفساء المرمرى ، وهذه المدينة التي تنقسم الى عدة احياء كل حي بسوره الخاص تعتبر (هي ومدينة شالة) المدينتين الوحيدتين الواقعتين في مركز بحري هام وكانت مستودعاتها الفنية تستعمل لحفظ الحبوب والزيت .

أو القرية الحديثة بالبونية ، ومعنى ذلك ان انطلاق الفن المعماري المغربي القديم نفسه كان من الشرق ، ويتبلور ذلك فى الحجارة التى عثر عليها أخيرا فى البرازيل وهى مكتوبة بالبونية وتحمل تاريخ 125 ق م . ويتبين من مقارنتها باللغة العربية أنها هى نفس اللهجة العامية التى لا تزال تستعمل بتونس وباقي المغرب العربي الى الآن ، ومعنى ذلك أن الفكر الشرقي العربي بمعاله اللسنية والاثرية والفنية قد دخل الى المغرب العربي قبل الاسلام بنحو أربعة عشر قرنا .

وقد قامت أول مملكة عربية صميمة فى مدينة ((تكور)) الواقعة بالريف على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وذلك فى عصر الوليد الأموي وغزا الاسلام منذ العقود الأولى للفتح قلوب صنهاجة وغمارة فاتجهت الجهود الى بناء رباط يحتوى على مسجد بمرافقه يستوحى تصميمه الهندسي من جامع الإسكندرية ، وكان الأسلوب المعماري بسيطا تبعا للفن الشرقي الاسلامي الذي كان لا يزال اذ ذاك فى فجر انبثاقه ، فجامع عمرو ابن العاص (عامل مصر) مثلا خال من كل زخرفة وتنميق كالقريصة والتنقيش الخشبي والمرمرى وسائر العناصر المعمارية الدقيقة التى امتاز بها الفن العربي فى العصور التالية .

ومن هذا الطراز مسجد اغمات غيلانة الذي أسس عام 85 هـ حسب ما يذكره ابن عذارى فى كتابه (المغرب) والذي يظهر أنه أول مسجد بناه المسلمون بالمغرب بعد ان حولت المعابد التى بناها المشركون الى مساجد وجعلت المنابر فى مساجد الجماعات وبدأت افريقيا تتطور روحيا وفنيا على نسق الشرق الاسلامي .

وقد أمسى المغرب منذ القرن السابع الميلادي عبارة عن مرحلة فى الطريق الكبرى التى تصل الهند بجبل ((البرانس)) باسبانيا والتى يطررها علاوة على رسل الخلفاء وسفرائهم ثلة من الحجاج والطلبة والفنانين والتجار فلا يسعنا والحالة هذه أن نستنهين بآثار عهد الاسلام المستديمة والمنبعثة بواسطة هذه المسالك ، ومن أبرز مظاهر هذا الاشعاع الفني انبثاق

مساجد وجوامع تتسم بطابع عربي أصيل وتوجد خاصة بإفريقية العناصر الأولية للفن الإسلامي ، فمدينة القيروان هي أول حاضرة أسسها العرب بعد فتح عقبة بن نافع الفهري ، وقد برزت في القرن الثاني الهجري أهمية هذه المدينة التي أصبحت عاصمة المغرب الإسلامي في عهد عبيد الله بن الحبحاب باني الجامع ودار الصناعة بتونس عام 116 هـ والذي استعمل على طنجة العاهل عمر بن عبد الله المرادي وتم ذلك في أواخر عهد الأمويين وأوائل العصر العباسي حيث بدأ الإسلام يتغلغل في الفياضي الإفريقية . وقد احتفظ المغرب مع ذلك بسمة خاصة نظرا لكون العباسيين لم يملكوا ما وراء الزاب .

وفي نفس الوقت تأسست دولة الأغالبة وبني رستم في كل من إفريقية والمغرب الأوسط وتركز الإدارة بالمغرب الأقصى .

ويمكن أن نعتبر مدينة فاس أول مركز عربي تفتق في البلاد المغربية وأصبح بعد ذلك - حسب كويتي - مظهر إعجاز في ميدان التكيف بالطابع الشرقي . ذلك أن الفن اتخذ مناهج جديدة منذ العصر الأموي في كل من الشرق الأدنى والمغرب العربي بفضل مرونة وحساسية العرب ومداركهم الإبداعية ، فهناك عوامل حدثت العرب في الأندلس والمغرب وكذلك بمصر إلى الاستيحاء في زخارفهم من معطيات الهندسة ، وهذه العوامل هي إهمالهم للأشكال والصور المستمدة من الطبيعة وتعمقهم في دراسة الرياضيات وسعة مواهبهم وأذواقهم .

وقد تبلور هذا الاتجاه مع مرور الأعصار وتنهبت أطرافه ووقت حواشيه وتنمقت معالمه .

فظهر العباسيين بالشرق قد حدا فلول الأمويين إلى تأسيس مملكة اتخذوا لها قرطبة حاضرة ما لبثت أن أصبحت مهدا لمدينة جديدة ترعرعت مجالها الخصبة طوال قرنين ونصف قرن مسفرة عن فترة زاهرة في تاريخ الفن الإسلامي .

ورغم احتكاك القبائل العربية المستقرة بالاندلس واستفحال حركة التمرد بانضمام البرابرة وتدخل المسيحيين لم يتوقف ازدهار الفنون ، وقد نتج عن حركة الربيضيين الثورية التي شبت في ربض قرطبة بعد تأسيس فاس - هجره عائلات اندلسية من مختلف الطبقات الى خارج الاندلس وقد استفادت حاضرة المغرب الادريسية من الافواج القرطبية التي توافدت للاستيطان بها فكان لهؤلاء اثرهم في توجيه الحركة الفكرية والمآثر الفنية الا ان الاستقرار السياسي الذي استتب في عهد الناصر والحكم الثاني قد فتح المجال في وجه الادباء والشعراء والفنانين فاقامت دعائم نهضة فنية جديدة تجلت معالمها الرائعة في البنايات التي تنافست العناصر المختلفة من سكان الاندلس في وضع أسسها مما أدى الى تأصيل نواة وصفت فيما بعد بالفن الاندلسي المغربي .

فهذه المعطيات الاولية للفن الاندلسي التي تجمعت في روائع قرطبة كالجامع الكبير والقصر ومدينتي الزهراء والزاهرة قد انضافت اليها عناصر فنية مقتبسة من مدارس طليطلة واشبيلية وغرناطة حيث توجد مثلاً في قصر الحمراء قوالب بسيطة من الجبس ما زالت تغالب الحدثان الى الآن .

وفي هذا المزيج الفني برز العنصر الشرقي في الآثار الشامية والفارسية والبيزنطية ، فكما سبق للوليد الاموي أن استعان بامبراطور الاستانة لاستقدام فنانين في الفسيفساء من أجل ترخيم جوامع دمشق والمدينة والقدس فكذلك اتجه الحكم نحو الامبراطور الروماني للحصول على خبراء في هذا الجانب من الفن البيزنطي ، وقد اكتسب العمال الاندلسيون مهارة في الابتكار تجاوزوا بها معلمهم .

وقد كان لروح التبادل التي سادت بين الشرق والغرب بعد قيام الدولة الاموية في الاندلس اثرها العميق في طبع أبسط المعالم في الحضارة المغربية الاندلسية ، اذ لا يعزب عن الالذهان ان زرياب وهو من ابرع مغني الشرق قد هاجر الى قرطبة فاصبح - كما يلاحظ دوزي - مشرع اسبانيا العربية حيث حقق ثورة جنرية في الازياء ، وكل هذا أضفى على الحضارة الاندلسية طابعا خاصا من الروعة والرواء وازدهرت في عهد عبد الرحمن

الناصر جميع مرافق المدنية من فلاحه وصناعة وتجارة وفنون وعلوم مما ساعد حضارة اسبانيا المسلمة على احتلال المكانة الاولى بالنسبة لدول الغرب ويشهد كثير من مؤرخي الفكر باوربا ان القرن العاشر الميلادي وهو عصر النهضة الناصرية - يعتبر من ابهى واذهى عصور اسبانيا العريضة سواء فى الفنون أو المؤسسات العلمية والناصر الاموي هذا هو الذي وسع جامع القرويين بعد بنائه بقرن مضافا بصورة رسمية على مدينة فاس اول طابع فني اندلسي وقد ازدهرت هذه الحضارة الى ان أصبحت بعد ذلك بقليل منافسة لدار السلام بغداد الرشيدية .

وقد كان لفاس أثرها القوي حتى فى افريقيا وبذلك امسى مهد علماء الاسلام بافريقيا تابعا لمدرسة الغرب الاسلامي فاس الادريسية ويرجع فضل هذه النهضة الى المولى ادريس الثاني الذي امد حاضرة العلم بأولى مؤسساتها ، فالفن بالمغرب وفى غيره من الدول الاسلامية هو من متبنيات الامراء والملوك الذين يعنون بالآداب والفنون الجميلة ويشجعون الكتاب والفنانين متحملين بذلك تكاليف مادية باهضة ، ففي الاندلس بلغت مصاريف بناء القصور وزخرفتها فى عهد الملوك الامويين الاول ثلث الميزانية العامة للدولة وكان المهندسون المعماريون والنحاتون والرسامون يشتغلون ترضية لحاجيات الامير ونواذعه السياسية ونقعا لقلته الدينية وتلبية لاتجاهاته الزخرفية ، وعندما كانت الاضطرابات تستتب وتحتدم كان الفن يتوقف وينتكس لان ازدهاره منوط بثروة الدولة وشخصية الامير .

كل ذلك جعل تطور الفنون معلقا على الظروف والملابسات التاريخية ومدى ثراء البلاد فى الحقل المادي ، وقد استمرت هذه التقاليد الفنية بالمغرب خلال العصور التالية وحتى عقب انحلال المملكة الادريسية فى القرن الثالث الهجري ، ظل كبار الامراء يؤسسون من الشمال الى الجنوب حواضر صفرى تنافس حاضرة فاس فى اقتباس مظاهر الحضارة الاسلامية ونشر معالمها الرائعة .

ويظهر ان الحياة الحضرية كان لا باس بازدهارها آنذاك نظرا لوفرة الحواضر التي اندرس معظمها ، وقد ترك لنا كل من البكري والادريسي

اسماء مجموعة من المدن اندثرت الآن معالمها وهي مجهولة في الخرائط ، وقد هدم البرغواطي يونس بن الياس وحده 387 مدينة حسب زعم بعض المؤرخين ، وتهمنا هذه الحواضر وتلك المؤسسات من عدة وجوه لان الفن في كل قطر مظهر لامجاده وصورة حية لروائه ، فما أثر من الآثار العمرانية الا ويمكن أن تنطوي زخارفه ونقوشه على اسرار من شأنها أن تلقي يوما ما ضوءا جديدا على المجالات التي ظلت غامضة في تاريخ البلاد، فالدراسات الاثرية تكون احيانا اضمن وسيلة للتحري والتصحيح وهي عنصر جوهري في كل حضارة .

المرابطون والفن

ان احتكاك العناصر السلالية في الاندلس قد احتد وعجل ذلك بسقوط الخلافة الاموية مما أدى الى قيام نحو العشرين من ملوك الطوائف أبرزهم المعتمد بن عباد امير اشبيلية الذي اتسم بلاطه بروعة خلافة وكان مجمعا للعلماء والادباء ورجال الفن غير أن الزحف الاسباني استفحل فاستنجد مسلمو الاندلس بزعيم الدولة المرابطية يوسف بن تاشفين الذي عمل على توحيد الاندلس تحت راية الاسلام ومنذ ذلك العصر أصبحت الاندلس مقاطعة مرابطية عرف فيها الفن خلال جيلين مظهرا جديدا من الروعة والازدهار .

وقد لوحظ أن المرابطين الذين ورثوا ملك الامويين وحكموا العدوتين كانوا صلة وصل بين اسبانيا والبربر حيث نما التبادل بين شقي مملكتهم ، واذا كانت اسبانيا اذ ذاك قد خضعت سياسيا للمغرب فان المغرب كان اقلية فنيا اندلسيا حيث استقدم يوسف صناعا قرطبيين لبناء مؤسسات بفاس بينما استفاد ابنه علي من مواهب مهندسي العدو لاقامة قنطرة تأسست مثلا في مدخل حاضرة مراكش ، وبفضل هؤلاء الغزاة الصحراويين فرض الفن الاندلسي روائعه على المغرب .

وقد وسع المرابطون جنباث ((جامع القرويين)) المؤسس عام 245هـ على الشكل الذي ما زال عليه الى الان كما يتجلى ذلك من الوصف الوارد

فى القرطاس وزهرة الآس ، وقد بنى جامع القرويين طبقا لتصميم اصيل فصيحونه موازية للقبلة على غرار مسجد الشرفاء الذى بناه المولى ادرىس بناس وكذلك جامع ابن طولون بالقاهرة وجامعى بعلبك بدمشق .

وينبغى أن نؤكد هنا أن على بن تاشفين فاق والده كثيرا ، فىكفى أن نذكر أن معظم أروقة جامع القرويين زاهرة بروائع الفن الاندلسى المقتبس طبق الأصل من الفن الاندلسى بما كان ينطوي عليه فى القرن الخامس الهجرى من رقة ورشاقة وروعة وزخرف ، فاسهام المرابطين فى الفن كان مهما لا يخلو من تجديد ، فالفنان لا يمكن أن يستسيغ ويقتبس إلا ما تمكن تقريبا من الكشف عنه ولنا على ذلك دليل قوى فى النفوذ الشامخ الذى بسطه المرابطون فى الاندلس وافريقيا وذلك فى العمل البناء الذى حققوه فى هذا الجزء من المغرب الاسلامى ، وقد لوحظ عن حق أن افامة المرابطين لصروح أكبر امبراطورية أسست فى العالم حيث امتدت من الاندلس الى جزر البليار الى نهر النيل (النيجر) لتتم لدى الفاتح عن تفتح مدارك قوية .

وعلى ذكر المرابطين والفن أرى من اللازم الإشارة الى موقف أحد علماء الآثار الاجانب من أحد مآثر المرابطين فهؤلاء العلماء - وأغلبهم مستشرقون - بقدر ما نقدر دراساتهم وأبحاثهم بقدر ما يتحتم علينا إعادة النظر فيما وصلوا اليه من نتائج للتأكد من صحتها ، وفى خصوص جامعة القرويين التى هى أقدم جامعة فى العالم بعد جامعة الزيتونة وقبل جامعة الأزهر ، زعم ((مارسى)) فى كتابه الذى صدر عام 1927 م حول الفن المعماري أن ما توهمه ابن ابى زرع صاحب ((القرطاس)) من وجود ترخيمات مرابطية رائعة فى احدى قباب جامع القرويين إنما يستهدف تغطية ((الفراغ)) الفنى عند المرابطين وقد فند هذا الزعم عمليا نتائج الحفريات التى قام بها المغرب عام 1952 حيث برزت هذه الترخيمات والتجسيصات أروع وأجمل مما وصفه صاحب القرطاس ، ولكن هذا لم يمنع ((مارسى)) من الاحتفاظ برأيه فيما بعد ذلك بسنتين عام 1954 فى كتابه حول الفن الاسلامى ، وهو مظهر اما للجهل أو التجاهل أو الغفلة المدانة فى جانب علمى لا يغتفر فيه أى نزوع مهما يكن ولو عن حسن نية .

تطور الفن فى عهد الموحدين

وبعد انهيار الدولة المرابطية اعتلى اريكة العرش زعيم المصامدة الموحدين المهدي بن تومرت المنحدر من الاطلس الكبير ثم خلفه عبد المومن بن علي الكومي الذي وصفه بعض المؤرخين الاجانب بأنه اعظم شخصية بدون منازع طوال القرون الوسطى البربرية اذ هو قائد حربي نظامي حقق للمرة الاولى فى تاريخ افريقيا الشمالية اعجوبة باستلام الحكم فى مجموع الاقطار الممتدة من المحيط الاطلسي الى طرابلس الغرب .

وهكذا فان الموحدين الذين ركزوا للمرة الاولى وحدة الاسلام السياسية من حدود قشتالة الى ليبيا قد ساهموا فى تأصيل نوع من التوحيد بين عناصر الفن الاسلامي فى المغرب .

وقد استمر نفوذ الموحدين ازيد من نصف قرن ، كان لهم فى غضونهم اعمق الاثر فى عدوة الاندلس المترامية الاطراف . فانتصار يعقوب المنصور فى الاندلس قد اضى على الفن طابعا خاصا وحقق - بتساوق مع مدرسة القيروان - التجانس الفني بين الشرق والغرب ، ذلك أن المغرب تمكن عن طريق الاندلس من الاتصال بعالم جديد متأثر بالعناصر المصرية والعراقية ، وقد احتل الموحدون فى تاريخ الفن الاسلامي مكانة مرموقة تفوق ما كان للمرابطين فى هذا الحقل ، وذلك بالرغم من معارضة المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية لبعض مظاهر هذا الفن كالموسيقى والسماع والزخارف والنقوش ، غير أن البلاط الموحيدي ما لبث ان تلاآت فى ربوعه مجالي الفن أيام عبد المومن الذي اضى رواء على مساجلات الشعراء كما اقام العمارات الرائعة وازداد الفن روعة فى عهد ولده يوسف الذي زخر بلاطه بالاطباء والفلاسفة امثال ابن رشد وابن طفيل وبني زهر .

وكان ابن يوسف هذا يقطن فى اشبيلية التي زخر فيها المعماري بابهي واروع مما زين به حاضرة مراكش ، اما ولده يعقوب المنصور فان بدائعه الفنية تشهد بأنه اروع بناء فى العصر الموحيدي حيث تبدو الهندسة المعمارية الموحدية فى اجلى واجل معالمها فى مساجد مراكش وحسان (بالرباط) ومرصد الخالدة Geraldina باشبيلية ، وقد اكد كل من « طيراس »

و « باسي » ان الكتبية بمراكش اجمل معبد اقامته الخلافة الاسلامية في المغرب وانه يعادل في جنة اسلويه روائع الجامع الكبير بقرطبة والانطباع التي ترتسم في نفس الزائر لهذا المسجد هي الروعة والتأثير البليغ ، ذلك ان مساجد الموحدين اكمل واروع المساجد الاسلامية فهي عبارة عن خميلة من الاساطين تتجلى في غصونها جلالة الصحن والاروقة الممتدة بين الاعمدة والحنايا وصفاء الاقواس في رسومها المتناهية والجناس الاخاذ بين الصحن المركزي والصحن الجانبية باقواسها المقریصة وقبتها البديعة وسقفها الخشبية السامقة تتلأأ في منتهى الصحن الذي تخيم عليه أشعة خافتة وضاءة تنعكس من الترخيمات الناعمة وفصوص العاج المصفرة في تضاريس المنبر ولعمان الفسيفساء بحيث تنبثق عن هذه المجموعة المعمارية الخلافة عظمة تجمع بين الوداعة والنعومة ، فجامع قرطبة رغم سمعته لا يتسم بنفس الطابع من التجانس والتناسق في حين ان جامع « الكتبية » يشكل متحفا حيا للاعمدة الموحدية التي ينيف عندها على الاربعمائة والتي ما زالت تحتفظ باصالتها المتجلية في عبقرية الفنان الاندلسي الموحدي ومهارة يده الصانع وقد اكتسى بناء رؤوس الاعمدة غلالة من الخصب الذي لا ينضب معينه ولم يسبق له نظير في الغرب الاسلامي ، ولن يسمح الزمان بمثله .

اما منبر الكتبية فقد تحدث عنه ابن مرزوق في مسنده فاشار الى ما اكده اهل الفن من جودة واتقان ترصيع منبري جامع قرطبة ومسجد الكتبية في حين ان المشاركة لا علم لهم في نظره بفن النقش على الخشب برقة واناقة ، ويرجع تاريخ صنع هذا المنبر الى عبد المومن بن علي .

ويرى كل من طيراس وباسي ان هذا المنبر هو اجمل منبر في الغرب الاسلامي بل أبهى واروع منبر في العالم الاسلامي اجمع ، وما زال قائم الذات الى عصرنا هذا في الكتبية ، الا ان بعض اجزائه تميل الى التناهي ، وقد تعرض (ميلي) في كتابه عن الموحدين (ص128) الى المنارات او الصوامع الثلاث فذكر ان قيمتها لا تتركز على ضخامتها وتوازنها فحسب بل أيضا على فخامة هندامها ونسبها الوافية بمقتضيات الاناقة مع بساطة في الزخرف والنقش واصالة في النوق الذي يحرق بها ويحويها دون مساس

بوحدة هذه المجموعة التي تسري في معالمها آثار السلطان المؤسس لها محيي الملة والدين وحمي التقاليد بل مدغم الاسلام في ربوع المغرب .

وقد بنى ابو يعقوب الموحدى القناطر ومعاير المياه مبرهنا بذلك عن اهتمام نادر بالصالح العام ، وقد أسس ولده المنصور منارات وقناطر وحفر مطافىء واقام الملاجىء فى الفلوات من سوس الاقصى الى سويقة ابن مذكود فى حدود طرابلس .

ولم يعثر على أي أثر للمدارس أو المرستانات التي اشار اليها صاحبها ((القرطاس)) و ((المعجب)) ويظهر ان المستشفى الذي بناه يوسف بمراكش فى القسم المنبسط من المدينة كان يتسم بطابع عصري ، وقد وصف ((ميلي)) هذا المارستان ملاحظا انه ((يخلف وراءه مصحات اوربا المسيحية وتخجل منه حتى اليوم (أي عام 1926) مستشفيات باريز)) .

نعم عرف فن الزخرفة الاندلسي المغربي - نظرا لزهده وتقشف عبد المومن وخلفائه - نوعا من البساطة حدث فناني الاندلس الى الاجتهاد لضمان خطوط الزخارف وفحواها وبذلك قويت حاسة الاتقان وسما الكيف والقيمة لا سيما مع توفر الوسائل وكفالة النرائع المادية التي لم يسبق للفن الاندلسي أن عرف نظيرا لها منذ ازدهار مملكة قرطبة ، فقامت المؤسسات الضخمة وعجلت المجموعات الفنية الموحدية بمراكش واشبيلية والرباط بانثاق الاساليب الكلاسيكية للفن الاسباني المغربي ، وقد تبلورت فى هذا العصر فى مجموع انحاء المملكة حضارة يانعة مؤتلفة المعالم انعكست أشعتها الخلافة على الحياة المدنية وحتى فى بعض مظاهر حياة البادية ، فاجتمعت فى الهندسة المعمارية رغبة فى ضمان جودة الكيف مع حاسة العظمة واستعملت أساليب آلية مقتبسة من ((علم الحيل)) لانجاز التصميمات الهندسية ، وقد لاحظ الاستاذ ((اندري جوليان)) ان الحضارة الاندلسية اتسمت اذ ذاك بطابع رائع صادف ازدهار النظام الذي حققه الموحدون ، وبذلك أخذ كل واحد حظه من الاشعاع الحضاري وامتد ذلك طوال القرون التالية حيث تغلفت مدينة حق كثرة للمبادئ وثقافة فكرية اخاذة فى أعماق الجبال المغربية ، وقد أكد الاستاذ ((روبير

مونطاني « هذه الانطباعة عندما وصف المعالم التي تشهد بمدى اسهام الانتصارات الموحدية فى نشر الحضارة بالنواحي الاطلسية التي لم يسبق للعناصر الاجنبية ان تسربت الى حواجزها المنيعة .

((فقصبة الاوداية)) مثلا برباط الفتح محاطة بسور سواء على طول نهر ابي رقراق ام تجاه المحيط الاطلسي ونحو السهل البربري ، وينفذ الزائر اليها من ثلاثة ابواب نشير خاصة الى الباب الكبير الذي تحتوي طبقة الارضية على قاعات متداخلة تعلوها حنايا جانبية فى نفس الاحجام مقببة ومطللة بمناجد Pendentifs شبيهة بالجواهر المنظومة .

ويلاحظ ان انعدام الملاط المقوى Béton قد يثير الدهشة بالنسبة للعصر الموحدى الذي امتازت فيه الهندسة العسكرية بالاستعاضة عن الحجارة بهذا الملاط لا سيما وان الابواب الاخرى لمدينة الرباط تغايرها تماما من حيث مادة البناء ، وقد اظهر النحاتون براعة فى نقش بابي القصبة وهو نحت ثرى منوع فى صلب الحجر على مستويات عديدة تتخلله خطوط هندسية تحدد مختلف الاقسام وتحيط كتابات الخط الكوفي بالمشتبكات Entrelacs وبافاريز الزخرف السعفي Frise de palmette فتبرز فيها كل العناصر الفنية التقليدية من خطوط هندسية وحنايا متفتحة وافاريز واشرطة كتابية واقواس مفصصة Arcs lobés (اي ذات قوسيات طبقا للفن الاندلسي المغربي) واقواس حدوية Outrepassés (اي شبيهة بحدوة الفرس او نعله) وتتجلى التخطيطات الكوفية فى اروع مظاهرها وهي اجمل انواع الخطوط واوفقها للنقوش المعمارية ، ولذلك كانت تشكل احد المجالي البارزة فى الفن الاندلسي ، اما الرسوم النورية او الزهرية فانها تشغل ايضا فى هذه النقوش حيزا واسعا كما يوجد رسم فى شكل حية قائمة على ذنبها انطلاقا من الاقواس المفصصة فى الوجهين معا ، ويتوافر هذا النوع من الرسم فى الابواب الموحدية الكبرى كباب كناوة (مراکش) وباب الرواح (الرباط) والملاحظ ايضا ان الرسوم السعفية (اي التي تتخذ اشكال سعف النخيل) تعتبر من العناصر الكلاسيكية فى الترخيمات الموحدية ، وهي موجودة فى جميع الابواب المومنية الا انها ابرز وأوسع فى باب القصبة خاصة فى الوجه الخارجى للباب وهي من المقتبسات الراجعة الى الفن القوطي .

وبالرغم عن ثراء النقوش من حيث الاشكال والتقاسيم فانها تظل واضحة المظهر خفيفة المس دون أي غلو ولا تشعيب بخلاف ما سيمتاز به الفن في عهد بني مرين من تكثف ووفرة ، وهناك تناسب بين الترخيم في مختلف اجزاء الهيكل العام يتسم بالآوة والرشاقة معا بحيث لم يتخلف الموحدون في ذلك عن تقاليد الفن الاسلامي شرقا وغربا .

اما السور الموحدى الذي أسسه يعقوب المنصور بالرباط فما زال - رغم مرور نحو من ثمانية قرون على تأسيسه - قوي اللعائم عدا قمته التي تفتت عناصرها ، وهو مبني من الملاط المقوى Béton الذي يحتوى على الثلث من الكلس بينما لا تتعدى نسبة الجير عادة السدس او الثمن ، ومعلوم ان الملاط الموحدى هو أقوى الملاطات اذ يشتمل في بعض المواضع على آجر مدكوك في شكل ((طابية)) وعلى حصيات صغيرة قد لف بعضها ببعض فاصبحت كالحجارة في صلابتها لا ينال منها المعول الا قليلا ، وقد غالبت اسافل السور جوارف المطر ، اما عرض السور فيبلغ احيانا مترين اثنين ونصف متر قد عبت فوقها طريق مشرفة للحراسة يدعمها حاجز منيع يقل ارتفاعه عن المتر الواحد في حين يصل علو السور الى ازيد من عشرة امتار ، ويمكن ان نلاحظ اليوم وجود اربعة وسبعين برجا سبعة منها تمتد من ((برج الصراط)) في الطريق الغربي الى ((باب العلو)) وتسعة الى ((باب الاحد)) وخمسة وعشرون الى ((باب الرواح)) وسبعة على طول ((تكتة الحرس الملكي)) واربعة وعشرون الى الجهة المارة من ((باب زعير)) والمطلة على ابي رقراق قرب ما كان يسمى بالمنزه .

ومن هذا الوصف الموجز يتضح ان ابواب السور الموحدى بالرباط لها ميزات مشتركة تتجلى في وجود منعرجات ونواتئ ضخمة وسلسلة من القاعات المتوازية احداها مكشوفة يحتوي داخل كل منها على غرف صغيرة لسكنى الحرس او خزن الاسلحة وهي تشكل مع ذلك مراكز دفاعية هامة تعززها الانعراجات المختلفة غير الموجودة في الحصون الاندلسية .

المرينيون والفن الاندلسي المغربي

وفي عام 610 هـ انبثقت من الصحراء قبيلة بني مرين التي قامت بحملة واسعة في كثير من الاقاليم المغربية التي كانت تحت الحكم

الموحدى وكانت حدود المغرب قبيل ذلك بعقود من السنين تمتد من
السوس الاقصى الى طرابلس ، الا أن الحفصيين (وهم من سلالة الشيخ
مهر الهنتاتي صاحب ابن تومرت) الذين كانوا يحكمون افريقية باسم
الموحدين ، اقتطعوا لانفسهم مملكة منفصلة عن المغرب ، وفى عام 625 هـ
اسس محمد بن يوسف بن هود باسم العباسيين امارة بالاندلس ما لبث ان
استولى عليها بعد اربع سنوات الامير محمد بن يوسف بن الاحمر الذي
انصاع لامير تونس وبذلك توالى الضربات على المملكة الموحدية فال امرها
الى الانهيار على اثر احتلال المرينيين لمدينة فاس عام 645 هـ .

وقد ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران فى عهد بني مرين الذين
اصبحوا اقوى ملوك افريقيا الشمالية اذ بالرغم من محتدم الصحراوي
فانهم استطاعوا - بفضل اتصالهم المزدوج ببني نصر ورثة الحضارة
الاندلسية وبالموحدين - التكيف والانسياق فى مجرى الحضارة تبعاً
للمقتضيات المدنية مع استمداد من معطيات الفكر الاسلامي والمجالي
الطريقة فى التجديد ، وقد تبلور اتجاههم فى اقامة المدارس المحصنة
والمساجد وقياب الاضرحة والفنادق المزخرفة والمدارس الفخمة التي
اضفت على المغرب المريني طابعا خاصا من الروعة والبهاء .

وقد اتسمت حركة المرينيين المعمارية بطابع ديني فى كثير من
الاحايين حيث اقاموا مجموعة رائعة من المساجد والزوايا فى تازة ووجدة
وتلمسان وفاس والمنصورة (قرب سبتة) وطنجة وسلا ومكناس ومراكش،
كما اقيمت معابد حول اضرحة الملوك مثل مقابر المرينيين فى شالة ، وفى
شالة ذاتها اسسوا الزاوية التي تعبد فيها الشاعر الوزير ابن الخطيب
السلاماني والتي اضافها ابو الحسن الى جناح الاضرحة بهذه المدينة
الاثرية وهي بساحتها الداخلية وصهريجها واروقتها وغرفها اشبه بمعهد
تنجلى فيه نفس المعالم الزخرفية المدرسية كالترخيم والنقش والزليج
والفسيفساء والتبليط المرمرى .

وتعتبر المدارس المرينية مساكن للطلبة ومركزا لدراساتهم التي كانت
تتابع فى المساجد القريبة منها ، واحيانا كانت المدرسة نفسها تحتوى

على مسجد صغير بمحراجه ومنارته ، وقد رسم التصميم العام لهذه المدرسة المغربية منذ القرن الخامس فهناك صحن تقوم في جوانبه الثلاثة سلسلة من البيوت ، وفي الجانب الرابع قاعة للعبادة ، وتقوم في الطابق الاول في بعض الاحايين مجموعات اربع من الغرف تشرف على الصحن الداخلي .

وقد أسست أول مدرسة مرينية عام 670 هـ بأمر من أبي يوسف وهي تحتوي على مسجد ومنارة وهي المؤسسة الوحيدة التي يرجع تاريخ تأسيسها الى هذا القرن .

وفي القرن التالي أقيمت مجموعة من المدارس منها مدرسة فاس الجديد عام 720 هـ ، ومدرسة ((السباعيين)) (الصغرى) ثم أخيرا المدرسة ((المصباحية)) . وقد بنيت هذه المدارس بأمر من أبي الحسن الذي زود بالمدارس كبريات مدن المغربيين الاقصى والاوسط (تازة ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وانفا وازمور وآسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير والعباد بتلمسان وعاصمة الجزائر) .

ومن المساجد التي ما زالت قائمة برباط الفتح ممثلة الفن المريني ((الجامع الكبير)) الواقع قرب شالة والذي جدد في عهد مولاي الحسن الاول سنة 1299 هـ (1882 م) .

تلك بعض المظاهر الجوهرية التي يمكن ان تستخلص منها صورة عن الفن المريني الذي بدأت تتبلور فيه مجالي الازدواج بين الطابعين الاندلسي والمغربي في شكل جديد سمي بالفن الاسباني الموريسكي . Art hispano-mauresque وبالرغم عن التأثيرات الاندلسية التي وسمت هذا الفن فانه اصطبغ بسمة خاصة اذ عوضا عما كان يذكي المهندس الاندلسي من رغبة في تحقيق التوازن بين القوى في المعالم المعمارية هدف المهندس المغربي الى ضمان متانة الهيكل بالاضافة الى ما كان يشعر به من حاجة الى مزيد من الزخرفة والتنميق وهذا هو الطابع العام الذي يتسم به مجموع الفن الاسلامي من تسميات ناتئة ومقريصات وتلوينات علاوة على روعة الهدام ورغما عما يتسم به هذا الفن المعماري

الذي بلغ في العصر المريني أوج عنفوانه من ايفال في التوريق والتسطير والنقش مع قلة توازن بين الاجزاء وعدم جودة المواد ، فان المجموع ظل واضح المعالم متوازي النسب تتجانس نقوشه تجانسا رثعا ضمن الحيز الذي يملأه ، وهذا بالاضافة الى ما انطوت عليه الالوان من دقة وجناس كاملين ، وقد أشيع الفن المريني شرقا وغربا بثروته التي لا تضاهي وروعته الطريقة الاصيلية ، فكان فنا اندلسيا مقريبا تتناسق عناصره في العدوتين .

وهذا التناسق الفني يرجع الفضل فيه الى نشاط المهندسين الاندلسي الذي كان تأثيره ملحوظا في مجموع المآثر المعمارية ، وكان للفنانين والمنتجين المغاربة صيت رائع وحظوة لا بأس بها حتى في الشرق ، غير ان درجة النضج التي بلغها هذا الفن كانت تنطوي على عناصر انهياره ، فقد استنفد كثيرا من قواه منذ عهد أبي الحسن وحال قيام الفتن دون تحقيق اعمال عمرانية كبرى بعد ذلك .

وهكذا نرى انه اذا كان الفن قد استطاع الصمود في نهاية العهد المريني فما ذلك الا بفضل العناصر الاندلسية التي هاجرت الى المغرب بحيث اصبح المغاربة منذ عهد الوطاسيين عالة في كثير من الفنون والحرف على الاندلس ، ومع ذلك فان الفن المغربي الذي نشطت مقوماته العمرانية ظل محتفظا بجودته رغما عن انعدام الفخامة في مجاليه ، ذلك ان وفرة الزخرفة وثرائها وروعتها انتظمت في اطار من الوضوح والدقة لا غبار عليه ، وكان المجهود الفني الذي بذله المرينيون قد تقلص - كما يقول طيراس - في الوقت الذي انبهرت قوتهم العسكرية .

كيف تبلور الفن في العصور الاخيرة ؟

١ - السعديون :

اتخذ تدخل السعديين صورة ثورة ضد عجز الوطاسيين عن ايقاف حملات المسيحيين وهبوب الاسبان لغزو المغرب بعد سقوط المعقل

العربية فى الاندلس ، وقد تم احتلال سبتة عام 818 هـ فثارت نائرة الامة
المفريية وطاف دعاة الجهاد فى القبائل يحدون الناس الى مقاومة المفير،
وقد تركزت هذه الحركة التحريرية حول مراكز اقليمية للتجمع وهى
الزوايا ، واستغل الشرفاء السعديون الموقف فترعموا هذه الفورة
الشعبية ونصبوا انفسهم قوادا للثورة التى لم تنتظم الا بعد ان تمكن
البرتغاليون من غزو كبريات المدن الساحلية التى احاطوها بأسوار عتيقة
وجهزوها بحصون وأبراج واقاموا فيها مستودعات للماء (مطافىء) .

وقد عرف السعديون كيف يوجهون هذا الحماس الشعبى الرائع
الذى كان يعززه العلماء والصوفية فأخرجوا العدو من أكادير وآسفى
وازمور واصيلا والقصر الصغير ، وكللت سلسلة الانتصارات هذه بهزيمة
شنعاء منى بها البرتغاليون فى معركة « وادي المخازن » التى فقدت
البرتغال بعدها استقلالها السياسى طوال اثنتين وستين سنة ، واندرج
المغرب بفضل انتصاره الفذ فى صف الدول العظمى وأصبحت تخطب وده
بلاطات أوربا وتسعى فى الخطوة بمعونته وتأييده ، وقد أثرت الدولة بما
دره عليها ذهب السودان وافتكاك الاسرى البرتغاليين ، فاتجهت نحو بناء
مؤسسات معمارية كقصر « البديع » الذى وصفه « اليفرنى » ملاحظا ان
السبب الذى حمل المنصور على انفاق جلائل الاموال ونفائس الذخائر
لبناء البديع هو الحصول على ماثرة وشفوف على المرابطين والموحدين
ومن بعدهم ، وقد استغرق العمل فيه المدة المتراوحة بين سنة 986 هـ
و 1002 هـ ، وجلب الصناع الافرنج كما جلب له الرخام من ايطاليا فكان
يشترىه منهم بالسكر وزنا بوزن وكان هذا القصر عبارة عن دار مربعة
الشكل فى كل جهة منها قبة رائقة الهيئة تحف بها مصانع من قباب
وقصور ودور . . . وفيها الرخام المجزع والمرمر الابيض والاسود ما يحير
الفكر ، وكل رخامة طلي راسها بالذهب الذائب وموه بالنضار الصافى
وفرشت ارضه بالرخام العجيب النحت الصافى البشرية وجعل فى اضعاف
ذلك الزليج المتنوع التلوين وتجسم فى سقوفه الذهب وطلت الجدران
به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجبس ، وكان به اشعار مرقومة
فى الاستار وايات منقوشة فى الجهات على الخشب والزليج والجبس ،

وقد هدم هذا القصر عام 1119 هـ « ولم يبق بلد - كما يقول اليفرنى - من بلاد المغرب الا دخله شيء من انقاض البديع »

ومن المؤسسات الدينية السعدية مسجد « باب دكالة » الذي بنته « مسعودة المزكيتية » والدة المنصور ويتناسق فى هذا المسجد الاسلوب المرينى (الصحن المربع) مع بعض معالم الفن الموحدى مثل هندام القباب « وجامع المواسين » بمرافقه من الحمام والمدرسة والكتّاب (اى المسيد) والساقية ومورد الماء المخصص للحيوانات وتتم هذه المظاهر الجزئية عن استمرار تقاليد العصور السالفة فى الحقل المعماري .

اما جامع القرويين بفاس فان السعديين بنوا قبتيين فى الصحن تتوسط كلتيهما خصة مرمرية شبيهة بما يوجد فى ساحة الاسود بالاندلس .

كما أسهم السعديون فى بناء مدارس صفرى مضافة الى المساجد او الزوايا حيث توجد مثلا فى مراكش عاصمة السعديين اعظم مدرسة بالمغرب يرجع فضل تجديد بنائها الى الامير مولاي عبد الله وهي مدرسة ابن يوسف التي تستمد اسمها من الجامع المجاور بها وقد بناها ابو الحسن المرينى ، وكانت اهم ماوى لطلبة جامعة ابن يوسف حيث تحتوي على نحو المائة غرفة . وقد اقيمت قبور السعديين على غرار اضرحة المرينييين بساحة قرب مسجد القصبة بمراكش لدفن امراء الاسرة المالكة .

واما المؤسسات العسكرية فان الانقلاب الذي طرا على الاساليب الحربية تحت تاثير حركة النهضة الاوربية وانبثاق عهد الآلة وغزو المسيحيين للتراب المغربي ، كل ذلك حدا الدولة المغربية الى تعديل مناهج وطرق التعمير ، فالاسوار المحيطة بالمدن الكبرى تعززت بابرّاج مجهزة بعتاد جديد لمقاومة المدفعية ، ومن جملة هذه المعاقل المجردة « باستيون » (اى حصن) تازة الذي بناه المنصور استجابة للحواجز العسكرية القاضية بتزويد ممر تازة الواصل بين الشرق والغرب بالاجهزة الدفاعية المناسبة ، وهذا الحصن عبارة عن مؤسسة ضخمة مربعة الشكل يبلغ طول اضلاعها ستة وعشرين مترا ، وتطل منها على المدينة ثلاث عشرة

غرفة للرماية ، كما تحتوي على مستودعات للعتاد ، وقد اقام المنصور كذلك بفاس برجين آخرين يشرفان على المدينة ، وما زال البرج الجنوبي على حالته بينما أدخلت تعديلات على البرج الشمالي خلال القرون الاخيرة ، وتجدر الإشارة هنا الى ان السعديين اضافوا أجهزة قوية جديدة الى المعاقل والحصون البرتغالية في المدن المحررة (آسفي وأزمور والجديدة) كما بنوا في طول البلاد وعرضها قناطر ذات طابقين استراتيجي ونفسي ومعاير لنقل المياه وستايات عمومية على غرار سلفهم .

ومهما يكن فان الفن المغربي الذي استنفد قواه اصبح يروح تحت عناصر قوية في النقش والزخرفة والتنميق فقدت بساطتها من جهة ولكنها ازدادت فخخة ورواء من من جهة أخرى .

ب - العلويون :

وفي القرن الحادي عشر عندما استتب الامر للعلويين الامجاد في عهد مولاي الرشيد بدأ هذا الامير يهتم بتجديد معالم الفن المريني والسعدي بتعزيز الاجهزة العسكرية ومتابعة بناء المعاهد والمدارس والمساجد ، وقد استطاع اقامة بعض المؤسسات رغم قصر امد امارته المملأ بالحروب من ذلك بناؤه عام 1075 هـ لقنطرة طولها مائة وخمسون مترا مرفوعة على اعمدة تتخللها ثمانية اقواس كما شرع عام 1081 في بناء ((مدرسة الشراطين)) ، ولا تخلو هندسة ونقوش هذه المدرسة من جمال الا ان معالمها بعيدة عما كان يتسم به الفن المريني من صفاء .

واقوى امير واعظم بناء في الاسرة العلوية الماجدة هو مولاي اسماعيل الذي اضطرته مقتضيات التهدة الى الجولة خلال عقدين من السنين في اقصى الاقاليم التي جهزها بقلع يبلغ عندها ستا وسبعين في المغرب وشمال الاطلس .

ثم اختار مدينة مكناس عاصمة اقام بها قصور فخمة داخل القصبة نفسها ، منها ((مدينة الرياض)) التي لم يبق منها سوى باب الخميس ،

وقد وصف ((الناصري)) قصور مكناسة ومساجدها ومدارسها بأنها فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول كما ذكر الزباني أنه ما شاهد في آثار الدول اعظم من آثار هذا الامير ، ولا يخفى ما فى ذلك من ايفال بالرغم عما تنسب عنه بعض الآثار الباقية من روعة الاصل .

وتشتمل جميع المساجد العلوية على صحنون - قليلة العدد - تخترق المسجد على نسق ما عوهد فى فاس منذ أزيد من أحد عشر قرنا باستثناء الفترة المرينية .

أما فى الهندسة العسكرية فإن العلويين ساروا على غرار سلفهم السعديين ، فالمولى اسماعيل أعظم من أقام القلاع والحصون .

ومن جملة القلاع المهمة التي ما زالت قائمة الى الآن قلعة اذخسان فى الشعاب الشمالية للاطلس وأكوراى التي تراقب الاطلس المتوسط وقلاع تادلا وحميدوش وبو الاعوان ومديونة .

أما الدار المغربية فانها احتفظت بتصميمها وهندامها المعماري الذين أصبحا المظهر التقليدي منذ نهاية العهد المريني أي منذ نحو خمسة قرون، فالباحة الداخلية التي تتصل بالخارج عن طريق ممر منحرج - يتناسب مع لوازم الحجاب العرفية - محاطة باروقة مسنفة مستطيلة تتفتح فيها غرف ذات أبواب ضخمة تعلوها شماسات مفرغة وتقوم على جانبها نافذتان متوازيتان وفى احدى جوانب ((وسط الدار)) يوجد بهو منمق الجدران كما فى اجزاء المنزل علاوة على سقاية تواجه البهو أحيانا أو فسقية فوارة

ويرى المؤرخ جورج مارسى ان الدور المغربية تنقسم بمياهم ثلاثة أو ترجع الى ثلاث مدارس :

1 - مدرسة الرباط وسلا ومدن الساحل

2 - مدرسة مكناس وفاس

3 - مدرسة مراكش ومدن او قرى الجنوب

فالتصميمات واحدة في هذه الدور وانما يختلف الهيكل العام ومعالم الزينة تبعاً لهذه الاقاليم ، فالاسلوب الموحد يغلّب وجوده في المدن ذات الطابع الاندلسي حيث تحيط مثلاً الحنايا الحجرية بساحة الدار الوسطى ، وفي بعض المدن كفاس حيث تسيطر التقاليد المرينية ، تحتوي الدار على طبقتين او طبقات تتوفر فيها مظاهر الزخرفة بينما يتبسط هذا الاسلوب في مدن الشمال الاخرى كوزان وتازة (باستثناء تطوان الاندلسية الهندام) .

وفي كل ذلك اتسم الفن العلوي الرائع بطابع ضم الى ضخامة الفن الموحد روعة ودقة الفن المريني وخاصة منذ أن استعاد هذا الفن رواءه الاصيل بفضل الانبثاق الفياضة التي اذكأها جلالة المرحوم محمد الخامس تبلورت في تجديد جوامع ومساجد المغرب وخاصة « جامع السنة » بالرباط وقد ازداد هذا التراث الفني بهاء في عهد جلالة الحسن الثاني حفظه الله من خلال ذلك التوليف الاخاذ الذي ركز في « ضريح محمد الخامس » بحسان أبهى عناصر الفن الاندلسي المغربي مما عز نظيره الان في العالم بحيث يعتبر هذا الضريح في مظهره المعماري وحده تحفة فنية هي ابداع ما خطته يد الصناع في المغرب الاقصى .

وقد عاش المغرب في ابان الحماية عالة على روائع الماضي فكبريات المدن فقدت كثيراً من مظاهرها الفنية الكلاسيكية ، ومدينة فاس التي كانت تنافس حاضرة بغداد قد تهدم الكثير من آثارها ، وقد وصف « كامبو » هذه المعالم عام 1886 م اي بعد بدء تسرب الاستعمار الى المغرب العربي واتجاه ملوكنا الى الذب عن حياض المغرب فلاحظ في نفمة المتشائم ان كل شيء بالعتيق منخور في معظمه لانعدام اي اصلاح الا ان مصلحة الآثار تبذل جهوداً لترميم المآثر التاريخية التي يهددها الحدثان مع محاولة الاحتفاظ بالاساليب الكلاسيكية في الفن المغربي بالإضافة الى حركة التجديد التي تسير التطور العالمي .

ومن هذه الفنلكة يتجلى أن الاختلاف الظاهر بين المدارس الفنية فى مختلف العصور المفريية لا تسمح لنا بالحديث عن مدارس معمارية مختلفة فضلا عن وجود انفصام بين الاتجاهات الفنية التي ترجع فى نظري الى عوامل اجتماعية تاريخية هي نفسها مستديمة التقلب ولعل هذا هو الذي يفسر لنا مظهر التجانس بين أجزاء الهيكل المعماري العام فى حواضر المغرب فالنور الانيقة لا يختلف كثيرا بعضها عن بعض من حيث الشكل واسلوب الزخرفة ذلك أن وفرة الجزئيات والزخارف المرينية مثلا لم يعد لهما حيز اقليمي خاص لا سيما فى العصور الاخيرة حيث تحقق بين الحواضر الكبرى (كفاس والرباط ومراكش) تداخل عميق أسفر عن وجهات متساوقة وحيوية فياضة هي سر هذا الطابع العام الموسوم بالوحدة، ولكن هذه البوتقة لا تلبث أن تصبح وعاء لانصهار العناصر المختلفة فى فن جديد تتسق فيه معطيات العصور وتنبتق عن مزيج كلاسيكي .

فهل من مصلحة هذه المعالم أن تتحد ؟ أم أن سر جاذبيتها كامن فى اختلاف معالمها ؟ أم أن استمرار أصالتها لا بد أن يرتكز على نوع من الامتزاج ؟

الواقع أن الهندسة والاساليب المهنية العتيقة التي يظهر انها تحجرت فى البادية والجبال يجب أن تتعش بمعطيات الفن فى الحواضر، ولكن دون مساس بأصالتها ، ويجب أن ينبثق كل تجديد عن حاسة عريقة بالجمال وشعور ثلاثي بدافع التكيف لا تلوب معه الخواص الجهوية التي هي أسس كل أصالة .

عبد العزيز بنعبد الله

الرباط

موقف الأديب والفنان بين الحرية والالتزام

د. تمام حسان

أكثر النقاد من الكلام في مشكلة الحرية والالتزام ، حتى لقد أثاروا في الأذهان ما احتدم من جدل بين المتكلمين في مشكلة الجبر والاختيار. وارتبطت هذه المناقشة في بعض صورها بالسياسة والاقتصاد ، حتى لم يعد المرء قادرا على التمييز بين رسالة الأديب والفنان من جهة ، ورسالة الداعية من جهة أخرى ، فرأى البعض أن الوظيفة التي يجب أن يؤديها الفن إنما هي الدفاع عن صالح المجتمع ، ومن لم يجند فنه لهذه الغاية فهو إما سلبي أو منحرف ، ومن ثم يستحق غضب المجتمع ، ويستجلب على نفسه ما هو أهل له من عقاب . ورأى الآخرون أن رسالة الفنان هي إبداع الفن فحسب ، فالفن غاية في نفسه ، وليس وسيلة

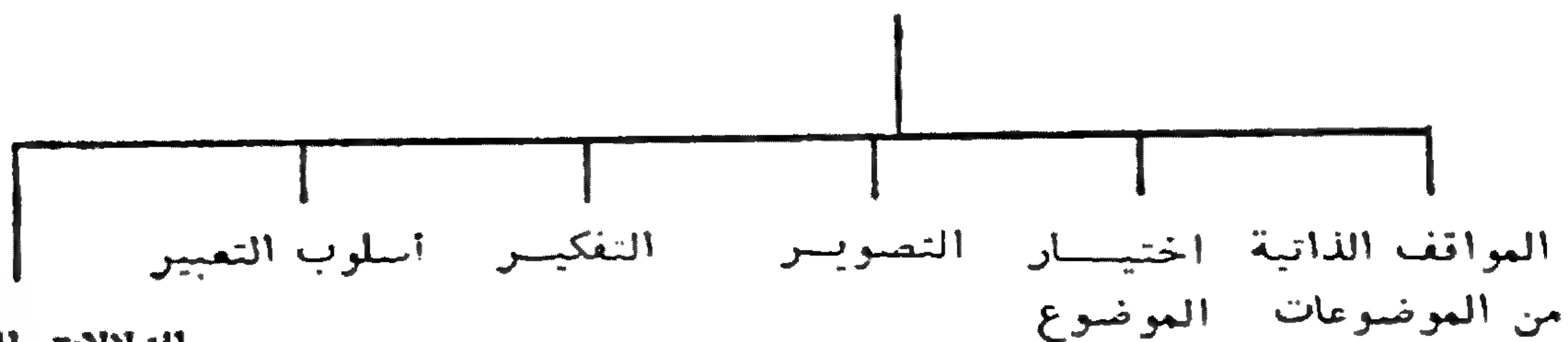
يتوصل بها الناس الى غاية أخرى . وواضح ان كلا من هذين الموقفين مبالغ في التطرف . اما الاول فلأنه يفرض على الفن قيودا اقل ما توصف به انها تحد من حرية التعبير ، وتفرض شروطا موضوعية على نشاط ذاتي الطابع ، وتحتم على الانتاج الفني ان يجري في مسالك لم يحددها الالهام الفني ، ولم تدفع اليها معاناة الفنان نفسه .

واما الثاني فلأنه يريد للفن ان يكون افرازا ذاتيا مثله مثل الاحلام ، او متعة ولذة مجردة ، وبذلك يفصل ما بين الفن وبين غاياته الانسانية النبيلة .

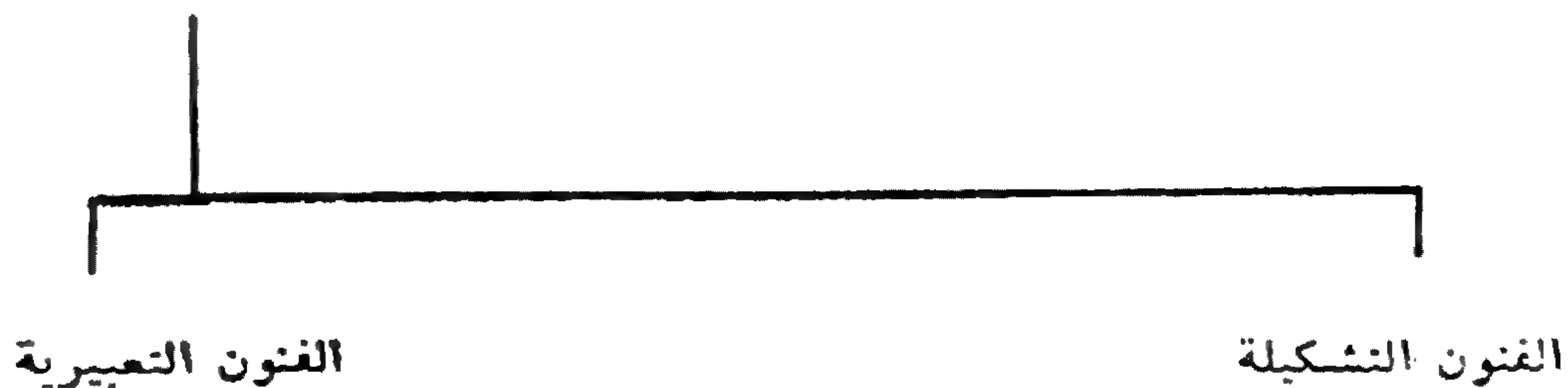
واذا امعنا النظر في موقف الفنان والاديب من هذه القضية وجدنا ان للفن (ومنه الادب في المقدمة) جانبين : جانب ذاتي ينتمي في عمومته الى حقل الدراسات النفسية ، ويتناوله النقاد في العادة في ضوء علمي النفس والجمال ، وللفنان في هذا الجانب حرية مطلقة ، لان تفوقه الفني وبروز شخصيته الفنية مرتبطان اشد الارتباط بهذه الحرية ، فلا يتحققان بدونها ، وجانب موضوعي ينتمي (في عمومته ايضا) الى حقل الدراسات الاجتماعية ، ويتناوله النقاد في العادة في ضوء علمي اللغة والاجتماع ، وعلى الفنان هنا ان يلتزم التزاما كاملا بالعرف ، لان هذا الالتزام هو الذي يحدد قيمة فنه ويعطيه رسالته النبيلة الانسانية ، ويخلق الوحدة في الفهم والذوق بين الفنان والمتذوقين لفنه . وهذا الكلام تلخيص مركز لموضوع المقال كله ، وما يتلو بعد ذلك شرح له وايضاح . وينبغي لنا قبل هذا الشرح وذلك الايضاح ان تقدم التخطيط التالي لعناصر الموضوع ، حتى ندرك العلاقات العضوية بين بعض هذه العناصر وبعضها الآخر :

موقف

ذاتي طابعة الحرية
ينتمي الى حقل الدراسات النفسية (ومنها الجمال)



الدلالات الطبيعية
وهي محور الجانب
الجمالي في كل الفنون



الفنان

موضوعي طابعه الالتزام
ينتمي الى حقل الدراسات الاجتماعية

اجتماعي

فني

لفظي
اساسه امن اللبس

معايير نقدية
ذوق عام تقاليد

اصوات صرف نحو معجم دلالة

صالح عام

دين

اخلاق

وسنتناول عناصر الموضوع بحسب ترتيبها الذي يبدو فى هذا التخطيط ، بادئين بالموقف الذاتى وفروعه ، خاتمين بالموقف الموضوعي .

و اول ما يصادفنا من ذلك ان الفنان حر فى اتخاذ موقف ذاتي ما من موضوعه ، فالفنان ان يتفاعل او يتشائم دون تشريب عليه من النقد ، فلا لوم على عمرو بن كلثوم فى دعواه ان قومه ملأوا البر حتى ضاق عنهم وانهم قادرون على ان يملأوا البحر بالسفن ، ولا لوم عليه كذلك اذا ادعى ان الجبابرة يخرون ساجدين للوليد من قومه اذا بلغ الفطام . ولم يلم النقد ابن الرومي لتشاؤمه ، ولا أبا العتاهية لزهده فى هذه الدنيا وتشاؤمه بها ، لان ذلك الموقف النفسى حق ثابت للاديب ، وحرية الاختيار فيه امر مسلم به . كذلك يمكن للاديب ان يحب موضوعه او يكرهه فلا يلام بحبه ولا بكرهه . لقد كان عنتره حفيا بالحرب محبا لها ، لانها كانت سبب عتقه وحريته ، وكان زهير ضائقا بالحرب لانها رحت تعرك الناس بثقالها ، ويفنى بها الناس بعضهم بعضا ، فهي شؤم ذميمة . والاديب حر فى الاستحسان والاستهجان ، فذلك شأنه ولا يمكن ان يفرض عليه من خارج . وفى ادب الجاحظ من مدح الموضوع ثم ذمه ما يشير الى تعضيد هذه المقولة ، حتى نبيح ان ينسب اليه كتاب متخصص فى هذه السوفسطائية الادبية يسمى « المحاسن والاضداد » .

ثم يأتى بعد ذلك حرية الاديب فى اختيار موضوعه ، او قل ان شئت : فى اختيار نوع الاستجابة لموضوع ما ، اى استجيب له استجابة عادية كالذي يكون من عامة الناس ، ام يستجيب له استجابة ادبية كالذي نعرفه من الادباء . فكثير من المواقف التي تعرض للاديب يمكن ان يشير فيه هذه الاستجابة او تلك ، كالفرح والحزن ، والالام ، والفضيب ، والرضا ، والسخط ، وغير ذلك من المواقف اليومية الشائعة فى حياة الناس (والاديب منهم) . فيمكن ان تمر كما تمر التجارب العابرة ، لا يعيرها الاديب من قته وانتباهه ما يؤهلها لان تكون موضوع ابتداع فني ، ويمكن - على عكس ذلك - ان يحفل بها وينشط لها فيعطيه من ما تستحقه التجربة من اهتمام ، ويخف الى ورقه وقلمه ، ويستديم اثر التجربة فى نفسه (وهو ما يسمونه المعاناة) حتى تكتمل له الصورة الادبية المرجوة . والاديب حر فى اختيار الموضوع الذي يستحق منه هذه الحفاوة .

فاذا اختار الاديب موضوعه فهو حر فى طريقة تفكيره فى هذا الموضوع ، ففي اختياره ان يحاول الابتكار او يركن الى التقليد ، وقد ينجح فى الابتكار او يخفق ، وقد يبتكر أمرا ذا بال ، او يأتي بأمر مسف ، وقد يحسن التقليد - مجرد تقليد - فى الاطار الفكري العام ، فيكون فى حدود حرته واختياره ، وقد يسطو على افكار غيره بتفاصيلها فيخرج من حدود حرته ، ويعرض نفسه حينئذ لما يتعرض له المعتدون من عباد الله . والاديب حر بعد ذلك فى أن يكون فرديا فى تفكيره او اجتماعيا ، ولا حرج عليه فى كلا الموقفين الفكريين . وهل عاب احد ابا فراس بقوله : اذا مت ظمأنا فلا نزل القطر . او فضل احد عليه من يقول :

فلا نزلت علي ولا بأرض سحائب ليس تنتظم البلادا

ولعل الفنان احوج الى حرية التفكير من العالم ، لان العالم بسترشد بمنهج معين يهديه الى سواء السراط ، ومن هنا تصبح الحقيقة أيسر عنده منالا ، ويصبح بالمنهج اقوى اعتصاما ، واوضح به اعتذارا عند تعرضه للمؤاخذة . أما الفنان فى عالمه الذاتى ، فلا عاصم له الا ان يعترف له بحرية التفكير ، ولا وظيفة للفن يمكن الوصول اليها الا بهذه الحرية الفكرية .

وللفنان مطلق الحرية فى التصوير سواء كان ذلك مرتبطا بالصورة العامة التي شكلها لموضوعه ، ام بالصورة الفرعية التي تدخل فى اطار هذه الصورة العامة . ولم يعرف الادب العربي القديم وحدة عضوية تجمع الاخيلة المتفرقة فى صورة خيالية واحدة ، وان كان قد عرف فى الكثير من الاحوال وحدة عضوية للموضوع نفسه ، ومن هنا كان بعض القصائد خالصة للغزل ، او خالصة للاعتذار وهلم جرا .

والنقاد المحدثون يدافعون بشدة عن الوحدة بين الاخيلة بحيث يكون للموضوع صورة عامة متخيلة ، وصور اخرى فرعية بداخلها . ولكن الاديب العربي يظل حرا فى أن ينحو نحو الاقدمين ، او أن يسلك مسلك المتأخرين ، ولا بأس عليه فى رأى ان نحا ، ولا بأس عليه ان يسلك ،

والمجيدون والمسفون يكثرون بين انصار القديم وانصار الحديث على حد سواء . والمغزى من وراء ذلك أن الفنان له حرية التصوير ، ولولا هذه الحرية ما تطور الادب ، ولولاها ما قال أبو نواس :

كل من يبكي على رسم درس واقف ما ضر لو كان جلس

ولولاها كذلك ما تطورت الفنون الاخرى سواء فنون التعبير وفنون التشكيل .

وليس الفنان اقل حرية في مجال اختيار طريقة التعبير . فهو حر في أن يعبر بالشعر أو بالنثر ، وهو حر في أن يجعل من ابداعه قصة شعرية ، أو نثرية أو مقالا ، أو ترجمة ، أو اعترافا ، أو غير ذلك من أنواع الادب . وله بعد ذلك أن يكون جادا أو هازلا ، أو مبالغا أو مقتصدا ، مطنبا أو موجزا ، وهلم جرا . وله في اطار كل ذلك أن يستعمل أساليب الخبر أو الانشاء ، وأن يركن في مجمل أسلوبه الى الجملة الفعلية ، أو الاسمية ، وأن يختار ما بين الحذف والذكر والاضمار ، وبين الفصل والوصل ، وهلم جرا ، مما لا حرج على الاديب في اخذه أو تركه . ومن المسلم به أن لكل اديب أسلوبه الخاص الذي يعرف به ، حتى يمكن لمن أكثر القراءة له أن يتعرف عليه مما يكتبه وأن كان غير منسوب اليه نسبة صريحة . ولكن من المسلم به أيضا أن مما يحدث للاديب أحيانا أن يعتمد التأنق في أسلوبه على صورة قد تخرج بهذا الأسلوب عن منهجه العادي . والاديب حر في ذلك يختار لنفسه ما يشاء وانف الناقد راغم . على أن حرية الاديب في حقل التعبير إنما هي حرية تحيط بها جبرية معينة من عرقية اللغة ، والالتزام بهذه العرقية على نحو ما سبدو لنا فيما بعد . فمثل الاديب هنا كمثل الذي قيل له لا تغادر المدينة ، ولك حرية التنقل في أرجائها ؛ أو كمثل الإرادة التي نسبها المعتزلة الى الإنسان مشروطة بإرادة الله . ومعنى ذلك كما سيتبين لنا فيما بعد أن الاديب لا يستطيع أن يتحدى عرقية اللغة ، فاذا التزم بها فله الخيار فيما وراء ذلك .

يبقى من فروع الموقف الذاتي ما للفنان من حرية الاختيار في استعمال الدلالات الطبيعية في التعبير . وإذا رجعنا الى التخطيط السابق

لعناصر الموضوع وجدنا ان هذا التخطيط ينسب الى الدلالة الطبيعية ،
انها محور الجانب الجمالي فى كل الفنون ، سواء منها الفنون التعبيرية
والفنون التشكيلية . وترتبط الدلالة الطبيعية فى الفنون التعبيرية بالاصوات
والحركات والنسب ، كما ترتبط فى الفنون التشكيلية بالالوان والابعاد
والنسب . ولنعُد الى شيء من تفصيل ذلك . وسنرى ان ارتباط الدلالة
الطبيعية بالاصوات فى الفن يتجلى فى الموسيقى والغناء ، واختيار بحور
الشعر وايقاعاته ، وقوافيه وطريقة القائه ، واختيار الكلمات التي تسي
تروق الاديب لجرسها ، وهلم جرا ، كما تتمثل الدلالة الطبيعية للحركات
فى المسرح والسينما والرقص بأنواعه . ذلك هو شأن الفنون التعبيرية
ودلالاتها الطبيعية . أما فى الفنون التشكيلية كالرسم ، والتصوير ،
والنحت ، والخط (ولا سيما الخط العربي) ، وغيرها ، فالدلالة الطبيعية
انما تكون بالالوان والابعاد والنسب . فالوان الرسم الزيتي والمائي ذوات
ايحاءات طبيعية قنية هي مناط تأثيرها فى النفس ، ولا شك ان الفلم الملون
والتلفزة الملونة تمتاز بإمكانات فنية لا تكون لها بغير اللون ، واختيار
الالوان هنا مجال من مجالات حرية الفنان . والدلالة الطبيعية للابعاد تتجلى
فى الرسوم وفى النحت وفى الخط . والفن المعاصر يتلاعب بدلالة
الابعاد كثيرا ، ولا سيما فى حقل الفنون التجارية والاعلان ، على ان القدماء
والمحدثين استخدموا الدلالة الطبيعية للبعد لاغراض وسيلتها الفن
وغايتها فيما وراءه ، فكلنا يعلم امر التمثال الضخم فى كريت الذي عد من
عجائب الدنيا السبع ، وابو الهول اشهر من ان يشار اليه فى هذا المقام ،
وتمثال المسيح الذي اقيم على ربوة عالية فى البرازيل لعله اضخم تمثال
جاء به النحت المعاصر . وتمثال الحرية فى نيويورك . كل ذلك يمثل
الدلالة الطبيعية للابعاد (والمقصود هنا الاثر الفني والنفسي الذي تخلفه
الضخامة) .

أما الدلالة الطبيعية للنسب فهي اخطر شيء فى الفن على الإطلاق ،
وهي صادقة على الفن ايا كان نوعه (تعبيرا أو تشكيلا) . والنسبة علاقة
بين منسوب ومنسوب اليه ، ومن ثم فهي فى طابعها أشبه بالتفاعل منها
بالفعل . واذا كانت تفاعلا فلا غرابة ان نجد أكثر العبارات الدالة على
النسبة تقع فى صيغة التفاعل كالتوازن ، والتوازي ، والتوافق ، والتباين ،

والتوالي ، والتساوى ، والتقابل ، والتكامل ، والتلازم ، وهلم جرا . ولن
أغامر هنا بتطبيق فكرة النسبة فى الحركات والالوان والابعاد ، لان لهذا
الميدان فرسانا لست منهم . أما فى الاصوات فأشهر ما يقع من تأثير
النسبة انما يكون فى الموسيقى والفناء . وحسبنا أن نعلم النسب
الرياضية بين درجات السلم الموسيقى من حيث عدد الذبذبات ، وأن
نعلم أن امر التوافق الهارموني بين الدرجتين من درجات السلم انما يرتبط
بأمر هذه النسبة الرياضية . ثم يأتي بعد ذلك الشعر وموسيقاه الخاصة ،
ودوائره التي انشأها الخليل ، فليخص فكرة النسبة فى الميزان الشعري
أكمل تلخيص . ولقد استعمل المولدون والمحدثون هذه النسب فى توليد
اشكال شعرية جديدة أشهرها الموشح ، وما نعرفه الآن باسم الشعر
الحر . كما نص الخليل من قبل على فكرة الجزء فى البحور . والنسبة
ذات أثر فى القافية أيضا ، فالفرق بين الشعر والرجز فرق فى نسبة
القافية من جهة ، وفى التزام البحر أو عدمه من جهة أخرى . والمحسنات
البديعية فى جملتها من قبيل النسبة كما يبدو فى اسمائها ، كالطباق وهو
تباين ، والجناس وهو توافق ، الخ . . مما يمكن رده الى فكرة التفاعل
التي مرت بنا وكلها ذوات دلالات طبيعية . والنسبة تبدو أيضا فى القاء
الشعر بمراعاتها بين الاصوات المستعملة فى اللقاء ، للتعبير عن المعاني
الطبيعية كالفرح والاسى ، والغضب الخ . . اذ يكون وصف الصوت بالعلو
أو الانخفاض وصفا غير مطلق ، بل يوصف بذلك بالنسبة الى الاصوات
التي جاورته . والذي يهمنا من كل ذلك أن الفنان حر فى الاختيار فى كل
ما تقدم ، مما يصدق عليه أنه موقف ذاتي ينتمي فى طابعه الى حقل
الدراسات النفسية . ومعنى حرته فيما يختص بالفقرة الأخيرة أنه
يستطيع أن يختار نغمة دون نغمة ، وحركة دون حركة ، ولونا دون لون ،
وبعدا دون بعد ، ونسبة دون نسبة ، وهو يعلم مع كل اختيار أن الأثر
النفسى الذي يتركه اختياره سيكون مخالفا لما يتركه الاختيار الآخر فى
النفس .

والموقف الموضوعي للفنان موقف عرفي ، ينتمي بحكم مكوناته الى
حقل الدراسات الاجتماعية التي تعتبر العرف سيد الموقف . ويبذل
الطابع العرفي لهذا الجانب من نشاط الاديب عند النظر الى عناصر هذا

المواقف التي لا غنى عن العرف في واحد منها . فاللغة بكافة صورها عرفية عامة ، والدوق الاجتماعي العام عرف عام ايضا ، والمعايير النقدية عرف خاص بين النقاد ، والتقاليد عرف ، والاخلاق ومعاييرها عرف ، وليس الدين بعيدا عن العرف ، وللصالح العام جانبه العرفي كذلك . واذا كان العرف ملزما - وهو لا يكون الا كذلك - فان موقف الفنان هنا موقف الالتزام بلغة المجتمع - لا يغير فيها ولا يبدل ، وبذوق المجتمع ، وتقاليده ، وأخلاقه ، ودينه ، وصالحه العام . وهو ملتزم كذلك بالمعايير التي تعارف عليها النقد في عرفهم الخاص . دعنا اذا نتناول كل عنصر من هذه العناصر على حدة .

أما اللغة فالاديب ملتزم بأصواتها ، وصرفها ، ونحوها ، ومعجمها ، (مفرداتها) ، ودلالات جملها ، وأساليبها ، لا يتصرف في واحد من هذه الامور بحسب اختياره ولا يتحدى العرف . ولو قد فعل لصادف من المجتمع ما يستحقه من السخرية او الاهمال وعدم الحفاوة بأدبه ، لان اللغة نظام رمزي يقوم عليه ترابط المجتمع ، ومن ثم يحرص المجتمع على امن اللبس في استعمال هذا النظام . وقديما سخر الناس ممن تهاون في مراعاة امن اللبس ، فقالوا : « المعنى في بطن الشاعر » ، لان الشاعر فيما يبدو كان قد استعمل مفردات غير معروفة النحى . فعلى الاديب ان يلتزم بأصوات اللغة ، فالاديب العربي لا يستعمل صوت ^V وانما يقلبه الى الواو كما في « انو شروان » من قول البحري :

والمنايا موائل وانو شـرـ وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

وقول المتنبي :

يقول بشعب بوان حصانـي أعن هذا يسار الى الطعان ؟

ولا يستعمل صوت ^P وانما يقلبه الى الباء كما في قول علي محمود طه :

كليو بـترا اي حـلم من لياليك الحسان

على ان الشاعر هنا التزم بشروط اللغة العربية في امر آخر هو تجنب البدء بالساكن لان النطق الاصلي لهذا العلم هو Cleopatra فكسر الشاعر الكاف الساكنة واسكن اللام المكسورة بحسب مطالب اللغة. وقد استعمل محمد عبد الوهاب حق الملحن في التحرر من ضبط الشاعر لهذا اللفظ ، فأحدث فيه قلبا مكانيا بين اللام والياء ، وصير الكلمة « كيلو بتر » ، تحت داعي الانتفاع بهذه الياء في احداث مد في المقطع الاول مناسب لمطالب اللحن من جهة ، وفرارا من تشكيل الياء بالضممة وهي عدوتها من جهة اخرى ، فأرضى اللحن والقواعد الصوتية في وقت معا .

ولا يستعمل صوت O وانما يحوله الى الواو اذا كان ممدودا والى غيرها اذا دل عليه دليل . فقد استعمل شوقي كلمة Waterloo على شكل « واترلو » اعتدادا بهجائها في الانجليزية . وفي كلمة « شيكسبير » Shakespear تراعى القواعد الصوتية للغة بتحويل مد المقطع الاول الى صورة الياء ، ثم كسر الكاف الساكنة لالتقاء الساكنين ، ثم تحويل P الى صوت الباء ، وهلم جرا .

وعلى الاديب ان يلتزم بالقواعد الصرفية للغة ، فلا يستعمل صيغة صرفية لم تستعملها اللغة ، ولا يغير كلمة من صيغتها الى صيغة اخرى : ولا يخترع في اللغة ضميرا ولا اداة ولا حرفا من حروف المعاني ، واذا عرب كلمة حاول ان يخضعها قدر امكانه لطريقة الصياغة العربية — ولذلك كله اصوله المرعية التي راعاها الشعراء والكتاب في العصور الاسلامية الاولى ولا سيما في عصر الترجمة في الخلافة العباسية .

وعلى الاديب ان يراعي قواعد النحو لانها كالقواعد الاخرى في حراسة المعنى ، وتجنب اللبس المخل به . ولقد شاع اللحن في ادبنا المعاصر الى مدى يبرر تسميته « بالملحون » وكان الشعراء والكتاب قد راوا ان النحو فضولي على الادب ، او كأنهم يثسوا ان يحيطوا بأطراف النحو فازدروه ، ثم نكلوا به . وكذلك فعل النقاد الذين راوا ان النقد اذا اتجه الى المضمون فحدد قيمته ، فالشكل (اي اللغة التي صيغ بها الادب)

لا خطر فيه ، ولا طائل تحته . فاذا علمنا ان معظم قواعد النحو العربي قد استنبطت قديما من الشعر ادركنا مقدار الفجیعة فی ادبائنا المعاصرين ، وفی موقفهم من اللغة التي يكتبون بها ادبهم .

وعلى الاديب ان يلتزم بمفردات لغته ، لانها كلمات تعارف الناس عليها فأصبح معنى كل كلمة منها واحدا فی ذهن المتكلم وفی ذهن السامع . ولهذا السبب تصبح الكلمات واختصاصها بالمعاني كأضرار الضوء الكهربائي واختصاصها بالمصابيح ، اذا اردت ان تضيء مصباحا عرفت اين تضغط . ولو فرضنا ان رجلا قد اراد ان يحدث عملا تخريبيا فی هذه الاضواء ما كان عليه الا ان يغير نظام التوسيل الذي « عهده » اصحاب المبنى الذي به المصابيح ، فيجعل كلا من الاضرار متصلا بغير المصباح الذي كان له ، ويحدث من الاضرار ما لا يتصل بمصباح ابدا . فاذا جاء اصحاب المبنى فأرادوا ان يضيئوا حجرة اضاعوا غيرها ، واذا ضغطوا على المفتاح المستحدث لم يحدث منه ضوء . فكذلك اللغة ، اذا تغيرت دلالات كلماتها حدثت الفوضى فی الفهم ، واذا استحدثت فيها كلمات لا عهد للناس بها لم تثر فی افهامهم شيئا ، ومن هنا كان على الاديب ان يلتزم بمعجم اللغة .

ولقد استعمل الاقدمون فی الادب رخصا املتها عليهم الضرائر او الاعتبار الجمالية فی اللغة ، ولكنهم حين فعلوا ذلك كانوا يدركون بسلاقتهم القوية ان اللبس مأمون مع الرخصة ، وان المعنى مضمون ، وان لا خطر على السامع ان يفهم شيئا غير الذي اراده القائل . حدث ذلك فی الشعر كما حدث فی القرآن والحديث ، ثم ذهب النحاة يؤولون ويشذذون حرصا على قواعدهم وهم يعلمون علما تاما ان اللغة ما يقوله السليقي لا ما يراه اللغوي . ومن الرخص ما يتعلق بالحركة الاعرابية كقطع النعت نحو .

قد سالم الحياة منه القدما الأفعوان والشجاع الشجعما

واعراب المجاورة كما فی قوله تعالى : « عليهم ثياب سندس خضر » على جر كلمة خضر ، وقول العربي « حجر ضب خرب » على جر كلمة خرب ، وقوله تعالى : « ان الله يرى من المشركين ورسوله » على جر

كلمة رسوله . أو لسبب غير القطع والمجاورة كقوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى » برفع الصابئين ، وقول الشاعر :
كان اذنيه اذا تشوفــــا قادمة او قلما محرفــــا

بنصب خبر كان - وقد يكون الترخص فى الرتبة كقول الشاعر :

الا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

بتقديم المعطوف على ما عطف هو عليه ، او فى البنية ، كقوله تعالى :
« وطور سينين » فى مكان سيناء ، وقوله : « سلام على الياسين » فى مكان الياس ، وقوله : « وابراهيم وميكاال » فى مكان ميكائيل . وكقوله صلى الله عليه وسلم : « جلس احدى عشرة نسوة » فى مكان امسراة ، وقول الشاعر : « او الفا مكة من ورق الحمى » فى مكان الحمام . وقد تكون الرخصة فى المطابقة كقول علي : « انا الذي سمتن امي حيدرة » فى مكان سمته ، وقول المتنبي « انا الذي نظر الاعمى الى أدبي » فى مكان أدبه ، وقوله تعالى : « فظلت اعناقهم لها خاضعين » فى مكان خاضعة ، وقوله : « بل انتم قوم تجهلون » فى مكان يجهلون . وقد تكون الرخصة فى الربط كالغاء الضمير العائد فى قوله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا » اي فيه ، وقوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن ثلاثة قرء » اي بعدهم . وقد تكون الرخصة فى عنصر تفتقر اليه الكلمة ، كقول الشاعر :

نحن الاولى فاجمع جمو عك ثم وجههم الينا

اي الاولى يتحدثونك ، وقوله :

فساغ لي الشراب وكنت قبلا اكاد اغص بالماء الفرات

اي قبل ذلك :

وقد تكون الرخصة فى الاداة كقوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف » بحذف لا ، وقول امرئ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لديك وأصالي

بحذف لا أيضا ، وقوله تعالى : « قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة » بحذف اللام (أي ليقيموا) ، وقوله جل شأنه : « ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض ... » بحذف الفاء (أي فقلت) ، وقول ابن أبي ربيعة :

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد النجم والحصى والتراب

بحذف الهمزة « أي اتحبها » . ولا يهولنك كثرة الامثلة التي سقناها لهذه الرخص فليست هذه الرخصة مبررا للقول بفك التزام الاديب بقواعد لفته ، والرخصة حتى بحكم تسميتها لا تطعن في قاعدة ، ولا تعفي من مراعاتها ، ولا تستخدم الا فيما وردت فيه ، ولا يأتيها الا صاحب سليقة يدرك ما يقبله المجتمع منها وما لا يقبله .

وعلى الاديب ان يلتزم بالدلالة العامة للسياق بحيث لا يقول هراء ، ولا ينتهي الى احالة . فقد يحافظ القائل على التزامه بالاصوات والصرف والنحو والمعجم ، بحيث يأتي بالكلمات التي تدل كل واحدة منها بمفردها على معنى ، ويرصفها رصفا نحويا سليما ، ولكنها على الرغم من كل اولئك لا تفيد معنى محدودا . وقديما عجز أبو العلاء العماني وأبو عبيدة وأبو زيد والاصمعي عن فهم كلام قاله المجنون بن جندب ، ورد فيه :

محكوكة العينين معطاء القفا كأنما قدت على متن الصفا
تمشي على متن شراك أعجفا كأنما ينشر فيه مصحفا

فقال كل واحد من هؤلاء الافاضل : لا أدري له معنى . وقال أبو زيد : هو كلام مجنون ، ولا يعرف كلام المجانين الا مجنون . هذا هو شأن الالتزام باللغة ، وعلى الاديب ان فرط فيه ان يتوقع العقوبات الاجتماعية المناسبة التي أشرنا اليها من قبل .

ويلي ذلك ما يلتزم به الاديب من مراعاة المعايير النقدية المقررة في آداب لغته . فالاديب لا ينشأ في فراغ ، وانما ينشأ في اطار حركة أدبية محدودة المعالم ، مقررة الاصول . كان الاقدمون يتكلمون عن عمود الشعر ، وكان عبد الحميد الكاتب اول من حاول برسالته الشهيرة الى الكتاب ان يرسى قواعد وأصولاً لمن بعده منهم ، ونشأت البلاغة العربية فرسخت من جانبها ابعاد العبارة العربية ، ونشأ النقد الحديث فأضاف الى كل ذلك اضافات هي في جملتها انتفاع بمناهج الفكر ومعطياته . وامتزج ذلك كله ليكون منه في النهاية اطار عام بدور الادب في حدوده ، والاديب لا يستطيع الافلات من كل ذلك الا بجرأة المفامر ، واستقتال الفدائي . وآية ذلك ما صادفته تجربة الشعر الحديث من صعوبات ورفض ، ولولا ان هذه التجربة قد جاءت بدعوى ان ادب الامم الحية لا يشتمل على قيود كالتى نصادفها في الشعر العمودي ، فحاربوا معركة التحلل بصيحة التطور، ما كان لهذه التجربة الجديدة نصيب من البقاء قدر ما بقيت . ثم هي في النهاية ما تزال في الميزان ، ولن تبقى الا ان يكون لها من فرسان القول المبرزين في حلبة الشعر كثرة من الاتباع على مدى عصور طويلة . والاديب ، بل الفنان في عمومته ، ملتزم بالذوق العام لمجتمعه ، فلكل مجتمع ثقافة ، . وانا لا اتكلم هنا عن الثقافة بمعناها التعليمي والدراسي الخاص ، وانما اتكلم عنها بالمعنى الانثروبولوجي العام culture وفى اطار هذه الثقافة يتخذ المجتمع لنفسه تقاليد خاصة ، وطرق سلوك خاصة ، وادوات خاصة ، ويمتاز بذلك عن غيره من المجتمعات ، كما يكون له في ظل هذه الثقافة ذوق اجتماعي يمتاز به كذلك . ولا بد للفنان ان يلتزم بهذا الذوق الاجتماعي العام ، والا نسب اليه سوء التربية ، او الدعوة الى الفساد ، او الخروج على الطرق الاجتماعية في السلوك والقول . لقد كان الذوق العام في المجتمع الجاهلي يتقبل من الشاعر ان يقف مفاخره بنفسه وبمفامراته النسائية ، ويسمح لامرئ القيس مثلاً ان يقول :

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع فآلهيتها عن ذي تمائم محسول
اذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحسول

ويعلق له ذلك على الكعبة . ويروى الاولون عن الاخطل الفحش في هجاء بني كليب بقوله :

فلا تقرب بيوت بني كليب ولا تقرب لهم أبدا رحالا
تري منها لوامع مبرقات يكدن . . . بالحدق الرجالا

والدوق العام في ايامنا لا يقبل هذا ، ويتطلب من الاديب ان يلتزم بالاحشام . ومن تجرا من الادباء على انشاء مثل هذا « الادب » احتفظ به لبتداوله في خلواته مع خلصائه ، ولم يجرؤ على نشره بين الناس .

وعلى الاديب ايضا ان يراعي تقاليد المجتمع ويلتزم بها ، والا صادف من محتمة بلاء عظيما كان من تقاليد العرب الا يسمحوا بالتشبيب ببناتهم ، فمن تجرا على مخالفة هذا التقليد من المحبين حرم الزواج ممن شبيب بها ، وقصة المجنون وليني ترمز رمزا واضحا الى هذه التقاليد . ولقد يسمح المجتمع الاوربي باقامة تمثال لرجل عار او امرأة عارية في احد الميادين العامة ، ولكن ذلك غير مقبول في العالم العربي . وكان الكرم تقليدا من تقاليد العرب ، وكانوا يبالفون فيه الى درجة الافلاس ، ولم يجرؤ شاعر عربي واحد على ذم الاسراف في الكرم بأي منطق اقتصادي ، كما لم نسمع شاعرا واحدا يرثي للموءودة التلسة ، او ينهي عن الفارة بأي مسطق انساني ، لان واد البنات والفارة كانا من تقاليد المجتمع العربي والاديب ملتزم بالتقاليد .

والتزام الاديب بالاخلاق لا يحتاج الى تأكيد . ومن الادباء من تحدى المقاييس الخلقية فأصبح صنيعه ممجوجا ، وأصبح ادبه بضاعة محرمة على مر العصور ، منذ الذي يتباهى اليوم بأنه يتذوق أدب ابن حجاج وابن سكرة؟ ومنذ الذي يستطيع ان يعجب بقصيدة من شعر الغزل بالمذكر على ملا من الناس ؟ حقا ان الادب فيما بعد العصر العباسي قد جعل الحبيب مذكرا في كل حال ، وخاطب الحبيبة بلفظ « يا حبيبي » ، ولكن ذلك لا يعد من قبيل الغزل بالمذكر ، ولا من آثاره في الشعر ، وانما يعد من قبيل الابهام والتعميم ، وهما امران محمودان في الادب ، وهكذا صار « الحبيب »

دالا على المذتر والمؤنت كما دل عليهما العدو والصديق . ولا يجرؤ واحد من الادباء على ذم فضيلة او مدح رذيلة ، والا عده الناس خارجا على الاخلاق .

والادباء فى المجتمعات المتدينة ملتزمون بالدين ايضا . حتى فى المجتمعات غير المتدينة قل ان يسخر اديب من امر ديني ، ومن ثم يكون التزامه بالدين امتناعا سلبيا عن التعرض له او الخوض فيه . واذا بدا للاديب ان يستخدم من الامور ما يتنافى مع عقيدته احترس فى كلامه كما فعل شوقي فى قصيدته التى قالها فى المعلم اذ يقول :

لو كنت اعتقد المسيح وخطبه لجعلت من صلب المسيح دليلا

وهكذا استدل شوقي بأمر لا يعتقده ، واحترس ان يعترض عليه بعدم الالتزام بعبارة « لو كنت اعتقد » ، ونو لم يفعل لو رد عليه الاعتراض ، وشوقي نفسه هو الذي لم يشأ ان يصدى شعور المسيحيين من مواطنة فى مصر عندما تكلم عن تحويل كنيسة ايا صوفيا بالقسطنطينية الى مسجد ، فخفف من فكرة التحويل بالقهر والفلبة ، حتى جعلها فى صورة الاهداء :

كنيسة آلت الى مسجد هدية السيد للسيد

فجعل المسيح نفسه يهدي هذه الكنيسة الى محمد عليهما السلام . الى هذا الحد يلتزم الاديب بالدين ، باعتبار الدين عقيدة للمجتمع ، ومن ثم يصبح من التراث الاجتماعى الذى يلتزم به الاديب .

ونصل بعد هذا التطواف الى التزام الاديب بالصالح العام ، وهو موضوع الخلاف المحتدم بين نقاد الادب ، بل هو الموضوع الذى تختلط فيه وظيفة الادب بوظيفة الدعاية ، فلا يدري متى تنتهى هذه وتبدا تلك . وفى رأيي ان التزام الاديب بصالح المجتمع لا يمكن ان يعبر عنه بعبارات ايجابية ، لاننا لا نستطيع ان نصنف من الامور ما يشتمل عليه صالح المجتمع ، لنقول : ينبغى ان يلتزم الاديب بكذا وكذا . ولكن الايسر ان

نعبّر عن ذلك بالسلب ، فنجعل صالح المجتمع بالحماية دون المحظورات التي لا ينبغي للاديب ان يقع فيها . فالاديب لا يمس مقدسات المجتمع ، ولا يدعو الى تخريب ، ولا يتحلل من تقاليد ، ولا يشكك في تراث الامة ومقوماتها كاللغة والدين والتراث ، ولا يدعو الى التخلي عن النظام الاسرى ولا الاجتماعي ، ولا يمدح الاعداء ولا يبالغ في تصوير قوتهم على صورة تدعو الى الوهن في العزائم ، ولا يسنهنين بقوتهم الى درجة تدعو الى الاحساس بأمان زائف ، ولا يهجو أمته كما هجا الشاعر القديم قومه :

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا

أما في القضايا السياسية والاقتصادية التي تختلف فيها الاجتهادات ولا تعد من التراث العام في المجتمع ، فلا يكون التزام الاديب الا برأيه فقط، وله الحق كل الحق ان يستمتع بحرية رأيه في هذا المجال . فاذا التزم برأيه ودعا له فلا ينبغي ان يعد ذلك طعنا في أدبه ، لانه انما يدافع بأدبه عن رأيه وان اتخذ دفاعه صورة الدعاية . ومن هنا يصبح التفريق بين التزام والتزام في هذه النقطة الاخيرة من الامور الصعبة المفتوحة للنقاش .

واذا صح لي ان الخص هذا المقال في عبارة موجزة فاني افضل ان اضح هذه العبارة على الصورة الآتية :

الفنان حر في موقفه النفسي ملتزم في موقفه الاجتماعي .

د. تمام حسان

الرباط

قصة:

كاتبٌ وموتٌ السَّماو...!!

عبدالكريم غلاب

لم يكن يدري كم انصرم من الليل ، ولكن الذى شعر به وهو يرفع عينين ارهقهما التحديق والتقاط الكلمات ، فى غرفة ضيقة اطبقت عليها سحب من دخان ثقيل ، انه اشرف على النهاية .

قليلة هى الكتب التى التهمها فى ليلة واحدة . فقد كانت الغرفة الباردة تطبق عليه بسقفها وكأنه يناجى ارضيتها بكلمات ود تكاد تجمع بينهما . كانت الليالى الباردة طويلة مملة فى غرفته الضيقة بسراجها الكابى وانفاسها اللاهثة ، تبدو لعينيه كمعجوز تتنفس برئة واحدة .

دخينة ثم اخرى ، بعد ان يرمى بأخر كراسة صححها — وكأنه يرمى بأخر اتعاب النهار — ثم يأخذ النوم بأجفانه فى عناقه الودى .

مع « لوليتا » احس لأول مرة بهدوء يظف الكون : الجدران الاربعة والسقف المنحدر ، والسرير الذى كتم انفاسه — ولم يكن يتحرك منه الا عيناه فى مسيرتهما التلقائية — الدخان اطبق على الغرفة فلم يعد سراجها الخابى يخرق كونه ذاك الا فى سحبه المكثفة . انفاسه تتردد فى انفعال هى وحدها كانت تؤنس غربة الغرفة التى لا تتردد فيها انفاس الا فى الليل الطويل البارد . لحافه ، يداه تداعبانه ، ترغائنه فوق الراس ، تحتضنانه فى ود ، ظهره يحتك به ، قدماه تتحسسانه وهما تنقبضان كأنهما فى شوق طويل الى عناق .

مع « لوليتا » لم يكن يدري اكان يحتضنه فراش ولحاف . . . عاش معه ومعها الساعات الحرجة ، ترددت انفاسه او تصاعدت ، عيناه لم تكتحلا بنوم لم تضيقا بدخينات كان يشد انفاسه فى . . . لم يكن يدري اكان يشدها فى عنف ، لم تداعبها شفتاه فى رفق كما كان يفعل احيانا وهو يصحح كراسات التلاميذ . **ممتعة كانت ليلته . . .** لم يكن يدري لم لم يعرفها من قبل « لوليتا » . . . ؟

كلها كانت تطيل نهاره المتعب ، يرمى بها ، كما يرمى بكراسات التلاميذ المتعبة ، بعد الدخينة الاولى والثانية .

« لوليتا » وحدها كانت قادرة على ان تطير من عينيه النوم ، ان يعيش معها فى آفاقها المتمردة على الحياة الهادئة الطبيعية . . . الطبيعية ؟ حياتها تلك هى الطبيعة . . . احساساتها الثائرة اعادت الحياة الى غرفة كان الموت يدب فى اوصالها .

كل هذا الركام ، هؤلاء الذين زاروها ، ثم عادوا من حيث اتوا . كانت الساعات ، الدقائق معهم مملّة ، الحياة مغلفة عذهم بنفاق . احساسيس باردة . كلمات لا تنبض . صناعة ، هؤلاء القصاصون والمؤلفون احترفوها ، وزعوا الادوار فيها بين العقل والمنطق والتاريخ والحاضر والعاطفة . . . خرج الممثلون جميعهم من ادوارهم فاشلين . الحياة تساقطت اوراقها بين ايديهم ، كشفت عن عريهم . كم من الوقت اضاع

— منذ بدا يقرأ — مع هؤلاء العراة . . . دخلوا الغرفة وخرجوا منها :
اوهم استقروا في ركنها المنعزل الضيق ذاك على رف يكاد يهوى ، ين
من « ثقلهم » . لن يؤويهم بعد هذا الرف . « اثنان شيفون . . . » ؟
« الجوطية . . . » لا ، النار ماثوهم خالدين فيها .

« لوليتا » . هذه الجنية التي الهمت الكاتب هي وحدها التي ستقرب
على هذا الرف . . . ستعيش معي ، تحيل هذا الكوخ البارد الى غرفة
دافئة ناعمة موحية يقظة شابة .

« لوليتا » . . . كم انت حية يا « لوليتا » . . !

وضع الكتاب برفق بجانب وسادته .

عاد يتمثر في الظلام بعد ان اطفأ نور مصباحه . تلمس الطريق الى
فراشه ، الى لحافه ، الى وسادته . واحتضنت يداه « لوليتا » . اغمض
عينيه ، بدا يحلم . . .

سلم ضخّم انتصب امامه ، في الهواء رفع قدميه ، يصعد ثم يصعد . لا
درج تعتمد عليها قدماه . لا عوارض تستند اليها يداه ، لا يستبد به خوف من
سقوط . عيذه الى سماء لا تنزلان الى ارض . في دنيا الواقع كان يخشى
ان يتأرجح جسمه بين الارض والسقف فيتهاوى ، وكان يخاف صعود
السلالم الخشبية . نظر مرة الى تحت فهاله البعد . تراقصت الارض
تحت قدميه . اظلت عيناه . دافع عن نفسه ويداه تشبثان بالعارضين .
اهتدى . رفع راسه الى اعلى ، خطا وهو يتحسس بقدميه درج السلم
كما يتحسس اعمى . وصعد . في الحلم اهتدى بالتجربة . لم ينظر الى
تحت ، رفع عينيه الى اعلى . وصعد . . .

افاق من نومه على اطلالة شمس كانت تتلصص بين الجدران
السامة تسترق من النافذة الضيقة نظرة على الغرفة الفارقة في الرطوبة
والبرودة ، وكأنها تقول : ها انا ذى . . . ! من الاطلالة المبتسرة كان

يدرك ان الوقت ضحى . كانت عيناه تنتظران هذه الاطلالة ضحى يوم
الاحد ، وفي الاصبح التى لا يختلف فيها الى المدرسة . يحس بالغربة فى
الغرفة الضيقة ، لا تتجاوب معه حتى جدرانها ، ويشعر بالانس فى هذا
الغزل البرئى الذى تشرق معه الغرفة اشراقاً بريئة كأنها ابتسامة سيدة
حزينة لا تلبث ان تنطفىء .

مع الابتسامة المشرقة رفع راسه عن وسادته وما تزال ذراعاها
تحتضنان « لوليتا » فرك عينيه ، ما تزال بهما بقية من حلم . خيل اليه
'نه قضى ليله الطويل يحلم . رمى بذراعيه فى الفضاء وكأنه يستزيد : اصعد
... . اصعد .

اعاده الواقع الى فراشه الصلب ، جاثما على ارض صلبة تشده
اليها فى قسوة . القى نظرة حوالية : الفراغ — لولا الابتسامة التى اطالت
اطالاتها — غراف الماء . الكرسي الاعرج والمكتب القديم . دفاتر التلاميذ
مزروعة عليه فى غير نظام : لا بد انه كان يلقي بها فى سخط مثير . كل
منها يجسد عقلا بليدا لا يكاد يقيم اود جملة .

— هكذا كنت وانت فى سنهم . . .

وأبتسم وهو يذكر للمرة الالف الاستاذ الذى كان يثور فى وجهه كلما
اخطأ . يهم ان يرميه بحذائه ، بعد ان تتخلص اذناه من قبضته ، لولا ان
مدير المدرسة كان يشدد فى منع العقوبة البدنية . . .

بجانب مكتب مايزال وفيما منذ اشتراه اخوه من « الجوطية » يثوى
رف ركام الكتب الفارغة . بدت له الغرفة واسعة فى فراغها . ضاقت
فجأة والابتسامة تغور . وقف يتحرك فى الغرفة الباردة الوخيمة . امام
المرآة اكتشف وجهه لأول مرة . واقفا مفتوح العينين كان يحلم :

وجه اديب . لم لا . . . ؟ عينان تقفز منهما الحدة . ذكاء ؟

جحظت عيناه فى وجه المرآة كأنه يريد ان يكتشف ، كأنه فوجيء

بجدید علی صفحتها الغائمة . ارتفعت انامله الى ذقنه تتلمس منابت
لحيته . نظر شزرا الى آلة الحلاقة . وداعا الى غير لقاء . . . مشط كان
يثوى بجانب المرأة . انت الآخر : وداعا الى غير لقاء . . . همت يـداد
ان تكسره . لا ، اتركه حطاما للماضي يملأ فراغ الغرفة . كم من اشياء
فارغة تملأ الفراغ . . . مكتب ، دفاتر ، غراف ولا ماء ، مشط . وارتفعت
انامله في تلقائية تمسد شعره الى وراء . ارتجفت بنـدم . تحركت الى
امام ، يمين ، شمال . بدا شعره منفوشا عاد الى المرأة يستشيرها :

وجه اديب ؟

مايزال في حاجة الى مزيد : الراس حديثة عهد بالمعلم الحلاق .
الذقن في حاجة الى اسابيع . . .

اختفت الصورة وعيناه تجحطان في الوجه الزجاجي الغائم . بدت
الصورة الجديدة ، عينان حمراوان زائفتان ، الراس الفارقة في الشعر
المنفوش كما لو كان خارجا من معركة ، وجه طفع بلحية ثائرة ، اختفت
الفتوة ، النبضارة . صفرة تجل الساحل الذي لم تدهمه ثورة الموج .
حدقتان يغلفهما سواد .

افتر ثفره عن ابتسامة ، استطالت اسنانه خربت جذورها ، شىء
ما اقتحم صفاءها ، صحتها ، احوالها الى اطلال خربة ، اتسعت
الابتسامة :

اديب وحق السماء . . . !

كادت عيناه ترتفعان وهو يذكر السماء ، ارتدتا ، كان هناك سقف
يطبق . . .

السماء . . . ؟ اية سماء . . . ؟

قهقه الوجه الفارق فى الشعر المنفوش ، بدا كما لو كان يجادل
وجه المرأة :

اديب وحق نفسى . . .

عادت ابتسامة الرضى تجلل الوجه الفارق فى الظلام ، انامله تمتد
الى دخينة ، حلقه هو الآخر احس بحشرجة تدغدغ اوتاره ، او قد الدخينة
فى عصبية ، كانت الشعلة تهتز بين انامله ، الدخينة ترتعش بين شفثيه ،
تقترب احدهما من الاخرى وهى تبتعد ، التحمت النار بالعشب فى
لقائهما الابدى . . .

عاد الى الوجه الزجاجى الغائم ، اختفت الصورة ، بدت الصورة
الحقيقية وهو يعود من حلمه ، ماتزال اصابعه تداعب خديه فى رفق :
سأريحكما من هذه الموسيقى اللعينة ، انتما منذ اليوم حران ، تمتعا
بالدفء ، بالطبيعة ، برفقة الخصب والنماء . . . عادت انامله تنفث
شعر راسه ، ابتسم ، ماتزال اسنانه فى بياضها وجمالها وصحتها .

سأكون اديبا . . عظيما . . !

ابتسامة الرضى تجلل وجهه الصبوح مرة اخرى ، نصعت المرأة
كما لو كان شبابها قد عاد اليها ، قهقه ، صوت ماتزال به نعومة .

« لوليتا » . . اين انت يا « لوليتا » ؟

ارتسمت على وجهه علامة حسرة وهو يفكر فى البعيدة . . .

البعيدة . . شفثاه ترتعشان : « لوليتا » .

حانت منه التفاتة الى السرير . « لوليتا » كانت هناك . . .

* * *

خرج محمود من غرفته ، شمس مشرقة دافئة ، اختفت ظلال
السحب من السماء فبدت زرقاء ، كما تبدو سماء يوم ربيعى ، كان شتاء ،
دون امطار ولا برد ولا هواء . شتاء يفر اليه الشماليون لينعموا بالمعجزة ،
ينظرون الى الشمس ، حتى تعشى عيونهم ، وكأنها تختزن اشعة
كل شمس الدنيا ، وكأن اجسامهم تختزن دفئا الى سنوات . بدت له المدينة ،
وكانها هي الاخرى تحتفل بيوم عطلتها : كسولة ، هادئة ، تتمطى في
وداعة فتاة مدللة تود — في الظهيرة — ان تعود الى اغفائها . راقه ان
ينعم بالدفء ، ان يغازل الفتاة المدللة ، ان يسير بخطوات متهاككة ، كما
لو كان يود ان ينام في احضانها . احس بسعادة متناهية ، كان يعبر
شوارع المدينة في سباق مع الزمن ورنين الجرس يطن في اذنيه مؤذنا
ببداية الدرس الاول . اختفى رنين الجرس : السوط الذى كان يلهب
ظهره كجواد عربة . لا درس ، لا رنين . الدنيا متفتحة في يوم عيدها .

قدماه تنطلقان لا يدري الى اين . بدا كسائح يكتشف المدينة لأول
مرة . فى اتجاه الآثار واطلال الماضى انسابت قدماه دون وعى . لا يعرف
عنفا الا القليل . منذ عين مدرسا فى المدينة الحافلة بالشمس والضوء
وهو يود ان يكون يوما ما سائحا .

تسمرت قدماه لا تتحركان . هتف :

— هـى . « لوليتا » .

فى باقة من الفتيان والفتيات كانت كوردة ناهد . هينان اشربت زرقا
مذهبة . الشمس الدافئة اشعت فى خديها اللاهبيين ، قامة مديدة فى غير
اسراف . شعرها الذهبى السبط كان يتموج فى حرية مطلقة تتحرك فى
يقظة : تداعب ، تبتسم ، تنكت والرفيقات والرفاق يضحكون . لا يدري .
هى تتحدث لغة لم يسمعها قط . سويدية ، دانمركية ، فرويجية ،
ايطالية . قد تكون كل ذلك . هى بنت الشمال . قد تكون بنت الجنوب .
معها قضى ليلته : « لوليتا » .

اخذ يطوف بالرفقة السائحة وكأنه يحاول ان يستقبل الشمس فى
كل اتجاه . اقترب ، ابتعد ، حلق بناظريه ، ارفف بأذنيه ، فرفاه .

ود لو فهم ، لتقدمت يده بالتحية . بدا كأطفال السابلة حينما يتجمعون
حول قوافل السائحين .

« لوليتا » . . .

هكذا كانت تهتف اعماقه . تتحرك الكلمات فى احاسيسه ، يسمعها
بأذنيه المرهفتين ، تطفو رويدا رويدا — عيناه مددقتان — الى شفتيه
المرتعشتين : « لوليتا » . . . كانتا تتحركان فى صمت . اصدااء الصمت
كانت تتردد فى دنياه صاخبة عنيفة قوية . لم تكن تسمع الصوت الصاخب ،
لم تكن تلتفت اليه . عيناها تتحركان فى ملتقى نظراته .

من اثر لاثر ، من متحف لمتحف ، محمود يتابع القافلة ، امامها ،
خلفها ، بجانبها . يسترق الكلمة ، النظرة . يكاد يشعر انها تتحدث اليه .
يحس بالسعادة . عند بوابة الفندق الضخم توقف . الرفقة تقتحم
انبوبة فى مقدمتها لوليتا . وبقي حيث هو . . .

عاد محمود ادراجه يقتحم الفراغ الهائل الموحش . المدينة الضاحكة
الوديعة الغافية اصبحت شامخة هائلة من وحدته ، وهو يحث الخطى
الى غرفته .

هناك على الفراش البارد القاحل كانت لوليتا . صورتها الملونة على
الغلاف تستدعيه ، تودعه . نظراتها ساخرة هائلة ، فيها رجاء ، فيها
احتقار . شفاتها الشهيتان تفران عن كلمة ، لا تنطقها . جيدها ، صدرها
العارى يقتحم حيائه . هم ان يتحدث اليها . زاغت عيناه ، فكره سببح
هناك فى مسبح الفندق الفاخر حيث كان جسم لوليتا بتأرجح فى الماء الدافئ
كسمكة صغيرة يحتويها المسبح الضخم . شلال شعرها الراعى سحابة
كثيفة تطفو على الماء لتظل ظهرا الناعم . عيناها الضاحكتان تنعمان
بالدفء فتشيع فيهما البسمة ، هى نفسها الابتسامة التى اغرته بلوليتا .
ذراعاها السابحتان تحتضنان دفقات الماء فى رفق ، تسحب من احضانها
وتعود لتلامس صدرها الناهد وكأنها دفقات لذة كاسحة . . .

عاد الى واقعه وبقيت هناك .

عاش محمود عاشقا ولهانا . عاشت معه لوليتا فى احلامه ويقظته
تطفو عيناها المشرقتان على واقعه المر وهو يعانق دفاتر التلاميذ ،
تعترضه قامتها المديدة وهو يسير حثيثا الى المدرسة ، ترن ضحكتها
الصافية فى اذنيه فتعلو على ضجيج تلاميذه .

« لوليتا » ، هذه الساحرة التى الهمت محمودا ان يكون اديبا ،
فكان .

على دفتر من هذه الدفاتر التى لا تكاد تريم عن مكتبه القديم بدا قلمه
يخط الكلمات . استعصت ، تأبت . فكانت الدخينة مفتاحه الى المنطلق .
وكان كأس الشاي ، كأس القهوة . . . وماتزال عصية متأبية . صاحب
« لوليتا » كان يقتحم عالمها بغير الدخينة ولا بالشاي والقهوة . وكانت
الكأس التى لا يحب ان يراها فارغة ولا مليئة ...

نظر فى المرآة : راس جديرة بكاتب اديب . . . مشط ؟ : صناعة
البورجوازيين ، الماء ؟ الماء والمشط والكحل واحمر الشفاه هى لك جميعا
يا « لوليتا » . . . الذقن التى استراحت من موسى نبتت اعشابها هنا
وهناك ثائرة متمردة تنبىء بعصر الثورات . . . والتمردات . . . عينان ،
موجة من السحب الحمراء زحفت على صفائهما ، يفتحهما فى ثقل على غير
بعد ، كما لو كانتا لا تحتملان انوار السماء . ربطة عنق ؟ هذا القيد
البورجوازى الذى يطوق عنقه فى غير رحمة روى به فى ركن المهملات .
ماتزال به بقايا من عالم غير الموهوبين . قميص نظيفة ؟ ستأخذ الوان
الطبيعة . . . سراويل ؟ ستضيق وتتمزق ويستحيل لونها الى امنسـا
الغبراء . . .

وبدا الاديب الكاتب يحل فى محمود .

مع الليل والهدوء والنور الخابى وفراغ الغرفة والدخينة تغلف
الفضاء بلون الرماد يسهر حتى يسمع صياح الديك . دفاتر التلاميذ تظل
فى محفظاتهم . شبوا عن الطوق . اصبحوا فى غير حاجة الى تصحيح .

— سيخرجون من المدرسة وهم يتعثرون في الكلمات . . . ؟

صاح محمود وكأنه يجادل خصما قويا :

— ليركبهم الشيطان او ليفعل بهم ما يشاء . انا ايضا خرجت من المدرسة وانا اتعثر في الكلمات . . .

مع دفتر من دفاتر المدرسة ، كتلميذ مجتهد ، كان يسهر الليل ويكتب القصة . « لوليتا » لا تبرح وسادته . . . كتاب « كيف تكتب قصة ناجحة » صديقه الودود في الشارع والمقهى والحديقة العامة .
الشكل . المضمون .

استعصت الكلمات ، نضب الوحي . الدخينة ، الكأس ، لم تعد اى منهما تثير انفعاله . لا وحي منهما عليهما اللعنة . . .

تاھت قدماء في الشوارع ، في الحارات الضيقة . هناك في كوة تشبه الدكان تخيم في جوانبها العنكبوت ، البرودة والوخم والفراغ والمعلم « صابر » ومخرطته وادواته الدقيقة ، وعصاه السحرية تدير دولا ب المخرطة . بين اصابع قدمه ويده تخرج المعجزة الفنية من قطعة خشب تافهة . توقف امام الفنان صابر كسائح قدم من شمال اوروبا — كما لو توقفت « لوليتا » — بهره الفن والصناعة والقطع المخرطة الدقيقة .
الكلمات الفنية التى تصنع سر القصة .

— المعلم صابر فنان يكتب قصة رائعة بقطعه الصغيرة ، تخرج من بين اصابع يده وقدمه ، من تلافيف عقله الذى يكمن هنا . . .

ودقت سبابته على جبهته كأنما تشير الى مكن حقيقة الفن .

توقفت اليد السحرية تدير المخرطة في سرعة ودقة . رفع المعلم صابر راسه من بين قدميه تجلله عمامة ضخمة . نظارة متهاكة تتوى بين عينه . رفع النظارة التى ضيبتها العرق يند من جبهته وعينيه وخديه

جميعا . عرق الشتاء البارد نـد عن اجهاد . مر بكمة المـزقة على جبهته وذقنه المبعثرة هنا وهناك . اخذ نفسا عميقا . امتدت يـداه الى غليونه الصغير بقصبته الدقيقة . نفث فيه نفخة قوية . احتضن ابهامه ووسطاه « شقفته » ، سبابته تحشوها في رفق . توقفت عيناه عند الشقفة المليئة . عينا محمود تتبمان بدقمة العملية الفنية . كم هي هزيلة تافهة ان تحمل دخينة جاهزة بين اصبعيك ثم توقد فيها النار . . . المعلم صابر فنان يكتب قصة ناجحة بكلمات فنية رائعة تصدر عن مخرطته . اصابعه جميعا تحتضن الشقفة الحبيبة . ود لو امتدت يـداه بعود وقيد . تحسست يسراه علبة الوقيد في جيبه . كان المعلم صابر اسرع من امنيته . اتقدت الشقفة بين اصابعه . ارتمى عود الوقيد ، وهو يلفظ انثاسه ، على مقربة من محمود . تعلقـت عيناه بالجمرة الالهية ، بشدق المعلم تغوران وهما تمتصان فم « السبسي » . لم ينفث دخانه كما تعود محمود ان ينفث دخان دخينته ، فتح فمه في عفوية ، ترك دخانه الحبيب يجال الوجه المعروق ، يدخن اللحية المنفوشة . برزت اسنان ناتئة هنا وهناك ، مهترئة متأكلة مسودة . شد نفسين عميقين . دارت عيناه في محجريهما . نفث نفخة قوية ، طارت الجمرة الالهية ، وقعت على مقربة من محمود . ماتزال بها بقية من « كيف » تعلقـت عيناه بها ، تصاعدت منها رائحة ذكية داعبت انفه . امتدت اليـد المعروقة الى المخرطة مرة اخرى ، اقوى ما تكون يـدا واروع ما تكون مخرطة لتصنع التحف الفنية الرائعة من قطع خشبية تافهة .

ود محمود لو يسأل المعلم صابر . الفنان منهمك في كتابة رائعته . تحركت قدماه ليترك الفنان في وحدته مع الفراغ والمخرطة وقطع الفن و « السبسي » . . .

في ركن الحارة كان هناك :

— اتريد . . . ؟

— نعم . . . وسأعب منها حتى يتفجر الفن من هذه الراس التي استعصت عليها الكلمات .

ومن بين اصبعى هذه سأكتب قصة تزرى بما يصنع الفنان صابر
من تحف .

عرفت الغرفة الباردة دخانا اكثر قتامة . مع الليل والهدوء والبرودة
والرطوبة والوخم كان محمود يسبح في بحر الظلمات . . . لوليتا وحدها
كانت تنير ممددة على الوسادة وكان السبسي يسخر من علبة الدخائن
الجاهزة ، وكانت الكأس التى تتأبى على الفراغ والملء . . .

ويبقى الحب . . حتى يكتب عن موضوع . .

احب شمالية رائعة ، سامقة كأشجار الشمال ، بيضاء كثلوجه ،
عينها تسبح في بحاره . شعرها . . آه . . تجلله صفرة الشمس الواهنة
في صيف شمالية البارد . بدا يكتب عنها قصته . كانت هنا سائحة معجبة
مولهة بشمس مدينته . احبته ، هامت في عينيه وذقنه ورأسه وغرفته .
لوليتا تركت مكانها للحب الجديد . على سريرته المتهالك كانت السويد
تحنى هامتها للدفع والفحولة والربيع الحى . . .

وسارت القصة تروى الظما من ادب الجنس : لوليتا ، وكيف تكتب
قصة ناجحة ، والشمالية التى ختمت الفصل الاول من القصة
بشبقها العارى . . .

عند الشبق العارى توقف الالهام . كل امنيته تحققت ، منذ رآها ،
مع الاطلال ، تتجول في شوارع المدينة وهو يريد لها لتكون لوليتاه تحنى
هامة السويد للوسادة التى داعبت لوليتا احلامها . توقفت الكلمات عند
شبقه . . . كان يبدو راضيا . عاش معها ، روت شبقها ، روى شبقه .
فتح بوابة الادب على مصراعيه ، سيكون كاتباً ، يشار اليه في شوارع
المدينة : معشوق الشمالية الفاتنة . . . !

راود الكلمات لينهى بقية القصة . استعصت . تحجر القلم بين
يديه . لا الكأس ، لا السبسي ، لا الدخينة اثار انفعال في اردان
القلم المتحجر .

كانت شوارع المدينة التى زفرت فيها جهنم كما تزفر كل صيف
مسرى اقدامه المتهاكة . يسير ثم يسير ، ولا يستريح الا على مقعد
متهاو فى مقهى تشرف على « جامع الفنا » . فاجأه الصوت المتحشرج
يصحبه الوجه الباسم :

— استضيفنا على كأس شاي ... ؟

على كأس الشاي كان حديث الثلاثة يروى ثلاث قصص انتهت
جميعها بكأس شاي فى مقهى يطل على جامع الفنا . ضحك الشاب
الاشقر ذو الوجه الضخم ، الذقن الثائرة ، الشعر المنفوش ، بقايا
« بلودجين » وسترة ممزقة :

— ارضكم غير معطاء .

لم يفتح محمود فمه استغرابا ، فتح اذنيه لسمع المزيد ، اتسعت
ابتسامة الفتاة :

— كيف ينبت بين الصخور . . لا يحرك حتى الصخور . . موضة
قديمة . . انتم فى عصر النباتات . . حتى الحقن ولى زمانها ، قطرة
ماء على قطعة سكر تنقلك الى عالم آخر . . .

فغر محمود فمه وعينه واذنيه جميعا . تحدثت عضلاته ، تحركت
اعصابه . تحدث الى نفسه او تحدثت اليه :

— فرجت . . . ابواب الالهام ستفتح ، كاتب كبير وحق . .
(ال — اس — دى) . . .

وانطلق الصوت الناعم ينتشله من احلامه وابتسامة عريضة تطلق
كهالة رائقة على الوجه الضحوك :

— هل جربت ؟

لم تنتظر جوابا :

— جرب . . جرب . . عشرون درهما تنقلك على جناحي ملاك ،
الى عالم لم تعرفه . . واضح انك تحتمل . . انت فنان ، كاتب ، الفن
في حاجة الى . . .

لم يعد يصفى الى بقية حديثها . اخذ يفكر في العشرين درهما . . .
الكأس والسبسي والدخينة وعشرون درهما اخرى . . ومرتب المدرسة
لم يتحرك . . ! ساكون كاتباً تدر قصصى على المال . .

— نعم سأجرب . . .

اصبح محمود صديقا للشاب ذى السراويل الممزقة والسترة المهترئة
. . تمزقت سراويله . حال لون سترته . ومايزال يتردد على المدرسة
وفى طريقه الى الغرفة التى شهدت ميلاده الجديد كان دائما مقهى
« جامع الفنا »

المرآة . . السبسي . . الكأس المليئة الفارغة ، ، ال — اس — دى
الاقلام المكسرة . . . ودفتر تلميذ .

استعصت الكلمات الا حينما تنطق هاتفه بشبق السويد . . .
اختفى مفعول السبسي والدخينة والكأس وال — اس — دى . . .
وقف محمود عاريا من كل ادواته .

هل مايزال الفن ينطلق من بين اصابع المعلم صابر ؟

كان هناك فى مثل وقفته منذ بضعة اشهر . ماتزال القطع الخشبية
تطاوع بنانه ، المخرطة تدور وشقفة « السبسي » تمتلىء ثم ينفث جمرتها
الملتهبه ، وبقايا رائحة ذكية تعطر الحارة الصغيرة . . .

— المعلم صابر . . .

تلفت محمود . كان الصوت يصدر عن دكان صغير مقابل . العنكبوت والبرودة والوخم والفراغ . والمعلم العربي يجدل شريطا حريريا ملونا تجاذب اطرافه عصا قوية غليظة تقتعد فلكة رحي . نظارته بين عينيه . اضاف الصوت الهادىء الناعم فى اطمئنان :

— . . . كيف انتهت قصتكما امس ؟

لم يكن المعلم صابر فى حاجة الى زيادة توضيح . لم يرفع راسه عن مخرطته . انطلق صوته المتحشرج يتابع يده القوية وهى تدير دولاب المخرطة :

— اين للحمار ان يفرق بين سكينجبير والابزار . . . ! ؟

قهقهه ، فى احتقار ، لم يرفع راسه وهو يضيف :

— اين له ان يفهم . الصنعة . . الفن . . بماله يستطيع ان يشتري ، ولكنه لا يستطيع ان يتذوق . . .

هدات المخرطة . افتك القطعة الرائعة من مخابيها . امسك بها بين اصابعه كما لو كان شاعرا يتذوق نتاجه .

— المعلم العربى . . .

تقابل الرجلان الفنانان بعينيهما اللامعتين . كان محمود يتتبع حديثهما يتردد بين جانبى الحارة ، وكأنهما يتحدثان فى مجلس خاص .

اضاف المعلم صابر وعيناه مثبتتان على القطعة الفنية تدور بين اصابعه :

— . . . هذه القطعة ، كالشريط الحريرى بين يديك ، لا يستطيع

اى كان ان يصنعهما . . .

اجاب المعلم العربى :

— الخشب والحريـر بين يـدى كل انسان ، ولكن الصنعة . . . الفن
لا يستطيعه الا فنان . . .

اهتزت اطراف المعلم صابر وهو يضحك بحشـرجة :

— كم من نجار فى المـدينة ، ولا يستطيعون ان يصنعوا غير
التوابيت . . . !

قهقه المعلم العربى بصوته الناعم المطمئن وهو يضيف :

— . . . كم من مجـدلى فى المـدينة ولا يستطيعون ان يـجدلوا غير
الحبال . . .

امتدت يدا المعلم صابر فى هدوء الى غليونـه . اتقدت وقيدة وهى
تقترب من شقفة السبسى لتنير وجه الفنان . بدت سعادته ورضاه فى
الخدود المعروقة والعينين المثقلتين . ونفث الجـمرة المتقدة فى اتجاه
محمود : بقية نار تحمل بقية دخان داعبت خياشيمه ، ثم لم تلبث
ان خمدت . . .

الرباط

عبد الكريم غلاب

النضال*

في الشعر العربي بالمغرب

من 1830 إلى 1912

د. عباس أجزاري

لا بد لنا ان نقول في بداية هذا البحث ان موضوع ((النضال في الشعر العربي بالمغرب)) يتسم بالاتساع والصعوبة ، هو متسع لأنه بدأ منذ بدأ الشاعر المغربي يتوسل باللغة العربية لتنشيط وجدانه وفكره وجعلهما قادرين على التوجيه والتصحيح ، وللتعبير عن موقفه في الصراع الذي كان دائرا على الدوام في هذا البلد من أجل النود عن الحرية والكرامة ومن أجل الدفاع عن الكيان والحفاظ على الوجود ومن أجل الأحسن والأفضل وعلى جميع المستويات .

ثم هو صعب بسبب قلة وتشتت المادة الشعرية التي وصلتنا عبر هذه الفترات الطويلة الممتدة في التاريخ وكذلك بسبب غموض كثير من الظروف التي عاشها المجتمع المغربي والتي يكمن فيها تفسير الكثير من

(*) نص البحث الذي قدمه الكاتب لمؤتمر الادباء العرب العاشر المنعقد في الجزائر من 25 ابريل الى 2 مايو 1975 .

ظواهر الشعر وملامحه ولكنها للأسف ما زالت تاريخيا واجتماعيا لم تحلل لكي تعرف حقيقتها ، انطلاقا من تركيب المجتمع وتياراته وطبيعة العلاقات بين افراده وطبقاته ثم بينه وبين المجتمعات القريبة له والبعيدة .

واذا كان غير ممكن في مجال هذا البحث المحدود ان نلج باطراف الموضوع ولو في خطوطه العامة ، فقد ارتأينا ان نحصره في مرحلة تبدأ مع دخول الاستعمار الى قلب الشمال الافريقي متمثلا في احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 وتنتهي ببداية عهد الحماية في المغرب سنة 1912 .

وليس من شك في ان حادث احتلال الجزائر يعتبر بداية مرحلة جديدة في المغرب والشمال الافريقي عامة لانه كان بمثابة الناقوس الذي دق ينذر بالخطر في المنطقة . وقد افاق المغرب من سباته بالفعل ، وكان ممكنا ان تبدأ النهضة الحديثة - ولو متاخرة عن نهضة المشرق - وكانت قد تسرت لها اسباب متلاحقة ، لعل هذه اهمها :

اولا : البعث العلمية التي وجهت الى مصر على عهد السلطان محمد ابن عبد الرحمان ثم الى اوربا ايام الحسن الاول .

ثانيا : المحاولات المتعددة لاصلاح اجهزة الادارة وتطوير التعليم وتنظيم الجيش وبعث الاسطول وتنشيط حركة الصناعة والتجارة وضبط العملة واعادة النظر في مختلف مرافق الدولة سواء على الصعيد الداخلي او الخارجي . وهي محاولات كان مضطرا الى اللجوء اليها لمعالجة الاوضاع التي توالى الاحداث لتعري بنياتها المهزوزة وهاكلها الفارغة ثم لتكشف عن انهيارها وعدم قدرتها على الصمود .

ثالثا : دخول المطبعة الى المغرب من باريس عام 1859 ومن مصر سنة 1865 ثم توالى المطابع بعد ذلك .

رابعا : ظهور الصحافة ابتداء من 1889 ، وهي السنة التي صدرت فيها اول جريدة اسبوعية ، وكانت تصدر بطنجة وتسمى « المغرب » . ثم تلتها صحف اخرى غير قليلة .

ولكن هذه العوامل لم تشر حيث وجدت عوائق كثيرة حالت دون ظهور النهضة :

أولها : الظروف الداخلية والخارجية التي كان يعاني منها المغرب نتيجة الانهالك الذي أصابه - كما سنرى بعد - على اثر مواجهته لفرنسا فى وقعة ايسلي ثم لاسبانيا فى حرب تطوان ، تلکم المواجهة التي اضطر اليها عقب مساندته للجزائر والتي فتحت عليه باب المناوشات والتدخلات الى ان كان عقد الحماية .

ثانيها : طبيعة البعث التي وجهت للخارج اذ لم يكن يقصد منها الى التعليم الطويل بقدر ما كان يقصد الى التكوين السريع والتدريب العملي على بعض التقنيات . ومن ثم لم تمس حركتها اى جانب من ميدان الفكر يمكن ان يكون له تأثير فى العمق .

ثالثها : اقتصار المطابع على اخراج بعض الكتب الدينية والمتون المقررة فى مجالس الدرس كشمائل الترمذى وشرح ميارة على ابن عاشر ، وهما فى طليعة الكتب التي نشرت يومئذ .

رابعها : عدم وجود راي عام وطني واع يبلور اختيارات الشعب ومطامحه . والمسؤولية فى ذلك تقع على القيادة السياسية التي كانت تسعى او تسعى من حولها لحماية مكاسبهم على حساب الشعب الذي كان مسلوب الازادة . وما تجميد المسؤولين للخريجين الذين عادوا من البعثات الموفدة للخارج الا مظهرا لذلك . والمسؤولية تقع كذلك على العلماء ورجال الفكر الذين قطعوا ما بينهم وبين الجماهير من رباط فلم تعد لهم - على الصعيد المجتمعى - اية مبادرة ولا اى دور قيادى ولا اى صوت مسموع الا ما كان من صوت الوعظ والارشاد . وحتى هذا الصوت فقد كان غالبا ما يضيع فى زحمة الصراع من اجل المصالح والتهافت على تحقيقها بكل الوسائل . (1)

(1) انظر مقدمتنا لكتاب « الشعر الوطني المغربي على عهد الحماية » ص 6 - 7 .

والشاعر كالأديب والمثقف عامة - مهما كان قادرا بمفرده على تجاوز عصر بتلك الملامح ، فهو لابد متأثر به سلبا وإيجابا ، ولا بد بالتالي لانتاجه ان يكون صورة لهذا العصر .

والشعر فى المرحلة التى حددنا كان قد أصابه من الوهن والضعف ما أخمد فيه روح الجودة والأصالة وما جعله لا ينبض بالحياة ولا يتعمق التجاوب ولا يصدق القول ولا يحمل فى ترنيمات أوزانه وقوافيه ما يندفق العواطف ويبعث فيها الدفء والحرارة . أغلب موضوعاته تدور فى إطار ذاتي خاص من غزل ووصف لمناظر الطبيعة ومجالس اللهو ، وان تعدتة فالى المساجلات والاختونيات والمدائح والمولديات وما إليها من أغراض المناسبات التى صاغها الشعراء نسجا على منوال السابقين ومحاكاة غير جيدة فى غالب الأحيان لنماذج المتقدمين .

ومع ذلك فقد كانت هذه الفترة دقيقة فى تاريخ المغرب نظرا لآزماتها التى هزت كيانه ومستته فى العمق . وفى مثل هذه الأزمات يفرض على الإنسان - على الصعيد الوطنى والقومى - أن يقف موقف المواجهة ليقاوم ويتحدى أو ليرفض ويتمرد أو ليضطر الى اظهار القبول حين العجز عن المقاومة . ولكنه فى كل هذه الحالات يصارع وان تفاوت الصراع فى وجدانه نوعا ودرجة ، طالما أنه لم يستسلم للأمر الواقع . والشاعر باعتباره إنسانا ثم باعتباره فنانا مهيا بحكم طبيعته الحساسة الواعية وبحكم طبيعة دوره القيادى التقويمى التصحيحي أن يكون له موقف طليعى أى موقف مناضل ولو فى إطار ذاته الفردية حين لا يستطيع خلق التفاعل مع ذات الجماعة - تحت تأثيرات معينة - كما هو الشأن بالنسبة لشعرائنا خلال هذه المرحلة . ونعني بالفردية فردية الرؤيا النابعة من الوعي الشخصى بالأمر العام . ولسنا نعني بها تحرك الشاعر متحفزا من حادث يمس شخصه فى حرите وكرامته ، فتلك قضية (2) ترفد موضوع النضال على صعيد الشعر والأدب عامة وفى سائر العصور ومختلف

(2) انظر كتابنا « العربية والأدب » .

أقاليم العروبة . ولكننا لن نتعرض لها طالما أننا حددنا إطار هذا البحث في نطاق الأحداث الوطنية والقومية التي فرضت المواجهة على مستوى يتعدى ذات الفرد الى ذات الأمة .

لذا فمفهوم النضال كما يستخلص من النصوص المحدودة التي توفرت لنا والتي سنعرض أهمها في هذا البحث لا يتعدى مساندة المقاومة الرسمية والشعبية واتخاذ موقف من الأزمات يساير الموقف المسؤول ، وهو موقف مهما كان ضعيفا أو فاترا فهو رافض للانزمام والاستسلام ، إلا حين ينقاد للقدر ؛ يحاول التوعية والتنبيه للخطر وبث روح الحماس وإبعاد عناصر اليأس والتذكير بالقيم التي طرحها دائما مرتبطة بالعقيدة ، كما يحاول وفي حالات قليلة تحليل الوقائع وتعليلها والتنبؤ بما قد ينتج عنها . وسيتضح لنا ذلك من خلال تناولنا لثلاثة أحداث تشكل ثلاث فترات في الأزمة التي عاش المغرب طوال المرحلة المطروحة للبحث وهي :

1 احتلال الجزائر ووقعة ايسلي

2 - حرب تطوان

3 - المناوشات الاستعمارية التي مهدت مباشرة للحماية

* * *

احتلال الجزائر ووقعة ايسلي (3)

يرجع حادث الاحتلال لسببين :

أحدهما مباشر ، وتمثله قضية المروحة المشهورة ، ومجملها أن قنصل فرنسا في الجزائر (دوفال) كان يهنيء الداي حسين باشا بعيد الفطر سنة 1243 هـ فاستفسره الداي عن عدم رد وزير الخارجية الفرنسي على رسائله

(3) انظر في احتلال الجزائر : الاستقصا ج 9 ص 26 واللسان المغرب ص 105 والحركة الوطنية الجزائرية ص 21 (والمصادر المذكورة) وانظر في وقعة ايسلي : الاستقصا ج 9 ص 49 واللسان المغرب ص 135 .

التي يبعثها له في قضية الدين - اذ كانت الجزائر قد اقترضت اموالا لفرنسا مما يدل على تفوق مالي للجزائر لا بد من تسجيله في هذا الصدد مقابل عجز فرنسا عن التسديد - كما استفسره عن امكان التكتائب مباشرة مع المسؤولين الفرنسيين . فكان جواب القنصل - وفي وقاحة واستفزاز ان حكومته لن ترد وان الوزير لن يتنازل لمراسلة من هو دونه . فغضب الداي ورفع مروحة اصابه في وجهه واعتبرت حكومته ان في ذلك اهانة لفرنسا وملكها لوى فيليب ، فطلبت من القنصل ان يوقف اتصالاته بالداي ، واخبرت ان قائد الحملة سيأتي لينال الترضية او ينتقم بالقوة للكرامة الفرنسية المهانة . ورفض الداي قبول شروط فرنسا التي لم تلبث ان فرضت حصارا على البلاد ، ساعدتها عليه المراكز التي كانت الجزائر قد سمحت باقامتها مقابل مبالغ مالية شريطة الا تحصنها او تمنحها بالسلاح .

اما السبب الثاني وهو خفي - فرغبة فرنسا في تحطيم القوة البحرية التي كانت تتمتع بها بلاد الشمال الافريقي والتي كانت تسيطر بها على حوض المتوسط . وكانت فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية تضطر لكي تمر سفنها الى عقد معاهدات ودفع ضرائب ورسوم وتقديم هدايا لولاة وحكام هذا البلاد . ولقد كانت للمغرب عناية خاصة بالأساطيل حيث حاول المولى عبد الرحمن بن هشام تنمية منجزات سيدي محمد بن عبد الله في هذا المجال ، ونظم حراسة السواحل ومراقبة المياه الإقليمية وانزال العقوبات بكل من يمر فيها بدون رخصة او اذن على حد ما حدث مع بواخير النابريال (4) . بل ان قرأ صنتهم ارادوا ان ينتقموا فهاجموا مدينة العرائش التي حاولوا احتلالها لولا ان واجهتهم المقاومة الشعبية وردتهم على الاعقاب . وليس من قبيل المصادفة ان يكون هذا الحادث قد وقع سنة 1245 هـ اي زهاء سنة قبل حادث احتلال الجزائر .

مهما تكن الاسباب فانه حين استفحلت القضية انسحب العثمانيون بعد توقيع ((اتفاق الجزائر)) وتركوا البلاد وشانها ، لان الامر لم يكن يهمهم

(4) انظر التفاصيل في الاستقصا ج 9 ص 24 .

مباشرة ولأنهم كانوا اضعف من ان يواجهوا فرنسا . بل ان السلطان محمود العثماني كان حتى في الظروف العادية يفوض الأمر للوالي التركي لكي يتصرف فيما يظن له مع الحكومة الفرنسية دون ازعاجه بشيء من ذلك . اما تونس فانها لم تتحرك وزادت فرنسا فعينت على عمالة وهران احد البايات التونسيين ، بل ان فرنسا لم تلبث بعد سنوات قليلة ان فرضت عليها الحماية . (5) واضطر المواطنون الى الاعتماد على انفسهم والالتفاف حول زعماء المقاومة الشعبية وخاصة الأمير عبد القادر (6) ، على الرغم من انحراف بعض القبائل التي واثت المحتلين . وعرضت فرنسا منصب الحكم على القائد الشعبي كما انتخبته بعض القبائل المجاهدة سلطانا للجزائر ، ولكنه ابي الا ان يناضل فمد يده للمولى عبد الرحمن بن هشام ملك المغرب وبعث اسئلة لعلماء المغرب حول الوضع في الجزائر (7) . كما ان اهل تلمسان اوفدوا عنهم من يطلب من السلطان قبول بيعتهم ، فكتب يستفتي العلماء في الأمر فافتي معظمهم بالرفض . ومع ذلك قبل البيعة وعين عليهم ابن عمه علي بن سليمان مع تجريدة من الجند والقواد ، يساعده في مهمته القائد ادريس الجراوي الذي كان يومئذ على رأس عمالة وجدة . وتوالى الامدادات المغربية للجزائر واعتبرت فرنسا ان هذا الموقف يلقي الهدنة التي كانت معقودة بينها وبين المغرب منذ عهد سيدي محمد بن عبد الله فشنت غاراتها على الأقاليم المغربية الشرقية وخاصة على بني يزناسن ووجدة وما يدخل في عمالتها ، وكانت هي وغيرها مناطق لتحرك القوات الجزائرية وانطلاقها لاسيما بعد ان تم احتلال جميع القطر

(5) بمعاهدة باردو سنة 1881 م .

(6) 1807 - 1883 م . وانظر مقاومته في الحركة الوطنية الجزائرية ص 49 .

(7) تتصل هذه الاسئلة بقول الشرع في القبائل التي مالت المحتلين وفي المتخلفين عن الدفاع والجهاد وفي المانعين للزكاة والمعونة كما تتصل بالاستفسار عن الطريق المشروع لتمويل جيش المقاومة في مثل هذه الظروف . وقد اجاب غير واحد من العلماء على هذه الاسئلة ونخص بالذكر القاضي عبد الهادي العلوي (انظر جوابه في الميعار الجديد ج 10 ص 205) والقاضي علي التسولي المدعو مديش (ت 1258هـ) وقد كتب الجواب في صيفتين احدهما مختصرة (تنظر في موضعين من الميعار ج 3 ص 42 و ج 10 ص 207) والثانية مطولة وقد طبعت على الحجر . وبالخزانة المباسية نسخة مخطوطة منها .

الجزائري . وتطورت الغارات الى ان كانت معركة ايسلي (8) المفاجئة التي هزم فيها المغرب اشنع هزيمة والتي اضطرته الى عقد معاهدة مع فرنسا (9) كان ملزما بمقتضاها ان يضيق الخناق على عبد القادر الذي لم يلبث ان ارغم على الاستسلام (10) .

حين نبحت في موقف الشعر من هذا الحادث فاننا نصادف شاعرين مدرسيين وشاعرا شعبيا . أما الشاعران المدرسيان - ونسجل انهما كانا مسؤولين في الدولة - فاحدهما هو محمد غريبط (11) ، وتعرف له قصيدة (12) قالها اثر احتلال تلمسان بداها باستنكار تباطؤ المغاربة وعدم تحركهم لمواجهة العدو مذكرا بنواياه وبما كان له في الاندلس :

مالي ارى جفن اهل الغرب وسنانا
من بعد ما اخذ الرومي تلمسانا
كانهم مادروا ماذا يريد بهم
عدو دينهم ، لا نال امكانا
ولا على فعله في دفتر وقفوا
باهل اندلس يابيس ما كانا

(8) سنة 1260 هـ 1844 م وفيها اخذ الجيش المغربي بفتة ولقي الهزيمة في معركة واحدة. وفي نفس الوقت كانت مدافع البحرية الفرنسية تقصف مدينتي طنجة والصويرة .
والحقيقة ان الفرنسيين كانوا يستغلون ادنى سبب للتدخل العسكري على حد ما حدث سنة 1268 هـ حين هجمت البحرية الفرنسية على مدينة سلا (انظر الاستقصا ج 9 ص 62) .

(10) سنة 1264 هـ حيث لجأ الى فرنسا وفيها قضى ست سنوات ثم سمح له بمفادرتها فذهب الى دمشق حيث قضى بقية ايامه الى ان توفي .

(11) المكناسي المتوفى سنة 1280 هـ 1863 م ، كان كاتباً للوديني عامل فاس ثم عينه المولى عبد الرحمن بن هشام وزيرا بعد عزل العامل المذكور لفضيحة خلقية ولكنه لم يلبث ان اعفي من الوزارة ليبقى كاتباً للوزير الجديد محمد الصفار . كذلك استوزر لسيد محمد بن عبد الرحمن حين كان خليفة لوالده . اورد له صاحب فواصل الجمان بعض شعره وقال انه كان بيده الكثير منه ولكنه ضاع حين سلمه لبعض اصدقائه . انظر ترجمته في : الاتحاف ج 4 ص 248 - فواصل الجمان ص 63 - الاعلام لابن ابراهيم ج 5 ص 320 .

(12) انظرها في ذيل « كشف الغمة » للكرودي .

وتساعل بعد ذلك عن وجود رجال المغرب الأبطال :

ايمن الحماية الكماسة ما لهم رقدوا
والكفر في اخذهم ما زال يقظانا ؟

ايمن الأبهة لمس الضيم مالهم
اليه لم ينفروا رجلا وركباناً ؟
ثم وجه الخطاب لاستنهاض الهمم والتحذير من العدو والدعوة
للاسراع بنجدة الجزائريين ومساعدتهم على الخروج مداهم فيه ، وهو
موقف يحتمه الدين :

يا معشر المسلمين استيقظوا وخذوا
من العدا حذرهم سحرا واعلانا

فليس يومن غدرهم وإن بعدوا
فكيف اذ أصبحوا للحد جيرانا
* * *

ونقذوا أهلها من العدو فقد
أراهم من شنيع المكر الوانا

والدين اوجب ان سعى لنصرتهم
بالنفس والمال اشياخا وشبانا

وختم بالحث على الجهاد والموت فيه فهو أفضل موت للمرء الحر
الذي يرجو ثواب الله خاصة وأن العمر لا يتأثر بمواجهة الخطر أو القعود
عنة :

موترا كراما فان الحر يانف من
معيشة تدع الطيم حيرانا

لاموت افضل من موت الجهاد لمن
يرجو من الله رحمة ورضوانا

كونوا صلابا على اهل الصليب فلا
دين لمن لعدو دينه لانا

* * *

وشمروا وانهضوا وسارعوا وعلى
جلاله اخوة كونوا واعوانا

ما قصر العمر اقدام على خطر
ولا اتال الخلود الجبن انسانا

والشاعر الثاني هو محمد بن ادريس الزموري العمراوي الملقب
بـ « السلطان الصغير » (13) وله ثلاث قصائد ،

يقول في الاولى (14) حاثا على الجهاد ومنبها الى الخطر المحقق في
اسلوب خطابي قوى يلح على صيغة التوكيد :

يا اهل مغربنا حثق النفير لكم
الى الجهاد فما فى الحق من غلط

فالشرك من جنات الشرقي جاوركم
من بعد ما سام اهل الدين بالشطط

(13) الذي لقبه هو أحد أولياء فاس كان يعتقد فيه ويخدمه ويعرف بمولاي عمر . كان كاتباً للمولى عبد الرحمن في فترة خلافته للمولى سليمان بفاس ثم وزيرا له بعد توليته الملك . غير أنه تعرض للعزل والسجن سنة 1247 هـ لاتهامه بآثارة بعض الحوادث ثم اطلق سراحه ليسجن مرة ثانية . وبعد الافراج عنه كتب القصائد في استعطاف السلطان وتوسط له بعض اصدقائه فاعاده الى الكتابة ثم الوزارة . ولعله بقي في منصبه الى ان توفي سنة 1264 هـ 1847 م . وهو كما يبدو من الديوان صاحب موهبة وشاعرية نلمحها حين تخف وطأة التصنيع والزخرف المسيطرين على شعره وهو القائل عن نفسه : « لقد غاص فكري فانتقى دررا فنظمها نظام الجواهر » انظره في : الجيش ج 2 ص 148 والسلوة ج 2 ص 362 وفواصل الجمان ص 40 والاتحاف ج 4 ص 189 والاعلام ج 5 ص 263 والسلطان الصغير لعبد الرحمن الفاسي (مجلة رسالة المغرب س 9 ع 47 - 49) ومحمد ابن ادريس لناصر الفاسي (مجلة البحث العلمي س 1 ع 1) والحياة الادبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ص 327 .

(14) انظرها في الديوان ص 402 والحلل البهية ص 211 والاستقصا ج 9 ص 50

فلا يفرتم من لين جانبه
ما عاد قبل على الاسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت
عن دركه فكرة الشبان والشمط
فرائح المكر تبدو من خواتمه
فعنده المكر والمكروه فى نمط
وانتم القصد لا تبقي فى دعة
ان السكون الى الاعداء من السقط
من جاور الشر لا يعدم بوائقه
كيف الحياة مع الحيات فى سبط
قد يغبط الحي فى عز يخلده
وليس حي على نل بمقتبط
ويقول فى الثانية (15) حاثا كذلك على الجهاد باعتباره فرضا على
الجميع ومذكرا بفضائله وانه الوسيلة للنصر اذ به تم نشر الدين وفوز
لرسول والمسلمين :

فرض على كل مسكين وسلطان
حمل السلاح على عباد او ثمان
فحمله شرف عال ومفخرة
خص الاله بها اعز عبدا
لا شيء احسن من صوت السلاح على
الأعناق فى طاعة المولى ورضوان

(15) وهي قصيدة تشتمل على مائتين وعشرين بيتا وتسمى «سرية النصر لاهل هذا العصر»
انظرها فى الحل البهية ص 211 .

فهو الوسيلة في نصر الاله لكم
ونصرة المصطفى اجل عدنان
وليس يجحد فضل حملة ملك
وليس يانف عنه كل خاقان
به نبيكم الاله شرفه
بحملة لامتثال امر رحمان
به ازلت لهذا الدين غريته
وطار صيتا به بكل بلدان
والى نفس الفكرة يدعو في القصيدة الثالثة (16) التي يستهلها بقوله
ينبه المغاربة من الغفلة ويثير فيهم الحماس لمقاومة العدو الذي اصبح بين
ظهرانهم يتها للانقراض عليهم :

يا ساكني القرب الجهاد الجهاد
فالكفر قد شارككم في البلاد
والشرك قد نصب اشراكه
مستعبدا بكيده للعباد
ويا حماة الدين ما صبركم
والمشركون يطلبون البناد
ما هذه الغفلة عن ضدكم
وانتم في الحرب اسد الجبال
وهو في دعوته للجهاد يعرض للوضع الذي حدث عليه الجزائر بعد
الاحتلال ويتوسل بمثل مشهور لعل المغاربة يتخذون منه العبرة :

(16) انظرها في الديوان ص 179 وفي تقديمها ورد ان السلطان « امر ان تقرأ عقب
الصلوات في المساجد وكراسي الوعظ في ادنى البلاد واقصاها » .

واسطة الغرب قد حازها
والأمر جد والبلا في ازدياد
حوى الجزائر ووهرائها
وراع حاضرا بذاك وبساد
مصائب صبت على مشر
يبكي من الاشفاق منها الجماد
* * *

اخوانكم دينا وجيرانكم
اضحوا رعايا الشرك بين اعد
ساموهم هونا وازروا بهم
فى الدين حتى ركنوا لارتداد
وطمعو فيكم فكونوا يسدا
فان ثاقلتم فانتهم مسراد
قد ملكوا الاحرار من غدرهم
وذللوا بالكفرة صعب القياد
من حلقت لحية جار له
فلتكونن لحيته فى اعتداد
كذلك نجد للشاعر ابن ادرىس قصيدة توسلية (7) قالها بعد هزيمة
المغرب فى ايسلي اولها :

سلام يفوق الورد فى الطيب والزهر
ويفضل فى اشراقه الانجم الزهر

(17) انظرها فى الديوان ص 206 والاتحاف ج 5 ص 271 .

ونقتطف منها هذه الآيات :

واني قد استرعت منهم رعية
وحملت من اعباء امرهم اصبرا
اروم لها التوفيق والرشد والهدى
وارجو لها الاسعاد والحفظ واليسرا
وآمل من جدواك كل عناية
ونصرا عزيزا يهدم الشرك والكفرا

* * *

فكن يا رسول الله غوثا لامة
تمت الى عليك بالنسبة الكبرى
فما انزلوا الا ببابك رحلهم
ولا اتخذوا يوما سواك لهم ذخرا
لا استنصروا الا بجاهك فى الوغى
ولا قصدوا فى الخلق زيدا ولا عمرا
ولا حصروا الا عليك رجاءهم
وما قصروا لو خلفوا النهي والامرا
وقد جاوروا من عصابة الكفر امة
تريد بنصب الماكرين لها الجرا

* * *

اجرنا فنعم الجار انت لمن لجأ
ببابك واستكفى بهمتك الاصر
وغر يا رسول الله عزما لامة
دعوك ولب صوتهم واحبهم جبرا
واظهر لها من عز جاهك نصرة
ترد على الأعقاب من سامها ذعرا

وتخلي ديار المسلمين من الصدا
وتكسيها من بعد نجسهم طهرا
وتركهم صرعى بكل ثنية
وتملأها دينا كما ملئت كفرا

واما الشاعر الشعبي الذي تناول حادث الاحتلال فهو الشيخ الالكحل
(18) وهو لا يسير في نفس الخط الذي سار فيه غريط وابن اريس من
حيث النظر الى الحادث واتخاذ موقف في اطار الدعوة الى الجهاد وحمل
السلاح لنصرة الجزائر ورد العدوان ، ولكنه يرد الأمر الى قدر الله ومشيئته
وانه ، فقد قضى ان يرتد العرب ويفشل المسلمون وان يحتل الكفار هذا
الجزء من بلاد العروبة والاسلام :

لعب ابقدرة الله اتعود مرتدين

* * *

اتعود باذن الله سكان للكفرا

ويستشهد على ذلك بقول ينسب للرسول يؤكد ان كفة المسلمين
ستنقلب في آخر الزمان وان القرن الثالث عشر سيشهد قهرهم وذلمهم :

قال الرسول مفتاح دولت لخيار
يابن خلوف (19) راقب شف ما يطرا

آخر الزمان ينعكس وتنقلب ليام
قرن ثالث عشر فيه ابني مرا

يتفقوا على ابلاد تسمى ياكرام
هاذك زاوية فالزمان مذكرا

(18) انظر كتابنا « القصيدة » ص 354 .

(19) لعله يخاطب الشاعر الجزائري الاخضر بن خلوف . ونخشي ان تكون القصيدة ليست
للكحل كما يرويها الحفاظ ولكن لابن خلوف (انظر المصدر السابق)

فيها الولي لمخصص وينذكر بعلوم
جعلو الله عساس اقبال الكفرا
* * *
سبحان مالك الملك الواحد لعظيم
آخر الزمان ماذا تحووز من قهرا
هذا القصاص مذكور عام من اسنين
فى قرن ثالث عشر ابل عبرا
وفى استسلام لقضاء الله وقدره ينتقل للحديث عن الموت والفناء :
لروح فانيـا ولجثاـت مرميـن
مالك لملوك يبقـى اولا بعدها عبرا
سبحان امن اخلقنا بعد العدم كان
من بعد اوجدنا نضحاوا فالتراب مدفونين
* * *
سبحان امن اخلقنا امكون لـكـوان
واجعل اوكيل عنا عزرائيل
ويؤكد فكرة القضاء والقدر فى قوله :
يامالك السمايا عظيم يا جواد
واجميع ما جرى بسبب القدر
وعنده ان المومن الذي يعبد الله يهون عليه تحمل قضائه :
اذا اعبدت ربي اتناـل خير اكثير
اتسلم القدرة الله اولا ترى قهرا
وهو لهذا يوصي بالايمان والاستسلام للقدر فى رضى وعلانية :
احذر اوكون مومن اوخذ التمهيل
سلم اجميع ماكان بالرضا جهرا

فمن علامات هذه الفترة أن يترك صوم رمضان ويذل المصلون والا ينهى
عن المنكر وان يشيع الحرام ويخضع المسلمون لآسياد كفار ، صابرين باكين
منتظرين آجالهم أن تحين :

ثم اتنوح الخلق فيه بالتعراج
رمضان ينهجر ولا تبقى لو جـرا

فيه اهل الصلا مذولين
ايرخصو اولا يبقى في اماكن نكرا

آكل واحد ابلحرام يلها املو
والمومنين تظهر اعليهم الصبرا

او كل واحد ينظر لاجلو
يرضوا ذوك لسياد اسكب العبرا (20)

ولعله واضح ان حادث احتلال الجزائر اذا كان يعتبر تاريخيا
بمثابة الناقوس الذي دق ينذر بالخطر المحقق بالمغرب ، فانه يكشف من
خلال الشعر الذي قاله المفاربة في التجاوب معه عن مدى وعيهم بهذه
الحقيقة . ولقد انطلقوا - الا من استسلم منهم للقدر على حد ما فعل الشاعر
الشعبي - من موقف مفعم بروح اسلامي ينظر الى المحتل كافرا مشركا
تجب محاربته ويتحتم طرده ، وينظر الى المواجهة من خلال الجهاد على
اعتبار ان هذا الجهاد واجب يفرضه الدين وان الشهادة افضل سبيل للموت
والا حياة مع الذل وبجانب الاعداء وخطرهم يهدد

* * *

حرب تطوان :

لا غرابة وقد اتجه الاستعمار بانظاره للمغرب يسعى لتحقيق اطماعه ،
ولا غرابة وقد جربت فرنسا اولى جولاتها في هذا المضمار ، ان نرى
اسبانيا تحاول الظهور في الميدان لتثبت وجودها في المنطقة ولتؤكد -

(20) انظر القصيدة في مجموع مكتبة تطوان وفي الكناش رقم 18 ص 2

للمغرب أولا ثم لفرنسا والدول الأوروبية المتطلعة الى توسيع رقعة نفوذها - قدراتها وامكاناتها حتى تفرض هذا الوجود ، لا سيما بعد ان كشفت ظروف احتلال الجزائر وتدخلات المغرب ثم هزيمة ايسلي عن تخلف اجهزته التسيرية والدفاعية (21) وعجزها عن الصمود ومواجهة المد الاستعماري ورد العدوان ، ولا سيما كذلك وان اسبانيا كانت تحتل مدينتي سبتة ومليلية وانها استغلت موقف المغرب المنهار بعد ايسلي لتستولي (22) على الجزر الجعفرية الواقعة على مقربة من شاطئ المتوسط شرق مدينة مليلية .

هذه هي الدوافع الحقيقية للحرب التي دارت رحاها بين المغرب واسبانيا والتي تسمى بحرب تطوان . وبعد ذلك ياتي السبب المباشر الذي يتحدث عنه المؤرخون (23) ، وهو ان الاسبان - تحديا منهم للمغاربة - خرقوا اتفاقا كان بينهما يقضي بان يقيم كل فريق مكانا للحراسة على الحدود الفاصلة بينهما في منطقة سبتة . وكان هذا الاتفاق يقضي بان يتخذ نصارى هذه المدينة بيوتا من خشب وان تكون لأهل اللانجرة أخصاص من البردي ونحوه . ولكن الاسبان بنوا « بيتا من حجر وطين وجعلوا فيه علامة طاغيتهم المسماة بالكرونة » (24) . ونبه السكان المغاربة لهذا الخرق أول الأمر ، وحين لم يجدوا سامعا لتنبيههم هدموا البيت ولطخوا العلامة المذكورة ، وأغاروا على سبتة وهاجموا الاسبان وقتلوا منهم عددا كبيرا . وثارت ثائرة الاعداء واشترطوا لاعادة الصلح تسليم اثني عشر

(21) وقد اثار ضعف الجيش وسوء تنظيمه اهتمام كثير من العلماء فالفوا رسائل في ضرورة تنظيمه وكيفية هذا التنظيم نذكر منها «رسالة العبد الضعيف الى السلطان الشريف» لابن عزوز وقد ألفها للسلطان المولى عبد الرحمن (مخطوطة في 19 ص بخزانة الرياط العامة رقم 1623 د) كما نذكر كتاب « كشف الغمة ببيان ان حرب النظام حق على هذه الامة » لمحمد بن عبد القادر الكلاي الشهير بالكردودي المتوفى سنة 1261 هـ 1851 م ، وقد وضعه باسم نفس السلطان كما ذكر في المقدمة ، وهو مرتب على عشرة أبواب وخاتمة (مطبوع على الحجر في 111 ص)

(22) سنة 1848 م .

(23) انظر في حرب تطوان : الجيش ج 2 ص 71 والاستقصا ج 9 ص 84 واللسان ص 138 والاعلام ج 5 ص 341 والمجلد الرابع والخامس من تاريخ تطوان .

(24) الاستقصا ج 9 ص 84 .

مغربيا - حددوا بأسمائهم - ليقتلوا . وبعد مباحثات في الموضوع رفض المغرب هذا التحدي انسافر ودخل الحرب ، واحتل الأسبان مدينة تطوان (25) وكانت بينهم وبين المقاربة جولات حربية شارك فيها الجيش الرسمي وقوات المقاومة الشعبية انتهت الى الصلح بين الطرفين والى جلاء القوات الأسبانية عن المدينة بعد احتلال دام زهاء سنتين وثلاثة أشهر مقابل عشرين مليون ريال يدفعها المغرب ، وهو مبلغ عجز عن تسديده مما اضطره الى طلب قروض اجنبية ولا سيما من إنجلترا والى قبول وجود مراقبين اسبان فى مراسي المغرب لاقتطاع المبلغ من مستفادها ، ومقابل استقرار الأسبان فى شاطئ الأطلسي بالموقع المعروف بسنتاكروز الذى تسربوا منه لاحتلال ايفني .

وقد عبر الشعر (26) المغربي عن هذه الازمة سواء فى قالبه المغرب او الملحون وكان لشعراء تطوان المحليين ، وأغلبهم من الفقهاء وطلبة العلم المتأدبين ، أثر كبير فى اغناء مجال القول ، انطلاقا من المعاناة المباشرة والمعاشية اليومية لظروف الحرب ، وان جاء شعرهم ضعيفا ومهلها من حيث الاسلوب بحكم ضيق تكوينهم الفكرى والأدبي وربما انعدامه عند البعض ، وبحكم محدودية شاعريتهم وقدرتهم على التعبير .

ويعتبر المفضل افيلال (27) فى طليعة هؤلاء الشعراء ، وقد اشتهرت قصيدته (28) التى مطلعها :

يادهر قل لي على مه

كسمرت جمع السلامة

وفىها يعرض بنفس فاتر يكاد يقرب من الاستسلام - للوضع الذى آلت اليه مدينته فيخاطبها ويتذكر الأيام الحلوة التى كانت له فيها مع أحبابه

- (25) سنة 1276 هـ 1859 م
(26) كذلك عبر النثر من خلال فن الخطابة ، انظر اربع خطب أوردها صاحب تاريخ تطوان (م 5 ابتداء من ص 236)
(27) المتوفى سنة 1304 هـ
(28) انظرها فى الاستقصا ج 9 ص 92 والاعلام ج 5 ص 350 وتاريخ تطوان م 5 ص 251

واخوانه وينهيها بمخاطبة أهل تطوان يحثهم على الصبر ويدعوهم الى التفاؤل وتفويض الأمر لله حيث الأزمة عنده عابرة كالظل الزائل ، ثم هي مجرد انتقام من الله ، يقول :

يـا آل تطوان صـبرا	فمـا لخطـب ادامـه
دوام حال محـال	وهـل لظـل اقامـة
ان غـاب نجم سـعود	ولـاح نجم شـامـة
فسـوف يـطلع بـدر	يـمحو سـناه ظلامـه
فاعتصموا بـرجاء	وارعوا بـصدق ذمامـه
وحسنوا الظن تنجوا	دنـيا ويـوم القيـامـة
وفوضوا الأمر لله	يـكف عـنا انتقامـه

وبتفاعل أكثر يتناول الفقيه محمد القيسي وقائع الحرب في قصيدته (29) التي يكشف أولها عن مدى رؤياه حيث يقول :

تصبر لحكم الله في قوم اذ جرى
عليهم بانواع الوبال المحتـم
وبعد ان يتحدث عن الحرب وانتصار الاسبان يصف في لقطات
مؤثرة مغادرة السكان للمدينة وخروجهم الى البوادي والاطراف تاركين
كل غال ونفيس ، فرارا بدينهم وكرامتهم من بطش المعتدين :

فمن ذاك خاف الناس من كيد مكرهم
اذا دخلوا غصبا بقتل ومغنم

(29) انظرها في تاريخ تطوان م 5 ص 257 .

وصاح كثير بالعويل وبالبكاء
 وساروا على هجر لارض المراغم
 بهجرتهم فبروا بدين محمد
 به تاركين الكفر فى كفره عم
 وقد تركوا الاملاك والمال والحلى
 وجملة دين فى الرسوم مزمم
 وامتعة شتى اثاثا كثيرة
 ومترك دار من قديم مخدم
 ودينهم اشتروا بصفقة رابح
 وباعوا بها الدنيا بفلس ودرهم
 وتاهوا هياما فى المداشر والقرى
 على حبهم فى الله حب المتيم
 وبعد دخول الفاسدين عليهم
 يدورون فى نهب على كل ماتم
 * * *
 ففي ليلة شاب الشباب لشينها
 كانها يوم الحشر بالدمع والدم
 * * *
 نساء وابكار حسان عوامر
 خرجن بكشف الوجه غير ملثم
 ينحن على حر الفراق تاسفا
 عن الامل والاوطان والاخ والحم
 وهو لا ينسى ان يقدم صورا عن الافعال الشنيعة للمحتلين بعد
 دخولهم المدينة من سلب ونهب وتخريب :
 بها استوطنوا قسرا على رغم انفسنا
 وحلوا بها مثل الجدام المجدم

فكم وسقوا منها اثاثا كثيرة
وما تركوا فيها غنيمة مغنم
كما اخنوا منها المدافع كلها
وآلة حرب من خزين متخيم
واسواقها هدت ودور تهمت
ولا أثر يبقى لكل مهتم
مساجدها أضحت كنيسة كفرهم
ومرط خيل للعدو المؤيم
والنظر الى تطوان بين ماضيها الزاهر الجميل وحاضرها المؤلم
في ظل الاحتلال وبعد هجرة أهلها شغل الفقيه محمد السلاسي في منظومته
(30) التي تكفيها منها هذه الأبيات :

أيا درة البلدان حل بك البسلا
فصرت لأهل كفر ماوى ومنهلا
وقد كنت من نور الهدى بمكانة
تفوق الثريا رفعة وتجملا
تراكم بلواها فباد بهاؤها
وقد عفت الآثار واعتراها البسلا
* * *

فيا أسفى ذاك الجمال وسره
تعطل وانقضى سريعا وأهملا
وصارت محل الكافرين ودارهم
وموطن من فى الكفر حقا تغلفلا
فكم من خنازير وكم من نواقس
وكم من خمور يا أخى وكم طسلا

(30) انظرها فى المصدر السابق ص 263

وحول موضوع الهجرة كذلك يدير الفقيه احمد الجندى قصيدته
(31) التي حاول فيها ابراز موقف السكان فى الدفاع على حد قوله :

بقوة حاربوا الكفار وامتلأوا
أمر الآله وما آتاهم الكدر

حموا حريمهم بأهل دينهم
فليس للكفر فى حريمهم وطـر

ولكنه يوجه التهمة لسكان البادية الذين والوا العدو :

وأما أهل البوادي والعمود معا
فاخوة للنصارى ويلهم كفروا

* * *

سحقا لهم غدروا الاسلام واقتطعوا
جل الآله فما يرضى لهم نظرا

ونفس التهمة نجدها توجه للبوادي فى ابيات (32) الفقيه محمد
ابنوس التي ختمها بقوله محذرا منهم أهل تطوان :

يا آل حاضرة كونوا على حذر
من البوادي وعين الله تحرسكم

واذا كان هؤلاء الفقهاء وغيرهم (33) من الذين نظموا قصائد
ومقطوعات فى حرب تطوان ينتسبون جميعا لهذه المدينة ، فتلك ظاهرة
تستوقف الباحث ليتساءل عن سببها ، قد يكون مجرد ضياع للشعر
الذى قاله غيرهم ، وقد يكون كامنا فى انعدام وعي وطني قادر على

(31) انظرها فى المصدر السابق ص 271

(32) انظرها فى المصدر السابق ص 272

(33) فى المصدر السابق منظومات اخرى قيلت فى حرب تطوان والهجرة والجلاد (انظرها
فى ص 255 - 265 - 267 - 268 - 270 - 272) .

استيعاب المواطنين في بوتقة رأي عام يوحد بين مشاعرهم بما يخلق وجدانا جماعيا يفعل تلقائيا - وفي لحظة واحدة - للظروف والأزمات كيفما تكون وأيضا تحدث . ثم انه اذا كان هؤلاء - كما أسلفنا - من الفقهاء وطلبة العلم المتأدبين البعيدين عن مجال الشعر الحق ، فتلك ظاهرة أخرى تؤكد ما ذهبنا اليه من ان هذا المجال كان وفي هذه الفترة المحدودة بالذات قد زادت اصابته بالوهن والضعف بحيث لا نجد في الساحة شاعرا كابن ادريس السالف الذكر . ونستطيع ان نضيف بان الزعامة الشعرية كانت قد انتقلت الى فئة جديدة من الشعراء آجادوا القول في فني المعرب والملحون ، يعتبر في طبيعتهم التهامي المدغرى (34) وادريس بن علي السناني المعروف بالحنش (35)

على اننا لابد ان نشير الى بعض الشعر الذي قاله خلال هذه الأزمة شعراء آخرون قصدوا به الى مدح السلطان ، ولكنه ينضح في بعض ابياته بالقوة والحماس ، على حد ما نقرأ لأكنسوس (36) في احدى قصائده في سيدي محمد بن عبد الرحمن حيث يقول (37) :

وجالد عباد الصليب فاذعنوا
لعزته تحت الضراعة اعبدوا
وعدم امثال الاسود عساكرا
تحركها الاسد الضراغم سجدوا

(34) المتوفى سنة 1273 هـ وهو أبرز شعراء الغزل الشعبيين ، وقصائده كثيرة ومشهورة (انظر ترجمته في « القصيدة » ص 643) .

(35) المتوفى سنة 1319 هـ . شعره الملحون كثير ومحفوظ وله ديوان معرب بعنوان : « الروض الفائح بازهار النسيب والمدائح » (مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم ك 1678) وله « المقامة المغنية عن المدامة المسماة بروضة المنادمة واليناس في لطف محاسن وادي فاس » (طبع على الحجر) .

(36) ابو عبد الله محمد بن احمد اكنسوس الاديب المؤرخ صاحب كتاب « الجيش العرمرم » 1211 - 1294 هـ / 1797 - 1877 م . انظر فيه : السعادة الابدية ج 2 ص 105 ومؤرخو الشرفا ص 200 (والمصادر المذكورة) .

(37) الجيش ج 2 ص 79 .

وتهتز منها الأرض عند ركوبها
وترجف أطواد الجبال تميدا
وتحسب ان الجو نار تاججت
يضج لها باقي الفساد مشردا

نعود الى حرب تطوان فنجد للشاعر السناني قصيدة شعبية في
الموضوع تعرف ب « التطوانية » (38) يقول في حريتها (39) :

مدرا نفديو الثمار ويفدنا ربي امع النصارى
نسماوه النصر والفتح من الله ابلفضل وانصارو

وفيها يوصي الغافل الساهي ان يستعد للجهاد بعد ان جار الأعداء :

اساهي خذ اخبار وافهم تعبير القول ولشارا
نوصيك يا غفيل احتال لأمر لجهاد لعدا جاروا

واذا شاء الله رحم الضعف وجبر الكسر واتى بالفرج واتاح
للمغاربة غزو الكفار وارغامهم على الرضى بالغلب ، وبدد شملهم وخطم
سفنهم :

ايلا راد الستار ايفاجي عل لسلام د الكدارا
يرحم ضعفنا ويعاملنا ابفراج فعسى تجبارو
ونعزو فالكفسار حتى يرضوا الغلب بجهارا
ويبدد لكريم اشملهم واسفونهم ليهم يكسارو

(38) انظر كتابنا « القصيدة » ص 357 وانظر النص كاملا في الكناش رقم 8 ص 27
والكناش رقم 24 ص 19 وفي تاريخ تطوان م 5 ص 245 .

(39) اي لازمتها .

وعنده أن الرومي - والمقصود به المستعمر الكافر - مكر ، وهي حقيقة نسيها بعض الناس ، فمجنون كل من يفتر به ويأمن لجواره . فهو في مكره مثل النار أن لم تخدم في الحين تزيد اشتعالا ، لا مثيل له في الفدر فهو يطمع بجد في مدن المغرب ، ولكن الشاعر يدعو الله ألا يحقق طمعه :

والبعض انساوا ما صار ما يعرفون بين الرومي هل امكرا
مهبول كل من يتفر افهذا الزمان والكافر جارو

الرومي مثل النار قالوا ناس التشبيه ولعبارا
اذا ما طفتها فالساعا اتريد هذا تمكارو

ليس ابحالو غدار طامع فمدون الغرب بتمارا
لهلا ايوصلو ولا يوفي لو ظن هو وانظارو

وفي محاولة لتعليل ما حدث يرى انه اذا كان المفارقة قد أصيبوا بهذا العدو فلانهم شغلوا بالدينار وانهمكوا في الاخذ والعطاء وقوى بينهم البغض والحسد كبارا وصغارا ، لم يعودوا ينهون عن المنكر ويوقرون السادات ويزورون الاولياء ، وقليل منهم من لا يؤذي جاره :

ايها اولي البصار اعتبروا نظروا افذا لعبارا
واتاملوا افهذا القول اللي بان ياسيدي اثارو

لتهنأ بالدينار واغبطنا فالدنيا ابخذ وارا
واقوى البغض ولحسد افهذا الجيل في اكبارو واصغارو

لا نهى اعلى المنكار لا توقير السادات فزبارا
وقليل من اتصيبو في هذا الجيل ليس كيدي جارو

والشاعر يرى ان الأمل فى الجهاد ولكن لا جهاد بدون تقوى وصبر ،
فهما كالأساس للبناء ، وليس يكون حصينا أى بنيان بدون اساس :

ليس يقوم لجهاد يالامت لخوان
دون التقوى امع الصبر هاذو باثنيين

تمثيل الساس للذى رايد بنيان
اشمن بنيان دون ساس ايكون احصين

وعنده أن ما حدث ليس غير تنفيذ لحكم الله ، فعساه ان يعفو ويظهر
وينصر دين الاسلام على ملة الكفر بجاه رسوله المختار :

من نساعوه لعفوا مع اظهارا
ينصر دينا عن ملت لعدا ابجاه طه مختارو

ولا شك اننا حين ننظر فى الشعر الذى قيل فى حرب تطوان سواء
ماكان منه مدرسيا او شعبيا ، فاننا لا نجده يختلف عما قيل فى حادث
احتلال الجزائر ، فالاتجاه فى الرؤيا والتعليل يكاد يكون واحدا وخاصة فيما
يتصل بالدعوة للجهاد وفيما يتصل بربط الواقع بمشيئة الله ولغاية قصدها
عقبا للمفارقة على تفريطهم فى الدين . وعلى الرغم من ان معظم هذا الشعر
جاء فاتر الأسلوب مفكك التعبير غير سليم الايقاع ، فانه من حيث عرض
بعض جزئيات الواقع قدم مادة خصبة تضاف الى وثائق التاريخ لتبلور كثيرا
من حقائق الازمة .

* * *

المناوشات الاستعمارية التي مهدت مباشرة للحماية

اذا كانت حرب تطوان قد انتهت بالصلح والجلء على حد ما بينا فانها
((ازالـت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها وانكسر
المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله وكثرت حمايات ونشا عن ذلك ضرر
كبير) (40)

(40) الاستقصا ج 9 ص 101 .

والحقيقة ان المضاعفات التي تولدت عن هذه الحرب اضيفت الى مضاعفات حادث احتلال الجزائر لتؤزم اوضاع المغرب في جميع اقاليمه ومناطقه وعلى مختلف الاصعدة والمستويات . (41)

في هذه الظروف نجد للشاعر الصحراوي محمد بن الشيخ سيدي الشنقيطي (42) قصيدة (43) يحرض فيها على الاستعداد للنضال ومحاربة البغاة والمعتدين ، اولها :

رويدك انني شيهت دارا على أمثالها تقف المهاري
تأمل صاح هاتيك الروابي فذاك التل أحسبه انارا (44)

وفيها يقول متحدثا عن الحال وحاثا على الجهاد ومستنهضا همم القادة والمسؤولين لانقاذ الأمة والاسلام :

ترانا عاكفين على المفاني لفرط الشوق نندبها حيارى
أسارى لوعة وأسى ننادي وما يفنى النداء عن الأسارى
ولو في المسلمين اليوم حشر يفك الأسر أو يحمي النمارا
لفكوا دينهم وحموه لمارا أراد الكافرون به الصفارا
حماة الدين ان الدين صار أسيدرا للصوص وللنصارى
فان بادرتموه تداركوه والا يسبق السيف البدارا

(41) انظر بعض مظاهرها في : اللسان ص 141 وتاريخ المغرب في القرن العشرين (القسم الاول ص 59) .

(42) المتوفى سنة 1284 هـ 1867 م . له ترجمة في : الوسيط ص 243 - 279 حيث اورد له عدة قصائد ومقطعات . وفيها انه « كان ... شاعرا مجيدا وصوفيا وحيدا » (244) وانه « كان سلس العبارة رقيق الشعر فصيحاً لم تر من انتقد عليه شيئا سوى النزر القليل الذي تعفى عليه جودة معانيه وسلاسة الفاظه » (245)

(43) انظرها كاملة في : الوسيط ص 246 - 252

(44) انار : كتيب عظيم في أوكار واسمه الشائع انير (الوسيط)

بان تستنصروا مولى نصيرا لمن والى ومن طلب انتصارا
مجيبا دعوة الداعي مجيسرا من الاسواء كل ممن استجارا
وان تستنصروا جمعا لهما تفص به السباسب والصحارى
وقد تجسدت الازمة فى ظاهرة مست سيادة المغرب فى الصميم ،
متمثلة فى الامتيازات الاجنبية والحمايات (45) . وهي ظاهرة بدأت مع
اسبانيا بحكم الاتفاقيات التى عقدها المغرب معها على اثر حرب تطوان ، ثم
لم تلبث فرسا أن ظهرت فى هذا المجال حيث اصبحت لها بعد اتفاق عقد
سنة 1863 م بعض الامتيازات المالية كما اصبحت لها حق حماية قناصلها
وتجارها للمتعاونين معهم من المفاربة . وكان التستر خلف الحماية يعفى من
الضرائب وجميع الالتزامات المالية والقانونية كذلك . بل كان المحميون -
فضلا عن الاجانب - يبيحون لانفسهم كل شيء حتى ما كان فيه مس
بالمقدسات على حد ما يعرض لنا القاضي محمد بن عبد القادر الكلالسى
الكرودى فى قصيدته (46) التى يتحدث فيها عن مهاجمة الاسلام وسببه
من طرف احد اليهود المفاربة المحميين فى طنجة ، وعن انتهاك احد
المسيحيين لحرمة مسجد . وفيها يقول عارضا للوضع المزرى الذى
فدت عليه البلاد ، باكيا فيها غربة الاسلام :

بلاد غدا نور الوجود محمد

يسب بها جهرا فيا له من خسر

وشان اليهود فى حماها معظم

وحكم النصارى فى جوانبها يجرى

(45) وقد كتب فى شجبتها كثير من العلماء نذكر منهم محمد بن ابراهيم السباعي المراكشي
(ت 1332 هـ - 1914 م) الذى كتب رسالة « سؤال كشف النور عن حقيقة كفر
اهل باسبور » (مخطوطة الخزنة العامة بالرباط رقم 1326 د فى 12 ورقة)
والعربي المشرقي (ت 1311 هـ - 1893 م) صاحب « الرسالة فى اهل باسبور
الحنابلة » وهى عند الكاتب مخطوطة فى 8 ص وقد ادارها حول مناقشة معنى الركون
فى الآية : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » (هود 113) وعنده ان ما
عبر عنه بالحماية انما هو الكفر . وانظر كذلك بعض الفتاوى فى : المعيار الجديد
(ج 3 ص 47 - 50 - 53 - 60 - 61) .

(46) انظرها عند المنوني فى : مظاهر اليقظة ص 25 كما امد به حفيد الشاعر

ومن لشعار الدين أصبح مظهرا
يقابله الكفار بالهزء والسخر
وفيها امور لو احاول شرحها
لضاق نطاق النظم فيها مع التشر
* * *

على غربة الاسلام ابكي تاسفا
واندب اهلا للمكارم والفخر
ويضيق به الامر ويطفئ عليه الياس فيتمنى الرحيل :

بلاد بفلس لو تيسر بيعها
لجادت بها نفسي وان كنت ذا فقر
ويتحدث بعد ذلك عن موقفه مما وقع وهو قاضي المدينة :

على انني قد قمت فيها بواجب
وارغمت انفا للعبادة نوى المكر
فعاقبت من بالسب أصبح معلنا
وفزت وربي بالجزيل من الاجر

وهو لا يقنع بذلك اذ لو كان الامر بيده لقتله :
ولو كنت في امرى مطاعا قتلته
ولكنني في تركه بين العذر

وكان قبل ذلك قد امر بترحيل نصراني انتهك حرمة المسجد :
وكنت سعيت في تنقل كافر
الى ارضه عنا بحكم نوى الامر
وذلك لما ان تجاوز حده
وحل محلا للعبادة والذكر

* * *

على حالة ساءت نفوسا كريمة
بجعل سلاح والكلاب على الاثر

بل لقد كان بعض المحميين - وخاصة منهم اليهود - لا يكتفون بالحماية الاجنبية لهم فيطلبون جنسية الدولة الحامية بعد اقامة - ولو محدودة - في الخارج مع الاحتفاظ بالجنسية المغربية ، الشيء الذي دعا الحسن الاول سنة 1877 م الى اتخاذ قرار بنزع الجنسية من كل مواطن يتجنس في الخارج . بل انه ، سعيا منه الى وضع حد لهذه الوضعية الماسة بسيادة المغرب ، دعا الى عقد مؤتمر مدريد سنة 1292 - 1880 م . ولكنه ان كان حصل على بعض ما يريد فانه منح حقوقا واسعة للفرنسيين والاسبان والانجليز ، فلم يزد امر الامتيازات الا استفحالا على الرغم من المحاولات التي قام بها هذا السلطان لتخفيفها كالفاء المحاكم القنصلية وتكوين محاكم مدنية للنظر في قضايا الاجانب .

في هذه الاثناء كانت اطماع فرنسا تزيد مما جعلها تفاوض الدول الاجنبية الأخرى لتخلي لها المجال في المغرب حيث تنازلت لاطاليا سنة 1901 م عن اى ادعاء لها في ليبيا ، وتنازلت لانجلترا سنة 1904 عن مزاحمتها لها في وادي النيل وحيث اتفقت مع اسبانيا على اقتسام المغرب في اتفاقيات متتالية (1900 - 1904 - 1905 - 1907) . وكان لعدم اتفاقها مع المانيا سوء وقع كان حافزا على الزيارة التي قام بها غليوم الثاني الى طنجة في 31 مارس 1905 . الشيء الذي حث على عقد مؤتمر الجزيرة سنة 1323 هـ 1906 م والذي حضره ممثلو خمس عشرة دولة . وقد قضى المؤتمر على الامتيازات التي نص عليها مؤتمر مدريد واعترف باستقلال المغرب وفتحته - اقتصاديا - لجميع الدول وبالمساواة . غير انه اعطى فرنسا موقفا ممتازا بتكليفها ببعض الاصلاحات وخاصة في ميدان الشرطة .

وقد ضاق الشعب لاستمرار النفوذ الفرنسي وتغلغله الذي اكده مؤتمر الجزيرة ، وقامت حركة مقاومة ترعّمها الشيخ ماء العينين فسي الجنوب المغربي . وكان من الممكن لهذه المقاومة ان تلتحم مع الحكم خاصة

على اثر الزيارة الرسمية والشعبية التي قام بها ماء العينين لفاس باعتباره ممثلا للمقاومة والتي استقبله خلالها السلطان المولى عبد العزيز ، لولا ان هذا الأخير كان عاجزا عن تلبية مطالب المقاومة وكانت تلح على ضرورة الاسراع برد العدوان الأجنبي وعلى انشاء نظام دستوري .

وزادت ثورة الشعب فخلع عبد العزيز وبويع المولى عبد الحفيظ (47) بمساندة الشيخ ماء العينين . وكان عقد البيعة ينص على ((رفع ما أضر ... من الشروط الحادثة في الخزيرات حيث لم توافق الأمة عليها ولا سلمتها ... وان يعمل وسعه في استرجاع الجهات المأخوذة من الحدود المغربية وان يباشر اخراج الجنس المحتل ... وان يستخير الله في تطهير رعيته من دنس الحمایات والتنزیه من اتباع اشارة الأجانب في امور الأمة ... واذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب في أمور سلمية او تجارية فلا يبرم امر منها الا بعد الصمدع به للأمة ...)) (48) . ولكن السلطان - تحت الضغط الدولي وخاصة ضغط فرنسا التي لم تعترف به - كان عاجزا عن تنفيذ مطالب الشعب ، لاسيما والاضاع في المغرب لا تزيد الا تازما وخاصة في المجال العسكري الذي كان في غاية الانهاك عاجزا عن رد الاعتداءات التي كانت تتوالى عليه متفرعة باتفه الاسباب .

وفي سنة 1325 هـ - 1907 م هاجمت فرنسا مدينة وجدة (49) واحتلتها مستغلة قتل جماعة من سكان مراكش للطبيب موشان الذي تحدى شعور المواطنين فرفع علم بلاده المثلث على بيته . وفي نفس السنة تحالفت قوات البحرية الفرنسية والاسبانية للهجوم على الدار البيضاء واحتلالها منتقمة لتسعة من الفرنسيين والاسبان والايطاليين كان قد قتلهم المواطنون معلنين بذلك رفضهم لجلوس مراقب فرنسي مع امناء المرسى لمراقبة المداخل . وفي سنة 1909 م حاول الاسبان غزو الريف فتصدى لهم السكان بقيادة المقاوم محمد امزيان الذي استمر

(47) يوم الجمعة 6 رجب 1325 هـ (1908 م)

(48) انظر النص الكامل في : الاتحاف ج 1 ص 449 .

(49) انظر الاتحاف ج 1 ص 415

يحاربهم مدة سنتين عانى الجيش الاسباني خلالهما الكثير . وكانت بعض قواته قد نزلت بمدينتي العرائش والقصر الكبير . كما ان البحرية الالمانية وجهت سنة 1911 م بعض قطعها الحربية لشاطئ اكادير مدعية حماية مصالح بعض الالمان . وكاد هذا التدخل الالمانى ان يفجر الوضع فى المغرب لولا ان سارعت فرنسا الى عقد معاهدة مع المانيا تخلت هذه بمقتضاها عن اى حق فى المغرب مقابل تنازل فرنسا عن جزء من الكونغو والطوغو .

تضاف الى ذلك بعض الفتن والثورات الداخلية كثورة الجيلالى الزرهوني المعروف بـ ((بوحماره)) (50) وثورة احمد الريسولي (51) وثورة قبائل بني مطير التي هاجمت العاصمة فى السابع من يناير 1911 . كما تضاف مهاجمة المولى الزين شقيق السلطان لمدينة مكناس والدعوة لنفسه .

وقد كان طبيعيا والظروف معقدة بهذا الشكل ان يفشل المولى عبد الحفيظ فى النهوض بالاعباء وان يتخلى عن المبادئ الوطنية وان يمد يده لفرنسا ويستعين بجيشها . وفى 19 ابريل 1911 أعلنت فرنسا ان السلطان يطلب منها حمايته ضد الثوار واصدرت اوامرها لقواتها ان تتدخل . وانتهى هذا التدخل بقبول الحماية التي وقع المولى عبد الحفيظ وثيقتها فى 30 مارس 1912 . ولكنه لم يلبث ان تنازل عن العرش لآخيه المولى يوسف وغادر المغرب لفرنسا يوم 12 غشت من نفس السنة . وبذلك طويت صفحة وفتحت اخرى فى تاريخ المغرب الحديث .

اما عن الشعر ومدى تجاوبه مع هذه الاحداث المتتالية المتسارعة فماذا نجد ؟ عن احتلال وجدة أنشأ الشاعر الشعبي هاشم السعداني (52) قصيدة (53) هذه حربتها :

(53) انظر اللسان ص 144 والاتحاف ج 1 ص 399

(51) انظر الاتحاف ج 1 ص 412 .

(52) انظر : القصيدة ص 356 و ص 660 (هـ 2)

(53) انظر النص كاملا فى الكناش رقم 8 ص 33 .

ياسلام ابكوا اعلى ادخول وجسدا دون حرب اغنمها لعدو او نال لمراد
وفيها يرى ان الاحتلال ناتج عن ضعف القلوب وفقدتها لحرارة الايمان
وقوة الجهاد :

لقلوب اضعافو واكساتهم برردا ،ولا نظرنا فهموم ابغز دين لجهاد
وعنده لان يموت الانسان عزيزا خير من ان يعيش ذليلا :

موت العز فنهار اللقا وبرزوا خير من عيش الدل افكل حين مبروز
فلم تعد للحياة لذة وقد عز من حافظ على ايمانه فى قلبه ، والامل
ان تمر سحابة الازمة وتنقشع ليغيب نجم النحس ويظهر هلال السعد :

ما بقات افعيش الدنيا اليوم لسدا عز من دينو ويمانو افقلب لفؤاد
امصرفين الوقت فعسى اليوم او غدا ايغيب نجم النحس وينبأ اهلال لسعاد

ولكن فيم الخضوع والصبر على الذل حبا فى البقاء وتعلقا بالحياة ،
وهي مهما طاللت فانية ، ليست بدار مقام وانما هي دار عبور ، كل من
حل بها راحل ، والافواج سائرة ونحن على اثرها بامر الله وقدره :

لمنا واحنا اقفاتنا تصبر للذل
على حب لبقا ولفنا بعد ايطول

ما هي دار المقام من جا كيرحل
شف القومان سايرين اكفول اكفول

واحنا فاتباعهم ابلقدر الموصول

وليس يموت احد دون اجله المعلوم ولو احاطت به الاخطار
والمصائب ، ومن حان اجله فلا يستطيع تاخيرها مهما كان غنيا ذا مال ،
وليس فى مقدور احد ان يهرب مما كتب الله وسجل له وحكم به عليه :

مايموت افلورا مخلوق دون اجل لو اكون افوسط الغضب مايوصلو
ومن اكمل محسوبو لو كان كاسب اموال ما ينفعو ولا دغيا ايمد رجلو
كيف يمنع من مكتوبو او كيف ينصال من احكم الرب اعليه وسجلو
حقا ان مشيئة الله قد نفذت ، ولكن لابد من لطف منه يفرج الكروب ،
فلا شدة الا وبعدها فرج ، وتلك حكمة الله حتى يذكر ويحمد في كل
الاحوال :

كل من راد الله عل لورا اتودا او لازم لطفو ايفاجي هم ضيق لنكاد
كيف معلوم الرخفا بعد كل شدا باش يذكر الله افكل ضيق وارغاد
ثم ان لقاء الابطال ومقابلتهم شرف ، ومن لم يلقيهم محتقر مهما علا
شانه :

من لا يلقي لبطال لو يعلى محفور

والذي يفغل عن الاعداء ويسكت عنهم او يهادنهم مفرور :

والفافل فالزمان عل لعدا مفرور

وللشاعر السوسي الطاهر بن محمد الايفراني (54) قصيدة (55)
انشاها سنة 1325 هـ على اثر احتلال الدار البيضاء يخاطب بها الشيخ ابي
العباس الجشتيمي (56) مطلعها :

-
- (54) 1282 هـ 1374 . انظره في الادب العربي للقباج ج 1 ص 19 والمعسول ج 7 ص 69
وانظر في اجزاء اخرى من المعسول بعض اشعاره وخاصة في الجزء 4 - 6 حيث
أورد مدائحه في اسرة الشيخ ماء العينين ولا سيما احمد الهية .
(55) انظرها كاملة في ترجمة ابي العباس الجشتيمي الواردة في المعسول (ج 6 ص 159)
وانظر بعضا منها في : سوس العالمة ص 115 .
(56) 1231 - 1327 هـ

أبرق بدا أم لمع ثغر منضد وغيث همى أم قطر دمع مبدد
وفيها يصف الوضع المزرى الذى آل اليه المغرب من جراء العدوان
المتتالي عليه فى سواحله وصحرائه ، فيقول :

فقد انشب الكفر المداهن نابيه ومد الى صرح الهدى كف مفسد
وكاد بانواع المكاييد اهله وصار ينادى : خامرى وتلبدى (57)
اسر احتساء فى ارتفاء وماله سوى الدين من مرمى يرام ومقصود
وقد بلغ السيل الزبى بظهوره وان لم يدأو العربا لكى يزد
وقد طبق الصحراء بالنحس شؤمه واعدى نواحي التل بالخبت الردى
وجاش على هذى السواحل كلها ببحر سفين بالقوارب مزبد
وغص به الدين الحنيفة فاكتمسى لما يشتكى من بته ثوب مكمد

وفى بحثة عن المواطن الحر القادر على النضال يرسم الشاعر
صوة لهذا المواطن فى لحظة المواجهة وفى ملامح متحركة نابضة بالقوة
والحياة فيقول :

شجاء الأسى من فقد حر يهمه فكاك ذماه من يد المتمرد
يقود اليه كل اصيد قسارم للحم العدا مخشوشن متمدد
يجاهد فى الله العظيم عدوه باقدام ليث فى الكريهة محرد
يشب لظى الهيجا بقلب مشيع وكف بصير بالطعان معبود
ويختال ما بين الصفوف كانه عروس تهادى بين خود وخرد
على كل طرف سابع ومظهم قوى القرى عبل كصرح ممرود
بيض سيوف او بسمر مدافع مزلزلة ان يبرق السيف ترعد

(57) خامر : استتر . تلبد : تداخل . الصياد يقول ذلك للضبع حتى تهدأ فياخدها باليد

يلعب اطراف الرماح كأنه صبي مع الولدان بالجوز مستد
يخال مجال الحرب وجهه صحيفة تسطرها خيل اللقا بالتطرد
فينقط مدفاع ويشكل صارم ويكتب رمح الخط خط مجود

وهو حين يرسم لوحة هذا المناضل الشجاع لا يفعل ذلك فى نطاق
التجريد أو الخيال ، ولكنه ينطلق من واقع الشعب المعروف بطولته
وشجاعته فيلتفت اليه متسائلا عن رجاله المفاويز :

فاين مساعير الوغى وفوارس اللقا ومصاييح العجاج المعقد
واين الألى صوت الصريخ اليهم الذ واشهى من سلافة صرخد
واين الألى قد الجسوم عليهم هباء اذا ما العرض غير مقدد
فما لهم ناموا عن الدين وارتضوا بدون حياة فى هوان معبد
ومالهم لم يثاروه وقد هوى به الكفر مطلول الدماء ولم يد

وعن حصار فاس نقرا قصيدة (58) لمحمد السليمانى يقول فيها حائا
مختلف العناصر المفريية من عرب وبربر لحمايتها ورد العدوان عنها :

فهل من ذوى الراى السديد عصابة من العنصر الشامى السراة بني العرب
وهل من بقايا الفاتحين ذوى السنا بهم تسعد الأوطان فى زمن الجذب
وهل من بني الانتصار فضل بقية تناضل بالأقلام طورا وبالعضب
وهل من بني غسان والأزد فتية وفهر وعيس مدحج وبني كلب
بني الحلفاء الراشدين تهيأوا فأنتم أساة الضيم فى زمن الخطب
وهل لبني بر بن قيس حماسة فحفظ ذرى استقلالكم غاية الحب

(58) انظرها فى كتابه : اللسان ص 151 .

نوى الباس والقوى بني البربر الألى لهم قدم فى المجد سامية الكعب
بهم نصر الدين الحنيف كفى بما اقام به اسلافهم شعلة الحرب
بني الفخر من صنهاجة وبرانس مصامدة الابطال هسكرة النجب
نصرتهم بني المختار قدما فانقدوا اميركم المحبوب من وهدة الكرب
ومدوا فاس الاصيله صفقة تطهرها مما عراها من النكب
وفكوا حصارا هالها بسياسة والا فحد السيف اصدق من كتب
اقيموا بني الامجاد شاو بلادكم فان شعوب ((الغال)) منكم على قرب

ومن اطرف الشعر الذى قيل فى اوائل هذه الفترة (59) قصيدة
عامية للشاعر الشعبي سيدى لحسن وعلى (60) من النوع الجفرى الذى
يعتمد التنبؤ واستخدام الرمز فى تصوير ملامح الاوضاع المنهارة ، يتنبأ
فيها باحتلال فرنسا للمغرب ، وفيها يصف حال الزمان كما اخبرت به
الأجفار . فقد كتب فى الواحها انه فى السنة الحادية عشرة ستكدر عيون
المياه ويتفرعن الضفادع فى الوديان وتتقوى الثئاب وتضعف السباع
وتصول البومة على النسر وتنزل مكانة نوى الهمة والشان وتعلو مكانة
السفلة ويصبح الفجار فى قرار مكين ويغدو الوجهاء والشرفاء كالحيوان ،
ويظهر القول الحق تخبر به الأجفار معلنا دخول الفرنسيين (ل - ف - ر
- ن - ص - س)

بعد الصلاة على الرسول انوضح ببيان شرط الساعا توصف حال الزمان
بها لجفار خبروا باقى السنين نظروا فالواح باحوا بالكتمان
فى عام احداش غتخوض العين ويتفرعن اجران فى اجميع الودان

(59) وبالصبط فى سنة 1274 هـ كما يتضح من قول الشاعر فى قصيدته مؤرخا لها
(تاريخ « عشر » يالفاهم) فالعين بسبعين والبال باربعة والشين بالف والراء
بمائتين انظرها فى الكناش رقم 5 ص 62 ورقم 10 ص 9
(60) انظر : القصيدة ص 351 .

اتقوى الذباب والسبع ارجع مسكين حتى موكا اتصول اعلى جميع البيازن
واهل الرفعا تخمد ويعلو من شين ناس الرفعا تعود خافضا بعد الشان
تضحى قوم لفجور فى اقرار التمكين واهل الجاه يضحوا مثل الحيوان
يا اسفا الحق يبقى باين ايسن خبروا به لجفار يفا لس ايبان
من لا م افا ارا انون اصاد اسيين ايلا اوصل غرينا بعد الحسنان

وهنا أيضا نصادف فى ثنايا قصائد المدح التي وجهت للملوك جوانب
نضالية قوية على حد قول محمد بن ناصر حر كات (61) من قصيدة (62) فى
الحسن الاول وموقفه من بعض البغاة :

مازلت تجتاب البلاد بسيرة عمرية تذر المعاصى مذعنا
وتبين للناس الرشاد وسبله وتريهم نهج السوء البيننا
وتدمر العاصى بابيض صارم وتقوى المعوج بالسمر القنا
لولا البغاة من الانام وجورهم ما فارقت بيض السيوف الاجفنا

وعلى حد قول الطاهر الافراني من قصيدة (63) فى المولى عبد
الحفيظ ، دون ان ننسى ان الافراني كان شاعر المقاومة الشعبية التي
ظهرت فى الجنوب ودون ان ننسى كذلك ان هذه المقاومة هي التي
نصبت السلطان المذكور :

وافى الخلافة فاستقامت بعد ان عفى مراسمها الضياع وغيسرا
وافى وقد مد الضلال الى الهدى كف الردى قد عابه مستنصرا

(61) المتوفى سنة 1316 هـ 1898 م « ... له ديوان ضخيم اشتمل على قصائد مطولات
سلطانية زاخوانيات ومقطعات وامداح فى علماء بلده ... وجل شعره كان فى السلطان
الحسن الاول ... » (اعلام الفكر المعاصر ج 2 ص 106)

(62) انظرها فى : الاستقصا ج 9 ص 139

(63) انظرها فى : المعسول ج 4 ص 46 .

لبي صريخ الدين بالعزم السدي لا تشني جنباته انى انبرى
وبدا بتطهير البلاد مدافعا عنها عدوا قد طفى وتكبرا
ويل الفرنسي الكفور امدري ان قد اتيج لحره اسد الشرى

وهو القائل كذلك من قصيدة (64) يخاطبه :

ودافعت من جنس الفرنسي زاخرا تلاطم عجا بالتكائر والكيـد
اتى كظلام الليل يحسب انه بباطله يرمى حبالك بالهـد
ثبت له حتى اذا حان حينه وثبت اليه وثبة الاسد الورد
فولى وحل الويل فيه محله وعمته بالقتل والاسر والطرد
وملاته ذعرا وزعزعت كيـده من السيف والبارود بالبرق والرعد
وارسلت جند الله ينقض خلفه بزاة على القب السلاهة الجرد
شفيت صدور المسلمين بخزية وذهبت غيظا كان مستعر الوقـد

وليس يخفى ان الشعراء فى مثل هذه القصائد كانوا يصفون على
مدوحهم صفات تعكس القيم التي يؤمنون بها اعتقادا منهم بانه مهيا
لتحقيق الاماني والاهداف الشعبية ، ومهيا قبل ذلك وبحكم توجيههم
- للايمان بها . وهم فى مثل هذا الموضوع كانوا يحاولون ان يجعلوا
من مدوحهم شخصية فذة قادرة على استقطاب الناس حولها . ولم تكن
هذه المحاولة منفصلة عن واقع الانسان المغربى - والعربى عامة - الذى
كان ابدا وبحكم مواضع كثيرة لا داعي لاثارتها يبحث عن يلتف حوله
وعمن يخلصه من الظلم والعبودية ويحقق له العدل والحرية . وهو
يتجه اول ما يتجه الى من اتاحت لهم مناصب الحكم والقيادة او زعامة
المقاومة الشعبية على حد ما نجد عند الشعراء الذين اشادوا بالمقاومين من

(64) انظرها فى المصدر السابق ص 49

أمثال الشيخ ماء العينين (65) ثم بعده وعلى عهد الحماية بدءاً من أبناء الشيخ المذكور وخاصة منهم أحمد الهبة إلى الفدائي علل بن عبد الله (66) . وإذا ما خاب ظنه التجأ إلى ساحة الدين ليتخير مثاله من بين الزهاد والمتصوفة والصالحين ، وليجعل من هذا المثل في حالات كثيرة وداخل إطار غيبي صرف فرداً خارق القوة والحول . وهو حين يفشل في ذلك كله يلجأ إلى تمثيل أبطال خياليين أو خرافيين يحكي سيرتهم في قصصه ومروياته ويشبع عن طريقهم طموحه وأمانيه وتطلعاته ، وإن بواسطة الوهم والمفالة .



والحقيقة أن هذه الفترة بما اعتمل فيها من أحداث متتالية وازمات متلاحقة كانت حرة بأن ترفد مجال القول وتغني الرأي العام وتثبت من خلال التعبير الصادق ذات الفرد وتبرزها ملتزمة مع ذات الأمة وتخلق من ذلك كله موقفاً وطنياً قادراً على المواجهة والصمود . ولكن يبدو أن الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية كانت قد بلغت أقصى حدود الاضطراب ، وكانت بذلك لا تنعكس على الحياة الاجتماعية والفكرية إلا لتعري بنيات متعفنة منهارة وتكشف عن رؤى مهزوزة ومشتتة غير نابعة من شعور مجتمعي واع وغير قادرة بالتالي على تحليل موضوعي تنظر من خلاله إلى الواقع وتفتح آفاق المستقبل .

من هنا كان الشعر الذي قيل في التجارب مع أحداث هذه الفترة قليلاً وهو على قلته يسير في خط واحد لا يتعدى لفت النظر إلى الخطر الذي يواجهه المغرب من جراء الاعتداءات الأجنبية المتكررة في نظر إلى ما حدث أنه قضاء وقدر وانتقام من الله على تفريط المغاربة في شؤون دينهم ، وفي محاولة للاعتماد على الشعور الديني لاثارة حماسة الشعب

(65) جمعت قصائد مدحه في ديوان « الأبحر المعينية »

(66) الذي فتح باب الكفاح المسلح خلال الأزمة التي نشبت على إثر نفي الملك المغفور له محمد الخامس والتي انتهت بعودته واستقلال المغرب .

وايقاظه من سباته وتذكيره بقدراته على النضال وتثبيته الى ان الجهاد فرض عين والى ان الاستشهاد افضل سبيل للموت .

والالاحاح على الدين - وهو السمة البارزة فى هذا الشعر - نابع من الاحساس بان الاسلام هو المجسم الحقيقي للشخصية الوطنية وللوجدان الفردى والجماعى وللوجود الثقافى والحضارى فى ابعاد التاريخ والحاضر والمستقبل . فالمغرب منذ كان وحتى قبل اسلامه وهو يعبر عن وجوده من خلال الدين ويحاول جاهدا اثبات هذا الوجود . ولقد اتيج له حين اتصل بالمد العربى الاسلامى ان يفجر طاقاته النضالية انطلاقا من العقيدة التى كانت ابدا تلازم تحركاته وتكيف مواقفه . ثم هو نابع من النظر الى هذه الاحداث على انها استمرار للاحداث التى واجهها المسلمون سواء فى الاندلس او المشرق وفى نطاق الحروب الصليبية . وهو نابع فى النهاية من اعتبار الدين الخيط الرابط بين المغاربة والبائع لهم ولغيرهم من الشعوب العربية والاسلامية على التحالف والتضامن والتآزر .

والنضال كما صورته الشعر الذى حاولنا تناوله فى هذا البحث يسير فى ثلاثة اتجاهات :

1 - التاريخ للوقائع

2 - المعاشة الانية للازمات

3 - التنبؤ بالاحداث وسبقها بوحي من ارهاصات الواقع .

وربما بدا هذا النضال فاترا وضعيفا فى مواقف كانت تستوجب المقاومة الصلبة القوية ، وربما كان الشعر الذى صورده لم يصل الى درجة تخطي الحدود المحلية الاقليمية ، وظل دائرا فى الفلك العربى الاسلامى لم يتجاوزه لأفق ارحب وابعد من شأنه ان يكسبه ملامح انسانية وسمات تتيح له الخلود ، ولكنه وحتى فى هذا الاطار لا يمكن ان يعتبر الا شعرا نضاليا طالما انه عبر عن وجدان متحرك نابض وان بدا هذا الوجدان

فى حال احتضار ، وطالما انه هز مشاعر متلقيه وان لم ينزل الى ساحة الجماهير الواسعة . على اننا لا ينبغي ان ننسى فى التحليل عنصر الوعي الشعبى والرأى العام ، وكان يومئذ محدودا وربما منعما .

كما لا ينبغي ان نتجاهل الوضع الضعيف الذى كان يعاني منه الادب المغربى عامة فى هذه المرحلة ، وهو وضع لا يبرز غير محدودية الوعي الوجدانى والفكرى للأدباء ومحدودية قدرتهم على طرح مشاعرهم وافكارهم وعلى الوعي والاستيعاب وادراك مشاعر الجماعة والتقاطها ، وكذلك محدودية قدرتهم على انتجاوب وتعميق التجربة وعلى التصور والتمثل والتعبير ، وفى النهاية عدم قدرتهم الفنية على الكشف فى هذه الأزمات عن الجوانب الانسانية وعلى طرحها فى لوحات تصويرية قادرة على إثارة انتباه الانسان واحساسه فى أى زمان ومكان .

د. عباس الجراري

الرباط

فهرس المصادر والمراجع

- 1 - د . ابراهيم السولامى
الشعر المغربى الوطنى فى عهد الحماية (مقدمة الجراري)
دار الثقافة - الدار البيضاء 1974
- 2 - د . ابو القاسم سعد الله
الحركة الوطنية الجزائرية
الطبعة الاولى بيروت 1969
- 3 - احمد الأمين الشنقيطى
الوسيط فى تراجم ادباء شنقيط
ط الثانية - القاهرة 1378 هـ - 1958 م
- 4 - احمد بن خالد الناصرى
الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى
ط دار الكتاب ، الدار البيضاء

5 - روم لا نسو
تاريخ المغرب في القرن العشرين (ترجمة د . نقولا زيادة)
دار الثقافة - بيروت - 1963

6 - عباس بن ابراهيم
الاعلام بمن حل بمراكش واغامت من الاعلام
ط الاولى - 1355 / 1358 // 1936 / 1939

7 - د . عباس الجرارى
الحريصة والادب
ط الرباط 1971

8 - د . عباس الجرارى
القصيدة (الزجل في المغرب)
ط الاولى المغرب 1390 - 1970

9 - د . عباس الجرارى (جمع)
مجموعات شعرية شعبية (كنانيش)
مخطوطة بخزائنه (ارقام 5 - 8 - 10 - 18 - 24)

10 - د . عباس الجرارى
موشحات مغربية
ط الاولى - دار النشر المغربية الدار البيضاء 1973

11 - عبد الرحمن بن زيدان
اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس
ط الاولى 1347 - 1352 // 1929 - 1933

12 - عبد الرحمن الفاسي
السلطان الصغير
مجلة رسالة المغرب س 9 ع 47 - 49

13 - عبد الله الجراري
من اعلام الفكر المعاصر بالعدوتين : الرباط وسلا
ط الاولى الرباط

14 - العربي المشرفي
الرسالة في اهل البصير الحثالة
مخطوطة الكاتب الخاصة (منقولة من نسخة الفقيه محمد
المنوني)

15 - علي بن عبد السلام التسولي
الاجوبة على اسئلة عبد القادر الجزائري
مخطوط الخزنة العباسية 3135

16 - ا . ليفي بروفنسال
مؤرخو الشرفا
E LEVI PROVENÇAL LES HISTORIENS DES CHORFA PARIS 1922

17 - مجهول
مجموع
مخطوط بخزنة تطوان العامة رقم 589

18 - محمد بن ابراهيم السباعي الحسني المراكشي
كشف النور عن حقيقة كفر اهل باصير
مخطوط خزنة الرباط العامة د 1326

19 - محمد الاخضر
الحياة الادبية في المغرب على عهد الدولة العلوية
LA VIE LITTERAIRE AU MAROC SOUS LA DYNASTIE ALAWIDE 1075-1311/1664-1894
RABAT 1971

20 - محمد اكنسوس المراكشي
الجيش المرموم
ط حربية

- 21 - محمد بن ادريس العمراوى
الديسوان
مخطوط الخزائن العامة بالرباط ج 45 8
- 22 - محمد بن جعفر الكتانسي
سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن اقبر من العلماء والصلحاء
بفساس
ط حجرية 1316
- 23 - محمد داود
تاريخ تطوان
1379 - 1386 = 1959 - 1966
- 24 - محمد السليمانسي
اللسان المغرب عن تهافت الاجنبي حول المغرب
ط الاولى الرباط 1391 - 1971
- 25 - محمد بن الشيخ ماء العينين
ديوان الابحر المعينية فى الامداح المعينية
مخطوط الخزائن العامة بالرباط 1376 د
- 26 - محمد بن العباس القباج
الادب العربى فى المغرب الاقصى
المنبعة الوطنية الرباط 1929
- 27 - محمد غريست
فواصل الجمان فى انباء وزراء وكتاب الزمان
الطبعة الاولى 1346

28 - محمد بن محمد بن عبد الله الموقنت
السعادة الابدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية
ط حـريـة

29 - محمد المختار السوسسي
المعـسـول
ط الاولى المغرب 1380 - 1381 / 1960 / 1961

30 - محمد المشرفي
الحل البهية فى ملوك الدولة العلوية
مخطوط بخزانة الرباط العامة 1463 د

31 - محمد المنونسى
مظاهر يتظة المغرب الحديث ج 1
الطبعة الاولى 1392 - 1973

32 - محمد المهدى الوزاني
المعيار الجديد (النوازل الجديدة الكبرى)
ط حـريـة

33 - ناصر الفاسسي
محمد بن ادريس
مجلة البحث العلمي س 1 ع 1 1964

هكذا تتم

رحلة ابن زيدون إلى المغرب*

محمد الصَّبَّاح

أسمع الساعات في « قرطبة » ، تعان موعد الرحيل .
تري ، أياكون ابچارا عبر قافية ؟
أم سيرا في تسريحة صباحة ؟
أم انطلاقا على جناح ساجعة ؟
أم زحفا على جمرات النوى والهوى ؟

(*) بمناسبة الذكرى الالفية التي قررت وزارة الدولة المكلفة
بالشؤون الثقافية الاحتفال بها من 15 اكتوبر المقبل الى 21 منه .

الأندلس مزدحمة واقفة بين مؤثرى الساعات ، مشحونة
مكتظة بأشياء الدهشة والانبهار ، وفتنة ألف حب ، وألف دلال ،
وألف شاردة وشاهقة .

الساعات تعلن موعد الرحيل ، بالحاح مد ، وجهارة بحر ،
تصدق .

الزمن الألف « المزيدن » ، كله محزوم في حقائب من زجاج
على استعداد للسفر .

أسرار الحب ، والشوق ، والهنك ، والتبرح ، والضياح في
الهاجس ، والتشرد في العناق ، ونزهة الضمة ، كلها تبين شفيفة
مضيئة من خلال الحقائب المختومة المحزومة .

لا خوف من « ديوان التفتيش » على الحقائب !

سيمر الهوى ، ورماد القبل ، واللياسة المهتوكة المذعورة ،
مع كحل « ولادة » ومشطتها ، وقرطها ، ومرآتها ، وغنجها ،
وزرقة عينيها ، وأرجوحة خصرها ، مع ما سيمر من السجعات ،
والأسمار ، والمغامرات ، ومطارحات الصد والوصال ، مشحونة
في الحقائب ، وعليها خاتم بـ : « مرور الجواز » ، متجهة
صوب العدو المغربية .

تلك حقائب « ابن زيدون » . أما هو ، فموزع مشتت في
بال الأبعاد والأصقاع ، ساكن في الانتقال ، مقيم في الارتحال ،
من ريشة أى محبرة ، ومن رف الى موال ، ومن لهوة الى منبر ،
ومن حفل ، الى سمر ، الى نزهة ، فى : النجمة ، والنقرة ،
والخاجة ، والهبوب ، مطبوعا بعادة الرياح ، متجنسا بجنسية
الماء ، وكونية الضوء ، يتكلم بالبهاء من ثنايا عالمية الكتب ، كما
يتكلم البلبل بجميع اللغات ، وكما تفهم الوردة جميع الأشعار
المطرزة بجميع الأبجديات .

أريد أن أسله من شتاته ، أن أحرره من عادة الهبوب ،
واسار الهواء ، أن أفرك الارتحال بين أصابعى ، حتى أدركه فى
الاقامة ، وهو ساكن فى تأمل الهدأة ، وتقريشة الراحة ،
كالنحلة عندما تتحرر من طنين جولانها ، فتسريح فى قصيدة
باقية .

لمدة أسبوع وحسب ، يا « ابن زيدون » ، يا ابن الامواج ،
والاضواء ، والانزلاج ، أريد أن أنفك حالا من « وردة الرياح »
انكونية ، والسام فيضانك ، وأمياك ، وطول مساحتك وعرضها فى
مقلة بلادى ، حتى تحتل كليتك النافرة ، فيجمعكما الامتزاز فى
الرنوة الخضراء .

وفادتك علينا — مخطوفة — من متون الشموخ الشاسع
وشروحه ، تبعث الهدير في الغفلة ، فتستيقظ نشيطة ، متنبهة ،
ملتفتة الى الرائعة ، والبديعة ، وابرة الحرير :

تطريز زرقة بحيرة ، وترصيع حفيف قول في منديل فاتنة

يقظة زاهرة ساهرة في « مغرب المشارق » لتهيئ نزولك
في الفرحة ، وخلجة الريشة ، ورجع الوتر ، وتسريحك في نزهة
التأريخ ، بين متاحف الألق المنثورة في كل رفة من رفات الزمن
الخالص الضاحك ، بعد أن هصر زينته وأجراها رقرقة في هذا
الوطن ، الذي يولد في كل آونة شمس ، من تخطيط الخلد .

فلنملا من هذه الرقرقات كاسات أنخاب ، ولنرفعها عناقا
نحو وفادتك ، يا ابن الماء ، والضوء ، و « وردة الرياح »
الكونية .

محمد الصباغ

الرباط

العلاقات الإنجليزية المغربية في النصف الثاني من القرن السادس عشر والأول من القرن السابع عشر

(في ضوء وثائق مكتبة المتحف البريطاني بلندن)

د. شوقي عطا الله الجمل

شهد النصف الثاني من القرن السادس عشر ، والنصف الأول من القرن السابع عشر — قيام علاقات قوية بين المغرب وبريطانيا ، تمثلت معالمها في عدد كبير من الرسائل المتبادلة بين الحكام وذوى السلطة في البلدين ، و في العلاقات الاقتصادية على وجه الخصوص ، وفيما قام بين ممثلي البلدين من محادثات ومحاولات لعقد اتفاقات ومعاهدات بينهما ، وتطور الامر الى تكوين شركة تجارية انجليزية لمزاولة النشاط الاقتصادي في الثغور المغربية ، هذا بالإضافة الى ما ترتب على هذه العلاقات من انعكاسات سياسية وحربية .

ولا شك في ان هذه العلاقات المتشابكة ، والمتعددة الجوانب تستلزم دراسة عميقة لمحاولة تحديد معالمها ، واطارها في ضوء الوثائق التاريخية .

وقد ظهر ان مكتبة المتحف البريطاني بلندن بالذات تزخر بعدد هام جدا من الوثائق المتعلقة بهذه العلاقات ، هذا بالاضافة الى تقارير عدد من العسكريين وغيرهم ممن اتصلوا بهذه الاحداث ، والى عدد غير قليل من الكتب التى كتبها المعاصرون .

ومع ذلك فالحقيقة ان الاضواء سلطت على العلاقات بين اسبانيا والبرتغال من جهة ، والمغرب من جهة اخرى فى هذه الفترة ، بينما لم تحظ علاقاته بانجلترا بمثل هذه الدراسة ، ولهذا فسنحاول فى هذا البحث كشف بعض جوانب هذه العلاقات المغربية الانجليزية .

ويمكن ان نقسم هذه الفترة الى اربع مراحل متمشية مع الحكام الذين تربعوا على عرش بريطانيا فى هذه الحقبة .

اولا : فترة حكم الملكة اليزابيث (1558 - 1603) :

كانت الثغور المغربية الهامة على البحر المتوسط ، والمحيط الاطلسى قد وقعت قبل ذلك فى يد البرتغال واسبانيا ، وكانت الدولتان تحتكران التجارة فى الموانئ المغربية الهامة (1)

وشعرت انجلترا بضغط هذه السياسة البرتغالية واسبانية ، فاحتجت على هذا الاحتكار ، وطالبت بحرية التجارة مع الثغور المغربية ، بينما ظلت البرتغال تصر على ان التجارة مع السواحل المغربية والثغور التى تحت ايديها يجب الا تتم الا بتصريح منها وبموافقتها ، واتهمت التجار الانجليز بانهم يتاجرون فى السلاح فى هذه الموانئ المغربية . لكن لم تستطع البرتغال الاستمرار فى سياستها هذه فقد كان النفوذ البرتغالى فى الثغور المغربية قد اخذ يضعف منذ منتصف القرن السادس عشر ،

ملاحظة : نشر الكونت دوكاستري (Le Comte de Castus) بعض هذه الوثائق وان كانت لا تغنى لكنها تعطي فكرة عن اهمية هذه الوثائق والتقارير والكتب المعاصرة .
(1) استولى البرتغال على الموانئ المغربية الواحد تلو الآخر ، فقد استولوا على (سبتة) عام 1415 م ، وظلت تحت حكمهم حتى سلموها لاسبان 1669 ، كما استولوا على (القصر الصغير) 1457 ، وعلى (طنجة) 1464 ، وعلى (اكادير) 1505 ، و (الصويرة) 1506 ، و (اسفي) 1508 ، و (ازمون) 1513 ، و (الجديدة) 1514 . وهكذا استولوا على الشاطئ المغربى كله .

فقد استرد المغاربة حسن أكادير (سانتاكروز) في مارس 1541 ، واضطرت البرتغال بعد ذلك لاخلاء أسفى ، ثم اخلت ازمور ، ولقصر الصغير ، واصيلا .

واتاح ذلك بالطبع الفرصة لرعايا الدول البحرية الاخرى — وانجائرا في مقدمتها — لممارسة نشاطهم التجارى في الثغور المغربية ، واهل خطاب مولاي عبد الله الغالب الى الملكة اليزابيث في اكتوبر 1569 للاتوصية على تاجرين بريطانيين ممن كانوا يمارسون النشاط التجارى بين الموانئ البريطانية ، والموانئ المغربية — يدل على هذا النشاط التجارى لبريطاني في الثغور والمدن المغربية (2) .

وبدل عليه ايضا التوكيل القانونى الصادر في يناير 1572 من التاجر البريطانى توماس اوين (Thomas Owen) — لرتشارد جلا سكوك (R. Glascoke) — وكان هذا الاخير مقيما في المغرب — وذلك ليقبض له ديونه طرف لبعض اليهود والمسلمين به (3) .

وقد تردد اسم هذا التاجر الاخير — رتشارد جلا سكوك — اذ يبدو انه كان يحتكر التجارة في نوع خاص من القماش يعرف بالبرناتا (Bernatha) ، وقد رفع بعض التجار قضية على هذا التاجر البريطانى يطالونه بباقي ثمن صفقة من هذا القماش اشتراها منهم ولم يدفع كل ثمنها — وقد نظرت قضية هذا التاجر ، وصدر في مارس 1572 حكم لصالحه بابرائه مما كان يدعيه قبله هؤلاء التجار لانه ثبت ان القماش الذى باعوه له ظهرت به بعض العيوب ، وقد اعترف التجار الشاكون بذلك (4) .

British Museum — Cotton Mss. Nero B.VII, F 67 (2)

British Museum — Cotton Mss. Nero B. XI, F. 67 (3)

British Museum — Cotton Mss. Nero B. XI, J. 65 (4)

— وقد اشار دوزي (Dozy) الى هذا النوع من القماش وهو ازرق اللون يميل الى السواد

R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (Lucien 1932)

وقد احتج فرانسيسكو جيرالدى (Francesco Giraldi) السفير البرتغالى فى لندن فى ابريل 1574 على هذا النشاط التجارى البريطانى وطلب أن تصدر الحكومة البريطانية أوامر للتجار البريطانيين بعدم التعامل مع الثغور المغربية الواقعة تحت سلطان البرتغال — دون موافقتهم — لكن لم تنجح وسائل البرتغال هذه (5) .

وبلغت قيمة الصادرات من السكر ، والحبوب ، والتمر ، وجلود الحيوانات وغيرها ، التى حملتها السفن الانجليزية من الثغور المغربية فى عام 1574/1575 — 28639 جنيها استرلينيا قدرت الجمارك عليها بمبلغ 1431 جنيها استرلينيا (6) .

وقد ارسلت الملكة اليزابيث الى مولاي عبد الملك المعتصم — السفير ادموند هوجان (Edmund Hogan) بهدف الحصول على مزايا تجارية للتجار الانجليز ، ومحاولة عقد معاهدة سرية مع الشريف فى هذا الشأن — لم يكن فى النية نشرها — ويبدو انه لم تكن له أية مهمة سياسية اخرى غير هذه .

هذا على أن النصر الحاسم الذى أحرزته الجيوش المغربية فى معركة وادى المخازن (4 اغسطس 1578) — فتح الباب لعلاقات جديدة بين المغرب وكثير من البلاد الاوربية الاخرى ، وكانت انجلترا فى مقدمة هذه الدول . والمتبع للمراسلات بين الملكة اليزابيث ، والسلطان احمد المنصور — يدرك مبلغ ما وصلت اليه هذه العلاقات من القوة والتشعب (7)

(5) ملاحظة : فرانسيسكو جيرالدى هو ابن التاجر لوكاس جيرالدى (Lucas Giraldi) الذى أثرى من التجارة مع الهند وأفريقيا .

— انظر British Museum — Cotton Mss. Nero B. I F. 165
Ibid P. 167 وكذلك

(6) British Museum — Cotton Mss. Nero B. XI F. 298

(7) ملاحظة : سعت مختلف الدول الاوربية بعد هذه المعركة لكسب ود الملك المغربي مولاي احمد المنصور ، فارسلت له سفراءها وهداياها لهذا الغرض .

— انظر British Museum — Cotton Mss Nero B. I F. 235 and 239

ففى خطاب مؤرخ 18 يونيه 1579 نجد السلطان احمد المنصور يخبر الملكة اليزابيث انه استلم خطابها الذى تطلب فيه ان يعامل رعاياها — الذين يحضرون بالمغرب للتجارة — معاملة خاصة ، وان تستخدم الحكومة المغربية نفوذها لتلزم اليهود الذين يتعاملون مع هؤلاء التجار البريطانيين بالقيام بالتزاماتهم — وقد اوضح المنصور فى رده ان من التقاليد المعروفة عن المغاربة — احترام وتيسير مهمة التجار الاجانب جميعا والانجليز منهم على وجه الخصوص ، وان كل ما تطلبه بريطانيا سيكون موضع الرعاية والتنفيذ (8) .

هذا وقد اخذ بعض التجار البريطانيين يضغطون على حكومتهم للموافقة على تأسيس شركة تجارية تمنح امتيازاً لاحتكار التجارة بين بريطانيا والمغرب — وفعلت تأسيست هذه الشركة فى عام (1585) باسم ' The Barbary Company ' .

ومنحتها الحكومة البريطانية عقد امتياز لمدة 12 عاماً ، وارسل هنرى روبرتس (Henry Roberts) كممثل للشركة فى المغرب (9) .

وقد وصل هذا المندوب البريطانى الى اسفى فى 14 سبتمبر 1585 ، ولما علم السلطان احمد المنصور بوصوله ارسل احد رجاله لمرافقته الى مراكش ، وقد عاونه مندوب السلطان على العثور على مسكن جميل فى الحى اليهودى حيث كان يسكن رتشارد ايفانس (Richard Evans) وغيره من التجار الانجليز والفرنسيين والهولنديين .

وقدم المندوب البريطانى للسلطان المغربى خطاب توصية من الملكة اليزابيث ، وظل هذا المندوب فى المغرب ما يقرب من ثلاث سنوات ونصف ثم قد رجع الى لندن فى يناير 1589 ، وزار خلال هذه المدة الطويلة التى قضاها بالمغرب معظم الموانئ والمدن المغربية الهامة ، وكتب تقريراً وافياً ضمنه ملاحظاته هناك — وقد قدم هذا التقرير للملك جيمس الاول ولذا

(8) Nickolas ; John : The progress and public Processions of Queen Elizabeth (1823) P. 288.

(9) Public Record Office — State papers —Domention Elizabeth. Vol. CLVII No. 85

سنرجىء الحديث عنه وعن محتوياته لما بعد ، اذ ان التغيير الذى طرأ على الظروف فى المغرب بعد عهد السلطان احمد المنصور هو — كما يبدو الذى دفعه لتقديم هذا التقرير بالذات ، وللالاتجاه الذى اتخذته فى تقريره — لكننى أشير هنا الى بعض التفاصيل التى ذكرها فى تقريره عن السلع التى كان التجار البريطانيون من اعضاء الشركة التجارية التى كان روبرتس يمثلها — يحملونها من المغرب (10) .

السكر : وقد قال ان الملكة اليزابيث لم تكن تقبل فى مطبخها أى نوع من السكر الا السكر المغربى ، وذكر ان قصب السكر كان يزرع فى مناحات شاسعة يملكها الشرفاء المفاربة ، ويعمل فيها الاسرى المسيحيون ، وكان القصب يعصر بواسطة رعى ، فيمرر بين حجرين ، ويؤخذ العصير ويقطر ، وعملية التقطير كان يستخدم فيها الفحم الحجرى .

الذهب : ذكر ان كميات كبيرة منه ترد للمنصور من السودان خاصة بعد الحملة التى أرسلها سنة (1589) بقيادة قائده جؤدر لفتح هذه البلاد .

ملح البارود (Salpêtre) : يذكر انه افضل من أى نوع كان يحصل عليه من أى مكان آخر فى العالم ، وكانت له أهمية كبرى فى الانتاج الحربى .

النحاس : أهميته ترجع لاستخدامه فى صنع المدافع .

القمح ، والذرة ، واللحوم : يذكر ان المغرب كان ينتج منها كميات كبيرة .

وقد ذكر ان الضريبة على الواردات كانت تقريبا 10 ٪ ، لكن ضريبة الصادرات كانت متباينة حسب نوع السلعة المصدرة ، وكان اليهود هم غالبا الوسطاء فى التجارة ، وكان بالمغرب عدد كبير منهم — وقد أشير اليهم فى أكثر من وثيقة تتعلق بالمعاملات التجارية ، وكما ذكرنا

Hakluyt : The principal Navigations of the English Nation (10)
(1598-1600) - Tome II P. III.

كانت لهم احياء خاصة بهم في المدن التجارية الهامة ، واشار روبرتس الى ان اسعار الصادرات المغربية كانت ترتفع بسبب هذه الوساطة اليهودية .

هذا على ان العلاقات بين المغرب وبريطانيا لم تقتصر في هذه الفترة على الشؤون التجارية فحسب ، لكنها تعدت ذلك الى المسائل السياسية ، وقد تبودلت عدة خطابات بين الدولتين بهذا الخصوص . ومن المسائل التي كانت مثارا للبحث بين الدولتين — مسألة معاونة دون انطونيو (D. Antonio) المطالب بعرش البرتغال ليستعيد عرشه (11) .

وهذا الموضوع بالذات كان مثار البحث في العديد من الخطابات بين الملكة اليزابيث ومولاي المنصور ، ففي خطاب مؤرخ 12 مارس 1591 يذكر المنصور للملكة انه استلم خطابها الرقيق المرسل مع مندوبها الكاتبان ادوارد برين (Edward Prynne) ، ويعتذر عن عدم رده السريع على خطاباتها السابقة بسبب انشغاله في الحملة التي اوفدت الى بلاد السودان ، لكن يجب ان تثق انه يعير اهمية لكل الامور التي تتعلق بها صغيرها مثل كبيرها ، اما فيما يتعلق بالمعونة المادية التي كان قد وعد بتقديمها للمطالب بعرش البرتغال (D. Antonio) فهو دائما يفي بما يعد به — لكنه لا يستطيع ان يفي بذلك في الوقت الحالي الى ان تنتهي حملة السودان والتي ستعاون نتيجتها على ان ينفذ ما وعد به ، على

(11) دون انطونيو (D. Antonio) هو ابن دون لويس (D. Luiz) الابن الثاني للملك عمانوئيل الاول (Emanuel I) ملك البرتغال (1491 - 1521) وكان قد اسر في معركة وادي المخازن — لكن فك اسره بعد ذلك ووصل الى البرتغال بعد وفاة الكاردينال هنري (Roi Cardinal Henry) الذي حكم بعد موت الملك دون سابيستييان (D. Sebastian) الذي قتل في المعركة المذكورة ، لكن بعد عام 1580 ضم فيليب الثاني (Philip II) ملك اسبانيا — البرتغال الى املاكه وظل هذا لفترة ستين عاما تقريبا — وكانت انجلترا قد وعدت بارسال قوة لمعاونة المطالب بعرش البرتغال (دون انطونيو) لاسترجاع عرشه ، وان يعاون السلطان المغربي احمد المنصور بمبلغ كبير من المال لتجهيز هذه القوة .

انها يمكنها من جانبها ان تقوم هى بهذا الامر حاليا الى ان يفرغ هو من متطلبات الحرب المذكورة (12) .

هذا على ان مشكلة دون انطونيو — لم تكن هى القضية الوحيدة التى تبادلته فيها الدولتان المراسلة . . . بل يبدو ان الدولتين كانتا تتجهان لاتخاذ سياسة موحدة تجاه الكثير من الاحداث السياسية التى تمس مصالحهما المشتركة . تدلنا على ذلك بعض المراسلات المتبادلة بين المسؤولين فى البلدين ، ففى خطاب من السلطان احمد المنصور الى الملكة اليزابيث بتاريخ 15 يونيو 1600 يشير السلطان المنصور الى انه بعث مندوبه عبد الواحد بن مسعود ليبلغ الملكة رسالة شفوية تتعلق بأمر هام (13) .

ورغم ان الخطاب لم يفصح عن موضوع هذه المشاورات لكن المرجح ان الامر يتعلق باعداد حملة مشتركة ضد اسبانيا ، فقد اشار عبد الواحد بن مسعود فى مذكرات له كتبها فى سبتمبر 1600 الى ان الشريف كان يريد شن حرب على اسبانيا وانه يبغى التعاون مع انجلترا فى هذا الامر

Public Record Office — State papers. Foreign Royal Letters Vol.(12)
11 No. 20

وهناك عدد كبير من المراسلات بهذا الشأن نذكر منها :

أ - خطاب من مولاي احمد المنصور الى دون انطونيو (مؤرخ 29 مارس 1588)
British Museum — Burney Mss. 367 ff. 198-199

ب - خطاب من مولاي احمد المنصور الى الملكة اليزابيث (مؤرخ 28 ابريل 1588)
Public Record Office — State papers. Foreign Royal Letters Vol.
11 No. 16.

ج - خطاب من مولاي احمد المنصور الى الملكة اليزابيث (مؤرخ 12 فبراير 1589)
Public Record Office — State papers. Foreign Portugal Vol. 11

د - خطاب من مولاي احمد المنصور الى الملكة اليزابيث (مؤرخ 23 يونيو 1590)
Public Record Office — State papers. Foreign Royal Letters Vol.
11 No. 21

هـ - خطاب من الملكة اليزابيث الى مولاي احمد المنصور (مؤرخ 20 اغسطس 1590)
Public Record Office — State papers. Foreign Royal Letters Vol.
11 No. 18

British Museum — Cotton Mss. Nero, B. XI. f. 78

(13)

لقوتها البحرية ، وذكر أن المغرب يستطيع بإمكانياته تموين الاسطول البريطاني بحاجته من القمح وغيره من المؤن وما يحتاجه من اخشاب ، وذكر أن حملة السودان أثبتت قوة احتمال الجنود المغاربة (14) .

ثانيا — فترة حكم جيمس الاول (1603 — 1625) :

شهد عام 1603 تغييرا في السلطات الحاكمة في كلا البلدين ، فقد توفي المنصور السعدي في عام 1603 — وانقسم السعديون على انفسهم وقامت مملكتان في فاس ، ومراكش ، وقامت حروب طاحنة بين المملكتين ، كما قامت ثورات في كثير من الجهات ، وهكذا شهد المغرب فترة عصيبة في تاريخه مليئة بالاضطرابات الى ان استطاع مولاي زيدان أن يثبت اقدمه في مراكش ، وفي هذه الاثناء أيضا آلت السلطة في بريطانيا الى جيمس الاول .

وخلال الاضطرابات الداخلية التي شغلت المغرب عن الاعداء الخارجين استطاعت اسبانيا — رغم الهزيمة المنكرة التي الحقها بها الاسطول البريطاني الذي أغرق (الارمادا) الاسبانية في معركة حاسمة عام 1588 — أن تستولي على العرائش في عام 1610 ، وعلى المعمورة في عام 1614 ، وهكذا أصبحت النفوذ في طنجة ، وسبتة ، وملييلية ، والعرائش ، والمعمورة .

واتجهت الدول الاوربية للاتصال بأصحاب النفوذ في الموانئ والمدن المغربية الهامة سواء اكانوا حكاما رسميين أو من الثائرين والمغتصبين للسلطة والخارجين على السلطان الرسمي — وذلك لرعاية مصالحها ولضمان سلامة رعاياها .

(14) Public Record Office — State papers. Foreign Spain Vol. VII

(15) انظر خطاب فرانسيس كوتينجتون (Francis Cottington) الذي أصبح سفيراً لانجلترا في اسبانيا — والموجه الى سالتزبري بتاريخ 15 يونيو 1610 والذي انباه فيه بخبر استيلاء الاسبان على العرائش بمساعدة (مولاي الشيخ) وذكر أن الكنائس والمنازل والطرق في اسبانيا زينت ابتهاجا بهذا الحدث .

Public Record Office — State papers, Foreign

Spain Vol. XVII f.f. 217, 218 and 234

وفي ذلك الوقت كانت الموانئ الشمالية من تطوان الى سلا قد آل امرها لاتباع محمد العياشي — ولذا فقد مدت الدول الاوربية — وفي مقدمتها انجلترا — أيديها اليه وعقدت معه المحالفات والمعاهدات وبعثت بقناصلها الى سلا ، وتطوان بالإضافة الى مراكش (16) .

وسنؤجل الحديث عن علاقة الانجليز بالعياشي للفترة التالية — فترة حكم شارل الاول حيث وصلت هذه العلاقات لذروتها .

وبمجرد اطلاع جيمس الاول ، بأعباء الحكم في انجلترا قدم له هنري روبرتس (Henry Roberts) تقريراً وافياً عن هذه البلاد ، وقد أشار في تقريره — كما ذكرنا سابقاً — الى ثروة هذه البلاد ومنتجاتها المختلفة ، ودعاه لغزو هذه البلاد قبل أن تقع في أيدي الاتراك الذين يتربصون لها ، ونصح بأن يبدأ الانجليز بالاستيلاء على الأماكن الساحلية التي يحتلها الاسبان ، وأن اسطول الاراضي الواطنة يمكن ان يتعاون مع الاسطول البريطاني في هذا الشأن ، وذكر أن الملك جيمس جدير بأن يحقق هذا الحلم لمجد الكنيسة والامة الانجليزية ، وأن جل ما يطلبه المغاربة هو ان يؤكد ملك انجلترا لهم انهم لن يصبحوا عبيدا نتيجة لهذا الغزو ، وأن يعامل معاملة طيبة سواء من رغب منهم في الدخول في المسيحية او من بقى على دينه (17) .

على ان تقرير روبرتس هذا — لم يكن هو الوحيد الذي تناول الاوضاع في المغرب في هذه الفترة بهدف اثاره الحكومة الانجليزية بالذات

(16) العياشي (أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد الزياني) — فقيه عالم ينتمي الى قبيلة بربرية يقال لها (ايت عياش) ، وقد كان اماماً عالماً ومن المصادر الهامة التي تعرضت لجهوده في كفاح الاسبان والبرتغال :

— املاق ، عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الحسن : الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد ، وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد (نسخة خطية في وثائق الرباط تحت رقم — 91 / د) .

— الافراني المراكشي ، أبو عبد الله محمد الصغير بن عبد الله بن علي : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي . (نسخة خطية في وثائق الرباط تحت رقم 4 / د ، 117 / د ، 70 / د) . ص : 104 ، 109 ، 110 — عن التعريف بالعياشي وجهاده ، حتى نهاية حياته .

British Museum — Additional Mss. 38/39 f. 33

(17)

لتتحرك لاتخاذ موقف حاسم . فقد كتب جورج ويكنس (George Wikins) الكاتب الشهير الذي اشتهر بقصصه المسلية للمسرح — في عام 1604 كتابا اتخذ له عنوانا مثيرا تحدث فيه عما يعاني منه المغرب بعد وفاة السلطان أحمد المنصور — من حروب ومجاعات وأمراض — كما يقول ، وقد اهدى كتابه هذا للشركة البريطانية للتجارة مع المغرب (18) .

كذلك صدر كتاب في لندن في (1609) عن الحالة في المغرب في مطلع القرن السابع عشر ، والعجيب أن مؤلف هذا الكتاب لم يذكر اسمه ولكنه رمز له بالحروف (Ro. G.) (19) وقد عالج هذا الكتاب الذي يقع في 74 صفحة — بالإضافة الى أربع صفحات غير مرقمة — فترة حكم مولاي أحمد المنصور ، ثم الحروب التي نشبت بين أولاده ، كما تعرض لعدة مواضيع تتصل بالاوضاع الاجتماعية والدينية والعادات والتقاليد ونظام الحكم في المغرب بالإضافة الى رحلة قام بها انطوني شيرلي (Anthony Sherley)

الى هذه البلاد وملاحظاته عنها (20) .

وقد زار المغرب في هذه الفترة أيضا القائد البحري البريطاني الكابتن هنري مانورنج (Henry Mainwaring) — وكتب تقريرا مفصلا تحدث فيه عن معظم الموانئ المغربية موضحا مميزات وأهمية كل منها (أشرار

British Museum — Printed Books, Press Mark 1046 D. 24 (18)

والكتاب نشر بعنوان :

« Three Miseries of Barbary : Plage, Femine, civil wars ; with a relation of the death of Mahomet, the late Emperour and a brief report of the now present wars between the three brothers ».

British Museum — Printed Books, Press Mark 1198, C. 20 (19)

والكتاب نشر بعنوان :

« A true historicall discourse of Muley Hamets rising to the three Kingdomes of Moruecos, Fes and Sus (Londres — 1609)

ملاحظة : الأخطاء اللغوية في العنوان ترجع للاختلاف الزمني ، فالامر يرجع للقرن السابع عشر

(20) نشرت رحلة انثوني شيرلي كاملة مع رحلات أخرى لأشقائه بعنوان :

« The travels and adventures of Sir Anthony, Sir Robert and Sir Thomas Shereley »

انظر :

— Hakluyt : The principal Navigations T. III P.P. 598 — 602

— British Museum ; Egerton, Mss. 1824 - f.f. 77-82 : وكذلك

بالذات للموانئ والمناطق الحصينة في : أصيلا ، وسلا ، وآسفى ،
وسانت كروز ، وماسة ، وذكر أنه يشرفه ان يضع هذه المعلومات تحت
انظار ملك انجلترا (21) .

وهكذا نرى أن هذه الكتب والتقارير تشير كلها للحالة المضطربة
التي أعقبت وفاة السلطان القوى أحمد المنصور الذهبى وتدعو انجلترا
لانتهاز هذه الفرصة لوضع أيديها على الثغور المغربية ، لكن بلا شك كانت
انجلترا تدرك أنها بالإضافة الى المغاربة أنفسهم ، فإنها ان اقدمت على
مثل هذا العمل ستضطدم بالقوى الاوربية الاخرى كفرنسا والاراضى
المنخفضة واسبانيا التي كانت لها مصالح حيوية في هذه البلاد .

وبالإضافة الى هذه الكتب والتقارير لدينا بعض المراسلات المتبادلة
بين جيمس الاول ، والسلطان مولاي زيدان وقد تناولت هذه المراسلات
عدة مسائل هامة تهم البلدين .

ففى رسالة للملك جيمس الاول يشير الى بعض الاشياء التى
يشكو منها التجار الانجليز في الثغور المغربية ، وعلى سبيل المثال ذكر أن
بعض هؤلاء التجار البريطانيين عوملوا معاملة غير عادية من رجال
الجمرك في آسفى الذين استولوا على جوهرة ذهبية كانت معهم ورفضوا
إعادتها لهم ، وطالب الملك البريطانى أن يعامل البريطانيون في المغرب
معاملة طيبة وعادلة - ورد مولاي زيدان على هذه الرسالة برسالة
مؤرخة في 17 مارس 1611 أوضح فيها أن المغاربة من عاداتهم معاملة
التجار جميعا بالعدل ، وشرح الملابس المتصلة بموضوع الشكوى التى
أشار اليها الملك الانجليزى اذ إن التجار البريطانيين في آسفى حاولوا
إخفاء هذه الجوهرة لكي يتهربوا من دفع الجمارك المحددة عليها ، رغم
أن رجال الجمارك نبهوهم لإبراز ما لديهم ، وأن القانون في هذه الحالة
يقضى بأن تضع السلطات أيديها على هذا الشيء الذى يعتبر في حكم
المهرب ، لكن مع ذلك فإن الملك المغربى أبدى استعدادا لإعادة هذه

(21) انظر تقريره فى : British Museum , Bibl. Reg. 17 A. XLVII
(ملاحظة : أصبح هذا القائد فى عام 1619 / 1620 - قائدا لقلعة دوفر) .

الجوهرة على ان يكون ذلك بمثابة هدية منه لان اصحابها اصبحوا لا حق لهم فيها — وفي نهاية خطابه طلب السلطان المغربي ان يرسل له ملك انجلترا بعض الذنين لاصلاح بعض المدافع المعطلة عنده (22) .

وفي عام 1614 ارسل جيمس الاول مذدوبه جون هاريسون (John Harrison) ليبلغ مولاي زيدان رسالة شفوية ، وقد رد هذا الاخير على هذه الرسالة برسالة مؤرخة في 24 نوفمبر 1614 — شكر فيها الملك جيمس لعواطفه التي عبر عنها خاصة ما يتصل بالفتنة التي قامت في المغرب ، و اضاف ان هذه الفتنة اُخمدت والحمد لله ، ويذكر ان هذه الشاعر ليست غريبة فانجلترا تربطها بحكومة المغرب صداقة قديمة ، وذكر في نهاية الرسالة انه حمل المذدوب البريطاني رسالة أخرى شفوية سيبلغها للملك البريطاني (23) .

على كل فان هذه المراسلات تدل على ان انجلترا كانت مهتمة بالامور في المغرب ، فقد كان يهمها ان يمارس رعاياها نشاطهم التجاري في الثغور المغربية في امان بالإضافة الى الاهمية التي اخذت تبرز مع الايام للموانئ المغربية على البحر المتوسط والمحيط الاطلسي بالنسبة لدولة بحرية كانت انجلترا كان نفوذها وسلطانها وقوتها في ذلك الوقت يعتمد قبل كل شيء على قوة أسطولها البحري .

(22) انظر نص خطاب مولاي زيدان الى جيمس الاول (مؤرخ في محرم 1020 — 17 مارس 1611) في : Oxford Bodleian Library Ms. Oriental 575 Piece 70

(23) تزعم هذه الثورة (ابو محلى) ، وهو ابو العباس احمد بن عبد الله ، وقامت بعد ان سلم الشيخ المامون السعدي العرائش للاسبان ، وقد اجتمع حوله عدد كبير من المغاربة ، واستطاع ان يطرد زيدان بن المنصور من مراكش ذاتها — لكن لم يدم له النفوذ أكثر من ثلاث سنوات انتهت بقتله في عام 1611 .
انظر :

British Museum — Printed Books. Press Mark 1046 D 26 :

« Late News out of Barbary (Londres 1614) ».

وكذلك : British Museum — Cotton Mss. Nero B XI. f. 318

ثالثا : الفترة الاولى من حكم شارل الاول (1625 — 1642) :

تعاقب على عرش المغرب في هذه الفترة أكثر من حاكم ، كما ان سلطان كل منهم لم يشمل المغرب كله ، فكثيرا ما كان لا يتعدى (مراكش) ، بينما كانت باقى الجهات في يد سلطات اخرى تنازعها النفوذ — وفي انجلترا ذاتها كانت هذه الفترة فترة اضطرابات ايضا .

لكن برزت في هذه الاثناء شخصية الفقيه محمد العياشى الذى اشرنا اليه سابقا وذكرنا أنه اصبح صاحب النفوذ الحقيقى على ميناء (سلا) الهام ، وعلى طول المنطقة الممتدة منه الى تطوان (24) .

ولذا فقد اتجه الانجليز لهذه الشخصية القوية وسعوا الى الارتباط معه — اى مع العياشى — بمعاهدات تضمن لرعاياهم الامان والعمل في الثغور المغربية التى تحت نفوذه باطمئنان كامل . ولهذا الهدف ارسل شارل الاول جون هاريسون (John Harrison) للتفاوض مع العياشى . ونجح هاريسون فى توقيع اتفاق فى (24 شعبان 1036 — 10 مايو 1627) مع العياشى ، وقد كفل هذا الاتفاق للانجليز الضمانات المختلفة التى كانوا يتطلعون اليها (25) .

وفى رسالة العياشى بتاريخ (2 رمضان 1036 — 17 مايو 1627) احاط علم المالك البريطانى باستقباله مندوبه جون هاريسون فى تطوان وترحيبه به ، وبأنه اصطحبه الى سلا ، ويذكر أنه مسرور بالسلام

(24) أسست (تطوان) قبل الاسلام لتخلف ميناء تامودا (Tamoda) الرومانية — لكنها فى الفترة التى نعالج أحداثها هنا كانت قد وصلت الى درجة كبيرة من الازدهار ، فقد استقر بها الاندلسيون النازحون من اسبانيا بعد سقوط مملكة غرناطة 1492 ، كما استقر بعضهم فى الرباط ، والبعض الآخر فى سلا وحصنوا قصبة سلا وبنوا فيها الدور والقصور ، وأخذوا يمثلون قوة ضخمة فى هذه المدن .

Public Record Office — State papers, Foreign. Treaty papers.(25)
Barbary States I.

والاتفاق الذى عقد فى هذا الشأن بين سكان قلعة الرباط ومندوب عظمة ملك انجلترا وانه مستعد لاية خدمة يطلبها الملك (26) .
وبعد ذلك التاريخ تبودلت بين الطرفين عدة خطابات تنم عن العلاقات الطيبة التى استمرت حتى نهاية حياة العياشى . ففى 12 اكتوبر 1627 ارسل شارل الاول خطابا الى العياشى ردا على الخطاب السابق شكره فيه على المساعدات التى قدمها لجون هاريسون ، وللمجهودات التى بذلها لفك أسرى الانجليز وابدى من جانبه ترحيبه بالصدقة مع المجاهد المغربى مؤكدا رغبته فى استمرار الاتصال والمراسلات معه ، ومع القواد الآخرين نظرائه لتوطيد علاقات الود بين انجلترا وبلاد المغرب لخير الشعبين (27) .

هذا وقد بعث جون هاريسون عدة تقارير من المغرب ، وهذه التقارير تعكس صورة واضحة للعلاقات بين البلدين فى هذه الفترة .

ففى تقريره المرسل فى عام 1627 — عقب عقد المعاهدة السالفة الذكر مع العياشى يشير الى الخدمات الجليلة التى قدمها هذا الاخير للرعايا البريطانيين بالمغرب ، وذكر ان العياشى يهاجم المعمورة التى بأيدى الاسبان بقوة تبلغ 40ر000 من المغاربة وانه طلب معاونة الاسطول الهولندى ليمكن محاصرة الميناء بحرا وبراً ، وذكر ان الاسبان نجحوا فى تعزيز حامية المدينة التى كانت على وشك السقوط ، فقاموا بارسالها مركبين محملين بالعتاد والمؤن ، فأضطر العياشى لفك الحصار الذى كان قد ضربه على الميناء ورجع الى سلا ومعه بعض المدافع التى غنمها من الاسبان ، وذكر هاريسون فى تقريره ان العياشى يرغب فى معاونة شارل الاول له ليخلص المعمورة من يد الاسبان لما لهذا الميناء من اهمية كبرى (28) .

Public Record Office — State papers, Foreign Royal Letters Vol. I(26)
I No. 66

Public Record Office — State papers, Foreign Barbary States.(27)
Vol. XII. Fol. 142,143.

Public Record Office — State papers, Foreign Barbary States.(28)
Vol. XII, Fol. 129,139.

وقد اقترح هاريسون اما أن تقدم انجلترا المعونة الكاملة للعياشى لينتزع هذا الميناء — ميناء المعمورة — من ايدى الاسبان أو ان تضع بريطانيا ايديها هى عليه ، وذكر أنه يعتقد ان العياشى سوف يرتاح لو أن انجلترا حلت مكان الاسبان فى هذا الميناء لانه يخشى اذا استولى هو عليه أن تنازعه تركيا السلطان فيه — وعدد مزايا ميناء المعمورة فهو فى موقع ممتاز بحيث تستطيع السفن الانجليزية فى كل الظروف ان تتزود بما تحتاجه فى رحلتها الطويلة ، كما تجد الحماية ضد سفن أعدائها من أتراك أو اسبان ، ولو وضعت انجلترا ايديها على هذا الميناء يمكن تحصينه فهو لاحاطته بالبحر من ناحية والنهر من ناحية أخرى يبدو كجزيرة داخلية كما يمكن زراعة مساحات واسعة من الاراضى الواقعة شمال المعمورة لمسافة عشرين ميلا ، كما يقول انه يشاع أن الموريسكيين قد اكتشفوا مناجم للفضة فى المناطق القريبة ، لكنهم لم يفضحوا أمر هذا الكشف الى أن يصبحوا سادة البلاد ، والموريسكيون — كما يقول — يتوقعون أن يصبحوا تحت السيادة البريطانية .

وهكذا لو أصبح الانجليز مسيطرين ايضا على سبتة وجبل طارق فانهم سيتحكمون فى هذه المضائق الهامة (29) .

وقد عبر الملك شارل الاول فى تصريح له فى 22 اكتوبر 1628 عن اسفه لما حدث من بعض التجار الانجليز من مخالفات ضد بعض الاهالى فى الجزائر ، وتونس ، وتطوان ، وسلا ، ووعده بتوقيع العقاب على مقترفى هذه الاخطاء حسب القوانين الانجليزية — (30) ولا ندرى فى الحقيقة ما هى هذه الاخطاء التى يعتذر الملك عنها ويأسف لوقوعها .

لكن يبدو على الرغم من ذلك ان العياشى وأتباعه ظلوا أمناء لمعاهداتهم فيما يتعلق بالرعايا البريطانيين ، ففى خطاب مؤرخ 20 مايو

Public Record Office — State papers, Foreign Barbary States (29)
Vol. XII Fol. 154.155.

Public Record Office — State papers, Foreign Public Record (30)
Office — Patent Rolls. Charles 1, 2472 No. 10.

1630 يخبر العياشى الملك شارل أن اثنين من اتباعه من قادة قصبـة الرباط هما (عبد الله بن على ، وأحمد بن على البشير) نجحا فى اخلاء سبيل 195 أسيرا من سجناء الانجليز . ويعبر الفقيه العياشى فى ثنايا هذا الخطاب عن شكره لملك بريطانيا على استجابته لطلبه وارساله بعض المدافع وبعض المواد الحربية الاخرى ، ولما ابداه من استعداد لاجابة كافة طلباته من الاسلحة ، ويذكر انه حاليا ليس فى حاجة لمزيد من الاسلحة الجديدة لانه يركز على اصلاح القديم منها وأنه اذا بدت له حاجة لاي شيء سيرسل فى طلبه ، ويؤكد ان التجار الانجليز الذين سيأتون لسلا سيعاملون كما لو كانوا فى لندن ذاتها (31) .

وقد اتاح هذا السلام — الذى كفله العياشى واتباعه للانجليز — فرصة مزاولـة نشاطهم فى تطوان وسلا وغيرهما من الموانئ التى فى ايدى اتباع العياشى — باطمئنان كامل (32) .

لكن حين تسلط الموريـسكيون على تطوان ، والرباط ، وقصبـة سلا ، وناصرى العياشى العداء ، كثر الهجوم على السفن البريطانية ، وتعرضت مصالح انجلترا ورعاياها فى هذه الجهات للخطر ، ولذا اتجهت انجلترا وبحريتها لمساندة العياشى فى كفاحه ضد الموريـسكيين من جهة وضد الاتراك العثمانيين من جهة اخرى (33) .

واضطرت انجلترا ازاء الاعتداءات التى بدا يتعرض لها رعاياها الى تكليف القائد البحرى البريطانى وليم رينز بورو (W. Rainsborough)

Public Record Office — State papers, Foreign Royal Letters Vol.(31)
II N° 56

(32) انظر خطاب سليمان بن يوسف من تطوان الى الملك شارل الاول — والمؤرخ 30 مارس 1682 ، والذي يذكر فيه انه لما علم بمضمون خطابه المرسل الى عبد الله النقسيـس — حاكم تطوان السابق بادر باسم (سيدي محمد العياشى) — الى عمل كل التسهيلات الممكنة للرعايا البريطانيين ، ونص الخطاب موجود فى :

Public Record Office — State papers, Foreign Royal Letters Vol.
II N° 60

Public Record Office — State papers. Domestic, Charles I Vol.(33)
CCCXXXVIII N° 51

بمهمة حماية السفن التجارية البريطانية التي تعمل في ثغور المحيط الاطلسي ، وكذا رعاية مصالح البريطانيين في هذه الثغور المغربية ، والضغط على السلطات المتسلطة على الرباط لفك الاسرى البريطانيين ، ولتحقيق ذلك أبحر هذا القائد الى مياه سلا بالسفينتين (انتيلوب ، وماري) (Antilope and Mary). واتسمت محاولة هذا القائد البريطاني مع حكام الرباط وسلا بأسلوب يجمع بين المهادنة ومحاولة التفاهم لتحقيق الهدف — وهو فك اسرى من وقع في أيدي قراصنة سلا من الانجليز — والضغط من ناحية اخرى ملوحا بقوة الاسطول البريطاني التي تستطيع محاصرة المواني المغربية . لكن يبدو — كما يفهم من خطابه الذي أرسله لبريطانيا (غير واضح تاريخه) — أن حاكم الرباط لم يقبل تسليم الاسرى ، كما أن السفن التي تحت امرته كانت بطيئة الحركة ، ولذا لا تستطيع تعقب سفن سلا الخفيفة الحركة والتي يقدر عددها ما بين 40 و 50 سفينة ، وأنه لذلك يترقب وصول السفينتين الحربيتين الصغيرتين اللتين طلبهما ليتمكن فرض حصار كامل على ميناء سلا ، ومهاجمة المدينة ، واخلاء سبيل الاسرى ، وقد أرسل خطابه هذا مع سفينة اسبانية كانت قد انزلت بعض التعزيزات للاسبان في المعمورة (34) .

ويستدل من تقارير رجال البحرية البريطانية الذين كانوا يعملون بسفنهم في المياه المغربية — أن السفن الانجليزية قدمت مؤازرتها لقوات الفقيه العياشي التي كانت تحاصر الموريسكيين في تطوان ، والرباط ، وقصبة سلا (35) .

كما عقدت معاهدة جديدة في 5 مايو 1637 بين العياشي ، وبريطانيا . وقد وقع هذه الاتفاقية عن انجلترا وليم رينزبورو (William Rainsborough)

وعن العياشي — ابراهيم بن علي .

(34) انظر خطاب رينزبورو (Rainsborough) ومرفق به رسم توضيحي لميناء سلا: Public Record Office — State papers Domestic Charles I, Vol. CCC LIV No. 28

(35) انظر تقرير الكابتن جيلزبيني (Giles Penne) Public Record Office — State papers Domestic Charles I, Vol. CCCXXXVIII No. 51.

وجاء في هذه المعاهدة :

- 1 — تقوم البحرية البريطانية بمحاصرة سلا بحرا بينما تحاصرها قوات العياشى برا .
- 2 — لا يعقد اي صلح أو اتفاق للسلام بين القوات البريطانية وسلطات سلا الجديدة ، بأية شروط دون أخذ موافقة العياشى على ذلك .
- 3 — تكون لرعايا كل من الطرفين حرية الاتجار ، والتنقل في اي من المواني التابعة للطرف الآخر ، كما تقدم لسفنهما كل المساعدات اللازمة .
- 4 — يفك أسر كل الرعايا البريطانيين في الاراضى الواقعة تحت نفوذ العياشى ، واذا سقطت سلا الجديدة في أيدي قواته يقوم على الفور باطلاق سراح كل الاسرى البريطانيين .
- 5 — وقبل ان يوقع العياشى على اي اتفاق للصلح مع الموريسكيين يجب ان يتحقق من ان كل الاسرى البريطانيين قد أطلق سراحهم بالاضافة الى التعهد باعادة الاسرى الذين رحلوا الى الجزائر أو تونس أو غيرهما من البلاد .
- 6 — اذا حدث ان اية سفينة بريطانية تصادف لاي ظرف من الظروف ان جرفتها الامواج لمدينة ساحلية تحت سلطان قوات العياشى فان ركبها يعاملون معاملة الاصدقاء ، ويحتفظ بحقهم فيما ينجو من بضائع هذه السفينة أو معداتها .

(36) انظر نص شروط المعاهدة :

Melbourne Hall (Derby Shire), Coke - papers, Lease 41

(37) انظر تقرير رينزبورو (Rainsborough) المؤرخ 19 مايو 1637 ، وكذلك التقرير المؤرخ 15 يوليو 1637 :

Public Record Office — State papers, Foreign Barbary States XIII.

7 — يسمح لرعايا كل من الطرفين بنقل اية بضائع — من التي كانت متداولة بين تجار الطرفين من قبل — الى بلادهم طالما أنهم يدفعون الضرائب القانونية المقررة عليها .

وقد استمر رينزبورو (Rainsborough) في ارسال تقارير منتظمة عن الاوضاع في المغرب وموقف العياشي واتباعه . ويبدو من تقاريره أن الانجليز — تنفيذاً لمعاهدتهم مع العياشي — كانوا يقدمون له ما يحتاجه من (بارود) ومعدات حربية أخرى ، وقد تمكن العياشي من محاصرة سلا بقوات من الخيالة بلغ عددها 20.000 رجلاً لكنه — كما يقول القائد البريطاني — كان يفتقر لقوة كبيرة من المشاة ليحقق النصر المنشود ، ولذا فانه رغم محاصرته لاعدائه لم يستطع أن يوقع بهم هزيمة حاسمة أو يجبرهم على قبول شروطه للصلح — وقد ذكر رينزبورو في تقرير له في 15 يوليو 1637 أن المورييسكيين اطلقوا سراح أسرى الانجليز في سلا مقابل اطلاق العياشي لعدد مماثل من أسراهم الذين وقعوا في أيدي قواته ، لكنه علم أن عدداً كبيراً كان قد ارسل الى الجزائر وتونس ، ويعتقد أن هؤلاء المورييسكيين يريدون كسب الوقت الى أن يرحل الاسطول البريطاني الذي يؤازر قوات العياشي .

وفي 21 أبريل 1641 قتل العياشي بعد أن تنكر له الدلائيون الذين كانوا في المبدأ حلفاء له (38) .

ولم تتأخر انجلترا في الاتصال بزعيم الدلايين (محمد الحاج) الذي كان مناوئاً لحليفها السابق العياشي ، وعقدت معه معاهدة صداقة شبيهة بمعاهدتها السابقة مع العياشي — كما عقدت مع غيره من

(38) للدراسة التفصيلية لعلاقات العياشي مع زعماء الزاوية الدلائية وتطورها — انظر : الشفشاوني ، سليمان محمد بن عبد الله بن علي العلمي : الدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية (نسخة خطية بوثائق الرباط رقم 261 / د ص : 188 ، 189 ، 515 ، 516 .
— وكذلك محمد حجي : الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي (الرباط 1964) .

اصحاب السلطة في المغرب اتفاقات مماثلة — فقد كان الهدف هو تحقيق مصالحها ومصالح رعاياها ، وسلكت في سبيل ذلك كل طريق ممكن .

فحين استطاع المرابط علي بن محمد — الذي اشتهر باسم (ابي حسون) (39) ان يمد نفوذه على المنطقة الجنوبية الغربية من المغرب التي تقع بها ثغر اغادير الهام ، واصبح هذا المرابط صاحب الامر في منطقة سوس — اتصلت به انجلترا وعقدت معه معاهدة تجارية في نفس الوقت الذي كانت تتعامل فيه مع السلطان السعدي فيما يتعلق بمنطقة نفوذه في (مراكش) و (آسفى) وغيرهما ومع العياشي ثم من بعده مع الدلائيين في شان سائر الثغور الواقعة شمال نهر (ام الربيع) . وبالطبع دعمت هذه العلاقات مع انجلترا وغيرها من الدول الاوربية مركز ابي حسون في سوس .

وقد تبادل الملك شارل الاول المراسلات مع هذا المرابط (علي بن محمد) ، فقد ارسل الملك البريطاني خطابا يشكره فيه لاطلاقه سراح الاسرى الانجليز الذين كايوا في ناحيته ورد عليه المرابط المغربي في 16 سبتمبر 1630 بأنه فعل ذلك حتى يفعل الملك نفس الشيء مع الاسرى المسلمين حتى لا يبقى اسير مسلم من اى قطر من اقطار الاسلام في يد الانجليز ، وأنه سيستمر على هذا العهد طالما اوفى الانجليز بهذا العهد من جانبهم (40) .

وفي نفس الوقت — كما ذكرنا — حرصت بريطانيا على ان تكون لها علاقات طيبة مع سلاطين السعديين حكام مراكش ، فحين اصبح ابو

(39) اطلق عليه الانجليز في خطاباتهم عدة أسماء مثل مرابط سوس (The Morabout of Sous) وولي ماسة (The Saint of Massa) ومرباط الساحل (The Morabout of Sahel) وفي عام 1630 استطاع ابو حسون أن يبسط نفوذه على الجنوب المغربي كله ، وقد مات في 1659 ، وخلفه في مناطق نفوذه ابنه محمد ، وانتهى أمره في عام 1670 على يد السلطان الرشيد بن الشريف .

(40) انظر : صورة خطاب المرابط علي بن محمد :

Public Record Office — State papers, Foreign Royal Letters Vol. II No. 46

يزيد الوليد بن زيدان — صاحب السلطة في مراكش (1630 — 1635)
بعد مقتل أخيه عبد الملك أبي مروان — سعى شارل الاول لعقد معاهدة
معه . وغلا وقع الطرفان في 16 نوفمبر 1631 معاهدة نصت على ضمان
حرية التجارة للتجار البريطانيين ، وفك أسرى الرعايا
البريطانيين في مراكش ، وآسفى ، وسلا وغيرها من املاك السلطان ،
وان تعطى التسهيلات الضرورية للسفن البريطانية التي تفد لموانيه على
على ان يتمتع المغاربة بنفس هذه الحقوق (41) .

وحين تولى الامر في مراكش محمد بن زيدان (1635 — 1652)
ارسل شارل الاول مندوبا عنه هو ادموند باردشو (Edmund Bradshaw)
بخطاب للسلطان الجديد مهنتا باستقرار الامور له — ويدعوه للعمل على
استمرار ما كان بين أسلافه وملوك بريطانيا العظمى من علاقات الود
والمحبة . وقد رحب السلطان المغربى مولاي محمد الشيخ الصغير بمندوب
الملك ، ورد على خطابه بخطاب مؤرخ في (2 محرم 1047 هـ — 27 مايو
1637) ابدى فيه ترحيبه باستمرار علاقات الود مع بريطانيا العظمى
وبذل التيسيرات المطلوبة للرعايا البريطانيين الذين
يرتادون الموانئ المغربية (42) .

وانتهى الامر بمقد معاهدة بين الطرفين في 20 سبتمبر 1637 (43)
وفي هذه المعاهدة تقرر :

1 — ان تسود المحبة بين البلدين ، وان تعتبر الاخطاء التي قد تكون
قد وقعت كأنها لم تكن .

(41) انظر نصوص هذه الاتفاقية فى :

Public Record Office — State papers, Foreign Barbary States —
XII fol. 221-222

(42) انظر خطاب مولاي محمد الشيخ الصغير :

Oxford, Bodleian Library — Ms. Arsh. Seld. A-7 26 Fol. 6.

(43) انظر نصوص المعاهدة :

Melbourne Hall (Derby Shire) — Coke papers — liasse 42

2 — يسمح لرعايا البلدين بمباشرة نشاطهم التجاري في بلاد الطرف الآخر دون أية عوائق .

3 — يباشر كل طرف شعائر عقائده الدينية في بلاد الطرف الآخر دون أي اعتراض أو إيذاء .

4 — إذا جنحت أية سفينة تابعة لأي من الطرفين في ميناء الطرف الآخر يحتفظ بكافة حقوق أصحاب السفينة ، كما تقدم لهم كل معاونة ممكنة .

5 — يجب ألا تقوم أية علاقات بين مملكة بريطانيا واعداء السلطان المغربي مثل هؤلاء الذين في سنتا كروز ، وماسة وغيرهم من الثوار الخارجين على السلطان ، ويخبر ملك بريطانيا رعاياه بعدم التعامل مع هؤلاء الخارجين .

6 — إذا وقعت أية أخطاء أو أضرار لاتباع أي من الطرفين فإن ذلك لا يؤدي لانتهاء هذا السلام بينهما بل تعطى فرصة لاصلاح الخطأ وازالة الضرر .

وبعد توقيع المعاهدة مباشرة أرسل مولاي محمد الشيخ الاصغر روبرت بلاك (Robert Blake) (44) بأمر لسلطات الرباط لاطلاق سراح جميع من في سوقها أو في حوزتهم من أسرى الانجليز — كما أرسل بلاك أيضا الى لندن ليرافق القائد جودر بن عبد الله (45) الذي أرسله السلطان المغربي كسفير عنه لبريطانيا (46) .

(44) كان روبرت بلاك (Robert Blake) تاجرا بريطانيا في المغرب ، لكن السلطان محمد الشيخ أقنعه بترك التجارة ليدخل في خدمته ، وقد لعب دورا هاما في العلاقات بين بريطانيا والمغرب في هذه الفترة

(45) أخذ (جودر) أسيرا في سن الثامنة من عمره ، وحين شب عن الطوق كانت خدماته البارزة مع السلطان أحمد المنصور — وقد أصبح مستشاره المقرب وموضع ثقته ومنح لقب (القائد) ، وكان على رأس الجيش المظفر الذي أرسل لفتح السودان في (1590)

(46) Public Record Office — State papers. Foreign Royal Letters Vol. II No. 68

وكانت العلاقة بين محمد الشيخ الصغير والأتراك بالجزائر وتونس قد تدهورت حتى أن السلطان المغربي فكر في شن حرب على الأتراك في هذه الجهات ، ولذا كانت بين أهداف بعثة (جؤدر) و (بلاك) بحث امكانيات اشتراك بريطانيا في هذه الحملة ضد الأتراك . ففى خطاب مؤرخ 5 نوفمبر 1637 يذكر مولاى محمد الشيخ لشارل الاول انه يجب أن نتعاون في شن الحرب ضد السلطات الحاكمة في كل من تونس والجزائر بسبب تصرفاتها البغيضة والا انسانية ولما كانت الجزر التي تحكمها مشهودا لها بقوتها البحرية التي لا تغلب — فلقد ارسلت خدامى موضع ثقتى وسفرائى لمعرفة اذا كنتم ترون بحكمتم ان تعاونونى بقواتكم البحرية لمؤازرة قوتنا البرية (47) .

ولدينا وصف كامل ودقيق لزيارة القائد جؤدر بن عبد الله ، وروبرت بلاك لانجلترا (48) .

فقد أبحرا الى انجلترا على ظهر السفينة البريطانية ليوبارد (Leopard) ووصلا الى كنت (Kent) في اكتوبر عام 1637 — ومن هناك على ظهر الخيول الى (كانتيربرى) (Canterbury) ومنها الى جرافسند (Grave Send) وقد ارسل الى هذه البلدة الاخيرة مدير المراسم البريطانى جون فينيت (John Finnet) ليرافقهما الى لندن — ودعى اثنى عشر من اعضاء المجلس المخصوص وآخرون للترحيب بهما .

وأبدى الملك شارل الاول سروره واستعداده لاستقبالهما في قصره ، ودعى الخاصة وكبار رجال الدولة لحضور هذه المقابلة ، وخصصت فرقة عسكرية من 400 شخص لاداء التحية لهما وهما في طريقهما لمقابلة الملك .

وفي 21 مايو 1638 انتهت زيارة بلاك ، والكابتن جؤدر لانجلترا فغادرها على ظهر سفينة بريطانية بقيادة الكابتن جورج كارتيرينت

(47) انظر نص خطب السلطان محمد الشيخ الصغير :

Public Record Office — State papers. Foreign Royal Letters Vol. II No. 71

British Museum, Printed Books. Press Mark 1436, 1-2

(48)

(George Carterent)

وكانت صحبتها في رحلة العودة هذه ثلاث سفن حربية تحت قيادة الكابتن وليم جير (William Gere) لتساند هذه السفن الحربية السلطان المغربي في حربه ضد الخارجين على حكمه (49) .

وقد عين شارل الاول جيلزبن (Giles Penn) ممثلا له في سلا ، على أن يرعى أيضا اما بنفسه او عن طريق من يكلفه نيابة عنه — شؤون البريطانيين في غاس (50) .

واصدر الملك شارل بعد فترة قصيرة امرا بأن يحل روبرت بلاك (Robert Blake) مكان (جيلزبن) كمدوب عن الملك البريطاني في سلا وغاس لكن السلطان مولاي محمد الشيخ ارسل للملك شارل الاول يرجوه العدول عن هذا اذ ان له ثقة لا حد لها في (بلاك) ، ولذا يفضل ان يكون في لندن كممثل للسلطان المغربي في إنجلترا (51) وبالطبع مما يدعو للتساؤل ان يعين مولاي محمد الشيخ الصغير بلاك كسفير له في إنجلترا — لكن لعل التفسير لذلك هو ان مولاي محمد الشيخ كان في حاجة ماسة الى الاسلحة لمحاربة اعدائه في خارج البلاد

(49) كتب بلاك مذكرات وافية عن رحلة العودة هذه ، والاحداث التي تمت منذ غادر إنجلترا وذلك تحت عنوان : « صورة امينة لمذكراتي خلال فترة وكالتي عن ملك المغرب » .
« A true Copy of my Journal during the tymes of My agency to the King of Morocco » .

انظر :

Public Record Office — State papers, Foreign Barbary States XIII.
كذلك انظر اخبار هذه الرحلة من وجهة نظر الكابتن جورج كارتيرينت (Sir George Carterent)

وقد نشرت تحت عنوان :

« The Barbary Voyage of 1638, now first printed from the Original manuscript of Sir George Carterent — 1929 »

(50) انظر قرار تعيين الصادر من الملك شارل الاول لجيلز :

Public Record Office — State papers, Domestic, Charles I (1637 — 1638)

(51) انظر قرار تعيين روبرت بلاك :

Melbourne Hall (Derby Shire). Coke papers, liasse 42.

وانظر خطاب محمد الشيخ للملك شارل الاول بهذا الخصوص :

Public Record Office — State papers, Royal Letters II No. 69

وداخلها ؛ فقد تعددت القوات المتنافسة حتى أصبحت البلاد اشبه ماتكون ببلاد الاندلس أيام ملوك الطوائف ؛ وكان يرى ان وجود بلاك في لندن كفيل بتيسير حصوله على حاجته من الاسلحة — ومما يرجح هذا الاستنتاج ان مولاي محمد الشيخ ارسل في نوفمبر 1638 القائد محمد بن عسكر الى انجلترا ليوضح للملك شارل الاول الدواعى التى تستلزم التعجيل بارسال الاسلحة المطلوبة ، كما ان هذا المبعوث كان مكلفا بمهمة اخرى ، فقد كان بعض التجار الانجليز قد نقضوا شروط المعاهدة المعقودة بين السلطان المغربى وشارل الاول اذ ثبت انهم كانوا يتاجرون فى الاسلحة مع بعض الثائرين الخارجين على السلطان خاصة فى (سانتاكروز) والموانىء المجاورة ، ولذا كلف محمد بن عسكر ببحث هذا الامر الخطير مع الملك شارل الاول (52) .

وقد ترتب على بعثة القائد محمد بن عسكر تأكيد تمسك كل طرف من الطرفين بشروط المعاهدة المعقودة بينهما ، ووعد شارل الاول ببذل الجهد لاجابة طلب السلطان من الاسلحة ، واكد انه اصدر الامر لتدبير هذه الاسلحة لكن المبعوث المغربى كان مضطرا للعودة فورا ، ونفى شارل الاول تهمة قيام أى من رعاياه ببيع الاسلحة للثائرين ضد السلطان واوضح انه اصدر تعليمات مشددة بهذا الشأن ، وبدوره اشتكى من ان بعض التجار الانجليز يحضرون بالسلع للموانىء المغربية ويتحملون فى ذلك المشاق والنفقات لكن لا يجدون اقبالا على سلعهم كالمعتاد ، كما انهم لا يلتقون فى هذه الموانىء المعاملة الودية اللائقة (53) .

ويبدو ان المواضيع مثار الشكوى ظلت قائمة كما هى حتى ان روبرت بلاك فى تقرير له بتاريخ 5 سبتمبر سنة 1641 نجده ينصح

(52) انظر خطاب مولاي محمد الشيخ الصغير الى شارل الاول فى هذا الشأن :
Oxford Bodleian library — Ms. Arch. Seld A. 726 Fol. 16 (Anc. Selden Ms. 3210)

(53) انظر رد شارل الاول على خطاب مولاي محمد الشيخ الصغير :
موجود فى نفس المحفظة السابقة (fol. 14)

البريطانيين بالاستيلاء على قلعة سلا حسما لهذه المتاعب وذكر أن هذا سيحقق عدة اهداف : (54)

1 — فهو سيكفل الامن للتجار البريطانيين حيث أن قراصنة سلا تعودوا على مهاجمة السفن والاستيلاء على ما فيها من بضائع ومسافرين

2 — كما سيمد هذا الميناء السفن الانجليزية بحاجتها من مؤن وغيرها في رحلاتها في المحيط الاطلسي .

3 — وسيصبح هذا الميناء المنفذ الرئيسى لكل تجارة المغرب .

4 — وستتحكم بريطانيا عن طريقه في كل مناجم القصدير لان سلا هى المكان حيث يصدر معظم ما يستخرج من قصدير من المناجم القريبة .

5 — والاستيلاء على هذا الميناء سيوفر لبريطانيا من الملح ما يسد حاجة كل امبراطوريتها .

سابعا — الفترة الممتدة من 1642 الى 1660 :

تمثل هذه الفترة في انجلترا فترة حروب واضطرابات داخلية — وقد حاول روبرت بلاك فيها ان يحتفظ لبريطانيا باحتكارها لتجارة المغرب — لكن السياسة البريطانية المتذبذبة اغضبت كلا من حكام (مراكش) ، والسلطات المناوئة للحكام كالدلائيين الذين كانوا اصحاب النفوذ على كثير من الموانئ الهامة في المغرب .

وقد كرر مولاي محمد الشيخ شكواه لان التجار البريطانيين كانوا مازالوا مستمرين في عدم الالتزام بالاتفاقات السابقة التى تحرم بيع الاسلحة للشوار فى سانتاكروز وغيرها من الموانئ التى يعتصم فيها الخارجون على سلطة حكام مراكش .

(54) انظر تقرير بلاك (R. Blake)

House of Lords papers — liasse 63

وقد دلت الاحداث التالية على أن علاقات الصداقة بين البلدين لم تعد قائمة ، ولعل الحادث الذى تعرضت له احدى السفن الانجليزية التى كانت فى عام 1646 فى طريقها الى جزر كانارى دليل على ذلك — فقد ألقت بها عاصفة بالقرب من اسفى ، فأمر مولاي محمد الصغير باعتقال رجالها البالغ عددهم 27 رجلا ووضعهم فى السجن — هذا كما نشطت حركة القرصنة ، فقد حدث فى ديسمبر عام 1651 أن سفينة بريطانية فى طريقها الى اسبانيا هوجمت بواسطة القراصنة السلاويين وأخذ جميع ركابها أسرى وبيعوا كرقيق ، وادى تكرار مثل هذه الاحداث الى اضطراب التجارة بين بريطانيا والثغور المغربية .

وبسبب هذا الموقف كلف مجلس الدولة البريطانى فى 15 مايو 1653 أحد اعضاءه هو روبرت بلاك بورن (R. Blackborne) بالاتصال بالتاجر روبرت داون (R. Downe) الذى كان بسلا ليبدل اقصى جهده لاطلاق سراح الاسرى الانجليز بسلا .

وفعلا نجح داون فى اطلاق سراح اثنين وعشرين أسيرا — بينما كان تسعة آخرون لايزالون فى أيدي الم رابط عبد الله الدلاي الذى رفض ان يطلق سراحهم بأى ثمن — ولجأت انجلترا الى تدعيم اسطولها فى البحر المتوسط ، وطلبت من امير البحر بلاك (Blake) أن يجوب بأسطوله على موانئ البحر المتوسط لى تسترد انجلترا هيبتها فى هذه الثغور ، ولوضع حد لعمليات القرصنة التى تتعرض لها السفن الانجليزية فى هذا البحر . ونجح بلاك فى عام 1655 فى توقيع معاهدة صداقة مع السلطات الجزائرية ، ولما رفضت السلطات التونسية الامتثال لشروط مماثلة هاجم ميناء تونس ثم اتجه الى سلا هو ومساعداه ادوارد مونتاكى (Edward Montagu) (55) .

وبعد مفاوضات طويلة قبلت السلطات فى سلا أن تطلق سراح الاسرى الانجليز على شرط أن يدفع بلاك فدية كاملة عنهم ، لكن رفض

(55) ادوارد مونتاكى (Edward Montagu) عينه كروميل مساعدا لامير البحر (بلاك) فى قيادة الاسطول الذى وجه ضد اسبانيا فى 1656 .

بلاك ذلك وعرض أن يقدم هدايا عينية لانه اعتبر مبدا الفدية مهينا لحكومته ، واخيرا تعثرت المفاوضات بين الطرفين بسبب اصرار الامير عبد الله الدلائى على عدم تسليم طفلين من ابوين انجليزيين ولدا في سلا ، واضطر بلاك لترك ثلاث سفن من اسطوله للاستمرار في محاصرة سلا ، بينما غادرت باقى السفن البريطانية المياه المغربية . هذا على ان الحرب ضد الاسبان النى اعلنتها انجلترا في علم 1656 جعلت الانجليز يدركون اكثر اهمية وجود نقط تحت ايديهم في المناطق الاستراتيجية الهامة على البحر المتوسط . وكانت انظارهم مسلطة على (تطوان) بالذات ، ولذا طلب كرومويل (Cromwell) من بلاك ومونطاكى التفاوض مع سلطات تطوان لهذا الهدف .

وكانت السلطة في تطوان — بعد وفاة العياشى في يد عبد الكريم النقسيى الذى كان يحكمها من قبل الم رابط عبد الله الدلائى (56) .

ويشير تقرير كتبه الكابتن باديلى (Badiley) الى انه حين لجأ بلاك ومونتاكى الى تطوان في يونيو 1656 لطلب المؤن التى كانت سفن الاسطول البريطانى في البحر المتوسط في حاجة اليها — رحبت بهما سلطات تطوان ، بل عرضت عليهما تعيين قنصل لبريطانيا في الثغر لضمان استمرار الاتصال والتفاهم بين الطرفين (57) .

لكن حين طلب من الشركة الانجليزية صاحبة الامتياز للاتجار مع الثغور المغربية المعروفة باسم (Barbary Company) — الموافقة على تعيين مزدوب في هذا الثغر المغربى — رفضت بذلك بحجة ان حركة التجارة في ذلك الوقت في الثغور المغربية لم تكن تشجع على تعيين قنصل في تطوان ، لكن اخذت الحكومة البريطانية بنصيحة باديلى ، فصدر في 10 فبراير

(56) كان بادلي (Badiley) قائدا لحدى السفن البحرية فى الاسطول الذى وجه ضد اسبانيا سنة 1656 ، وقد برز فى هذه الحرب .

(57) انظر تقرير باديلى (R. Badiley) المؤرخ 29 ديسمبر 1656 فى :
Public Record Office — State papers — Domestic. Interregnum —
Vol. CLIII No. 107

1657 قرار بتعيين نثانويل لوك (Nathaniel Luke) قنصلا لانجلترا
في الثغور المغربية على أن يقيم في تطوان (58) .

ونجح هذا القنصل بمساعدة بلاك والكابتان جون ستوكس
(John Stokes) (59) . في الوصول الى اتفاق في 19 اغسطس 1657 مع
حاكم تطوان كممثل لحمد الحاج الدلائي — ويتضمن هذا الاتفاق : (60)

1 — يتناسى الطرفان الاخطاء والمظالم السابقة ، ولرعايا كل منهما
الحق في الحضور لموانئ الطرف الآخر بكل حرية .

2 — لرعايا انجلترا في المناطق التي تحت نفوذ الدلايين — حرية
مزاولة طقوسهم الدينية دون التعرض لهم .

3 — يطلق سراح الاسرى الانجليز الذين في أيدي الدلايين .

4 — من حق الانجليز الموجودين في البلاد التابعة للدلايين أن
يغادروها في أي وقت شاءوا .

5 — اذا حدث أن جنحت سفينة تابعة لأي من الطرفين في ميناء
للطرف الآخر — يعامل ركبها كأصدقاء وتسلم لهم اية امتعة يمكن
انقاذها من شحنة السفينة .

6 — تقدم المؤونة والتيسيرات الكاملة لسفن كل من الطرفين التي
تلقا لموانئ الطرف الآخر .

(58) كان نثانويل لوك (Nathaniel Luke) عالما بأحوال المغرب فقد كان من
قبل — تاجرا هناك — انظر :

Public Record Office — State papers Domestic — Interregnum
Council of State — Vol. LXXVII PP. 695.696.

(59) أصبح جون ستوكس (John Stokes) قائدا للأسطول البريطاني في البحر
المتوسط بعد بلاك .

(60) انظر نص المعاهدة في :
Public Record Office — State papers — Foreign Treaty papers I.

7 - اذا حدث اى خطأ او ظلم لرعايا اى من الطرفين لا يؤدى هذا لنقض الصلح المعتود بين الطرفين ، لكن تعطى فرصة لتحقيق العدالة .

وهكذا استأنف التجار البريطانيون نشاطهم مع الثغور المغربية ، وظل ميناء تطوان يلعب دورا هاما بالنسبة لنشاط الانجليز حتى استعيسى عنه بميناء (طنجة) الذى وضع الانجليز أيديهم عليه عام 1661 فانتقل النشاط البريطانى خاصة الى هذا الثغر الذى يتميز بموقع استراتيجى فريد فى مدخل البحر المتوسط الغربى (61) .

هكذا كانت لانجلترا علاقات هامة وقوية مع المغرب فى هذه الفترة من القرنين السادس عشر والسابع عشر - وكما ذكرنا اضطرت انجلترا لترتيب بعلاقات مع أكثر من سلطة لتحقيق مصالحها فى المغرب بموقعه الممتاز وبسواحل الهامة الممتدة على البحر المتوسط والمحيط الاطلسى .

شوقي عطا الله الجمل

الرباط

(61) استولى البرتغال على طنجة عام 1464 وحكموها ما يزيد على قرنين من الزمان ، لكن قدمتها كاترين دوبرا كانس شقيقة ملك البرتغال فى عام 1661 كمهر لزوجها شارل الثانى ملك انجلترا - وقد استرد المولى اسماعيل طنجة من انجلترا عام 1684 - لكن استولت انجلترا بعد ذلك على جبل طارق فى مدخل البحر المتوسط على الجانب الاوربي فى عام 1704 .
انظر : لا ندوروم : تاريخ المغرب فى القرن العشرين (ترجمة نيكولا زيادة - بيروت 1963) ص 80 .

قصة

بطل الشطرنج

للقصصى الامريكى ر.ب. وايت
ترجمة: عبد المجيد ابن جلون

حينما دخل الرجل وهو يحمل آلة غريبة رفع معظمنا انظارهم
عن الشراب لأننا لم نر مثل هذه الآلة الغريبة من قبل ، وقد وضع
الرجل تلك الآلة فوق المشرب بالقرب من مصبات الجعة ،
فشغلت حيزا كبيرا من المكان وبدأ من الواضح على وجهه
الساقم أنه تضايق بها وبضخامتها وببشاعتها .

— اعطنى كأسين من الويسكى بالماء

واستمر الساقى فى مباشرة مزج الشراب الذى كان بين يديه ، ولكن بدا عليه أنه يعالج هذا الطلب فى نفسه مستغربا ، فسأله بعد برهة قائلا :

— تعنى كأسا مضاعفا ؟

فقال الرجل :

— كلا ، كأسين منفصلين من فضلك

قال ذلك وهو يحمق فى وجه الرجل بنظرة ليست عدائية تماما ، ولكنها خالية من الود ، وقد قضى الساقى عدة سنوات خلف حاجز المشرب فاكتسب بذلك قدرة صادقة على التمييز بين الناس وسير أغوارهم ، ومهما يكن من أمر فانه لم يستطع أن يفهم هذا الرجل ، وبدا عليه من الاكيد أنه ضاق ذرعا بالآلة ، والتقط الساقى سيجارة موقدة كانت موضوعة فى اهمال على طرف الحاسبة وشد منها نفسا ثم أعادها الى مكانها فى تأمل ، ثم صب كأسين من الويسكى واعد كأسين من الماء ثم دفع بذلك كله نحو الرجل والناس ينظرون ، ذلك أنه اذا حدث شىء صغير غير عادى فى الحان فانه سرعان ما يستولى على مشاعر الرواد الجالسين فى صف امام حاجز المشرب .

ولم يبد على الرجل ما يدل على أنه شعر بأنه محط
الانظار ، وانما وضع على المشرّب ورقة نقد من فئة خمسة
دولارات وشرب كأسا من الويسكى اتبعه بالماء ثم رفع الكأس
الآخر وفتح منذًا صغيرا في الآلة وصب فيه الويسكى واتبعه
بالماء .

وتقطبت اسارير الساقى وهو يراقبه ، ثم قال بصوت
معتدل : ليس فيما فعّته أية تسلية ، يضاف الى ذلك ، ان زميلك
يشغل حيزا من المكان أكثر مما يلزم ، فلماذا لا تأخذه وتضعه
على تلك الدكة بالقرب من الباب ليفسح لنا المجال هنا ،
فلن يمسّه احد بسوء .

اجابة الرجل مبتسما :

كان عليك أن تراد بعد ظهر اليوم ، فقد كان ما قام به
مدهشا ، ذاك أن اليوم هو اليوم الثالث في مباراة الشطرنج ،
فتصور ، لقد قضى ثلاثة ايام في عملية تفكير متواصل ، وفي
مواجهة اقطاب الشطرنج في البلاد ، وقد حاز قصب السبق في
السياعات الاولى من المباراة ، واستغل عقله استغلالا براقا
انتهى بوضع شاه خصمه تحت الحصار ، وفجأة أسر الفرس ثم

عزل الوزير فانتهى كل شيء ، فهل تعرف كم كسب من مال
خلال الايام الثلاثة التى قضاها فى لعب الشطرنج ؟

قال الساقى :

— كم كسب من مال ؟

قال الرجل :

— خمسة آلاف دولار ، والآن اصبح فى حاجة الى
التسلية والراحة .

قال الساقى وهو يجفف المشرب بفوطة كانت فى يده : خذه
الى مكان آخر يشبع فيه حاجته الى الراحة والتسلية ، فان
عندى من المتاعب ما يكفى .

فhez الرجل رأسه وقال وهو يبتسم مشيرا الى الكؤوس
الفارغة :

— كلا ، فان المكان يروقنا ، كرر الطلب من فضلك

وهز الساقى رأسه فى بطاء ، وبدا عليه التضاييق ، ومع ذلك
أمره فى عناد قائلا :

— انقله بعيدا عنى قلت لك ، فاننى لن اغرف الشراب
لبلهوانات من حديد .

فتدخلت الآلة مصححة وقالت :

— بهلوانات ، هكذا يقال لا بلهوانات .

كان يوجد على مبعدة اقدام من الحاجز رجل كان يشرب
الكأس الثالث ، وبدا عليه أنه اصبح على استعداد للمشاركة في
هذا الحديث الذى كان يستمع اليه بكامل الانتباه منذ البداية ،
وكان رجلا في منتصف العمر ، وقد شد ربطة عنقه الى أسفل ،
وفتح ياقة قميصه ليستشعر الراحة ، وهو على وشك تجرع
ثمالة كأسه الثالث ، فدفعه ذلك الى أن يأخذ جانب المفترى عليه
العطشان ، فنقال للساقى :

— اذا كانت الآلة تريد أن تشرب فاعطها كأسا ودعنا
من المماحكة .

فالتفت صاحب الآلة الى هذا الصديق الجديد وهو يرفع له
يده الى صدغه فى وقار ويحييه تحية الزمالة والامتنان ، ثم لاحظ
أنه كما لو كان يوجه التقرير الى الساقى :

— انك تعرف حالة الانسان حينما يصاب باجهاد عقلى
وكيف يصبح فى حاجة الى كأس من الشراب يفرج عنه
فأجاب انصديق .

— اعرف ذلك بالتأكد ، وهى حالة طبيعية جدا .

وسرت حركة فى أركان الحان ، واصبح يبدو على بعض
الرواد أنهم يأخذون جانب الساقى ، وعلى آخرين ، أنهم
يأخذون جانب صاحب الآلة ، ثم وقف رجل كئيب طويل القامة
كان يجلس الى جانبى وتكلم :

— الى بكأس من الشراب يا بيل ورفقا بالليمون

فنطقت الآلة قائلة :

— انهم لا يستعملون الليمون فى مثل هذه الامكنة

فصاح الساقى وهو يدق الحاجز بيده :

— هذا يكفى ، هلا أبعدت عنى هذا الشئ او أخرجته من
هنا ؟ قلت لك اننى على غير استعداد لهذا العبث ، فان على أن
اسير شؤون الحان ، لا أن أقف لاستمع الى هذا » العقل

الميكانيكى « ، أو ما شئت أن تدعوه ، فالى الجحيم به

فتجاهل الرجل هذا الانذار النهائى ، وتوجه بالحديث الى صديقه الذى كان قد شرب ما تبقى فى كأسه ، وهو يقول فى تودد :
— ان هذا لا يعنى أنه أصبح متهاكاً بعد ثلاثة أيام قضاها فى لعب الشطرنج ، فهل تعرف ان هناك سببا آخر يدعوه الى طلب الشراب .

قال الصديق : كلا ، ما هو هذا السبب الآخر ؟

اجاب الرجل : لانه كان يغش فى اللعب

وعند سماع ذلك قهقهت الآلة فى سخريه ومالت احدى ذراعيها الى الانخفاض ، وتوهج الضوء فى احدى فتحاتها .

وهنا عبس الصديق ، وبدا عاياه أنه اصيب فى كرامته ، كما لو كان قد وضع ثقته فى غير محلها فقال :

— لا يوجد من يستطيع أن يغش فى لعب الشطرنج ، هذا مستحيل ، كل شىء مكشوف وموضوع فوق الرقعة فى الشطرنج ، فان من طبيعة لعبة الشطرنج أن يكون فيه الغش من المستحيل

أجاب الرجل :

— هذا ما اعتدت أن أعتقده ، ولكن هناك طريقة للغش فيه

قال الساقى :

ان هذا لا يثير لدى أى استغراب ، فمنذ اللحظة الاولى التى وقع فيها نظرى على هذه الخزعة : أخذتها مأخذ الانذار

قال الرجل :

كأسان ، وماء

فحمل الساقى فى ائعقل الميكانيكى وقال : لا أستطيع أن أقدم لك الشراب ، وما أدرانى أنه لم يفقد الرشد بعد ؟

وأجاب الرجل :

— هذا أمر بسيط ، ألق عليه سؤالا .

وتجمع الرواد وحملوا فى المرأة ، فلقد أصبحنا غارقين الى الاذقان فى موضوع العقل الميكانيكى ، ووقفنا منتظرين ، وكان الدور الآن دور الساقى فقال :

— ألقى عليه سؤالا ؟ مثل ماذا ؟

— أى سؤال شئت ، لا فرق ، اطلب منه مثلا أن يضرب رقما ضخما فى رقم آخر ضخم ، اننا لا نضرب الأرقام فى بعض حينما نكون فى حالة فقدان الرشد ، أليس كذلك ؟

واهتزت الآلة اهتزازا خفيفا كما لو كانت تتخذ استعدادات داخلية ، فقال الساقى فى حقد :

— اضرب عشرة آلاف وثمانمئة واثنين وستين فى تسعة وتسعين .

وكان من الملحوظ أنه زج برقم تسعة مرتين فى العملية ليزيدها تعقيدا فارتحبت الآلة ، وبصق أحد أنابيبها ، وغيّرت يد وضعيتها فى خفة .

وجاء الرد من الآلة :

مليون وخمسة وسبعون ألفا وثلاثمئة وثمانية وثلاثون .
لم يتحرك كأس من مكانه على اثر ذلك ، وانما انصرف الناس يحملقون فى المرأة ، وانصرف آخرون الى تأمل الوجوه ، وآخرون الى تأمل الرجل وآلته .

وأخيرا استخرج شاب ذو عقلية حسابية ورقة وقلم ، ثم انتبذ زاوية وانهمك عدة دقائق في عملية حسابية ، ثم خرج وصاح : ان الجواب صحيح ، وليس من المستطاع اتهام الآلة بأنها فاقدة الرشـد .

وعند ذاك أتجه الناس بانظارهم الى الساقى الذى بدأ يملأ فى امتعاض الكؤوس التى رفض أن يملأها من قبل ، فتناول شرابه وصب شراب الآلة فى جوفها ، وتضاءلت انوارها وسقط لها ثراع .

وظل الحان ساهما برواده كما لو كان قد تحول الى سفينة تمخر عباب بحر هادىء وديع ، ويبدو أن كل واحد منا كان منصرفا الى محاولة هضم ما رأى وسمع عن طريق الشراب ، ولكن عملية اعادة ملء الكؤوس فترت كثيرا .

وكان الرجل الذى أرخى ربطة عنقه وفتح ياقة قميصه قد صفى حسابه ، ثم وقف على اثر ذلك وسعى نحو الرجل ليقف بينه وبين الآلة ، ثم وضع ذراعا على كتف الرجل واخرى على الآلة وقال :

— هيا بنا نخرج من هذا المكان لنبحث عن مكان آخر احسن منه .

فاضات الآلة قليلا وبدا عليه أنها أخذت تفقد الرشد .

قال الرجل :

— حسنا ، هذا يناسبني جدا ، ان سيارتى فى الخارج .

وسدد الرجل حسابه ، واطاف اليه معروفا ، وتأبط الآلة فى هدوء وسعى مع رفيق الليلة نحو باب الحان ثم خرج الى الشارع .

وقف السائقى يحمق ثم واصل العمل وهو يقول فى سخرية :
سيارته توجد فى الخارج اذن ؟ أليس هذا جميلا !

وهنا قام شخص كان يجلس الى حاجز المشرب على مقربة من الباب ، وغادر مقعده لينحى أستار النافذة ويطل منها ، وظل يراقب قليلا ما يجرى فى الشارع ثم عاد الى مكانه وتوجه بالحديث الى السائقى قائلا :

— انه اجمل مما تظن ، ان سيارته من نوع « الكاديلاك »
واكن احدث : من بين الثلاثة — حينما ركبوا — تولى القيادة ؟

صحراء، ياشفة التاريخ

نذير العظمة

ان الليالى على عاداتها ظلم	صحراء ياشفة تشدو وتبتسم
فسوف يطلعها من قلبنا النغم	غنى النجوم انتى لم تبد طلعتها
وفى مروءاتها من رحمنا رحم	غنى الرمال ففى كئبانها شرف
تلهف الروح فى اجوائها نسيم	ومن بطولاتها حمراء ساقية
حرف تخلد من تسطيره القلم	صحراء ياشفة التاريخ أنت لنا
ايان تضطرم الساحات نضطرم	انا حلفنا لساحات القدى ابدًا
وينطق النقش فى الجدران والرسم	حتى يكبر فجر فى مآذنها

فكم تطّاع من شرفاتها بطل
وكم تقيأ في واحاتها ظمىء
يا شعلة لهب التوحيد واقدها
ان الرمال انتى غذتك كم سكبت
ضم الجناح عايتها الوحي فانفجرت
تشكل الكون من هدى وعافية
وترضع انحب من انساننا املا
صحراء ياشفة التاريخ أنت لنا
ماذا يحد الاولى فى فجرك اتحدوا
يا منبع الشعر والالهام يا شفقا
هذى مغاربنا ضمت مشارقنا
تقحمت رصد الجولان فانفتحت
كم كان من قبل فى سيناء أحجية
وهم الخطوط التى عزت على دمننا
انا تركنا من استشهادنا لهبا

ملثم ، واكتست بالاخضر القمم
وكم تحطم من ضرباتها صنم
تحيا على ضوئها الاخلاق والقيم
دمعا تفتح فى حباته الحلم
سخية الخصب فى وجدانها ديم
فتشبع الارض من نور وتغتئم
بالخلق والوعى والايمان يلتحم
جرح يغنى واشراق له حمم
ماذا يضير الاولى فى حبك اتهموا
اعطى واغنى فما يجدى الذى كنتموا
ووحده القلب منها الشوق والالم
اسراره وتعرى الغاصب الأثم
سيان ان قفل الابطال او هجموا
صارت اذا خطفتها الروح تنهزم
ازرى باحصائهم واستوحش الرقم

صار العبور لنا جسرا وقنطرة
في كل حبة رمل شاهد لسن
صحراء أنت لنا صدر وخاصة
لا ينكر اللون والاشكال مهجتنا
ولا يجوز على اسمائنا حدث
صحراء رسمك مرهون بجوهرنا
مازال رفك رف الوحي رايتنا
ماذا يقول الاولى في رمك اختباوا
هذي الشهادات في امدائنا طلعت
وانت انت لدى الاجيال ملحمة
الارض تشهد ان القرب تربتنا
مصائر وحدتنا في صحائفها
صحراء ان هت الفرسان كان لها
مواكب يحرس الاحرار موكبها
يا مشتهى لهب في القلب كل دم

مذ عبدته باجسادنا همم
وجه الثريا له اسطورة وفم
ومهجة وجناح كيفما رسموا
ان نعبّر انبض في اشكايم يجموا
مادام يسطع من اصدائها القدم
كالقلب بالنبض لا بالشكل، ينتظم
اذا تقرد في غربنا سنم
نعامة وانبرت من جريها القدم
فجرا تهاوت على اقدامه الظلم
كأنها يقظة للضوء او حرم
وأن بارئها ما بيننا حكم
دم يسيل شذى والشمس تبسّم
وهج تساقط من اشعاعه الخدم
وصحوة كل نوم بعدها تهم
على جبينك من جيل الفدى عنم

له على الدهر والاحكام شعشة
وللشهادات واحات مغردة
حدائق الموت في ارواحنا عبق
ظلى على الرمل رفات مكرمة
ظلى كما انت للاجيال ملهمة
كنائب الفجر والتحرير رائدة
صحراء انك في وجداننا حرم
وسورة انت من قرآنا جلل
وانت صورة حليم عز مشرقه
وانت انت لنا بيضاء ناصعة
اليك عقبة مازال الجواد به
يشك في النجم من راياته ألقا
الشمس يا ابن زياد انت تطلعها
وتكتب الحرف من تاريخنا سورا

الرباط

لنورها نحن والايام تحتكم
وللبطولات جرح مشرق ودم
سكب سكيناه والاجسام تتحطم
يعلو على الدهر من راياتها علم
ظلى كما انت للابطال معتصم
تقدي الذين على ساحاتك اخترموا
صحراء انك في اشواقنا ضرم
لا يكذب الحرف لا تستعجم الكلم
وعز مغربه وعزت النظم
من قبل ان تولد ارايات والامم
يعدو ، ومازالت الاشواق تحتدم
وتسهل الخيل في يمناه والنجم
وتجبه العثم في الجلى وتضطم
تدق كل فصول الذل تلتهم

نفير العظمة

المغرب

في كتب الجغرافيين القدماء(*)

عبدالقادر زمامة

يصل الحديث بنا عن المغرب في كتب الجغرافيين القدماء . الى عصر الموسوعات الكبرى لنتحدث عما كتبه بعض الموسوعيين العرب عن المغرب ..

وقد كتب مؤلف موسوعة صبح الاعشى فصولا هامة عن المغرب وجغرافيته ، وتاريخه ، وبعض معالمه الحضارية ، ونظمه الادارية ، والسياسية ، على عهد بني مرين ، وكان مؤلف هذه الموسوعة يملك مصادر مفيدة ، مغربية ، ومشرقية ، سبقت عهده ، او عاصرته . ومن أهم المصادر :

(*) انظر العدد الثامن من مجلة (الثقافة المغربية) وانظر العدد التاسع عشر من مجلة (البحث العلمي) .

تاريخ العبر لابن خلدون . وممالك الابصار لابن فضل الله العمري .
وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » لابن فضل الله العمري ايضا .
وكتاب روض القرطاس للمؤرخ ابن ابي زرع الفاسي . ونزهة المشتاق
لا مريد الادريسي . وكتاب الجغرافية لابن سعيد الاندلسي . وكتاب:
الروض المعطار للحميري السبتي . وكتاب تقويم البلدان لابي الفداء ...

والى جانب هذه المصادر هناك مصادر عامة وخاصة اخرى استقى
منها القلقشندي معلوماته الواسعة . منها المعروف عند الدارسين ومنها
المحجوب عنهم الى الآن .. !

واول ما نلمسه في المعلومات التي جاءت في هذه الموسوعة عن المغرب
هو تلك الدقة . وذلك الضبط اللذان استعملهما المؤلف في دراسة
الناحيتين : الجغرافية ، والتاريخية ، مع تتبع الاحداث والتطورات انى
عصره ، او على الصحيح الى العصر الذي وقفت فيه مصادره التي يعتمد
عليها ، ويستقي معلوماته منها .. !

واخذت عاصمة بني مرين ، فاس من صبح الاعشى فصلا طويلا
تناول الجغرافية والتاريخ . كما تناول فاس القديمة ، وفاس الجديدة ،
التي جعلها بنو مرين عاصمة الدولة ومقر حكامها .

والقلقشندي يقسم فاس الجديدة الى ثلاثة اقسام متميزة : المدينة
البيضاء ، ومدينة حمص ، وربض النصارى .. !

والاولى هي التي بناها يعقوب ابن عبد الحق ...

والثانية هي التي يعرف محلها - على حد قواء - بالملاح بناها ولده
ابو سعيد ، الى جانب المدينة البيضاء .

والثالثة ربض النصارى وهي المتخذة لسكنى النصارى من الفرنج
الذين كانوا مرتزقة فى الجيش المريني ...

وتفصيل هذه المعلومات عن فاس الجديدة بهذه الصورة نجده عند المؤرخ الجغرافي ابن فضل الله العمري في كتاب مسالك الابصار وقد نقلها القلقشندي عنه ، ويلاحظ ان المصادر المغربية المكتوبة في عصر بني مرين لا تتوفر على هذه المعلومات بهذا التفصيل - فيما نعلم - .

ويظهر ان ابن فضل الله العمري استقاها من اصدقائه المغاربة والاذلسيين ، الذين كانوا متصلين بدولة بني مرين ، ويعرفون عن عاصمتها الشيء الكثير . . . ! وقد حدثوه عنها ايام رحلاتهم في المشرق واتصالهم به . ونعرف من هؤلاء الاصدقاء جماعة ليس الحديث منصرفا الان الى ذكر اسمائهم ورحلاتهم . . . !

والناحية الاقتصادية التي جعلت هذه المدينة تزدهر اقتصاديا ، فسرّها المؤلف بأن موقعها جاء في نقطة متوسطة بين مراكش في الجنوب وسبتة في الشمال وتلمسان في الشرق . زيادة على اتصالها بالصحراء عن طريق سجلماسة .

ويتحدث عن مدينة سبتة وموقعها وتاريخها ، والاحداث التي مرت بها ، منذ الفتح الاسلامي الى عهد دولة بني الاحمر ، وهذا الحديث يبين دقة معلومات المؤلف وتسلسلها عبر التاريخ .

كما يتحدث عن مدينة مراكش وتاريخها ، وبعض مآثر الموحدين بها الا ان أهم شيء يفيدنا به هو هذا النص القصير المفيد : « وبمراكش جامع جليل يعرف بالكتبيين طوله مائة وعشرة اذرع وعلى بابه ساعات مرتفعة في الهواء خمسين ذراعا . كان يرمي فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زنتها مئة درهم تتحرك لفزولها اجراس تسمع على بعد ، تسمى عندهم بالمجانة !! (1) »

(1) صبح الاعشي ج 5 ص 162 .

فاذا صح هذا — ولا مانع من صحته — فان ساعة جامع الكتبيين
بمراكش على عهد الموحدين تكون اقدم من الساعات الثلاث المشهورة .
وهي :

- ساعة ابي عنان بمدرسته بفاس التي تحدث عنها الجزنائي (2)
- وساعة ابي حمو بمسجد تلمسان التي تحدث عنها يحيى ابن خلدون (3)
- وساعة الفنى بالله فى غرناطة التي تحدث عنها (4) ابن الخطيب فى
الجزء المخطوط من (نفاضة الجراب) .

ويتحدث المؤلف عن سجلماسة ، واسواقها ، وتاريخها الطويل
الحافل ، المسلسل بالاحداث منذ قامت بها دولة الخوارج الصفريّة .
كما يتحدث عن أسفي ، وسلا ، وسوس ، وقصر عبد الكريم ، وطنجة ،
ودرعة ، واغمات ، وتادلا ، وازمور ، والمزمة (الحسيمة) وبادس .

ويسمى الجبال المغربية هكذا :

- جبل درن ، ويعني به ما يشمل الاطلس الكبير والمتوسط .
 - جبل جزولة ، ويعني به الاطلس الصغير .
- واما جبال الريف وما حولها فيسميها جبل غمارة ... !
- ويتحدث عن انهار المغرب الا انه لا يذكر الا نهر ملوية ، ونهر سوس ،
ونهر سجلماسة ، ونهر فاس الذي يصب فى نهر سبو ... !

(2) جنى زهرة الاس ص 53 .
(3) فجمة الرواد . ط الجزائر .
(4) الخزانة العامة رقم 256 ك .

والناحية الاقتصادية فى المغرب يعرفها جيدا ويتحدث عنها بأسهاب:
الحاصلات ، والفلات ، والأشجار ، والفواكه ، والأسواق ، والأسعار :
والعملات الرائجة ، والصناعات الشهيرة ، والقوافل التجارية التى تمر
بالمغرب وتقطع أقاليمه من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب
وبالعكس .. !

ويأتى القسم التاريخى مشحونا بأخبار الإدارة ، ومغراوة ، وبني
يفرن ، والعبيدين ، والأمويين ، ويعتمد فى ذلك على ما كتبه ابن أبى زرع
فى روض القرطاس . وما كتبه ابن خلدون فى العبر مع تصرف فى الترتيب
والتبويب وهضم لكل ما رأى وما سمع . واهتمام بأشياء ، وأهمال
لأخرى .. !

وأخبار المرابطين يلخصها عن القرطاس . ويذكر حركة ابن ياسين
فى الصحراء باقتضاب وكأنه لم ير ما كتبه البكري عن هذه الحركة الواسعة
فى الصحراء قبل أن يزحف المرابطون الى ناحية الشمال ... !

وأخبار الموحدين يلخصها عن العبر تلخيصا مفيدا إلا أنه كاد يهمل
النواحي الحضارية من تاريخ دولة الموحدين ، ولا يأتى إلا بأشياء قليلة
كأشارته للساعة التى كانت أزاء مسجد الكتبيين بمراكش .. !

ويفصل تاريخ بنى مرين تفصيلا وينقل جله عن ابن خلدون وبعضه
عن ابن فضل الله العمرى الذى أمده بمادة حضارية وجغرافية بالغة
النهاية فى الأهمية والدقة .. !

وحيث أن ابن فضل الله العمرى سجل فى كتابه :

« التعريف بالمصطلح الشريف »

النظم الإدارية والسياسية التى عاصرها ، ومنها أنظمة دولة بنى
مرين فى المغرب . فان القلقشندي عقد عدة فصول للحديث عن هذه النظم
فى الجند والجندية ، والأزياء الخاصة برجال الدولة . وطبقاتهم من

امراء ووزراء وكتاب وقضاة وعلماء وولاة . والمرتببات والعطايا .
والوظائف ، والضرائب ، والجبايات ، والرايات ، والشارات الخاصة .. !

وهكذا يصف القلقشندي مجالس الحكم ، ونظام عرض القضايا
والشكايات والمشاورات والقرارات الهامة في ايام الحرب وايام السلم .!

والنظام اليومي العادي الذي يقضيه سفرا وحضرا رجال هذه الدولة
يعرف المؤلف عنه الشيء الكثير ، لذلك نجده يجمع الاشباه والنظائر
ويقارن ويتأمل الموافقات والمفارقات بين ما هو هنا في المغرب وما هو
هناك في المشرق .. !

وحيث ان عصر ابي الحسن المريني ، نال من قلم ابن فضل الله
العمري مكانة خاصة ، وجمع معلومات واسعة حوله في كتابه (مسالك
الابصار) و (التعريف بالمصطلح الشريف) .

فان القلقشندي اضى على هذا العصر حلة من الاكبار والعظمة تبعا
لابن فضل الله العمري ، وغيره من المؤرخين والرحالين ... !

ونحن على يقين — بعد بحث دقيق — ان ابن فضل الله العمري لم
يزر المغرب ولم يسبق له ان وطئت قدماه ترابه ، رغم ان بعض الباحثين
المعاصرين يبدو له ان ابن فضل الله العمري زار شمال افريقية
والاندلس ... !!! (5) .

ولعل الذي جعل هذا الباحث الفاضل يبدو له هذا ، هو انه استكثر
عليه وهو مشرقي ان يعرف كل هذه المعلومات عن المغرب وبهذه
الدقة .. ! دون ان يشاهده .. !

وهنا ينبغي ان نشير فقط الى اتصال الرحالة ابي اسحاق ابراهيم
ابن الحاج النميري الذي كان على صلة وثيقة بفاس وبني مرين وكتب

(5) انظر محاضرة الاستاذ عبد الله عنان المنشورة بمجلة تطوان ع 3 - 4 (1958 م - 1959)

رحلات ضاع بعضها وبقي الآخر ... وابن فضل الله العمري فى المشرق
ايام رحلته لقضاء فريضة الحج مع رفقة من الاندلسيين والمغاربة فيهم
خالد بن عيسى البلوي مؤلف رحلة (تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق).

وقد كان هذا الاتصال من حسن حظ العمري حيث استفاد من
الاخبار والمعلومات ما جعله يدقق فى تسجيل معلوماته عن المغرب
والاندلس على عهد بني مرين وبني الاحمر ...

وابن فضل الله العمري هو الذي سجل هذا الاتصال بينه وبين هذه
الرفقة من المغاربة والاندلسيين التي كان المع افرادها هو ابو اسحق
النميري ... ؟ الرحالة الاديب المطلع ... ! وكان هذا الاتصال العلمي
بمدينة القاهرة ... ! سنة 737 هـ وقد اثنى ابن فضل الله على نبوغ ابي
اسحق النميري وتبحره وذكائه وهو ما يزال فى ريعان الشباب (6) .

وهكذا نستطيع ان نفسر عمق الابحاث والمعلومات التي جاءت فى
موسوعة صبح الاعشى . وموسوعة مسالك الابصار بأنها معلومات لها سند
متصل بالمغاربة والاندلسيين الذين كانوا يقومون بعدة رحلات الى
المشرق ويتصلون اتصالا وثيقا باعلامه .. !

عبد القادر زمامة

فاس

(6) انظر مخطوطة المسالك بباريس 2327 / 214 ب وانظر الاحاطة ج 1 ص 350 .

يا صحرائي

عبد الوهاب ابن المنصور

- ◆ ايتها الفاتنة الحبيبة ، الفاليلة العزيزة
يا حلم الطفولة ، وأمل الصبا ، وفتنة الشباب
يا وردة تفتقت عن نضرتها الأكمام ، ونفحة سارت بعطرها الأنسام
ربيت على هواك ، وعشت على ذكراك ، أفريدون مني اليوم أن انسأك؟
- ◆ ايتها الفادة الرعوب ، البضة الطروب
قسما بنون ، والقلم وما يسطرون
بليك الفاسق ، ونخلك الباسق
بحبات ربالك الذهبية ، وعراجين تمارك السكرية ، بسحر جمالك ،
وعزة رجلك ، لنعيدنك يا صحرائي الى أيبك ، ونجمعن شملك بذويك ،
ونسفن بنواصي غاصبك ومضطهديك
- ◆ ايتها الصحراء الحبيبة
يا مهوى القلوب ، وقرة العيون ، وثلج الصدور
انا أهواك ، واذوب شوقا الى رؤياك
احبك كما أحب فاس ، واعشقتك كما أعشق مراکش ، وأهيم بك كما
أهيم بسبتة وتطوان
كذلك أرضعتني أمي ، وعلمني أبي ، ولقنتني معلمي
- ◆ قد ينزعون النور من بصري ، والبسمة من شفتي ، ولكنهم لن
يستطيعوا أن ينزعوا حبك من قلبي
- ◆ يا حبيبتني ، يا صحرائني •

عبد الوهاب ابن المنصور

الرباط

ملامح الشعوب في أدب الرحلات

جريدة البورقادية

مقدمة :

يعتبر ادب الرحلات مادة خصبة للكشف عن صور البلدان والشعوب الأجنبية ، اذ هو المعين الذي يستقى منه اهل اية امة معلوماتهم عن الامم الاخرى .

ومن المعلوم ان هذه الصور - حقيقة كانت أو مزورة - تنعكس في قصص الكتاب ومسرحيات المؤلفين . وتتعدى ذلك فتفزو ادمغة الساسة والمفكرين . ولاجل ذلك عمد الاستاذ (جان ماري كاري) الى ما كتبه الرحالون من الادباء الفرنسيين عن مصر ، وجعله موضوعا لدراسة مستفيضة ، تحدث فيها عن الصور التي رسمها هؤلاء الرحالة

واختلافها وتعددتها حسب ميول الكتاب وتكوينهم الثقافي ، كما اوضح ما كان لهم من تأثير فى الانتاج الادبي لغيرهم من معاصريهم ، ومن كتبوا عن مصر بالذات .

واذا كان للرحالين الفضل الاكبر فى تكوين آراء عن الاقطار التي زاروها بتصوير ما شاهدوه ، فلا يغيب عن الالذهان ، ان مشاهداتهم كثيرا ما تكيف حسب ميولهم واهوائهم ، وحسب احوالهم النفسية والاجتماعية .

فهذه ((مدام دوستايل)) التي هاجرت الى المانيا هربا من طغيان ((نابليون)) وتحكمه وكتبته الآراء الحرة ، كانت ترمي من هجرتها الى التمتع بحرية حرمتها فى بلدها فرنسا . ولذا جاءت آراؤها عن المانيا متسمة بالمثالية التي كانت تصبو اليها ، ورغم ان كتابتها هاته لا تخلو من مبالغة فقد استطاعت ان تؤثر بأرائها فى جيل من معاصريها كتابا وشعراء حتى ق 19 م ، وتراءت لنا المانيا من خلال انتاجهم بلدا يرتع أهله فى جو من الحرية المطلقة . وقد كانت نظرة ((دوستايل)) محدودة لانها لم تتصل فى المانيا بغير رجال الادب الارستقراطيين المقيمين بمقاطعة ((ساكس)) وبعض الفلاسفة فى ((برلين)) .

وشوقي نفسه لم ير فى اسبانيا الا بعض المدن التي زارها زيارة عابرة ، ولم يكتب الا عن اسبانيا المسلمة وماثرها ، فكان بذلك يعيش بثقافته وميوله فى الماضي ، مهملًا تصوير البلاد وحاضر أهلها .

وهذه الصورة كثيرا ما غلبت على انتاج الكتاب العرب ورحالتهم ، فلم يروا من اسبانيا الا جانبها الاسلامي ، وظلوا يكون فيها الفردوس المفقود الذي طرد منه اجدادهم .

ملاحح الشعب المصري فى الادب الفرنسي :

فى العصر الوسيط ظهر المسلمون فى ملاحح ومسرحيات الادب الفرنسي فى صورة وثنيين ذوي خلق سيء ، ينهزمون بسهولة أمام أبطال المسيحية فيرتدون عن دينهم .

أما فى عصر النهضة ، فقد غير الادب الفرنسى وجهه شطر الادب اليونانى واللاتينى يستلهمه ويحاكيه .

ثم رجع اليه الاهتمام بالشرق مرة اخرى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر من خلال صور جديدة ، فما هى هذه الصور الجديدة للشرقى فى أدب الرحلات على الخصوص اثناء هذه الفترة ؟

انه ذلك الجميل الطلعة ، الخصب الخيال ، العاقل ، الحميد الصفات ، يمتزج طموحه بالفروور ، المهنذب الخلق الطيب العشرة ، الكريم الضيافة ، الميال الى الكسل ، المتسامح غير المتعصب ، المؤمن بالخرافات ، الخاضع لسلطة الحكام الطفافة المستبدين ، المحترم لحرية الآخرين فى العقيدة .

وواضح ان العناصر النفسية والاجتماعية لعبت دورا مهما فى تكوين هذه العقيدة وصيغتها بصيغتها ، ثم ساعدت على رواجها ، وقد كان اصفاء كثير من الصفات المحموده على رجال الشرق نتيجة ما لقيه الرحالة الفرنسيون من كرم الضيافة وحسن الاستقبال .

وكثيرا ما اطلوا فى وصف ظلم الحكام وسوء استعمالهم لسلطاتهم . فجعلوا ذلك وسيلة لمهاجمة سلوك حكامهم تحت ستار مستعار من الشرق ونظام الحكم فيه ، كما شنوا حملة شعواء على العقائد السائدة ، ضاربين امثلة من الشرق فى التسامح وحرية الاعتقاد ، ثم انهم لم ينسوا ان يصوروا الطاعة الذليلة للشعوب الشرقية التى لا يند عنها صوت باحتجاج او معارضة .

وفى القرن التاسع عشر دخلت مصر الى الادب الفرنسى ، فعنى الكتاب الفرنسيون برسم صورة لها فى ادبهم ، واتسعت دائرة وصفهم لشعوب تلك البلاد وعادات اهلها وتقاليدهم ، واعتنوا ايضا بوصف مناظرها الطبيعية وآثارها التاريخية ، وما يسودها من نظم ، ويشهد المؤرخون ان رحالة القرن 19 انفردوا بميزات التحري والاستقصاء والدقة فى الوصف ،

ولذلك كان لما كتبوه عن البلاد الشرقية قيمة تاريخية وعلمية كبرى ، رغم أن هذه الصور لا تخلو من مخلفات العصور السابقة من آراء خاطئة أو مبالغ فيها .

لهذا كان على الباحث في هذا المصمار أن يفحص تلك الاخبار ، ويبين وجه الخطأ والصواب فيها .

ملاحح الشعب الفرنسي فى رحلة احد الرحالين المغاربة :

اقبل المغاربة بدورهم على أدب الرحلات واخذوا يتنافسون فى الاجادة فيه خصوصا فى القرنين السابع والثامن الهجريين ، أي عندما ازدهرت الآداب بفضل تشجيع المرينيين الذين كانوا يولون اخبار الماضي واحوال البلاد الاجنبية اهتماما خاصا ، والفضل فى تسجيل اخبار رحلة ابن بطوطة ، يرجع الى ابي عنان المريني .

لذا كانت قائمة الرحلات فى خزانات المغرب لا تكاد تحصى ، وهي قائمة تضم ثروة تاريخية جغرافية ، علمية ادبية ، لمختلف بلاد المعمور .

ربما يتساءل عن الاسباب الداعية لاقبال المغاربة على الاسفار ؟ فنجد الجواب عند الاستاذ محمد الفاسي فى مقدمته للرحلة السفارية (الاكسير فى فكاك الاسير ، لمحمد بن عثمان المكناسي) التي هي من تعليقه وتحقيقه .

اذ يرجع ذلك الى عدة اسباب هي :

— بعد المغاربة عن الديار المقدسة التي يحنون اليها فى كل وقت وحين .

— ولوعهم بالسياحة وارتداد الافاق .

— ارسال السفراء من قبل الملوك .

- التفرب من اجل طلب العلم ، او بغية التعرف على كبار العلماء .
 - مرافقة الكتاب للملوك ولرجال الدولة في اسفار رسمية .
- وبناء على هذه الاسباب جعل الاستاذ محمد الفاسي الرحلات حسب
غاياتها انواعا عدة :

رحلات حجازية — رحلات دراسية — رحلات سياحية — رحلات
رسمية — رحلات أثرية — رحلات اكتشافية — رحلات زيارية — رحلات
سياسية — ورحلات علمية — ورحلات مقامية — اى تروى فى شكل
مقامات — رحلات دليية — ورحلات خيالية — ورحلات فهرسية — ورحلات
عامة جمعت كثيرا من الاغراض السابقة كرحلة ابن بطوطة .

ورحلات سفارية ومعناها قيام المرتحل بسفارة لبلده لدى دولة
اجنبية ، وتكون من انشاء السفير نفسه احيانا ان كان من رجال العلم
والادب ، وقد برز المفاربة فى هذا النوع ، والفوافيه كثيرا ابتداء من ايام
السعديين .

والبحث فيما كتبه الرحالون العرب والمفاربة خصوصا عن البلاد
الاوروبية يتطلب الصفحات الطويلة ، لذلك اخترت صورا من رحلة سفارية
لأديب مغربي يدعى الحاج ادريس ابن الوزير محمد بن ادريس العمراوي
الفاسي ، قام بها اواخر القرن 19 مبعوثا من طرف المولى عبد الرحمن بن
هشام بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل العلوي ، وذلك سنة 1878 م
سماها ((تحفة الملك العزيز بمملكة باريس)) مطبوعة ، وتوجد بالخرانة
العامة تحت رقم (23440) ، وفى تصاعيف هذه الرحلة نجد صورا كثيرة
وطريقة للشعب الفرنسي آنذاك حاكما ومحكوما .

فلنستمع اليه وهو يتحدث عن الفرنسيين من حيث طباعهم ، ومن حيث
نهضتهم الفكرية ، واهتمامهم بكل ما جد فى عالم الثقافة ، فيقول :
(لا يكون من الكلام ولو جلسوا ما جلسوا ... اكثروا السؤال عن العلوم
والكتب ... عن علم الهندسة والهيئة والتنجيم ، واللغات ، أي لغة كانت

وعن كتب التاريخ والسير والحكم والادب ، وكتب الحكايات ، وقد ذكروا لنا أنهم ترجموا كتباً عديدة من كتب الاسلام الى اللغة الفرنسية مثل كتاب ادب الكاتب لابن قتيبة . وكتاب الامثال للسمعاني والقاموس ، وكتاب روض القرطاس ، وكتاب الف ليلة وليلة ، ويشتررون من كتب المسلمين الكتب الرفيعة ، ويتغالون في ثمنها ، ويشترطون جودة الخط وصحة الضبط . ولهذا الترجمان الذي جاءنا من عند عظيمهم معرفة بكثير من علوم المسلمين ، ويكتب بالخط المشرقي كتابة جيدة ، ويحفظ اشعارا عربية ونوادر أدبية ، ويستحضر الآيات والاحاديث والقصص ، وتواريخ الامم الماضية ، وملوك العرب والعجم زيادة على ما يحفظ من اللسان ، فانه كما يعرف اللسان العربي يعرف اللسان الفارسي والتركي ، ويعرف جميع السنة النصارى ، وقد كان ينشر اشعارا ادبية ونوادر مستظرفة) . ان هذا النص على بساطته يعطينا صورة واضحة عن الحياة الفكرية في اواخر القرن التاسع عشر بفرنسا ، ويشرح لنا مدى الصلات الحقيقية بين ادبنا وعلومنا ، والادب والعلوم عند الاوربيين خصوصا الفرنسيين منهم . وقد ساد هذا التيار اوروبيا بأكملها .

وهذه صورة أخرى للحياة الاجتماعية في ((باريز)) وهي وان بولغ فيها بعض الشيء تحمل صورتين ، صورة لعقلية كاتب مغربي آنئذ ، وصورة أخرى للطريقة التي تعيش عليها العائلة الفرنسية . ((ويكفي في تقبيح سيرتهم وخبث سريرتهم ، غلبة النساء عليهم وجريهن مطلقات الاعنة في ميادين الفجور والفواحش ، من غير ان يقدر احد على منعهن مما يردنه من ذلك ولا تعنيفهن ، وطاعة النصارى لنسوانهم ومبالفتهم في اتباع مرادهن اشهر من تذكر . ويقولون ان لهذه المدينة زيادة في ذلك (يقصد باريس) حتى انهم يقولون في أمثالهم : ((باريز جنة النساء ، وجهنم الخيل)) والمرأة هي رئيسة البيت ، والرجل تابع لها ، حتى ان من دخل عندهم بيت احد ، فأدبه ان يقدم السلام على المرأة قبل زوجها ، وهي التي تقابل الضيوف ، وتكلمهم وترحب بهم ، سواء كانوا رجالا او نساء ، والرجل ساع في طاعتها ممثلا امرها ، متأدب معها بأحسن الآداب ، لا يخالفها في شيء ، ومن كان بخلاف ذلك ، عدوه من اوباش الناس وسفهاءهم ، مع

قلة العفة فيهن)) ويسير على هذا النحو موضحا موت الفيرة ففى نفس الرجل الفرنسي وتهاونه فى الحفاظ على كرامته . (ص 45 - 46)

ثم يعطينا صورة عن شكل العيش فى البيوت ، فيقول : ((وفراشهم خفيف فلا يجعلون الا فراشا واحدا للواحد فى كل بيت وما عدا ذلك فانما هي كراسي و (كنايات) متصافة مع حيطان البيت لا تصلح الا للجلوس)) (ص 31) . ثم يتحدث عن اوقات وجباتهم اليومية فنجدها تغاير اذ ذاك ما هم عليه اليوم فيقول : (وعادتهم فى الاكل ان ياكلوا مرتين فى اليوم الاولى فى الساعة العاشرة او الحادية عشرة من النهار ، وهي اكلة خفيفة انما يشربون فيها الشكلاط بالحليب او الحليب مع السكر او مع الاتاي وياكلون معه الخبز والبيض والزبد او الجبن)) الخ . (ص 32)

ويواصل الحديث عن وجبة العشاء التي تقدم فى 6 او 7 مساء وكيفية تقديمها .

وفى معرض الحديث عن الصحافة بباريس يقول (ص 57) : (ان لهم صحفا سماها بالكوازيط) تنقل كل اخبار المملكة وما يروج خارجها . ثم يتعرض لاهتمام الراي العام الفرنسي اذ ذاك بالصحافة .

ان صورا كهذه يقدمها بين يدينا صاحب الرحلة لتدل دلالة واضحة على مدى اهمية كتب الرحلات فى مختلف تصوير الحياة الفكرية والاجتماعية بل نستطيع من خلالها ان نتعرف على حقيقة حياة الشعوب . غير انه لا بد من ان يكون رائدنا فى هذا النوع من البحوث الدقيقة والتحميمص .

حبية البورقادية

الرباط

(يتبع)

قصة:

الذخيرة

أحمد عبد السلام البقالي

حين عاد صديقي حسن العمرى من رحلته السندبادية الى منطقة الخليج العربى ، كنت أول من ذهب لتهنئته فى بيته فقد كان دائما يحمل لى هدية ليست ككل الهدايا ؛ كان يحمل لى معه قصة من مغامراته العجيبة التى لا تحدث الا له ولولا غرابة شخصيته اقات انها من صنع خياله .

ولم يكن من عادته أن يشوقنى الى ما سيحكيه لى ، ورغم ذلك كانت حكاياته تشدنى اليه الساعات الطوال . . اما وقد لمح

لى هذه المرة بغرابة حكايته ، فقد جلست اليه أ تبادل التحيات
مستعجلا دخوله فى الموضوع الذى بدا يحوم حوله ، حتى قال :

« وأخيرا استطعت الخروج من جزيرة « مرغم » .
الجزيرة الضائعة فى المحيط الهندى فى مكان ما بمدخل الخليج
العربى .

لم يكن بالجزيرة مطار ، والمعدية الوحيدة التى تصل
الجزيرة بالشاطئ ، الاسيوى كانت تقوم برحالة واحدة كل
أسبوع .

ومما استطعت ان اعرفه عن جزيرة مرغم ، اثناء اقامتى
الاجبارية بها ، هى انها الجزيرة العربية التى لا بتزول فيها . ومع
ذاك فأهلها يتحدثون عن شاب استطاع ان يكس ثروة طاول بها
ثروات آل زعبوط وغيرهم من حكام التكوين السريع . هذا
الشاب الذى كان الجميع يخاطبونه بطويل العمر ، النقيب الذى
لا يعطى الا املوك وأمراء الجزيرة الكبرى كان مجرد موظف بقسم
التصاريح بالجزيرة ، ويظهر أنه استغل منصبه لبسط نفوذه على
كل مخلوق بالجزيرة لدرجة أن أهلها كانوا يطلقون عليه سرا ،
اسم الاخطبوط . . . وما كان ليخطر ببالى انه سيكون لى معه
شأن ، وأى شأن . . .

فى داخل الخمسة أيام التى قضيتها سائحا بالجزيرة تعلمت
لبس الحطة والعقال ووضع ساق على ساق فى مقهى العزاب ،
ومص النرجيلة بالتبغ المعسل ، وارتنشاف الشاي الاسود لابطال
مفعول المعسل !! !

وكان يجلس الى جانبى ، ويرافقنى فى شطحاتى هذه رجل
خفيف الظل ، حلو المعشر من ملازمى الموانىء (ذوى السمعة
المشبوهة) اسمه الحاج عبد الله .

وفى آخر يوم لى بالجزيرة ، وانا على مقعدى بالمقهى
أحسست حوالى بحركة غير عادية ارجعتنى من جزيرة احلام
يقظتى ، فالتفت لأرى صاحب المقهى العجوز يفسح الطريق ،
بحماس معدى ، لرجل قصير سمين ، مستدير الوجه والجسد ،
ضيق العينين مفرطح الانف ، يتقدمه الخدم والحشم ، وتحيط
به الحاشية

وصفق القهوجى وأمر بتبديل الكراسى والموائد ، وفرش
زرابى الترحيب والتكريم ، وهو يدور بالرجل ، الذى ظننته أمير
الجزيرة ، دوران ذكر الحمام بأنثاء مرددا الدعوات بطول العمر ،
وعين الحسود فيها عود — وما الى ذلك —

وجلس الرجل المكور ، محاولا أن ينفذ عن ظهره كل ما يوحى بالتواضع . . . فوضع المعلم القهوجى امامه نرجيلته الخاصة ، بعناية وهو يصيح بالولد الواقف الى جانبه زاجرا دون داع غير اظهار التقانى فى الخدمة .

وامتص الرجل المكثف من النرجيلة فبقببق مأوها داخل انزجاج المذهب ، وامترج بالدخان الذى أخذ طريقه الى أنفه وعينيه فأغمضهما فى نشوة عارمة ، وأرسل من منخريه نافورتين من الدخان الابيض . .

وبعد ذاك فقط التفت حواليه لينظر الى من باغت به الصفاقة او الجهل مبنغ تحدى وجوده والاصرار على البقاء فى مكانه . . .

فى هذه اللحظة رآنى وأنا لاه عنه بامتصاص نرجيلتى الرخيصة ، فمال الى مرافقه الجالس على يمينه وهمس له شيئا ، وعيناه على . . بل على يدى التى تمسك الشيشة ، ثابتة لا تتحرك . .

ونظرت اليه ثم الى يدى فلم أر ما يثير الاهتمام غير خاتمى الجامعى ، فقررت تجاهله . .

ولكنى لم استطع تجاهل نرفزة رفيقى المرساوى الذى كان
يتحرك قلعا فى مجلسه لا يدرى هل يقوم أم يبقى محتما بى . .

ورأيت الرجل المرافق لطويل العمر يقوم ويسوى طرحته
وعقاله ويتوجه نحوى حتى وقف امامى مباشرة فحجب عنى
الظل ! ورفعت عن نرجيلتى رأسى المثلث لانظر الى وجهه . .
وخيل لى أن له اربعة حواجب . . فقد كان شارباه مقصوصان على
شكل حواجبه الكثة .

واكتفى الرجل بأن اخرج من كفه يدا أشار لى بها الى سيده
المستدير ، الذى كان منهما فى انتظارى دون أن يشك لحظة فى
تلبيتى العاجلة لدعوته وقال :

— شرف ! (وهو يعنى : قم !)

واحسست بغمرة رفيقى تغوص فى ضلوعى بعنف صامت ...
فحزحت النرجيلة عن فمى ونفثت مخزون دخانى ، وقلت للرجل
دون أن أنظر اليه :

— قل لصاحبك : أنا مرتاح حيث أنا . . . وشكرا على دعوته !

وأحسست بغمرة رفيقى آتية لتخترق أحشائى فانحنيت
لتلافيها متظاهرا ! بالتقاط شىء ، وبقيت كذاك أنصت الى الغمرة

الصلبة تتكسر على ظهر الكرسي الخشبي ، وصرخة ألم مكتومة
... ثم اعتدلت، في جاستى لاعيد على الرسول جوابى الذى لم
يسمع مثله فى حياته فعاد به الى سيده .

وما كاد الرجل الكروى يستوعبه حتى وقف ، وبدأت عينه
البسرى تطرف بسرعة ، وأنفه الالفطس يرتعش وسمعته
يقول ، وانا أرمقه من طرف خفى :

— انزعوا رخصته !

فهمس له المرافق :

— اجنبى يا طويل العمر !

وأصيب الجل المكور بهستيريا الاوامر ، وكلما أراد رفيقه
الذهاب للتنفيذ أمسك بذراعه بقوة واستوقفه ليفكر فى ويلات
اضافية . . . وفى النهاية لمعت عيناه الدقيقتين فأحنى رأس خادمه
ليهمس فى اذنه بشيء . . . بفكرة جديدة أدرك أنها واسطة العقد ،
فاستغنى بها عن غيرها . . . وانصرف .

وحين اختلى بى رفيقى المرساوى اقام الدنيا واقعدها فى
وجهى . . .

فقلت مهونا عليه :

— ولا يهملك يا عم عبد الله — انا بكرة رايح .. ويبقى
الراجل زى ما نقول فى بلدنا : ماسك الحبل !
— والله ما راح يبقى ماسك الحبل الا محسوبك .. (يعنى
هو)

وأخذ يندب حظه العاشر على التعرف ائى من دون جميع
المسافرين ..

* * *

وفى صباح الغد كانت المفاجأة ..

وادركت حقيقة ما كان يعنيه رفيقى الحاج عبد الله
خرجت من غرفتى بالفندق حاملا حقيبتى وتوجهت نحو
الميناء القريب من الفندق لأركب المعدية ، واترك الجزيرة
الضالة ، وامبراطورها الكروى .
وفوجئت ، وأنا أمد يدي بالفلوس لأشتري تذكرة المعدية ،
بطويل العمر نفسه يطل على من نافذة التذاكر ويبتسم فى سرور
صبيانى وعيناه تلمعان فى سعادة لا حد لها ..

ونظرت اليه وهو يشجعني لأتقدم . . وأدخات ذراعى حتى لا يضطر هو الى مد ذراعه لاستلام الاوراق المالية ، فاذا بوجهه يتغير ويتنمر والباب تنطبق فجأة على ساعدى بشدة . . فصرخت من الألم ، وجاهدت لاستخلاص ذراعى من بين فكى النافذة حتى كدت اكسرها وهو وحاشيته داخل الغرفة يضحكون ومعهم بائع التذاكر الاصلى . . .

وحين شبعوا ضحكا ، انفتح باب النافذة عن ذراعى المزرق من الاحتقان وانحنى سعادة الرئيس معذرا :

— اسف . . لم تبق لنا تذاكر لمعدية هذا الاسبوع — ارجع الينا فى الاسبوع القادم . . آه ؟

واقفل الباب مرة أخرى وهو يهز رأسه هزات لا ارادية سريعة ويغيب سواد عينيه كمن يوشك ان يجهش أو يعطس ، أو يهوى صريعا . . وتراجع الى الخلف وانسجم فى قهقهة هستيرية وهو يستلقى على طاولة خشبية فارغة وسط الغرفة ، وجسمه يهتز بعنف وهو يشخر ويئن ويستعطف فى التذاذ سادى رهيب ما عرف آدمى مثله !

وضربت كفا بكف . . كان الله فى الجزيرة وأهلها ! الرجل مجنون !

ونزل على ثقل الصدمة وأنا أرى المعدية ترفع حبانها لتقلع
فارغة الى بر القارة . . بر السلامة والامان الذى لا ادرى هل
سأراه أم لا . . .

وحملت حقيبتى وتوجهت نحو الفندق تحت حملة الحملين
الذين لا يجرؤون على حمل حقيبتى خشية الغاء رخصهم .

ووقفت على باسط مدير الفندق وقرعت الجرس وأنا أمسح
عرقى بمنديلى . . . وبينما أنا كذلك اذ خرج لى من مكتب المدير
السيد بلحجاج نفسه ، رئيس مكتب التصاريح يفرك يديه
ويستقبلنى بابتسامة . . . فاستعذت بالله ، وانحنيت لاحمل
حقيبتى وأعود من حيث أتيت فاستوقفنى :

— يا سيد !

فوقفت والتفتت ، فقال :

— هل قرعت الجرس ؟

فقلت :

— نعم .

— ولكنك ذاهب . . ألا تقول ماذا تريد ؟

فقلت :

— كنت اريد غرفة .

— واكنى أراك ذاهبا . . ألم تعد تريدها ؟

فقلت :

— باى . . ولكن . .

— ولكن ماذا ؟

— هل عندكم غرفة لى ؟

ففرك يديه وأخذ ينظر فى سجل النزلاء ويقاب صفحاته ويتمتم بكلام غير مفهوم كأنه يبحث عن غرفة فارغة والفندق كله مهجور ! وفى النهاية رفع رأسه عن السجل وابتسم لى وأنا أتأمل وجهه وأسفانه المتفاوتة وأتساءل ما اذا كانت تلك ابتسامة انسان أم تكشيرة كلب مسعور

وسمعتة يقول وكأنه يزف لى خيرا رائعا :

— آسف يا سيدى . . الفندق ملآن ! عد الينا بعد أسبوع .

وأقفل السجل ، وعاد ابنى شخيرده واهتزازده وانصرف ليدخل غرفة المدير ، الذى لا شك كان ينتظره هناك ، وهو لا يقوى على حمل نفسه من السخسخة والاتخاء من عنف القهقهة !

وانقفلت الباب السميكة من خلفه وارتفعت من داخل الغرفة قهقهة
زاعقة كضحكات الضباع في الليالى الافريقية . . .

وبدأت أنا أهتز وأرتعش خوفا وانفعالا . . . فقد بقيت عمليا
في الشارع ولا أحد ، لا أحد بالجزيرة كلها يستطيع ايوائى أو
اطعامى . . . وأحسست بغربة المنبوذ ، ووحشة الجندي التائه
في أراضى العدو . . .

وقصدت المقهى — وما كاد صاحبها يرانى قادما أجر حقيبتى
حتى بدا عليه اقلق فأخذ ينظر الى ساعته ، ويستعجل الزبائن
المستعربين للذهاب . . .

وما كدت أقف على بابه حتى كان نصف الكراسى مرفوعا
على الموائد ، وهو يقفل الأرتجة . . . وحين وقعت عيناها فى عيني
أحنى رأسه خجلا وتمتم :

— تصبح على خير . . .

ولم يبق امامى الا الشاطئ فذهبت لأفترش رمله ، وأتوسد
حقيبتى حتى الصباح . . .

وما كدت أغمض عيني على صخب تكسر الامواج الناعمة
حتى ترامى انى سمعى نباح وحشى فرفعت رأسى لأرى مصدره

فاذا كُتب راعى ألمانى فى حجم سيارة انفولكسفاكن يعدو نحوى
مكشر الأنياب . . . فنهضت بسرعة تاركا حقيبتى لاعدو فى
الاتجاه المعاكس . . .

وما كدت أخطو خطوتين حتى وقعت على وجهى والكلب
فوقى يلهث ويهر هريرا مسعورا . . . وانتظرت ان يغرز اسنانه
فى قفاى أو ظهرى ، ولكنه لحسن حظى لم يفعل ، فقد كان مدربا
على الطرد دون الافتراس .

وبعد لحظة من الانتظار الاليم تحت رحمة الحيوان المتحفز ،
سمعت وقع أقدام ثقيلة وانفجار قهقهة عصبية من حلق غير آدمى
. . . ورفعت وجهى رغم تحفز الكلب ، لانظر للقادم الجديد ، فاذا
هو طويل العمر ، الشيخ بالحجاج بذاته وصفاته فى ملابس
حراس الشواطىء ، يحمل على كتفه بندقية ، ويلعب بمقود
الكلب ، وينظر الى من فوق وهو يغالب ضحكته العصبية ويمسح
دموعه المنهمرة ، وقد بلغ أوج لذة الانتقام من المخلوق الحقير
الذى تجرأ على عصيان أمره ، والذى هو للأسف انا !

ووقف لحظة يتنحنح وييزق ويمسح فمه بظهر يده ، والكلب
يرفع رأسه متوقعا أوامره . . . وفى النهاية سيطر على فرائضه
وصاح :

— قم انت !

وأعطى الكلب اشارة فنزل عنى وعاد هو يصرخ :

— ارفع يديك !

فرفعت يدي قائلاً :

— انت تعرف أنى لا أحمل سلاحا . .

فزعق :

— اقفل حنكك ، يقطع لسانك !

فحركت رأسى متتهدا وهو يبحث جيوبى . . وحين لم يعثر
على شىء ، صرخ آمرا :

— امش قدامى ! يا متسلل !

— متسلل ؟ أنا ؟ انت عارف أننى دخات البلد بطريقة شرعية
وجواز سفرى مثبت ذلك .

فأحسست بوكرة شديدة على ظهري دفعتنى الى الامام :

— امش ساكت !

وفي قسم الشرطة سلمنى مطاع الامر الى حارس الليل
الذى طلب منى افراغ جيوبى أمامه بينما دخل بالحجاج الى غرفة
اخرى خرج منها بملابسه المدنية . .

وأدخلنى الحارس العجوز غرفة مظلمة لا أثاث بها ولا نوافذ
الا شبكا على الباب .

ووقف بالحجاج ليتفحص اوراقى ومحتويات جيوبى وأنا
انظر اليه من داخل الزنزانة كان يبدو عليه انه يبحث عن شيء
معين ، وحين لم يجده ، توجه نحو صينية بها قلة ماء صب فيه
كأسا وجاءنى به :

— تقضل !

وكنيت فى غاية الظمأ فلم أدر هل أقبل الكأس أم أرفضه
متأكدا فى قرارة نفسى ان وراءه ما وراءه !

واقترب منى الكأس فهاج عطشى وأنسانى الحكمة فمددت
يدى لآخذه . . وما كدت امسك به حتى امسك بلحجاج برسغى
ونزع خاتمى الجامعى من اصبعى بقوة مؤلمة اندلق معها كل ما
كان بالكأس من ماء ، ووقف ينظر اليها محاولا أن يقرأ اسم
الجامعة المنتوش حول فصها ثم نظر الى بعينيه القنفذيتين وقال :

— جامعة اجنبية !

ولم أجب .. فحرك رأسه مستسخفا تصرفاتى الحمقاء ،
وقال :

— هذا كل ما أردت أن أعرف .. كنت اظنه خاتما ثمينا
تستحق عليه رخصة ما ..

ثم رماه الى الارض وبصق وخرج .. ووقفت فى ظلمة الغرفة
واعصابى من طول الكبت والتوتر تكاد تحترق ولم أملك أن
انفجرت باكيا وفرائصى كلها ترتعد ..

وسمع الحارس العجوز نحيبى فلان قلبه ، وسمعه يصب
من القلة كأس ماء ويأتينى بها ..

— اشرب يا ابنى .. اشرب .. لا بد انك مظلوم كأغلب من
يأتى بهم طويل العمر .. الله ينكد عيشته ! اشرب

ومد لى الكأس فعبيت منها عبا حتى انقطعت انفاسى ،
وطلبت المزيد حتى ارتويت ، وهذا روعى .

وحكى قصتى التعسة للحارس الطيب ، فطيب خاطرى ،
وجاءنى ببعض الطعام الذى كنت فى حاجة اليه ، وجلس يسامرنى
ويؤنسنى حتى أخذنى النوم .

وعرفت منه أشياء كثيرة عن انجيزة وصاحب اتصاريح
بلحجاج او الرخصاتي ، كما كان يسميه . . . والذي تفاقم أمره حتى
أصبح يخاف بطشه الجميع ، ولم يجرؤ أحد على اوشاية به
الامير الذي أصبح الجميع يعتقد انه متواطىء معه ، والا لما
سكت عن مظامه !

وحين سألت انحارس عما سيكون من أمرى ، قال لى ان
بلحجاج يخشى التطرف مع الاجانب حتى لا تصل الشكاوى به
من الخارج . . . وانه سيأمر باطلاق سراحى فى الغالب غدا
فقلت فى نفسى : « هذه اول نقطة ضعف ! »

وحين سألت الحارس عن سبب تفاقم سلطة بلحجاج
وامتدادها الى الميناء والفندق والبوليس ويعلم الله ماذا
غيرها ، قال :

— قبح الله الانجليز ! فهم الذين تركوا لنا « موضة »
الرخصة واتصريح . . . وكل واحد من اناس يحتاج الى رخصة
ما حتى شراء دراجة . . . وهذا هو سر جبروت بلحجاج وتفاقم
سلطته !

ثم أضاف :

— ورغم أنه لم يبق بالجزيرة انجيزى واحد فهو يصر على استعمال اللغة الانجليزية فى معاملاته مع المواطنين للتعمية عايمهم واشعارهم بالنقص .

وحين سأئت، مستكرا :

— ولماذا لا يشكوه أحد للأمير ؟ !

ضدك الحارس العجوز حتى بان مكان ضرسه المخلوع ،
وقال :

— كيف يمكن أن يشتكوا وهم داخل السجن ؟ . رخص
الزيارة وارسال البريد ممنوعة !

وتدرج الحديث بنا الى الامير فسألت بحذر :

— هل يمكن أن يكون عالما بأمر بلحجاج ؟

فهز الرجل كتفيه ، ونظر حواليه . . وعرفت منه أن الامير
رجل طيب القلب يحب المرح ويطرب للغناء واشعر . . .

فقلت فى نفسى هذه طريق يمكن الوصول اليه منها . .

* * *

وكما تمال الحارس ، وجدت نفسى فى انصباح التانى طيقا
وكن دون مأوى ولا وسيلة لمغادرة .جزيرة اجهنمية . .

وتذكرت ما قاله لى الحارس اشيخ من أن الامير ينزل
للشاطيء للتريض كل صباح على حصان فقصدت الشاطيء
وكتبت على الرمل الندى هذه الابيات :

أمير دولة مرغم	دم للعروبة واسلم
النجم ام أنت أعلى	والبحر أم انت اكرم
لدى سر اذا ما	عرفته صرت أعظم !

وما كدت أتم الكتابة حتى سمعت ركض جواد خلفى فالتفتت
فاذا الامير على حصان أسود يلمع واذا به يوقف الحصان ويدور
حول الابيات حتى لا يمحوها ثم يقف يقرأها بالتذاذ كبير ويلتفت
الى :

— هل أنت صاحب الابيات ؟

فانحنيت بأدب :

— نعم يا مولاي . . وهل أفهم أن سموكم أمير دولة مرغم ؟

فترجل عن الحصان ومد يده مرحبا بى :

— أصبت . . فما هو هذا اسر الذي اذا عرفته صرت اعظم ؟
وتخوفت من أن يكون أحد أتباع باحجاج بعثه ابى ليستقرىء
طويتى فترددت . .

وأعدت النظر الى وجه ارجل فاذا اوصاف حارس السجن
اعجوز ينطبق على كثير من ملامحه فقُت :

— اسر يا مولاي يتصل بصلاح دولتك وسعادة شعبك

وتأكدت من هويته حينئذ لأن ابتسامة اطرب لسماع كلمة
دولة تطلق على جزيرته الميكروسكوبية اختقت وحل محلها اهتمام
الحاكم الذي يريد صلاح دولته وسعادة شعبه . .

قات : « اذا امننتى قلت ك »

فقال مندهشا ومبتسما وكأنه يقول لى : هل تظن أننا همج
متوحشون :

— عليك الأمان . . فقل ما شئت

قلت : « الناس يا مولاي يقولون انكم متواطئون مع
بلحجاج ! »

ونظرت الى وجهه اتوقع الغضب او الانفعال ، فرأيته يهز
اكتافه ويسأل :

— بلحجاج ؟ ومن هو بلحجاج ؟

فتنهدت مرتاحا لسؤاله ، وفتحت اكتاب بمناقب طويل العمر
مدير مكتب منح التصاريح او منع التصاريح . .

وبدا وجه الامير يكفهر ، فاختصرت اللائحة حتى لا تسبب
في اعدامه ، وانتقلت الى احديث عن وضعى ، ووسيلة التحاقى
بالقارة . . ولم يبد من سمو الامير أنه كان يستمع الى حديثى
عن وضعى فقد كان يضرب بسوطه على يده فيتراجع حصانه
وهو مستغرق فى التفكير . . ثم التفت الى وقال :

— تعال معى . .

وأشار ابنى مرافق له يقف بعيدا ليحمل حقيبتى ، وبدأ :

— أولا ، بصفتى المسؤول الاول على كل ما يقع داخل
جزيرتى ، يجب أن اعتذر لك عما —

فقاطعته قائلا :

— معاذ الله يا سمو الامير . ! معاذ الله . !

فأصر :

— أبدا . ! لقد اصابتك المحن على يد أحد موظفى ، وقد
نزلت علينا ضيفا للسياحة والاستمتاع ! لذلك أدعوك للنزول ضيفا
على حتى ترى بعينيك تصحيح الوضع . .

فتمتت شاكرا كرمه . . فقطعنى :

— هذا أقل ما يجب . .

وفى تلك الليلة تفتحت ذاكرتى ومواهبى اشعرية لدرجة
أطربت الامير وحاشيته ، وشعرت بسعادة لا حد لها للانفراج
المفاجىء الذى طرأ على حاتى . . وكان جو الجزيرة الرقيق ،
ونسيمها العليل ، ونغم البحر الناعم تتكسر أمواجه الصغيرة
على أقدام القصر يوحى بالوجود فى عالم سحرى سحيق . .

وأحسست بالامير يقف الى جانبى وأنا أتأمل البحر
فاعتدلت احتراما فبادرنى :

— مازلت أفكر فى أمثل طريق أعاقب به بلحجاج . . فقد أرسلت
من يأتينى بمعلومات عن مكتبه وشخصه وحساباته البنكية وغيرها

فانكشف لى اكثر مما كنت أتوقع . . وكان هذا اللعين سوسة
تنخر بجذوع وعنف فى جذور الدولة لتقوضها فى اقرب وقت

فلم أتماك أن أقول :

— أعوذ بالله ! حفظ الله مولاي !

فقاطعنى بحزم :

— العداء اساس الملك . . فاذا انتشر الظلم انهارت الدولة . .

وصمت قليلا ثم أشار الى بكأسه :

— قل لى . . أنت الذى عانيت المحنة بنفسك . يمكن أن

تقترح على حلا واقعيا . .

وكننت أتوقع السؤال فلم أفاجأ ، وقات .

— اذا سمح مولاي ، وانتم سيد العارفين ، فرايى أن يلغى

مكتب انتصاريح الغاء نهائيا ! وحتى يدرك الشعب عمق هذه

الخطوة الثورية يمكن أن يأمر صاحب السمو بنفسه بالغاءه فى

حفلة كبيرة !

وقبل أن يبدى الامير اعتراضاته المعقولة استدركت :

— ويستبدل بمكتب آخر تكون مهمته الاجابة عن طلب
الرخص الضرورية جدا بالبريد على أن يحدد وقت الاجابة حسب
أهمية المشروع أو الرخصة المطلوبة . . فاذا مر الموعد المحدد
للاجابة ولم يتوصل انموطن برسالة من المكتب عد ذلك ترخيصة
قانونيا واذا اء ببدء عمله

ونظرت اى وجه الامير فقرأت فيه الاعجاب بافكرة
والحماس لها . . ولم يلبث أن ضرب على كتفى بكفه قائلا :

— برافو ! برافو يا حسن ! هكذا يكون التفكير الادارى
السليم . . سنضع بذلك المسؤولية على عاتق الموظفين لا فى
ايديهم !

فقلت :

— وخصوصا اذا استعملنا الاذاعة والتلفزيون والجرائد
لشرح هذا للمواطنين وتعريفهم بحقوقهم وواجباتهم . .

وحرك رأسه موافقا :

— تذكر هذا لأسجله . . تماما . . تماما

فاستبد بى الحماس لروح الشباب التى أخذتني فى الأمير
فقلت :

— اما اذا اراد مولاي امساك صمام الأمان فى يديه ، فما
عليه الا أن يذشىء مكتباً للشكايات يترأسه هو بنفسه ،
ولا يستخدم فيه الا الشباب الذين أم يتخرجوا بعد من كلياتهم . .
فاذا قضى على مصدر الشكاوى تحققت السعادة والاستقرار
للدولة . .

فرفع الأمير كأسه تحية لى قائلاً :

— غدا عيدنا الوطنى . . نحن نؤرخ لجزيرتنا بيوم ميلادها
. . يوم خروجها بانفجار بركانى فى عمق المحيط . . وقد مر على
ذلك أقل من اربعمئة عام . .

وافترقنا . .

وفى الغد ، وقف الأمير فى أبهى حاله على منصة الخطابة فى
ميدان الجزيرة الكبير المزين والمزدحم بسكانها . وما وقف حتى
ضجت الساحة بالتصفيق والهتاف يقاطعه الصفير الحاد والهتاف
المعادى . . واشتبك رجال الامن مع طائفة من الشباب . . فافتتح

الامير خطابه ، وساد هدوء نسبي . . ولم يطل في المقدمات ، بل دخل حالا الى صاب الموضوع فأعلن عن اغناء مكتب الرخص اشارة لبدء عهد جديد .

وما أدركت الجماهير معنى كلماته حتى ضجت الساحة بهتافات حماسية حقيقية هذه المرة انضم الى المشاركة فيها الشباب الساخط ورجال الامن الذين كانوا يطاردونهم .

وطلب الامير لحظة صمت الجماهير ثم ضغط على زر أمامه فسمع انفجار كبير على انشاطىء المقابل . . والتفت الناس ليروا مكتب التصاريح ينهار عن آخره ليصبح كومة احجار على الارض .

وكان ذلك كان ايذانا للجمهور بالانطلاق في سباق غريب فتوجهوا جميعا بغريزة قطيعية نحو المبنى المنهار ليتأكدوا بأيديهم من حقيقة ما رأَت عيونهم . .

وما كادت طلائعهم تصل حتى بدأوا يلتقطون حجارة المبنى ويلقون بها في البحر كأنما يخافون قيامه من حطامه من جديد . .

وهاجم الجماهير منصة الأمير رغم مقاومة الحرس فحملوه
على أكتافهم هاتفين بحياته وهو يراوح بيديه بعلامة النصر

وفي ذاك المساء أُلقي القبض على بلحجاج وأعوانه وسماسته
وقدموا للمحاكمة . . . وحضر المحاكمة جمهور غفير من الذين
منعت عنهم التصاريح أو ألغيت رخصهم يتشفون في الديكتاتور
المجنون حتى اضطر حرس المحكمة الى وضعه في قفص حديدى
خوفا عليه من الاختطاف او الاغتيال . . .

واصدرت المحكمة حكمها عليه بسجن شهر عن كل ملف
عرقلة ، وكل رخصة عطلها ، فتراكم له من ذلك ما يزيد عن الثلاثين
سنة مع الاشغال الشاقة لتعويض حقوق ضحايا تلاعبه

وصادرت المحكمة امواله ، ووزعتها على سجنائه الذين
حرموا من العمل والحرية سنوات طويلة

* * *

وحين ودعنى الأمير على متن مركبه الخاص اينقلنى الى
الساحل القارى ربت على كتفى وقال ، وعالى وجهه ابتسامته
النبيلة :

— عد الينا . . لن تحتاج الى رخصة بعد اليوم . .
فقلت :

— سأعتبر هذه دعوة رسمية من سموكم . . وسأعود بحول
الله . .

وانطلق المركب ينزلق على مياه المحيط الباورية . . وانتفتت
الى الجزيرة فخيّل الى أنها تتنفس الصعداء . .

الرباط
احمد عبد السلام البقالي

مكانة العربية بين اللغات العالمية

د. علي القاسمي

من المسببات الرئيسية لمشكلة التفاهم الدولي عدم وجود لغة مشتركة واحدة . وقد يبدو في هذا القول الشيء الكثير من المبالغة ، الا اننا اذا امعنا النظر في طبيعة اللغة لالفينا « ان كل لغة . . . تنمى طرائق اتصال خاصة بها . وطرائق الاتصال هذه تخلق حاجات خاصة ، وارجاعا متميزة ، وتقود الى تطوير انماط معينة من التفكير » (1)، وادركنا ان وجود لغة مشتركة يعنى قيام حضارة عالمية واحدة ، واتجاه فكري موحد ، فتنتفى والحالة هذه مقومات الصراع الدولي ، وبالقالي يسود السلام .

ولكن كرتنا الارضية تزخر بلغات متباينة تشكل عقبات كأداء في سبيل تحقيق التفاهم الدولي والتعايش السلمى . فهناك اكثر من 3500 لغة في العالم . وهذه اللغات في تكاثر مستمر اذ لاحظ فقهاء اللغة ان في مقابل

كل لغة تذثر تولد لغتان او لغة ونصف على الاقل . وهذا يعنى ان عدد اللغات الحالي سيتضاعف مرتين بعد حوالي الفي عام . ويدعو هذا الوضع الى ايجاد الحلول المناسبة والتغلب على المشكل ، خاصة وان العلاقات الدولية قد تطورت في الاونة الاخيرة بشكل يستلزم معه وجود وسيلة تفاهم مشتركة . ومما ساعد على هذا التطور ازدياد وسائل المواصلات وتنوعها وارتفاع سرعتها ، وانخفاض اثمانها واجورها . فالمسافة التي كنا نقطعها على الجمل او الفرس بستة اشهر اصبحنا نقطعها بالطائرة بست ساعات فقط ، وصارت طائرات الكونكورد تعبر المحيط الاطلسي بثلاث ساعات . وسيسير اول قطار تحت بحر المانش الذي يفصل بين فرنسا وانكلترا بعد ست سنوات ، وستستغرق الرحلة بالقطار من بروكسل الى لندن 3 ساعات و 25 دقيقة فقط . وسيحقق هذا النفق ازديادا كبيرا في عدد المسافرين الذين يعبرون المانش ، اذ من المتوقع ان يتضاعف عددهم بين عامي 1980 و 1990 بحيث يقدر عدد الذين يمرون عبر النفق خلال سنة 1990 فقط بين 24 و 30 مليون مسافر وحوالي 4 ملايين سيارة . اضافة الى ما بين 75 و 98 مليون مسافر سيقطعون المانش جوا خلال تلك السنة (2) . منذ خمسين عاما نادرا ما كان الرجل يترك بلاده ويقصد بلادا اخرى للسياحة او التجارة ، وكان بإمكانه عند عودته ان يسطر حكايات سندبادية يقصها على اهله وجيرانه . اما اليوم فقد اصبح الرجل الذي لم يزر بلادا اخرى او الذي لا يخطط لرحلة الى الخارج نادر الوجود . فقد انتعشت السياحة في عصرنا انتعاشا لا مثيل له من قبل لدرجة ان عدد السياح الذين دخلوا اسبانيا وحدها عام 1970 بلغ اكثر من 22ر5 مليون .

وازدادت الاتصالات الهاتفية والبرقية بين ارجاء العالم . ولعل في تكاثر الشركات الخاصة بالمواصلات اللاسلكية والهاتفية واتساع عملياتها دليلا على اهمية الاتصالات بين اجزاء العالم المختلفة . ففي عام 1972 بلغت موازنة شركة التلفون والتلغراف العالمية (اي ، تي ، تي) ثمانية الاف وستمئة مليون دولار ، وهذا يفوق الدخل القومي لدول كثيرة من بينها البرتغال والكويت ، كما بلغ عدد موظفي هذه الشركة وعمالها 428ر000 منهم 200ر000 في اوربا ، وهذا العدد يفوق عدد سكان مدينة

كبيرة او دولة صغيرة . ولعب المذيع والتلفاز والتلستار دورا فعلا في تقريب اجزاء العالم بعضها من البعض الاخر .

ولقد تشابكت المصالح الدولية في هذا القرن كثيرا فتضخم نتيجة لذلك عدد المنظمات الدولية والاقليمية حتى بلغت اكثر من (1500) منظمة لها ما يقرب من 30 الف فرع محلي في ارجاء العالم المختلفة . وهذه المنظمات ولا ريب بحاجة الى وسيلة تفاهم مشتركة لتيسير اتصالاتها ، وعقد مؤتمراتها ، واتخاذ قراراتها .

اما التجارة الدولية فقد تطورت تطورا هائلا في هذا القرن ، واصبح من الخرافة القول بالاكتماء الذاتى ولم يعد بإمكان امة من الامم ان تعيش بمعزل عن المحيط الدولى ، بل اصبحت الصادرات والواردات شريان الحياة في كل دولة ، ففي خلال الثلاثين سنة الماضية تضاعفت قيمتها 15 مرة . وغدت المراسلات التجارية تفوق بكميتها المراسلات الودية كلها . وهذا يتطلب وجود لغة مشتركة يفهمها البائع والمشتري ويستخدمها المصدر والمستورد لتيسير المعاملات وانجازها .

ولا تقتصر اهمية اللغات المشتركة على السياحة والتجارة والتعاون الدولى فحسب بل تمتد ايضا الى البحث العلمى . فقد اصبح من المستحيل على العلماء ان يواصلوا ابحاثهم مالم يتقنوا عددا من اللغات الاجنبية ، حتى قال احدهم — « لقد اصبح من الواجب علينا ان نتمكن من قراءة عشرة او عشرين لغة اجنبية قبل ان نبدا باى بحث علمى ، او نحلم باية مساهمة حقيقية فى التطور التقني » (3) .

صحيح ان الترجمة تحقق بعض التفاهم المنشود ، ولكنها عملية بطيئة وغير دقيقة لا يمكن اتخاذها حلا ناجعا لمشكلة الاتصال الناجز في العصر الحاضر . ويكفى ان نذكر ان بناية الامم المتحدة في نيويورك تضم اكثر من 550 مترجما كانوا يتعاملون مع خمس لغات فقط ومع ذلك فهناك وثائق هامة ما زالت تنتظر دورها في الترجمة منذ اكثر من عشر سنوات . فالترجمة اذن ليست الحل المناسب لمشكلة التفاهم والاتصال

الدوليين . ونحن لا نتوقع ان يصطحب كل سائح مترجما معه . فما هو الحل البديل يا ترى ؟

يكاد يتفق الجميع على ان الحل لمشكلة التفاهم الدولي يمكن ان يبنى على ايجاد لغة عالمية مشتركة . ولكن المفكرين يختلفون في هوية تلك اللغة وطبيعتها . ويمكننا تقسيم مقترحاتهم على ثلاث مجموعات :

اولا — اختراع لغة اصطناعية تقوم بدور وسيلة اتصال مشتركة بين الشعوب .

ثانيا — تيسير احدى اللغات الطبيعية بحيث يستطيع الجميع تعلمها بجهد اقل ووقت اقصر .

ثالثا — اتخاذ لغة طبيعية او اكثر لغة عالمية وتعميم تدريسها في جميع انحاء المعمورة .

وسنعرض ذلك بايجاز .

انواع اللغات المشتركة

1 — اللغات الاصطناعية :

كانت مشكلة ايجاد لغة تفاهم مشتركة تشغل بال الفلاسفة والمفكرين منذ اوائل القرن السابع عشر الميلادي . وكان من بين الفلاسفة الذين اقترحوا ابتكار لغة فلسفية يفهمها الناس حيثما وجدوا الفيلسوف الانكليزي فرانسيس بيكون والفيلسوف الفرنسي ديكارت . وكانت اللغات الفلسفية المقترحة تقوم اما على اساس صوتية (بما في ذلك الموسيقى) او على رموز مرئية (بما في ذلك الرموز العددية) ، بحيث تصنف جميع الاشياء التي يحتاجها الانسان او يرغب في التحدث عنها طبقا لانشطام الصوتي او المرئي المقترح . ولكن صعوبة العمل بتلك المقترحات وحاجة تحقيقها الى جهد فكري كبير ادتا الى موت تلك المقترحات وعدم ظهور اية لغة فلسفية الى حيز الوجود (4). ولهذا ظهر اتجاه جديد يدعو الى وضع

لغة اصطناعية يسيرة في اصواتها ، سهلة في قواعدها ، محدودة في مفرداتها ، بحيث يستطيع جميع الناس تعلمها . وتسابق المهتمون باللغات والعلاقات الدولية الى وضع اللغات الاصطناعية التي اخذت تزداد باطراد . فبين عامي 1800 و 1850 ظهر اربع منها فقط ، وبين عامي 1850 و 1900 اضيفت اربعون لغة أخرى . واستمر ظهور هذه اللغات في القرن العشرين حتى بلغ عدد المشاريع اللغوية اليوم اكثر من خمسمائة مشروع (5) . ولكل واحدة من هذه اللغات الاصطناعية اسم مثل ارديانا ، اداميتيك ، اوربا ، باتسكريت ، سيرمو ، آو ، اسكا ، الخ . ولعل الاسبرنتو هي اكثر اللغات الاصطناعية شهرة وانتشارا .

وضع الاسبرنتو الدكتور زامنهوف البولندي ، ونشر اول كتاب عن اصولها سنة 1887 . وايدها اللغوي مكس مولر والمفكر تولستوى . وبعد الحرب العالمية الاولى حازت على تأييد عصبة الامم ، واتحاد البرق الدولي (1925) ، واتحاد الهاتف الدولي (1927) . ولكن نجم الاسبرنتو اخذ في الافول بعد الحرب العالمية الثانية اذ لم ترحب منظمة الامم المتحدة بها ، ومع ذلك فقد استأنف الاسبرانتيون نشاطهم حيث عقدوا مؤتمرهم السنوى الـ 35 في باريس وحضره 2500 مندوبا يمثلون 34 قطرا ، ولكنهم لم يدعوا في ذلك المؤتمر بأكثر من مليون ونصف المليون من الناس الذين يقال انهم قادرون على استعمال الاسبرنتو . وفتر الحماس لتعلم هذه اللغات الاصطناعية . والقى علم اللغة الحديث الضوء على طبيعة هذه اللغات ، فاصبح بإمكاننا الان ان نعلن بأن الاسبرنتو وغيرها من اللغات الاصطناعية لا يمكن ان تنجح كلفة تفاهم عالمية وذلك للأسباب الآتية :

(1) تعتمد معظم هذه اللغات الاصطناعية على اللاتينية او اللغات الاوربية وتتخذ منها مصدرا اساسيا لمعظم مفرداتها ، وقواعدها المبسطة ، واصواتها الميسرة ، ولهذا فان السهولة المزعومة لهذه اللغات تقتصر على ناطقي اللغات الاوربية ، اما الناطقون ببقية اللغات — وهم يكونون اغلبية سكان المعمورة — فلا يجدون فيها تلك السهولة المزعومة لانها تختلف عن اللغات التي اعتادوا على نطقها واستعمالها .

(2) تفترض اللغات الاصطناعية ان الاصوات التى تستعملها تنطق بالكيفية ذاتها فى جميع انحاء العالم . فى حين ان علم الفونولوجيا الحديث يدلنا على ان اصواتها تتأثر باصوات اللغة الام لمن يستعملها . فلو اخذنا الحرف « ر » الفينا ان نطقه يختلف طبقا لهوية المتكلم . فالفرنسي والاسباني والبريطاني والامريكي ينطقون الـ (ر) بصور متباينة . كما يتغير نطقه عندما يتصل بحرفين كما فى حالة (birdo) التى استعملتها الاسبرنتو اصلا من الانكليزية لتدل على (الطير) .

(3) يدعى انصار اللغات الاصطناعية ان الكثير من سوء الفهم فى العلاقات الدولية يحدث نتيجة لعدم دقة الترجمة من لغة الى اخرى ، وهم يعنون ضمنا ان اللغات الاصطناعية ستجنبنا الصعوبات التى تنتج من الترجمة . ولكن الا تثير الترجمة من اللغات الطبيعية الى اللغات الاصطناعية او بالعكس صعوبات مماثلة ؟

(4) تعتمد اللغات الاصطناعية على ملامح الكلام الاولى او ما نسميه فى علم اللغة بالفونيمات القطعية (اى الاصوات الساكنة والاصوات اللينة) ، وتغفل الفونيمات غير القطعية مثل النبر والتنغيم والفواصل اللفظية . ولكننا اصبحنا اليوم ، ندرك ان اختلال الفونيمات غير القطعية قد يؤدى الى تغير المعنى وحجبه عن السامع تماما . فعبارة (محمد نال الجائزة) لها معنى مغاير تماما لعبارة (محمد نال الجائزة ؟) او عبارة (محمد نال الجائزة !) فالاولى خبرية والثانية استفهامية والثالثة تعجبية على الرغم من ان هذه العبارات الثلاث تستخدم الفونيمات القطعية ذاتها . وكذلك يتغير معنى عبارة (قال سليمان الحكيم محمد يساعدكم) باختلاف ملامح الكلام الثانوية (النبر والتنغيم والفواصل اللفظية) ، فقد تعنى :

(قال سليمان الحكيم ، محمد يساعدكم)

كما قد تعنى —

(قال سليمان ، الحكيم محمد يساعدكم) .

وتدل ابحاث علم اللغة الحديث على ان ملامح الكلام الثانوية تختلف من لغة الى اخرى ، وليست هي بالقضايا الغريزية لجميع البشر . ولهذا فان الملامح الثانوية للغات الاصطناعية ستتغير من منطقة الى اخرى ، وسيواجه الناطقون بها صعوبة فهم بعضهم بعضا . وهكذا قد تستطيع اللغات الاصطناعية ان تؤدي مهمتها بوصفها وسيلة اتصال مشتركة في المراسلات فقط ، اما اذا اريد لها ان تكون اداة تفاهم محكية ايضا ، فيجب عليها ان تقنن القواعد الخاصة بجميع ملامح الكلام الثانوية ، وفي هذه الحالة تبلغ صعوبتها صعوبة اللغات الطبيعية ، وتنتفى عنها صفة السهولة التي تزعمها .

(5) ومن ناحية اخرى تشير الابحاث المتعلقة بما يسمى بـ « نظرية الاتصال » Communication Theory ان التكرار اللفظي والمعنوي او « الحشو » كما يسميه البلاغيون ، يؤثر في عملية الاتصال والتفاهم ويسهم فيها . فاذا الغينا الحشو من اي نظام اتصال فاننا قد نحقق اقصى درجات الاتقان والسرعة في الاداء من الناحية النظرية ، ولكن هذا النظام يسمى عسيرا في التطبيق العملي ، لان ضياع احد عناصر الرسالة قد يؤدي الى القضاء على الرسالة برمتها . ولنضرب مثلا على ذلك في العبارة الآتية :

« ان ثلاثة مهندسين جزائريين قد وصلوا امس . »

ففي هذه العبارة توجد عناصر مكررة يمكن الاستغناء عنها بغير الاساءة الى المعنى من الناحية النظرية . فما دما قد ذكرنا العدد « ثلاثة » فلا حاجة الى اضافة علامة الجمع (ين) الى كلمتي (مهندس) و (جزائري) او اضافة علامة الجمع (وا) الى الفعل (وصل) لانثبا نستطيع الاستغناء عن علامات الجمع هذه ما دامت كلمة (ثلاثة) تدل على الجمع . ولكن اللغات الطبيعية تستخدم التكرار اللفظي والمعنوي للتأكد من اقبال الرسالة سليمة الى الطرف الآخر .

وما دامت اللغات الاصطناعية تتحاشى الحشو توخيا للسهولة والبساطة فان سلامة الاتصال قد تبلغ درجة الخطر (6) . وهكذا يصعب استخدام اللغات الاصطناعية في الحياة العملية .

(6) ان اللغات الاصطناعية تخلو من التشويق او « عنصر الاثارة » ، كما يسميه علماء النفس التربوي . لان هذه اللغات الاصطناعية لا تمثل حضارة معينة ولم تستخدم كأداة تعبير في ادب معين من الاداب العالمية . وان توخيها للسهولة واقتصارها على عدد محدود من المفردات لا يؤهلها للتعبير الادبي والتنوع الاسلوبي . ونحن نعرف ان الكثير من الناس يقبلون على تعلم اللغات الاجنبية رغبة منهم في الاستمتاع بقراءة الاداب الاجنبية بلغاتها الاصلية والاطلاع على الحضارات الانسانية الكبرى .

2 - اللغات الميسرة او شبه الاصطناعية :

في عام 1903 وفي غمرة البحث عن وسيلة تفاهم عالمية مشتركة برزت حركة تدعو الى احساء اللغة اللاتينية وتيسيرها عن طريق التخلص من تصرفاتها النحوية المعقدة . وفي عام 1930 اتم المفكران البريطانيان اوكدن وريتشاردز Ogden et Richards مشروعهما الموسوم بـ « الانكليزية الاساسية » في محاولة لتقديم لغة مشتركة يسهل على الناس تعلمها . وقد وصف ريتشاردز مشروعه بأنه لغة فلسفية مقتبسة من الانكليزية (7) . وتقتصر مفردات هذه اللغة على 850 كلمة من بينها 18 فعلا فقط ، وكان المؤلفان يأملان بان تستطيع هذه المفردات المحدودة التعبير عن اوسع المعانى .

ان الملاحظات التى اوردناها عن اللغات الاصطناعية من حيث عدم قدرتها على القيام بدور وسيلة التفاهم المشتركة المتوخاة تنطبق ايضا على لغة اوكدن وريتشاردز الميسرة . على ذلك فان الـ 850 كلمة التى وزعت فى مشروع (الانكليزية الاساسية) لا تكفى لاجراء الاتصالات المناسبة . ولهذا فان المؤلفين سرعان ما اضافا ملحقا بمئات المفردات التى وصفوها بأنها كلمات عالمية لا يحتاج تعلمها الى جهد مطلقا مثل السكاير والبيرة والراديو وغيرها . ولكن ظهر فيما بعد ان هذه المفردات « العالمية » ليست عالمية فى حقيقة الامر ، فهى وان كانت تتشابه تهجئتها فى بعض اللغات التى تكتب بحروف لاتينية ، فانها تختلف فى طريقة تلفظها من لغة الى اخرى ، اضافة الى ان لها فى اللغات الاخرى مرادفات تتغاير تماما فى التهجئة والنطق .

ومن ناحية أخرى حاول اوكدن وريتشاردز تجنب المفردات الصعبة عن طريق استعمال مقابلات تفسيرية تستخدم كلمات بسيطة تقع ضمن الـ 850 كلمة التي اختارها . فبدلاً من استعمال كلمة (بداية) استعمالاً عبارة (آلة ثقيلة تتحرك على عجلات ولها بندقية كبيرة) ، وبدلاً من كلمة (enter) استعمالاً (Come in) واستعاضاً عن (Selfish) بعبارة (without thought of others) وعن (to tolerate a thing) بعبارة (to let a thing go without protest) . ويلاحظ ان العبارات التي اختارها هي اصعب بكثير من المفردات « الصعبة » التي حاولا تجنبها . وعندى ان هذه الصعوبة ناتجة عن اغفالهما للفرق بين المعنى المعجمي والمعنى البنيوي . فالكلمات المستعملة في عبارتهما المقترحة هي سهلة في حد ذاتها ولكن المعنى الكلى الذى ينتج من دخول تلك الكلمات في علاقات بنيوية فيما بينها هو اصعب بكثير مما توخيا . ونحن نعرف ان السهولة في بعض اجزاء نظام الاتصال ليست سهولة حقيقة اذا كانت تؤدي الى تعقيدات او صعوبات في اجزاء اخرى من ذلك النظام .

3 - اللغات الطبيعية :

اذن فاللغات الاصطناعية واللغات المبسرة ليست مؤهلة للقيام بدور لغة التفاهم المشتركة للأسباب التي ذكرنا . ولا مذدوحة من الاعتماد على اللغات الطبيعية . وبحثنا هذا محاولة لتحديد العوامل التي تساعد على انتشار لغة من اللغات في العالم ثم الإشارة الى اللغات الكبرى التي تحتل الصدارة في عملية الاتصال الدولي . فلقد وجدنا ان الترتيب الذى اقترحه معظم الذين تطرقوا للموضوع لا ينسجم وواقع الحال ، فقد عمل هؤلاء على ترتيب اللغات من حيث اهميتها على ضوء عدد الناطقين بها ، وهكذا وضعوا اللغة الصينية على راس القائمة التي تظهر فيها ايضا اليابانية وبعض لغات شبه القارة الهندية . ومن هنا يتبين خطأ المعيار الكمي الذى اتخذهوا اساساً لترتيبهم لان هذه اللغات آتفة الذكر لا يمكن وصفها بالعالمية . اما دراستنا هذه فتقوم على استعراض تاريخ اللغات العالمية قديماً وحديثاً واستنباط الاسس التي قام عليها انتشارها . ولقد وجدنا

ان اللغات التى تبوات عرش اللغة العالمية حتى اوائل هذا القرن هى
اربعة :

- (1) الاغريقية التى انتشرت ابان عظمة اليونان .
- (2) اللاتينية التى غدت لغة اوربا المشتركة ابان العصور الوسطى .
- (3) العربية التى اصبحت لغة عالمية ايام ازدهار الحضارة الاسلامية
- (4) الفرنسية التى صارت لغة عالمية فى القرنين الثامن عشر
والتاسع عشر الميلاديين .

اما فى القرن الحالى فهناك عدد من اللغات الكبرى التى حققت
انتشارا واسعا من بينها الانكليزية والاسبانية والفرنسية والعربية
والروسية والالمانية . ويمكن اجمال العوامل التى ساعدت على انتشار
هذه اللغات فيما يأتى :

عوامل انتشار اللغة

(1) العوامل التاريخية : —

نعنى بالعوامل التاريخية هنا الفتوحات والغزو والاستيطان
والاستعمار التى يمكن اعتبارها عوامل مباشرة فى نشر اللغة فى بادىء
الامر . ولقد حققت اللغات الكبرى قديما وحديثا انتشارها من حيث
الاساس بهذه الطرائق . فعندما دحر الاسكندر الاكبر الغرب والشرق
حمل مع معدات جيشه عناصر الحضارة الاغريقية واصبحت اللغة
الاغريقية وسيلة تفاهم مشتركة ، وبها دون العهد الجديد وتعلمها المفكرون
اجمع ، فحتى قادة الفكر الرومانى من امثال شيشرو وقيصر وسينيكا
كانوا يجيدونها اضافة الى لغتهم القومية (8) . وارتبط انتشار اللغة العربية
بالفتوحات الاسلامية ، فقد حمل المجاهدون معهم قرآنا عربيا ودعوا
الشعوب التى اعتنقت الاسلام الى تعلمه والسير على نهجه . وتمتد
جذور انتشار اللغة الفرنسية الى ارتفاع قوة فرنسا العسكرية المتمثلة

في الغزو النورماندي لانكلترا ، وكذلك الى فتوحات نابليون فيما بعد ، والى عمليات الاستعمار والاستيطان التي مارستها فرنسا في العالم الجديد وافريقيا وآسيا . ويعود انتشار الاسبانية في امريكا اللاتينية الى حركة الاستكشافات الجغرافية التي قادتها البرتغال واسبانيا والتشي رافقتها او تبعتها عمليات غزو واستيطان . وحققت الانكليزية انتشارها الواسع في امريكا الشمالية واستراليا والهند وافريقيا وغيرها من البقاع عن طريق الاستيطان والاستعمار ايضا .

(2) العوامل السكانية :

ان عدد الناطقين بلغة من اللغات ذو علاقة وثقى ولا ريب بتطورها وانتشارها ، فنحن لا نتوقع من لغة لا يتجاوز عدد ابنائها البضعة آلاف ان تسود العالم . واذا امعنا النظر فى اللغات التي حققت انتشارا واسعا الفينا انها الى جانب مقومات قوتها الاخرى تمتاز بكثرة ابنائها الاصليين وان ارتفاع نجمها يتناسب طرديا مع الزيادة فى عددهم . ولعل المقارنة بين الانكليزية والفرنسية من حيث عدد الناطقين بهما توضح التقدم الذى احرزته كل منهما فى فترات متباعدة من التاريخ . فالزيادة فى عدد السكان تتفق والانتشار الذي تمتعت به كل منهما .

عدد الناطقين بالمليون		حوالى سنة
الانكليزية	الفرنسية	
15	8	1100
5	12	1500
9	20	1700
15	28	1800
123	52	1900
250	80	1950
3000	90	1970

ولكن كثرة الناطقين باللغة لا تضمن انتشارها ما لم تتوفر بقية العوامل الاخرى التي سنذكرها . فضخامة عدد السكان في كل من الصين واليابان لم يحقق انتشار لغتيهما . ولقد دأب كثير من الذين تطرقوا الى اللغات العالمية على اتخاذ المعيار الكمي اساسا لترتيب اهميتها ، وهذا خطأ فادح ولا شك .

ولا تقتصر العوامل السكانية في نظرنا على عدد الناطقين باللغة فحسب بل تمتد ايضا الى حركتهم وتنقلهم في العالم وقدرتهم على ذلك . فانزواء السكان في ديارهم يقلل من فرص انتشار لغتهم وحضارتهم والعكس صحيح . وحركة السكان وتنقلهم لا يعنيان بالضرورة انها نتيجة ميل طبيعي لصيق بهم او جزء من تقاليدهم ، بل قد يكون للظروف الجغرافية الطبيعية والعوامل السياسية الداخلية والخارجية اثر في ذلك . فلو قارنا بين الصينيين والامريكيين في اواسط هذا القرن لوجدنا ان الظروف المعيشية والسياسية داخلية وخارجية لم تمكن الصينيين من السياحة والسفر الى الخارج ، بينما كانت تلك الظروف مواتية للامريكيين . والهجرة عامل آخر من العوامل السكانية التي تؤثر تأثيرا بالغا في انتشار اللغة . فالهجرات السامية من شبه جزيرة العرب قبل الاسلام الى منطقة الهلال الخصيب (الشام والعراق) يسرت كثيرا انتشار اللغة العربية هناك بعد الفتوحات الاسلامية وساعدت على بقائها . فسكان تلك المناطق وجدوا من السهولة بمكان تعلم العربية لغة الدين الجديد ولغة الدولة بسبب قربها من لغاتهم الاصلية ، لان العربية تنتمي الى العائلة اللغوية التي انجبت تلك اللغات . وهذا مما يفسر لنا — في رأي — سبب انتشار العربية في الهلال الخصيب في حين انها لم تحقق الانتشار الواسع ذاته ولم تستطع البقاء في مناطق اخرى كإيران على الرغم من رسوخ الاسلام هناك (9) .

(3) العوامل الجغرافية :

لا تركز اهمية اللغة بوصفها وسيلة تفاهم عالمية مشتركة على عدد الناطقين بها فحسب بل على المكان الذي يقطنون فيه

كذلك . ويمكن النظر الى المكان هذا من زاويتين ، اولا هما توزيعه الجغرافي والثانية موقعه الاستراتيجي . ونعنى بالتوزيع الجغرافي تواجد الناطقين في اماكن متعددة في الكرة الارضية .

ولعل مقارنة اخرى بين الصينية والانكليزية تساعد على توضيح هذه المسألة ايضا . فعلى الرغم من ان عدد نفوس الناطقين بالصينية يقرب من ثلاثة اضعاف الناطقين بالانكليزية ، فان الصينيين محصورون في زاوية واحدة من العالم في حين ان الناطقين بالانكليزية موزعون في جميع ارجاء المعمورة — في اوربا (المملكة المتحدة) ، وفي امريكا (الولايات المتحدة وكندا) ، وفي افريقيا (اتحاد جنوب افريقيا وروديسيا) ، وفي استراليا . والتوزيع الجغرافي على هذا النحو يساعد على اتصال ابناء اللغة بغيرهم من الشعوب . ومن ناحية اخرى فان لاستراتيجية الموقع اثرا في ازدياد اهمية اللغة . فالموقع الاستراتيجي الذي يحتله العالم العربي بوصفه ملتقى القارات الثلاث اوربا واسيا وافريقيا ، والمهيمن على خطوط المواصلات الجوية ، وطرق التجارة البحرية ، يعد من العوامل التي تساعد على عالمية اللغة العربية . ولعل الموقع الاستراتيجي الذي تحتله المانيا والنمسا في اوربا يلقي بعض الضوء على اهتمام الاوربيين باللغة الالمانية . فهاتان الدولتان تقعان في وسط القارة الاوربية ولهما حدود مشتركة مع العديد من بلدانها .

(4) العوامل الاقتصادية :

لقد لوحظ ان للعلاقات الاقتصادية الدولية اثرا في تشجيع استعمال لغات معينة واتخاذها وسائل تفاهم مشتركة . وتشتمل العلاقات الاقتصادية الدولية على الهجرة الدولية للسكان (اى انتقال الاشخاص عبر الحدود السياسية من بلد لآخر بقصد العمل او السياحة) ، والتجارة الخارجية (اى انتقال السلع والخدمات من اراضى دولة الى اراضى دولة اخرى) ، وحركة الرساميل الدولية (اى انتقال رؤوس الاموال عبر الحدود القومية) (10) . ومن نافلة القول ان اللغة تنتقل مع الاشخاص والسلع والخدمات ورؤوس الاموال . ولكن استعمال الآخرين للغة يتوقف الى

حد بعيد على القوة الاقتصادية التي يتمتع بها ابناءؤها ، وهذا يفسر لنا مثلا سبب اقبال ابناء الدول النامية على تعلم لغة اوربية ما للتفاهم مع ابناء الجالية الاوربية المقيمة في تلك الدولة النامية ، في وقت لا يعمد الاوربيون الى تعلم لغات العمال الاجانب الذين يعملون في المصانع الاوربية مهما كثر عددهم . فالجالية الاوربية في الدولة النامية غالبا ما تتمتع بقوة اقتصادية ، كان تدير شركة تجارية او انشائية ، وهي تستخدم العمال الذين يجيدون لغتها ، تلك اللغة التي تستعملها الشركة في جميع مراسلاتها مع مقرها الرئيسى في اوربا . اما العمال الذين يذهبون من الدول النامية الى اوربا للعمل في مصانعها فهم مضطرون ايضا الى تعلم لغة رب العمل والبلاد الذي يعيشون فيه .

ونشاط الامة التجارى يساعد على ان تكون لغتها لغة التعامل المشتركة ، يستعملها بحارتها الذين ينقلون السلع الى موانئ العالم ، ويستعملها مداولوها الذين يشرفون على عمليات التسويق فى مراسلاتهم ، وكذلك يستعملها التجار الاجانب الذين يرغبون فى استيراد تلك السلع . ويعزو روث تحول العالم من اللاتينية والفرنسية الى الانكليزية فى هذا القرن الى التغير الذى طرا على اتجاهات العصر وروحه . ففي الوقت الذى كان العالم يهتم فيه بالفكر والفن والدين والفلسفة والادب كانت اللاتينية ثم الفرنسية هما لغتا التفاهم المشترك ، اما فى العصر الحاضر فقد انصب اهتمام العالم على التكنولوجيا والتجارة ، والانكليز والامريكان هم فى مقدمة شعوب العالم فى هذين المضمارين ، فلا غرو ان تحتل لغتهما الصدارة بين اللغات العالمية (11) .

وتشتمل العوامل الاقتصادية كذلك على المساعدات الفنية والمعونات الاقتصادية التى تقدمها الامة للدول الاخرى . ولنضرب مثلا على ذلك فى المصارف (الابناك او البنوك) العربية التى تقدم مساعدات مالية ومعونات اقتصادية للدول الاسلامية والافريقية مثل البنك العربى للمساعدات الافريقية ومقره القاهرة ، والبنك الاسلامى ومقره جدة . وصندوق التنمية الكويتى (الذى لم يعد مقتصرًا على تقديم القروض للدول العربية فحسب بل اصبح يقدم مساعداته البالغة ثلاثة آلاف مليون

دولار لغيرها من الدول ايضا) ومقره الكويت . فاذا كانت هذه المصارف تستخدم اللغة العربية في كافة معاملاتها فلا يبقى للدول التي تروم الاستفادة من خدماتها الا ان تستخدم العربية ايضا في مراسلاتها معها مما يشجع تلك الدول على تعليم العربية في مدارسها لاعداد الموظفين القادرين على استخدامها .

(5) العوامل السياسية :

ان نفوذ الامة السياسى فى الاوساط الدولية والقوة العسكرية التى تتمتع بها تجعلان بقية الدول تخطب ودها املا فى الحصول على مساندتها المعنوية ومساعدتها المادية . ويزودنا التاريخ بأمثلة لا حصر لها تعزز هذا الراى . فاللغة الفرنسية حققت اولى انتصاراتها حينما تجلت قوة فرنسا سياسيا وعسكريا فى الغزو النورماندى لانكلترا عام 1066 ، فانتشرت الفرنسية فى انكلترا واصبحت اللغة الرسمية . وفى القرن العشرين ادى سقوط فرنسا سياسيا وعسكريا فى فيتنام بعد معركة ديان بيان فو الشهيرة التى وقعت فى مارس عام 1954 الى انحسار اللغة الفرنسية من تلك الديار حيث اخذت الانكليزية تحل محلها بتعاظم النفوذ الامريكى هناك . ولعل التقلبات التى شهدتها مكانة اللغة الالمانية مثل آخر على ما لنفوذ الامة السياسى من اثر فعال فى نشر لسانها . فعندما تصاعدت اهمية المانيا ابان الحربين العالميتين فى هذا القرن حققت لغتها انتصارات ملحوظة ولكنها سرعان ما فقدت مواقعها اللغوية كلما خسرت الحرب .

وقد تضطر بعض الدول الى اختيار احدى اللغات العالمية لتكون لغة اتصال داخلى وذلك لعدم وجود لغة مشتركة بين السكان . ففى نيجريا مثلا توجد ثلاث لغات قومية رئيسية حسب المناطق او القبائل وهى الهوسا واليورتا والاكبو ، فأتخذ من الانكليزية لغة مشتركة . وتم اختيار الانكليزية بسبب النفوذ السياسى الذى تتمتع به بريطانيا فى تلك البلاد . (12) واحيانا توجد لغتان رئيسيتان فى بلد ما ، ولكن المنافسة بينهما تؤدى الى اتخاذ لغة خارجية لغة رسمية كحل وسط . فالتنافس الحاد بين

التاميلية والسنغالية في سيلان سيؤدي ولا شك الى استمرار اللغة الانكليزية هناك بوصفها لغة مشتركة لبعض الوقت . وفي حالات اخرى نجد منافسة شديدة بين عدد من اللغات الخارجية لتحظى بمكانة اللغة الرسمية في بلاد من البلدان . ففي الصومال (حيث تتكلم الاغلبية اللغة الصومالية وتتكلم الاقليات الرحنونية والشمينية) كانت المنافسة على اشدها بين الانكليزية والعربية والايطالية . ففي شمال البلاد تستخدم العربية لغة للتعليم في المدارس الابتدائية فقط ، أما في المدارس المتوسطة والثانوية فان الانكليزية هي لغة التعليم وما العربية الا مجرد موضوع في المنهج . وفي جنوب البلاد تستعمل الايطالية لغة للتعليم في الصفوف المتقدمة من المدارس الابتدائية وفي المدارس المتوسطة . اما في المرحلة الثانوية فيختلف الحال من مدرسة الى اخرى ، فبعضها يستعمل الانكليزية يبقى على الايطالية وقسم ثالث يستبدلها بالعربية . وما ذكرناه عن لغة التعليم يشبه الى حد كبير ما جرى في القضاء والمؤسسات الرسمية الاخرى . فعندما تقع حادثة سير مثلا يتم الاستجواب بالصومالية اما التقرير فيكتب بالانكليزية في الشمال وبالايطالية في الجنوب (13) .

وقد بذلت الحكومة البريطانية مساعي سياسية متواصلة في العقد الاخير . وفي مطلع العقد الحالي لاقتناع جمهورية الصومال باتخاذ الانكليزية لغة للتعليم في مختلف المراحل الدراسية وكافة المناطق . وانتدبت الاستاذ برايد Pride احد المتخصصين في اللسانيات (علم اللغة) لدراسة الوضع اللغوي في الصومال واعداد تقرير عنه بغية حمل حكومة الصومال على اعادة النظر في السياسة اللغوية المتبعة في النظام التربوي . وقد لاحظ برايد ان العربية تستمد مكانتها من الاسلام الذي يدين به الصوماليون ، وتعتمد الايطالية على كونها لغة المعاملات التجارية والبيع والشراء ، اما الانكليزية فانها تستمد اهميتها من حيث كونها اللغة التي يستخدمها غالبا موظفو الامم المتحدة واعضاء الوفود في المؤتمرات . كما لاحظ ان هناك تنافسا حادا ومؤلما — على حد قوله — بين الانكليزية والعربية فيما يختص بتطوير نظام كتابي للغة الصومالية ، فهناك من يرشح الخط العربي وهناك من يدعم الحروف اللاتينية للاضطلاع بهذه

المهمة . ولا شك ان الاستاذ برايد لم يتوان عن نصيح الحكومة الصومالية بتفضيل الانكليزية والخط اللاتيني وتعميمها في البلاد . وفي حين اننا نتفق مع الاستاذ برايد على ضرورة اعادة النظر في السياسة التربوية، ونتفق معه كذلك على المقدمات التي اعتمدها ، فاننا نختلف معه في النتائج التي توصل اليها ، لانها ارتكزت الى العامل السياسي فقط واغفلت رغبة السكان انفسهم . فالانكليزية والايطالية فرضتهما صنوف من الاستعمار والاستغلال الاوربيين لهذا البلد الافريقي ، اما العربية فتمثل تمسك المواطنين بدينهم واعتزازهم بماضيهم (اذ ان الصوماليين هم احفاد العرب الذين هاجروا الى تلك الارض الافريقية في القرن السابع الميلادي وما بعده) (14) ، ورغبتهم في تطوير التعاون بينهم وبين ابناء البلاد العربية والاسلامية . ولعل ما يؤيد قولنا هذا هو ما تبلورت عنه ارادة الصوماليين في عمل سياسي حاسم اذ انضمت جمهورية الصومال مؤخرا الى جامعة الدول العربية ، وهذا سيضع حدا في المستقبل القريب للتنافس اللغوي الدائر هناك ويؤيّد العربية مكانتها الطبيعية .

ومن ناحية اخرى فان العامل السياسي يظهر مفعوله جليا في عملية اختيار لغة مشتركة لمؤتمر من المؤتمرات الدولية او منظمة من المنظمات العالمية او الاقليمية . فان نفوذ الدولة السياسي في ذلك المؤتمر او تلك المنظمة قد يرجح كفة لغتها ، كما ان اللغة قد تفضل على غيرها اذا ازداد عدد الدول الناطقة بها والمشاركة فيهما . فقبل دخول بريطانيا في السوق الاوربية المشتركة كانت الفرنسية هي اللغة الرسمية فيها لما لفرنسا من دور فعال في انشاء السوق وتطويرها ، ولكن دخول بريطانيا في السوق فتح صفحة جديدة من التنافس اللغوي . واختيار منظمة الامم المتحدة الاسبانية والعربية لغات رسمية فيها ناتج عن عدد الاعضاء الناطقين بهاتين اللغتين . فهناك عشرون دولة تنطق بالاسبانية ومثلها بالعربية . ويظهر هذا العامل واضحا في اختيار العربية لغة رسمية في منظمة الوحدة الافريقية ومؤتمرات عدم الانحياز ورابطة العالم الاسلامي .

وكما ان نفوذ الدولة السياسي في العالم يؤدي الى انتشار لغتها ، فان انتشار لغة الدولة يؤدي الى زيادة نفوذها السياسي . فاللغة تكون

بمثابة حصان طروادة تعبر بواسطته الحدود القومية المحصنة . ولعل هذا ما عناه الرئيس الفرنسى الراحل جورج بومبيدو حين وصف اللغة الانكليزية بأنها « لغة امريكا فى نظر العالم اجمع » . فقد كان يشير الى ان استخدام الانكليزية فى المنظمات الاوربية سيسهل على امريكا التدخل فى شؤونها فى حين تسعى فرنسا الى خلق اوربا مستقلة عن الولايات المتحدة الامريكية .

وما قيل عن السياسة واللغة ينطبق ايضا على الاقتصاد واللغة . فانتشار لغة الدولة عامل يساعد على ترويج تجارتها وتسويق سلعها . وفى هذا يقول موريس ادلمان — « ان الحكومة الفرنسية لا يهملها ان تقرا « السيد » فى تشاد بقدر ما يهملها ان يتعلم مهندسو المستقبل فى افريقيا السوداء من الكتب الفرنسية كيف يقودون سيارة او ماكينة فرنسية ثم يشترونها » (16) .

(6) العوامل العقائدية :

لعل العوامل العقائدية من اقوى عوامل انتشار اللغة . ونعنى بالعوامل العقائدية هنا ان تكون اللغة لغة « رسمية » لعقيدة دينية او عقيدة سياسية ، اى ان جل ما كتب عن تلك العقيدة دون بهذه اللغة . ولهذا يقبل معتنقوها على تعلم هذه اللغة للالمام باصول عقيدتهم . كما ان اللغة فى هذه الحالة تكون رابطة اخرى بين المؤمنين بتلك العقيدة .

ان اكثر من ستمئة مليون مسلم فى العالم ، ممن ينتمون الى قوميات متعددة وينطقون بالسنة متباينة ، يؤدون صلواتهم الخمس يوميا باللغة العربية التى انزل بها القرآن الكريم . وبذلك اصبحت العربية لغة مشتركة تجمع شمل المسلمين اضافة الى الايمان الذى وحد بين قلوبهم . ولهذا السبب حرم الكثير من فقهاء المسلمين ترجمة القرآن الكريم الى اللغات الاخرى ، لا لانه انزل نصا باللسان العربى فحسب ، بل لانهم يرمون من وراء ذلك حث المسلمين على تعلم اللغة العربية لتكون لهم لغة مشتركة تزيد من اواصر الاخوة بينهم ، وتيسر تعاونهم فى شتى المجالات . ولقد ادركت ذلك المغزى حكومة الباكستان ، اذ اعلن مولانا كوثر نيازى ،

الوزير الاتحادي للاعلام والاذاعة والحج والاعوقاف ، فى الخامس عشر من شباط 1974 ان فروع المركز الوطنى الباكستانى فى ارجاء البلاد ستفتح صفوفها لتعليم اللغة العربية ابتداء من اول اذار . وقال ان بعض هذه الصفوف ستكون مسائية لتوفر فرصة تعلم العربية للاهالى الذين يعملون نهارا . ولقد اوضح الهدف من افتتاح هذه الصفوف بقوله « انه ينسجم وسياسة الحكومة التى ترى فى العربية — لغة الرسول محمد (ص) — عاملا مساعدا على توثيق علاقات الباكستان بالدول الاسلامية » (17) .

ومن الامثلة على انتشار لغة ما لانها تمثل عقيدة سياسية اقبال كثير من الشيوعيين فى العالم على تعلم اللغة الروسية .

(7) العوامل الحضارية :

يرى الدكتور لوى دولو فى كتابه « العلاقات الثقافية الدولية » ان اللغة عامل رئيسى فى العلاقات الحضارية ، فالتوسع الثقافى هو توسع لغوى قبل كل شىء . ويؤكد ان الشعاع الفنى والموسيقى والعلمى لا ينتقل الا بواسطة الاثير اللغوى . ويخلص من ذلك الى القول ان معرفة اللغة الاجنبية تسمح بالتأثر الحضارى والثقافى (18) . ولكننا نود هنا ان نمسك بالحبل من نهايته الاخرى ونفترض ان الازدهار الحضارى هو الذى يؤدى الى التوسع اللغوى . فاذا ازدادت معطيات الامة الحضارية ونمت اقبلت الامم الاخرى على تعلم لغتها للانتفاع من تلك المعطيات ونقلها . وما الاقبال على تعلم لغات اجنبية دون غيرها الا مفاضلة ضمنية بين الحضارات الكبرى .

وللنمو الحضارى مظاهر كثيرة تقرر مكانة اللغة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

(ا) عدد الكتب التى تدون سنويا باللغة وعدد ما يصدر منها الى الخارج :— فنمو حركة التأليف والنشر وما يرافقها من توزيع واسع للكتاب مقياس لا يخطئ فى تقدم الامة الحضارى ورقيا الفكرى والثقافى ، كما انه فى الوقت ذاته مقياس لاهمية اللغة التى يتم بها التأليف ومكانتها

فى العالم . فعندما تحظى لغة ما بانتشار واسع فى العالم يتجه الكثيرون من غير ابنائها الى نشر ابحاثهم بها ، لا لان بعضهم تلقى تعليمه بتلك اللغة فحسب ، بل لان معظمهم يرمى من وراء ذلك الى تحقيق مكاسب معنوية ومادية عن طريق انتشار مؤلفاتهم ورواجها . والجدول الآتى يبين لنا عدد الكتب التى دونت باللغات الكبرى خلال عام 1970 :

عدد الكتب	اللغة
130,955 +	الانكليزية
74,197	الروسية
61,344	الالمانية
28,440	الفرنسية
25,899	الاسبانية
3,719	العربية

اللغات التى دونت بها الكتب سنة 1970

+ من بينها 30,933 رسالة جامعية فى الولايات المتحدة الامريكية

(ب) عدد الكتب التى تترجم منها واليها :- والترجمة عامل آخر من عوامل عالمية اللغة . اذ ان الامم تقبل على ترجمة النتاج الفكرى والحضارى الذى ينشر باللغة العالمية . ومن ناحية اخرى فان اللغة العالمية تسعى الى تحقيق ما يمكن تسميته بالاكفاء الذاتى ، اذ يحاول ابنائها ترجمة خير ما ينشر فى اللغات الاخرى اليها فى الحال . وهذا يعنى ان من يستعمل تلك اللغة يستطيع بسهولة الاطلاع على ما ينشر باللغات الاخرى من غير حاجة الى معرفتها . وقد لعبت الترجمة من اقدم العصور دورا بارزا فى الثراء الحضارى والتطور العلمى . ويرينا الجدول الآتى الانتاج السنوى للكتب المترجمة حوالى عام 1969 :

عدد الكتب المترجمة	القطر
3851ر	الاتحاد السوفياتى
3541ر	المانيا
2733ر	اسبانيا
2055ر	الولايات المتحدة
801	بريطانيا
227	البلاد العربية
38164ر	الانتاج العالمى

انتاج الكتب المترجمة عام 1969

(ج) عدد الصحف والمجلات التى تصدر بها — والصحافة مظهر آخر من مظاهر التطور الحضارى ومقياس لمكانة اللغة . فانتعاش الصحافة يؤدى الى ارتفاع اهمية اللغة ونشرها . وغالباً ما تحظى الصحف والمجلات الممتازة بانتشار على نطاق عالمى ، وقد تصدر بعض الصحف والمجلات طبعات محلية واخرى عالمية لكل عدد من اعدادها . والجدول الآتى يبين لنا عدد الصحف فى الاقطار الكبرى وعدد النسخ المسحوبة من كل صحيفة :

النسخ المسحوبة بالالف	عدد الصحف	القطر
62108ر	1773ر	الولايات المتحدة
27309ر	1113ر	المانيا
81633ر	639	الاتحاد السوفيتى
26700ر	106	بريطانيا
11956ر	106	فرنسا
3450ر	116	اسبانيا
1326ر	81	البلاد العربية

الصحافة حوالى عام 1970

(د) عدد الافلام الناطقة بتلك اللغة وما يصدر منها الى الخارج : -
والسينما من الوسائل الفعالة فى نشر اللغة فى العالم . والافلام الجيدة
مظهر من مظاهر النشاط الثقافى للامة . وتقبل الدول الاخرى على استيراد
هذه الافلام التى تقوم حتما بالتعريف باللغة التى تنطق بها . وقد تترجم
هذه الافلام الى اللغة المحلية عند استيرادها ترجمة صوتية حيث تعد
المحادثات باللغة المحلية او تترجم ترجمة
كتابية ، حيث تظهر الترجمة مدونة فى اسفل الصورة مع احتفاظ الصوت
باللغة الاصلية . كما ان بعض شركات الانتاج السينمائى تنتج افلاما
ناطقة باللغات العالمية لتيسير تصديرها ، وهذا ما تنتجه شركات
الافلام الايطالية التى تنتج افلاما بالانكليزية او الفرنسية . ويعطينا الجدول
الآتى فكرة عن بعض مواطن انتاج الافلام الطويلة :

القطر	السنة	عدد الافلام
الولايات المتحدة	1967	215
الاتحاد السوفيتى	1970	218
المانيا	1970	149
فرنسا	1970	138
بريطانيا	1968	88
البلاد الغربية	1968	70

الانتاج السنوى للافلام الطويلة

(هـ) عدد الجامعات التى تدرس بها ، وعدد الطلاب التى يأمنها :
ان التقدم الحضارى يتوقف على التعليم العالى وينعكس عليه . فكثرة
الجامعات ورفق مستواها العلمى واصالة الابحاث التى تقوم بها من
شأنه ان يرفع مكانة الامة حضاريا ، وان يجذب اليها اعدادا غفيرة من
طلبة العلم من جميع انحاء العالم ، يأمنها سنويا لينهلوا من علومها

ويرتووا من معارفها . وعلى هؤلاء الطلاب ان يتعلموا اللغة التي تدرس بها تلك الجامعات قبل رحيلهم اليها وبعده . وعند عودتهم الى بلادهم يقومون بنشر تلك اللغة شاعوا ام ابوا . فهم يستخدمون المصادر والكتب المدونة بها في مهنتهم ، ويفضلون مشاهدة الافلام الناطقة بها ، ويشجعون ابناءهم على اختيارها من بين اللغات وتعلمها . وتتنافس جامعات الدول الكبرى على اجتذاب الطلاب الاجانب وتقدم لهم كافة التسهيلات الممكنة ، وتخصص دوائر خاصة بهم لمساعدتهم وتمشية امورهم وتقديم المنح والزمالات لهم ، بل اقدم الاتحاد السوفيتي على انشاء جامعة بأكملها من اجل الطلبة الاجانب ، حيث يتلقى جميع طلبتها زمالات واعانات مالية ، تلك هي جامعة لومومبا لصداقة الشعوب . وتنعكس عالمية اللغة على عدد الطلبة الاجانب في جامعات الامة . ففي عام 1931 حينما كانت للغة الفرنسية بعض الافضلية على الانكليزية بلغ عدد الطلبة الاجانب في جامعات الفرنسية 17261 ، اما في الجامعات الامريكية فكان عددهم حينذاك 6850 ، وفي الجامعات البريطانية 5000 . ولكن هذه النسب اصابها تغير ملحوظ بعد ربع قرن فقط عندما انقلب الوضع اللغوي واصابت اللغة الانكليزية حظا اكبر من الانتشار ، ففي عام 1956 بلغ عدد الطلاب الاجانب في الجامعات الامريكية 40000 وفي الجامعات البريطانية 10000 ، اما في الجامعات الفرنسية فقد كان عددهم 16000 طالب (19) .

(و) عدد البحوث العلمية الاصلية التي تنشر بها : لا مبالغة اذا اطلقنا على القرن العشرين اسم (عصر العلم والتكنولوجيا) ، فقد اصبح العلم يؤثر في رفاهية الشعوب ، وصار الاطلاع على نتائج البحوث العلمية والاستفادة منها عاملا حاسما في التنمية الاجتماعية والاقتصادية . وهكذا فان اللغة التي تنشر بها ابحاث علمية اصيلة تحظى باقبال الشعوب على تعلمها . وحتى علماء الدول الكبرى يقبلون على تعلم اللغات الاخرى التي تنشر بها ابحاث علمية كثيرة . وهذا ما يفسر لنا اقبال طلاب العلوم في الجامعات الامريكية على تعلم الالمانية والروسية في حين يميل طلاب الاداب في تلك الجامعات الى تعلم الفرنسية والاسبانية . وقد يفضل بعض العلماء نشر نتائج بحوثهم بلغة غير لغتهم القومية املا

في تحقيق انتشار اوسع لها . وهذا ما يحدث في المؤتمرات العلمية ذات الطابع الدولي .

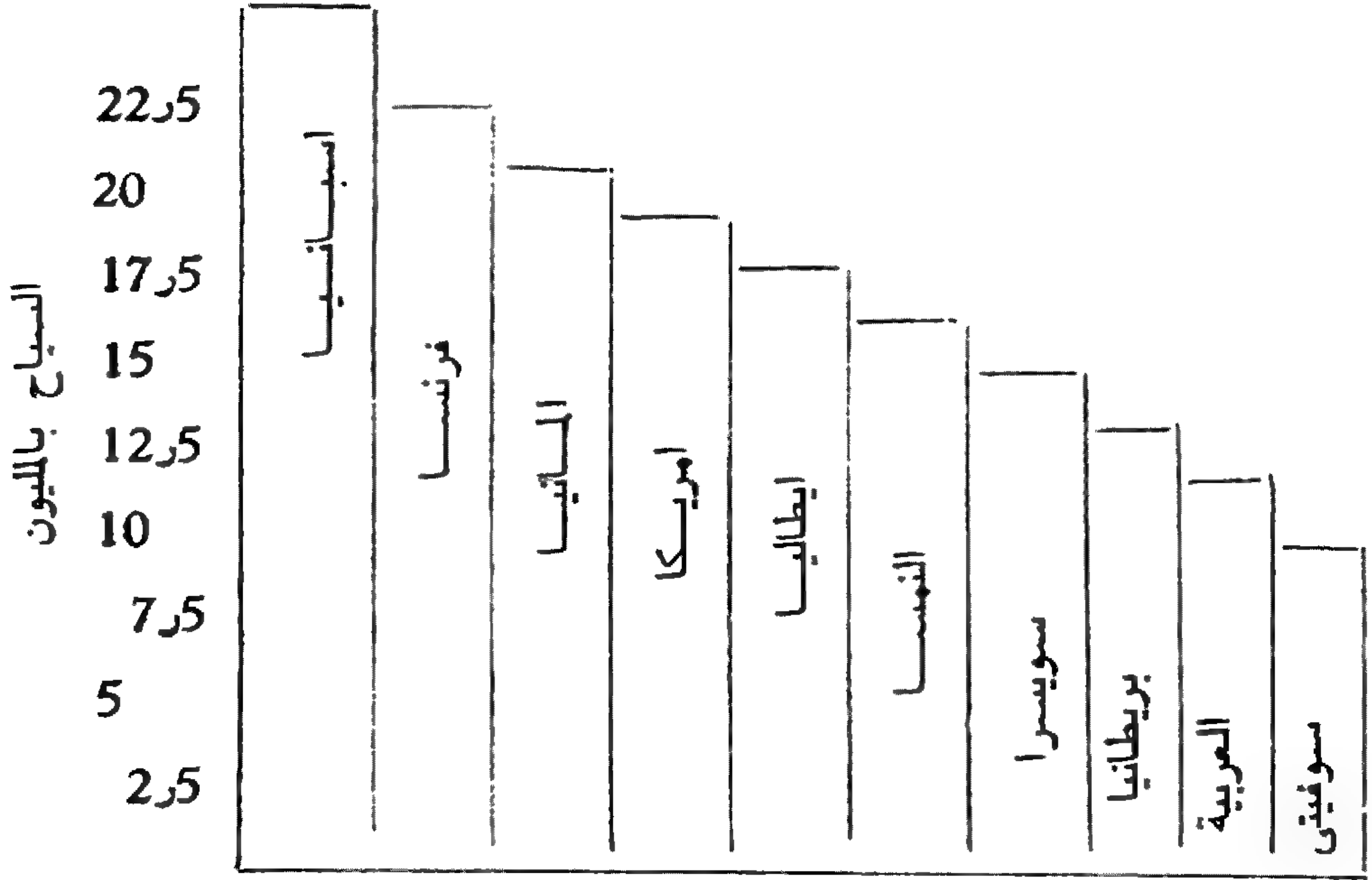
(ز) مكانة ادب اللغة بين الاداب العالمية : كان من الاهداف الرئيسية لتعلم اللغات الاجنبية قبل القرن العشرين الاستمتاع بقراءة الادب الاجنبى ، ولهذا فان طرائق تعليم اللغات الاجنبية كانت تؤكد مهارتي القراءة والترجمة ، على حساب مهارتي التحدث باللغة وكتابتها ، اى تفضيل فهم ما هو مدون باللغة الاجنبية على التعبير بها . وما زال التراث الادبى للامة يقوم بدور هام في نشر لغتها والتبشير بها في العالم . ولقد لوحظ ان من بين الـ 58 كاتباً التى تحظى مؤلفاتهم بالترجمة اكثر من غيرها ، 16 انكليزيا و 12 فرنسيا و 9 روس و 7 امريكان و 7 المان .

(ح) مساهمة الدولة في المباريات الرياضية : اصبحت المباريات الاولبية والدورات الرياضية الاقليمية والدولية تستغل الى حد بعيد في الدعاية السياسية . فاحراز الدولة بطولات عديدة وتفوقها على غيرها في دورة رياضية يؤخذ دليلا على عظمتها ، ويوجه انظار العالم اليها ، ومن ثم يؤدى بصورة غير مباشرة الى اقبال الناس على تعلم لغتها .

(8) العوامل السياحية :

ان تحسن شروط العمل ، وتطور وسائل المواصلات ادت الى تمكن اعداد غفيرة من الناس الى التمتع باجازة يمضونها خارج بلادهم . وليس المقصود من الاجازة الراحة والاستجمام فحسب بل الاطلاع على المعالم الحضارية لبلاد اخرى كذلك . وهكذا اصبحت البلاد التى تتمتع بإمكانات سياحية افضل تجتذب عددا اكبر من السياح . ويحتاج السائح الى التفاهم مع اهل البلاد التى يزورها بلغتهم ، ومن هنا فان الناس يقبلون على تعلم اللغة التى يحتاجونها في المستقبل . ويرينا الشكل البيانى الاتى الاقطار التى تجتذب اكبر عدد من السياح طبقا لاحصاء 1970 :

الدول السياحية عام 1970



ومن العوامل التي تمت بصلة الى العوامل السياحية الهجرة . فالذين ينوون الهجرة يقبلون على تعلم لغة البلاد التي يرومون الهجرة اليها . ولعل هذا العامل كان من العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة الانكليزية في النصف الاول من هذا القرن اذ ان البلاد التي كانت تشجع الهجرة اليها وتستقبل المهاجرين اكثر من غيرها هي الولايات المتحدة الامريكية وكندا واستراليا وكلها دول ناطقة بالانكليزية .

(9) العوامل اللغوية :

يزعم بعض الباحثين ان طبيعة اللغة ومميزاتها هي العامل الاساسي في انتشارها ، وان اللغة الميسرة في اصواتها وبنيتها تحظى باقبال شعوب العالم على تعلمها واستعمالها . ويرى الاستاذ بلاومن Ploughman

ان خصائص اللغة الانكليزية هي التى مكنتها من بز اللغات المنافسة لها
فى القرن العشرين . ويقارن الانكليزية مع الفرنسية فيعزو « الفضائل »
الآتية الى الانكليزية :-

(أ) انعدام التمييز بين المذكر والمؤنث ما عدا بين الرجال
والنساء فى حين تذهب الفرنسية الى تذكير او تأنيث جميع المخلوقات
والاشياء على السواء .

(ب) عدم وجود اكثر من صيغة واحدة للمخاطب سواء اكان هذا
صديقا حميما ام غريبا تلتقى به لأول مرة ، اذ تخاطبه بكلمة (you)
فى حين توجد بالفرنسية صيغتان هما (tu) و (vous) حسب صلة المتكلم
بالمخاطب وحسب مكانة الاخير الاجتماعية .

(ج) انعدام التبعية ، اى عدم وجود توافق بين الاسم ونعتيه فى
الافراد والجمع والتذكير والتأنيث . وتكاد الانكليزية تنفرد فى هذه الخصيصة
من بين اللغات الجرمانية واللاتينية .

(د) للانكليزية حصيلة غنية من المفردات ، تقرب من نصف مليون
كلمة .

ولكن مثل هذه الآراء تفتقر الى الادلة الموضوعية المستمدة من علم
اللغة الحديث . ونحن نعتقد ان طبيعة اللغة المنطوقة لا
صلة لها بانتشار اللغة او الخصال التى قد تعزى لها . اذ يتفق اللغويون
اليوم على عدم وجود تفاضل بين اللغات من حيث بنيتها واصواتها ، بل
ينظرون اليها نظرة متساوية من حيث قدرتها على التعبير عن جميع
الخبرات الحسية ، وقابليتها على التطور ، ولا يقرون بوجود لغات صعبة
واخرى سهلة بشكل مطلق . وعلى الرغم من تباين اللغات فى بنيتها
الصوتية وتراكيبها النحوية ، فان « مزايا » اية لغة تعادلها « مساوئها »
(20) واثبت علم اللغة الحديث ان بنية اللغات التى تسمى بـ
« البدائية » لا تقل تعقيدا عن بنية اللغات الحضارية الكبرى (21) .
ولهذا فان التفاضل بين اللغات لا يقع فى نطاق وظيفة اللغوى او مهمته .

ولنعد مرة أخرى الى ما يزعمه انصار اللغة الانكليزية من ان سهولتها تيسر لها الانتشار وانها تخلو من تعقيدات اللغة الفرنسية وصعوباتها ، فنقول انهم نسوا او تناسوا ان « صعوبات » اللغة الفرنسية تلك لم تمنعها من الانتشار ولم تقعد لها عن تبوء مكانة اللغة العالمية الاولى لفترة طويلة امتدت حتى الثلث الاول من هذا القرن . ومن ناحية أخرى ، فانهم سلطوا الاضواء على ما يمكن ان يعد حسناً في اللغة الانكليزية وحجبوا عن مواطن « الصعوبة » فيها . يقول ادورد ساپير Sapir ، احد مؤسسي علم اللغة الحديث في امريكا :

« حقيقة ان من يتعلم اللغة الانكليزية لا يواجه في البداية كثيراً من الصيغ الصرفية التي يجب عليه حفظها ، وهذا يعطيه الشعور بعدم صعوبة هذه اللغة ، ولكنه سرعان ما يكشف بكل مرارة ان ذلك مجرد وهم . . . ان سهولة الانكليزية في جانبها الشكلي هي سهولة زائفة او صعوبة مقنعة . . . وللطالب الاجنبي الحق اذا شعر بأن سهولة الانكليزية الظاهرية انما يدفع ثمنها الباهظ من جراء غموضها المحير » (22) .

ولكن يمكننا ان نقر بوجود « صعوبة » نسبية في تعلم اللغات الاجنبية مردها تأثير اللغة القومية السليبي على اتقان اللغة الاجنبية . فكلما كانت الفروق بين اللغتين كبيرة ازدادت صعوبة تعلم اللغة الاجنبية ، وكلما كانت اوجه الشبه متعددة ، تضاعفت تلك الصعوبة . فالصينية — في هذا المفهوم — اسهل بالنسبة للفييتناميين والقايلنديين منها للانكليز الذين يجدون الالمانية اسهل من الصينية للقراءة القائمة بين الانكليزية والالمانية (23) . ومن ناحية أخرى فان اللغات تتفاوت من حيث انظمتها الكتابية فهناك أنظمة كتابية تتصف بالسهولة والدقة وأخرى بالصعوبة والنقص . لان الكتابة ليست اللغة ذاتها وانما تصوير لاصوات اللغة او مقاطعها . وهناك تصوير جيد وآخر سيء . ومن الطريف ان خط اللغة الانكليزية هو من اسوء الخطوط في العالم ، وكان استاذنا الدكتور ارجبولد هل يقول ان الخط الانكليزي هو اسوء خط في العالم بعد الخط الصيني . ومع ذلك فان صعوبة خط الانكليزية لم يمنعها من الانتشار ، مما يدل على ان انتشار اللغة لا يمت بصلة وثيقة الى العوامل اللغوية .

ومن الشائع المعروف ان الخط العربى حاليا لا تتوفر له مقومات السهولة والتساوق والكمال التى يجب ان تتصف بها كل الانظمة الرمزية الجيدة ، وذلك لخلوه من الشكل (الحركات) ، ولتعدد صور الحرف الواحد ، ولعدم مطاوعته لمتطلبات الطباعة الحديثة . فعلى الرغم من ان الابدعية العربية تتألف من 29 حرفا فقط ، فان صور هذه الحروف تبلغ بضعة مئات . وعلى الرغم من المحاولات المتكررة لاختزال اشكال الحروف العربية ، فان عيون صندوق الجمع اليدوى فى المطابع لا تقل عن 217 عينا فى النمط الالماني وعن 310 عينا فى النمط المصرى ، وهذا عدد كبير جدا اذ ما قورن بمطابع الخط اللاتينى . وتبرز المشكلة حقا فى الطباعة المعيارية حيث تتألف لوحة المفاتيح من 90 مفتاحا فقط فى الطباعة الرصاصية و 120 مفتاحا فى الطباعة الضوئية . وهكذا اصبحت مسألة اختصار عدد اشكال الحروف العربية الى العدد الملائم للطباعة الحديثة من اجل تيسير النشر والاقتصاد فى الوقت اللازم له ، وتخفيض تكاليفه . ولكن صعوبات الخط العربى فى طريقها الى القضاء بفضل الجهود الحميدة التى تبذلها مجامع اللغة العربية وبعض الباحثين المهتمين وفى مقدمتهم اللغوى المغربى المعروف الاستاذ احمد الاخضر غزال (24) .

(10) العامل الارادى :

قد تتوفر عوامل انتشار اللغة التى اسلفنا او معظمها للغة من اللغات ، ومع ذلك فأنها لا تحرز تقدما ملموسا . ونحن نعوذ ذلك الى ما نستخدم على تسميته بـ « العامل الارادى » ، ونعنى به مدى رغبة الامة فى نشر لغتها ، والجهود التى تبذلها ، والوسائل التى تعتمد عليها فى تحقيق رغبتها . وليست الامم على درجة واحدة من حيث الاعتزاز بلغاتها القومية والاندفاع فى نشرها . ولنضرب مثلا على ذلك فى المانيا واليابان ، فقد خسرت هاتان الدولتان الحرب العالمية الثانية معا ، واصابهما خراب ودمار عظيمان ، ولكنهما سرعان ما حققتا نهضة اقتصادية وتكنولوجية هائلة ، واصبحتا فى مقدمة الدول الصناعية والتجارية خلال فترة وجيزة بعد الحرب الكونية . ولكنهما اتخذتا موقفين متباينين تماما حيال نشر لغتيهما . فقد قررت اليابان ان تتخذ من الانكليزية لغة اتصال تتعامل بها

مع العالم الخارجى ، فقامت بنشرها فى مدارسها ، وحسنت طرائق تعليمها ، وشجعت مواطنيها على تعلمها حتى اصبحت غالبية اليابانيين قادرة على استعمالها . ولم تحاول اليابان نشر اللغة اليابانية او تشجيع تدريسها فى الخارج ولا حتى فى تلك البلدان التى تتكلم لغات تنتمى الى العائلة اللغوية ذاتها . اما المانيا فانهما ابدت حماسا بالغا لنشر اللغة الالمانية ، وبذلت جهودا ضخمة ، وانفقت اموالا طائلة فى مجال تعليم الالمانية بوصفها لغة اجنبية ، وبالتالي نشرها فى العالم . وما حل عام 1975 حتى كانت حكومة المانيا الغربية قد اسست 250 معهدا من معاهد غوته لتعليم اللغة الالمانية فى 45 بلدا اجنبيا ، وتقدم هذه المعاهد احدث الطرائق السمعية والبصرية ، ومزودة بما تحتاجه من المعدات والمختبرات والاجهزة والافلام اللازمة لتعليم اللغة الاجنبية . ومنذ ذلك التاريخ وعدد هذه المعاهد فى ارتفاع مستمر .

وفى الولايات المتحدة الامريكية تتظافر جهود عدة مؤسسات رسمية واهلية فى سبيل نشر اللغة الانكليزية فى البلدان الاخرى . ومن هذه المؤسسات وكالة المعلومات الامريكية USIS ووكالة الانماء الدولية AID ومؤسسة فولبرايت ، ووزارة الدفاع ، ومؤسسة فورد ، ووزارة الخارجية ، ومؤسسة روكفلر ، واذاعة صوت امريكا ، وغيرها . وتقوم هذه المؤسسات بانشاء معاهد تعليم الانكليزية فى جميع ارجاء العالم ، واعداد المعلمين ، وتطوير المناهج ، ونشر الكتب والدوريات ، وانتاج الافلام والوسائل المعينة الاخرى ، وابتعاث الطلاب ، وانتداب الاساتذة الزائرين ، وما الى ذلك .

وفى فرنسا توجد حوالى خمسين هيئة وجمعية مختلفة تعمل على تطوير اللغة الفرنسية ونشرها فى العالم . وتقوم بتنسيق جهود هذه الجمعيات هيئة عليا تابعة لرئاسة الحكومة وتحت الاشراف الفعلى لرئيس الوزراء (25) .

اما بالنسبة للعربية ، فان العامل الارادى يكاد يكون معدوما لدى ابنائها ، واذا كان موجودا فانهم لم يقوموا بعمل جليل يجسم ارادتهم ،

ويضعها موضع التنفيذ ، والنية الحسنة لا تكفى ولا تنفع ما لم يدعمها العمل الصالح . وقصورنا في نشر لغة القرآن لا مبرر له . ان بإمكان القارئ ان يجوب اية عاصمة اجنبية ليجد السفارات والقنصليات العربية العديدة منثورة في شوارعها ولكنه لن يعثر على معهد واحد لتعليم العربية ، والانكى من ذلك انك قد تسمع بعض المذوبين العرب يتكلمون بلغة اجنبية ركيكة زاخرة بالاخطاء في المؤتمرات الدولية ولا يستعملون العربية حتى بعد ان اصبحت لغة رسمية معترف بها في الامم المتحدة والمنظمات الدولية الاخرى . ومن طريف ما يروى في هذا الخصوص انه عندما قررت منظمة الوحدة الافريقية اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية فيها اسوة بالفرنسية والانكليزية ، قام احد المذوبين العرب ليشكر الاعضاء على جميل صنيعهم ... فتكلم بالفرنسية . ولم تقم المؤسسات التربوية في البلاد العربية بأى جهد يذكر في مجال تعليم اللغة العربية للاجانب المقيمين في العالم العربى ، او بافتتاح دورات صيفية تستقبل الراغبين في امضاء عطلة بتعلم هذه اللغة . ومن طريف ما يذكر ان جامعة رسمية عربية قامت بافتتاح دورة خاصة بالدبلوماسيين الاجانب لتعليمهم الفرنسية لا العربية .

ولكننا يجب ان نشير هنا الى بعض الجهود الكريمة في هذا المجال ، ونخص بالذكر معهد ابو رقية للغات الحية في تونس الذى يقوم بتعليم العربية للاجانب وتنظيم دورات صيفية تجتذب السياح الاجانب على غرار البرامج الصيفية في فرنسا وانكلترا واسبانيا وغيرها . وكذلك برنامج تعليم العربية لغير العرب الذى شرعت به جامعة الرياض مؤخرا .

رابعاً - اللغات الرسمية في منظمة الامم المتحدة :

اتخذت منظمة الامم المتحدة لدى تأسيسها عام 1845 اللغتين الانكليزية والفرنسية « لغتي عمل » . وفي سنة 1948 اضيفت اليهما اللغة الاسبانية . وفي مارس 1949 رشحت اللغتان الروسية والصينية لغتين رسميتين اضافيتين ، وسرعان ما ظهر ان استعمالهما الفعلى في المنظمة العالمية يضعهما في مصاف لغات العمل . وفي اواخر سنة 1973

أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة إضافة اللغة العربية إلى لغاتها الرسمية . وفيما يأتي تقدم نبذة موجزة عن هذه اللغات :

(1) اللغة الفرنسية :

كانت اللاتينية هي لغة أوربا المشتركة في العصور الوسطى ، فقد كانت لغة التعليم والفكر والثقافة والمناسبات الرسمية الأخرى . وكانت إلى جانبها لغات محلية متعددة يستخدمها الناس في الاتصالات الاعتيادية في حياتهم اليومية . ومنذ القرن الثاني عشر أخذت هذه اللغات المحلية تسجل تقدما ملحوظا على حساب اللغة اللاتينية . وما حل القرن السابع عشر حتى امست اللاتينية لغة مكتوبة فقط يندر من يتحدث بها . ولعل اختراع الطباعة كان من العوامل الرئيسية التي أدت إلى القضاء على اللاتينية ، إذ كان هم المؤلفين وأصحاب المطابع إيجاد أكبر سوق استهلاكية لمنشوراتهم ، ولما كانت الجماهير الواسعة تجد لغاتها المحلية أسهل فهما من اللاتينية فإن المؤلفين وأصحاب المطابع فضلوا إصدار كتبهم باللغات المحلية .

وقد برزت الفرنسية من بين هذه اللغات المحلية وحقت انتشارا واسعا . ففي القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت الفرنسية هي اللغة الرسمية في انكلترا ، كما انتشرت في الأراضي المنخفضة وألمانيا وإيطاليا ، وبدا من الواضح أن الفرنسية هي التي ستخلف اللاتينية باعتبارها لغة عالمية على الرغم من أنها جابهت منافسة شديدة من اللغة الإيطالية في القرن السادس عشر ، ومن اللغة الإسبانية في القرن السابع عشر . أما القرن الثامن عشر فقد شهد أكبر انتصارات اللغة الفرنسية حيث غدت تسمى بلغة الملوك .

وأخذت الدول الأوروبية تفرنس أنظمتها التربوية وترى في تعلم الفرنسية شرطا للتطور الحضاري المنشود . وكانت كاترين الثانية إمبراطورة روسيا تعلن عن عدم حبها لفرنسا ولكنها كانت تعترف بتفوق فرنسا الحضاري ، واستمرت في خطة فرنسية إمبراطوريتها وذلك

باستخدام جيش من المعلمين والفنانين والتقنيين الفرنسيين . وكانت المدارس الفرنسية منتشرة في انحاء اوربا ، وكانت الصحف الفرنسية تقرأ في كل مكان منها . وحتى في ايطاليا كانت الثقافة الفرنسية تحظى بمكانة مرموقة لدرجة ان كازنوفيا دبج مذكراته باللغة الفرنسية . وكان عدد الكتب التي تنشر فيها او تترجم منها واليها يفوق ما ينشر باللغات الاخرى . وفي القرن التاسع عشر والثلاث الاول من القرن العشرين استمر انتشار اللغة الفرنسية عن طريق الاستعمار والاستيطان وخاصة في افريقيا .

ومن المفيد حقا ان نعلم النظر في العوامل التي ادت الى ازدياد اهمية اللغة الفرنسية في العصور الوسطى . لقد كانت فرنسا قبل كل شيء تتمتع بقوة سياسية وعسكرية تجلت في الغزو النورماندي لانكلترا . وكان الادب الفرنسي يحتل مكانة رفيعة بين الاداب الاوربية . واحتلت جامعة باريس مكانة مرموقة بوصفها افضل جامعات اوربا ، فقد كانت الجامعة الايطالية تعاني تدهورا شديدا ، وكانت جامعتا اكسفورد وكمبرج في بداية تكوينهما . فكان من الطبيعي ان تجتذب جامعة باريس الطلاب والاساتذة من مختلف انحاء اوربا . واحتل الفن القوطي الفرنسي منزلة رفيعة بين الفنون الاوربية . وكانت فرنسا اغنى البلاد الاوربية من حيث ثرواتها الطبيعية ، واكثرها سكانا كذلك . واخيرا وليس اخرا ، فقد كان للتجارة الفرنسية في القرن الثالث عشر قوة لا يمكن مقارنتها الا بقوة اليابان وامريكا التجارية في القرن العشرين (26) .

كل هذه العوامل ادت الى انتشار اللغة الفرنسية في العالم ، وهي امثلة توضيحية للعوامل التي سردناها في القسم الثالث من هذا البحث .

(2) اللغة الانكليزية :

قبل حوالي اربعمائة سنة فقط ، وفي زمن شكسبير بالذات ، كانت اللغة الانكليزية لغة ثانوية لا يتكلمها سوى خمسة ملايين نسمة ، حتى قال احد الاساتذة الانكليز يندب حظ لغتهم : « ان اللسان الانكليزي

لا يتعدى حدود جزيرتنا الصغيرة هذه ، بل لا يغطى جميع اجزائها . « (27) . اما اليوم فقد اصبحت اللغة الانكليزية في مقدمة اللغات العالمية ، ولا يقتصر عدد الذين يتكلمونها بوصفها لغتهم الاولى على الـ 56 مليون نسمة الذين يقطنون في المملكة المتحدة بل يشمل كذلك 250 مليون نسمة منتشرين في اجزاء متفرقة من العالم ، كما يستخدمها اكثر من مئة مليون نسمة آخرين - على اقل التقديرات - بوصفها لغة ثانية لازمة للاتصالات الفعالة ضمن الحدود الوطنية ، او بوصفها لغة اجنبية ضرورية للاتصالات عبر الحدود القومية .

ويمكن تلخيص العوامل التى ساعدت على تحسن مركز الانكليزية ومن ثم انتشارها فيما يأتى :

ا - ارتفاع نجم انكلترا بوصفها قوة دولية منذ عهد الملكة اليزابت الاولى .

ب - اتحاد انكلترا واسكتلندا سياسيا في عهد الملك جيمس الاول سنة 1603 .

ج - هجرة الانكليز الى العالم الجديد واستيطانهم فيه .

د - تكوين المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وايرلندا .

هـ - وفي العالم الجديد ، ادى سقوط هولندا الجديدة عام 1664 ، وسقوط كوبك عام 1759 الى تفوق الانكليزية على اللغتين المنافستين لها ، الهولندية والفرنسية . كما ادى توسع الولايات المتحدة الى القضاء على نفوذ اللغة الاسبانية في امريكا الشمالية .

و - وابان النصف الثانى من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين انتشرت الانكليزية عن طريق الاستعمار البريطانى ، والاستيطان ، والتجارة .

ز — وفي القرن العشرين ، حملت الحربين العالميين الاولى والثانية اعدادا غفيرة من الجنود الامريكيين الى انحاء العالم المختلفة وخاصة الى اوربا . كما ساعد نفوذ امريكا وبريطانيا السياسي والاقتصادي على تدعيم مركز الانكليزية في العالم .

ح — الجهود المركزة والمنظمة التي تبذلها امريكا وبريطانيا في سبيل نشر اللغة الانكليزية وتعليمها للاجانب باحدث الطرائق واجود المعدات .

(3) اللغة الاسبانية :

لعلكم تدهشون اذا علمتم بان مؤتمر سان فرنسيسكو الذي انعقد عام 1945 للبحث في امر تأسيس المنظمة العالمية قد اتخذ في بادىء الامر من الانكليزية والروسية والاسبانية لغات رسمية له . وكان على الوفد الفرنسى ان يبذل جهودا مؤلة ليحصل على قرار بقبول الفرنسية لغة رابعة في المؤتمر . ولعلكم تتساءلون عن مصادر قوة اللغة الاسبانية ، فنقول ان الاسبانية هي السائدة في عشرين دولة في امريكا الوسطى وامريكا الجنوبية . ويتكلمها 120 مليون نسمة بوصفها لغة قرمية او لغة ثانية . صحيح ان البرازيل التي تغطي مساحتها نصف امريكا الجنوبية تقريبا ، تتكلم البرتغالية ، ولكن يجب الا يغيب عن البال ان البرتغالية والاسبانية مفهومتان احدهما للآخرى . وفي الولايات المتحدة الامريكية جاليات كبيرة ناطقة بالاسبانية وخاصة فى ولايات تكساس وكاليفورنيا ونيويورك ونيومكسيكو . وتحتل الاسبانية المكانة الاولى بين اللغات الاجنبية التي تدرس في المدارس الامريكية . ففي برنامج FLIES

(اللغات الاجنبية في المدارس الابتدائية) يبلغ عدد الطلبة المنتظمين في دروس الاسبانية خمسة اضعاف اولئك المنتظمين في دروس الفرنسية . ويعود انتشار الاسبانية في امريكا اصلا الى حركة الاستكشافات والهجرة والاستيطان .

(4) اللغة الروسية :

يستخدم اللغة الروسية بمثابة لغة أولى او رسمية اكثر من 200 مليون نسمة يقطنون في الاتحاد السوفيتى . ولقد ادى النفوذ السياسى الذى يتمتع به الاتحاد السوفيتى في العالم الى اقدم العديد من الدول الغربية على تعليم الروسية لطلابها . اصف الى ذلك ان الروسية تدرس في جميع اقطار ما يسمى بـ « المعسكر الاشتراكي » بما فيها الصين . كما ان الانجازات العلمية التى حققها الاتحاد السوفيتى في العشرين سنة الاخيرة وجهت انظار طلاب العلوم والتكنولوجيا الى اللغة الروسية بوصفها احد مصادر البحث العلمى . وتسعى حكومة الاتحاد السوفيتى الى نشر اللغة الروسية عن طريق اجتذاب الطلاب الاجانب وخاصة من الدول النامية الى الجامعات السوفيتية . وتمنح لهم الزمالات والاعانات المائتة والتسهيلات اللازمة . وقد اسست لهذا الغرض جامعة خاصة ، كما اسلفنا .

(5) اللغة الصينية :

اللغة الصينية هي احدى اللغات الرسمية في منظمة الامم المتحدة ، ويتكلمها اكثر من 850 مليون نسمة ، اى حوالى ربع سكان المعمورة . اصف الى ذلك ان قوة الصين السياسية والاقتصادية في ارتفاع متزايد . ومع كل هذا فاللغة الصينية لا تتمتع بانتشار واسع وذلك للأسباب الآتية :

أ - تتكون الصينية من لهجات متعددة غير مفهومة بعضها للبعض الآخر . ومن اكبر هذه اللهجات المندرينية المستعملة في الشمال ، والكانتونية المنتشرة في جنوب الصين .

ب - ان الخط الصينى بالغ التعقيد والصعوبة ، لانه خط شبه صوري يستخدم بضع مئات من الرموز يستعصى حفظها على الطالب الاجنبى العادى .

ج - ان اللغة الصينية لغة منغمة ، بمعنى ان دلالة الكلمة تتغير طبقا للنغمة التى تنطق بها . ولما كانت معظم اللغات الكبرى تخلو من هذه الخصيصة اللفظية ، فان الناطقين بها يجدون ولا ريب صعوبة نسبية فى تعلم اللغة الصينية .

ولكن حكومة الصين تدرك ما للغة من اهمية قومية وعالمية ، فشرعت فى بذل جهود منسقة لحل المشكلات التى تجابه اللغة الصينية . فقررت تحقيق الوحدة اللغوية بتبني اللهجة المندرينية بوصفها اللغة الوطنية للامة الصينية . كما تبنت الحروف اللاتينية فى محاولة لتيسير الكتابة الصينية . وقد تساعد هذه الاجراءات على انتشار اللغة الصينية نظرا لازدياد علاقات الصين مع العالم الخارجى .

رابعا - مستقبل العربية بوصفها لغة عالمية :

بعد دراسة تاريخ اللغات الميتة منها والحية ، وبعد الاطلاع على اسباب رقيها وانتشارها وانحطاطها واندثارها ، نستطيع القول بأن العربية قادرة على تبوء المكانة الاولى بين اللغات العالمية فى المستقبل . وينبنى تكهنا هذا على الحقائق الآتية :

1 - على خلاف القائلين بأن اللهجات العربية المحكية ستتطور الى لغات منفصلة غير مفهومة بعضها للبعض الآخر على غرار ما حدث للغة اللاتينية فى القرون الوسطى ، نعتقد بأن الوحدة العربية اللغوية آتية لا ريب فيها وذلك لان اللهجات العربية - من جهة - لا يمكنها ان تبتعد كثيرا عن اللغة الفصحى بفضل القرآن الكريم وديننا الحنيف وتراثنا وحضارتنا التى تستخدم الفصحى اداة للتعبير والتسجيل . ومن جهة اخرى فان انتشار المدارس ووسائل الاعلام واتجاه البلاد العربية نحو وحدة سياسية واقتصادية ستقرب اللهجات من الفصحى وتقلل الفوارق بينها .

2 - تحتل الامة العربية موقعا جغرافيا استراتيجيا ، فهي ملتقى القارات الثلاث اوربا وآسيا وافريقيا ، وتغطى اراضيها مساحة شاسعة تمتد من المحيط الاطلسى غربا الى الخليج العربى شرقا .

3 — ان للامة العربية امكانات اقتصادية هائلة لما تستثمر بكل طاقتها بعد ، فهي تهيمن على نسبة كبيرة من مصادر الطاقة فى العالم ، وتمتلك ثروات طبيعية ضخمة ، وتعد مصدرا اساسيا للمواد الاولية اللازمة للصناعة كالحديد والفوسفات والبتروول ، ولها امكانات زراعية هائلة .

3 — وبفضل موقعها الجغرافى وامكاناتها الاقتصادية وسيطرتها على طرق التجارة العالمية من بحرية وجوية وبرية ، فان الامة العربية مرشحة للاضطلاع بدور رئيسى فى التجارة الدولية ، ولتكون عنصرا جوهريا فى حجم التبادل التجارى الدولى . اصف الى ذلك ان الامة العربية مؤهلة للاضطلاع بدور سياسى قيادى وخاصة فى العالم الثالث .

4 — وفى حين ينحصر الاستعمار الغربى وتنسحب معه لغاته الانكليزية والفرنسية والايطالية وغيرها ، نجد ان هنالك حركة نابغة من الدول الاسلامية ذاتها ترمى الى توطيد علاقاتها ، وزيادة التعاون فيما بينها ، وتتجلى بوادر هذا الاتجاه فى مؤتمر القمة الاسلامى الاول الذى عقد فى الجزائر سنة 1969 ، ومؤتمر وزراء الدول الاسلامية الذى عقد فى الرياض فى شهر ديسمبر 1973 ، وفى مؤتمر القمة الاسلامى الذى عقد فى لاهور بالباكستان فى تشرين الثانى 1974 ، ومؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية الذى انعقد فى كوالا لامبور فى العشرين من حزيران 1974 . وقد يؤدى هذا الاتجاه الى نوع من الاتحاد الاسلامى تكون فيه العربية بطبيعة الحال اللغة الرسمية ، فهى لغة القرآن الكريم واقرب اللغات الى قلوب المسلمين . فى حين ان اوربا موحدة لا يمكن ان تتفق تماما على لغة رسمية واحدة .

5 — اضافة الى ان اللغة العربية هى احدى اللغات الرسمية فى الامم المتحدة والمنظمات الدولية التابعة لها مثل منظمة اليونسكو ، واليونسيف وغيرها ، فانها تستعمل ايضا فى منظمات اقليمية مهمة مثل منظمة الوحدة الافريقية ورابطة العالم الاسلامى ، وكذلك فى مؤتمرات دول عدم الانحياز ، ومؤتمرات الدول الاسلامية وغيرها .

6 — ان الامة العربية مقبلة على نهضة علمية وادبية يصبح معها الكتاب العربى مصدرا للعلوم والفنون والاداب .

7 — اخذت الامة العربية تؤثر فى الاقتصاد العالمى وخطط التنمية فى البلدان النامية ، وذلك عن طريق استعدادها لتقديم المعونات الاقتصادية والفنية الذى يتجلى فى تأسيس عدد من المصارف المختصة مثل صندوق التنمية العربى فى القاهرة الذى يقدم مساعداته للدول الافريقية ، والبنك الاسلامى فى جدة الذى يسهم فى تقديم المعونات للدول الاسلامية ، وصندوق التنمية الكويتى الذى قرر مؤخرا ان لا تقتصر اعماله على الدول العربية بل تمتد الى جميع الدول الصديقة . اضيف الى ذلك المساهمات العربية الكبيرة فى المؤسسات المصرفية العالمية مثل بنك الاعمار الدولى وغيره .

خامسا — ما يجب ان تفعله الامة العربية خدمة للفتها :

واذا كانت قد توفرت للامة العربية اسباب النمو الاقتصادى والتطور السياسى ، وتجمعت للفتها امكانات الانتشار ، فان ذلك لا يضمن وحده انتشار اللسان العربى فى العالم ما لم تكن هناك ارادة قوية لنشره ، وما لم تتخذ الامة العربية الاجراءات والخطوات اللازمة لتحقيق ذلك الهدف النبيل . ومن هذه الاجراءات ما يأتى : —

1 — نشر التعليم ومكافحة الامية فى الوطن العربى . فعلى اولا ان نتعلم لغتنا التى نريد لها الانتشار فى العالم .

2 — تيسير الخط العربى وتطويعه لمتطلبات الطباعة الحديثة . فعلى الرغم من توصل بعض الباحثين الى حلول ناجعة لمشكلة الخط العربى ، فان هذه الحلول لم توضع موضع التنفيذ على نطاق واسع .

3 — اتمام عملية تعريب التعليم وخاصة فى المغرب العربى ومصر والعراق . فلا يمكن ان يكون التعريب كاملا ، ولا يمكن للعربية ان تستوفى المصطلحات العلمية ما دامت كثير من المواضيع تدرس باللغات الاجنبية فى معاهدنا العالية وجامعاتنا .

4 - تشجيع التأليف والترجمة والنشر باللغة العربية وحل مشكلة توزيع الكتاب العربى .

5 - تشجيع البحوث الخاصة بتعليم اللغة العربية لغير العرب ، لان طرائق تعليم اية لغة ومناهجها تختلف طبقا لعلاقة الطالب باللغة من جهة ، ولسننه ومستواه الفكرى من جهة اخرى . فقد تدرس اللغة بوصفها لغة قومية ، او لغة حضارية او لغة اجنبية . والكتب الخاصة بتعليم اللغة الاجنبية للأطفال تباير تلك الكتب التى يستعملها الراشدون او الكبار . ولهذا يجب توفير المناهج الخاصة بتعليم العربية لغير العرب ، وتيسير امهات الكتب العربية وذلك عن طريق اختصارها ، وتجنب الحوشى من مفرداتها ، وتسهيل تراكيبها ، واصدارها بطبعات انيقة مصورة تشجع الطالب الاجنبى على متابعة قراءتها بالعربية .

6 - تدريس مادة (اللغة العربية لغير العرب) فى جامعات الوطن العربى كافة ، وفتح اقسام متخصصة بذلك .

7 - التوسع فى تخصيص الزمالات الدراسية للطلبة غير العرب ومنحهم المساعدات المالية التى تمكنهم من الدراسة فى الجامعات العربية ، سواء اكانت دراستهم منصبة على الدين الاسلامى واللغة العربية وتعليمها ام مختصة بالعلوم البحتة والتطبيقية . ان مكانة الامة العربية حضاريا وفكريا واقتصاديا تعتمد الى حد ما على عدد الطلبة الاجانب الذين يتلقون تحصيلهم العلمى فى ربوعها .

8 - قيام الجامعات العربية بتنظيم الدورات الصيفية الخاصة بتعليم لغتنا لغير العرب لفترات متفاوتة - لثلاثة اسابيع او لشهر او لسته اسابيع او لشهرين ، لتتلاءم واوقات فراغ المساهمين فيها . وقد تقام هذه الدورات فى المناطق السياحية والمراكز الدينية ، اذ يفضل الكثير من السياح والمصطافين تعلم شيء ما خلال اقامتهم فى البلد السياحى . وليست هناك جامعة عربية تعنى باقامة مثل هذه الدورات بشكل منتظم سوى جامعة تونس ، على ما اعلم ، حيث يقوم معهد ابو رقية للغات

البخية بتدريس العربية في برنامج مكثف امده ستة اسابيع ويبدأ في اوائل تموز من كل عام . وقد شرعت جامعة الرياض مؤخراً بتقديم برنامج سنوي لتعليم العربية لغير العرب المقيمين في الرياض .

9 — فتح المدارس العربية الاهلية في الدول غير العربية لتقوم باستخدام العربية في تلقين النشء العلوم المدرسية والثقافة الاسلاميه . ان الارض الخصبة لفتح هذه المدارس ليست الدول الاسلامية فقط ، كما يتبادر الى الذهن لاول وهلة ، بل الدول الاوربية والامريكية ايضا حيث يتواجد العمال والمهاجرون العرب باعداد غفيرة ، وان قسما كبيرا منهم يستقر به المقام في تلك الدول ويحصل ابناؤه على جنسياتها . ففي فرنسا وحدها هناك حوالي مليون ونصف المليون عامل عربي يتجمعون في المراكز الصناعية . وفي الولايات المتحدة الامريكية وكندا ودول امريكا اللاتينية جاليات عربية كبيرة تتركز في مدن معروفة . فاذا قامت الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية بفتح مدارس على مستوى جيد وبأجور دراسية مخفضة فانها ولا شك ستجذب ابناء تلك الجاليات العربية . لان المهاجر العربي يتذمر دائما من صعوبة تلقين اطفاله اللغة العربية واصول الدين الاسلامي الحنيف .

10 — فتح معاهد تعليم اللغة العربية في كافة بلدان العالم . وليكن لنا في المعاهد الامريكية والبريطانية والفرنسية والالمانية قدوة حسنة . ان عدد معاهد امريكا لتعليم الانكليزية في العالم يفوق عدد سفاراتها وقنصلياتها بكثير . ان معهدا لتعليم اللغة العربية يستطيع خدمة الامة العربية من ناحية اعلامية افضل من عشر سفارات مجتمعة . ولهذا فان من واجب كل سفارة عربية ان تأخذ على عاتقها انشاء معهد لتعليم اللغة العربية في احدى مدن الدولة التي تعمل فيها ، وتزوده بمكتبة عربية وافلام اعلامية . وجميع المواد المعينة السمعية والبصرية اللازمة لتعليم العربية لغير العرب .

11 — حث الدول الاسلامية والصديقة على تدريس العربية في مدارسها وجامعاتها . ويجب ان تكون هذه المسألة مادة لا مناص منها في

جميع اتفاقياتنا الثقافية مع الدول الاخرى ، وملحقا لجميع اوجه التعاون الاقتصادي والسياسي مع الاقطار الاخرى

12 — الآن وقد صارت العربية احدى اللغات العالمية الرسمية في منظمة الامم المتحدة واليونسكو ومعظم المنظمات الدولية والاقليمية الاخرى ، ينبغي على وزارات الخارجية في الدول العربية وعلى مؤسساتنا المالية والتجارية والثقافية ان تكف عن استعمال اللغات الاجنبية وان تبادر الى استعمال العربية فقط في جميع مراسلاتها مع الخارج . نحن لا نفرض بذلك على المؤسسات الاجنبية ان تكتب لنا بالعربية ، ولكننا ندفعها بشكل غير مباشر الى استخدام من يعرفون العربية . وهكذا فان الطلبة الاجانب الذين يرغبون في تعلم العربية سوف لا يترددون في ذلك لانهم سيجدون اعمالا بعد التخرج . بل واكثر من ذلك ، فان المؤسسات الدبلوماسية والاقتصادية في الدول الاجنبية ستشجع المعاهد التربوية والجامعات على تدريس العربية لاعداد المتخصصين بها .

13 — انشاء كراسي لدراسات اسلامية والعربية في جامعات العالم ، والتبرع بما تحتاجه من مكاتب ومخصصات ، وانتداب اساتذة زائرين لها .

14 — اقامة دورات تدريبية في الجامعات العربية للمدرسين الاجانب الذين يتولون تدريس العربية في بلادهم ، لمساعدتهم مهنيًا من اجل ان يكون تدريسهم للعربية اكثر فاعلية وانتاجا .

15 — اهداء مجموعات كبيرة من الكتب العربية الى مكاتب جامعات الدول غير العربية ومدارسها .

16 — تشجيع الحج وزيارة الاماكن المقدسة ، والسياحة في العالم العربي .

على القاسمى

1) Carrol, J.B. and Casagrande, J.B. « The function of language classifications in behavior, » in Maccoby et al. *Readings in Social Psychology* (N.Y. : Holt, Rinehart & Winston, 1958), P. 20.

2) « Manche : le bout du tunnel », L'Express, N° 1159 (30 Septembre, 1973), pp. 26-30.

3) Burney, Pierre. *Les langues internationales*. (Paris : Que Sais-Je, 1966).

4) Encyclopaedia Britannica,

5) Burney, pp. 87-103.

6) Hill Archibald A. « Esperanto au Dubanto », *The Texas Quarterly*, Vol. III, No. 1 1960, pp. 143-149.

7) Richard, I.A. *Basic English and its Uses* (N.Y. : W.W. Norton & Co., 1943).

8) Routh, *Basic English and the Problem of a World-Language* (London : Adlard & Son, Ltd), 14 pp.

(9) لقد كانت اللغات السامية منتشرة في العراق والشام وحتى في مصر قبل الفتح الاسلامي . انظر مثلاً : تاريخ اللغة العربية في مصر ، للدكتور احمد مختار عمر (القاهرة : وزارة الثقافة ، 1970) .

(10) الدلي ، عبد الغني . موجز في العلاقات الاقتصادية الدولية (الرباط ، 1973) ص 1-3.

11) Routh

(12) القاسمي ، علي . « السن الملائمة للبدء في تعليم اللغات الاجنبية »

13) Pride, J.B. *The Social Meaning of Language* (London : O.U.P. 1970) pp. 38-39.

14) Encyclopoedia Britannica, Vol. 20, « Somaliland ».

15) Macmillan, Matthew. « In Defence of English », *ELT* xxvII (June 1973), p. 217.

(16) المصدر السابق

(17) جريدة Morning News الباكستانية الصادرة في 16 / 2 / 1974 العدد 140 المجلد 21 .

18) Dollos, Louis. *Les relations culturelles françaises* (Paris : Que Sais-je ? N° 1142, 1964) p. 24.

19) Burney, pp. 55.

20) Robertson, Stuart and Cassidy, Frederic. « World English ? » in *Perspectives on Language* ed. by John A. Rycenga & Joseph Schwartz (N.Y).

The Ronald Press Co., 1963, pp. 73-81.

21) Hill, A.A. « A note on primitive languages », *International Journal of American Linguistics*, 18 (1952), pp. 172-177.

22) Sapir, Edward. « Wanted : A world Language », pp. 202.

(23) القاسمي ، علي « افتراضات خاطئة عن طبيعة اللغة » الاقلام (حزيران 1973) ص 2-8

(24) انظر أبحاث الاستاذ أحمد الأخضر غزال في هذا الباب ومنها الطريقة المعيارية للطباعة العربية (الرباط : معهد الدراسات والأبحاث للتعريب ، 1962) .

(25) أحمد الأخضر غزال « اللغة العربية » المحاضرات الثقافية الأسبوعية ، الجزء الأول (الرباط : وزارة الثقافة ، 1969) ص 81 .

26) Burney, p. 11.

27) Richard Mulcaster as quoted in Mathew Maemillan, p. 215.

الفصول

أبو بكر الممتوني

أين أعراس حينا يا حبيبي هذه طلعة الربيع القشيب
ساحر يصبغ المناظر في اللـح ح اذا مس وجهها بالقضيب
رافل كالغزاة يجتر أذيا لا من الوشى فاقعات الخضوب
هو ذا ركبـه الملون يجتا ز على جثة الشتاء الكئيب
* * *
وانتـشى الكون يا حبيبي وطافت صور الحب والصبا بالقلوب

وتمطت في خدرها الغابة النعـــــسى وهبت أنفاسها بالطيوب
والزمان الكليل يرقد كالطفـــــل على مفرش الظلال الرحيب

* * *

وازدهى الروض يا حبيبي وآوى زمر الناس من شباب وشيب
خرجوا يذخرون للوحدة العجـــــفاء زادا من الربيع الخصيب
من مغن ، ومن مصيخ ، ومن لا ه ، ومن هاتف ، ومن مستجيب
وأنا هائم أهدهد أحزا نى وأجتر وحدتى يا حبيبي
أتمنى لقاءك فى مطلع الشمـــــس وأبكى نواك عند الغروب
من خلال الدموع أرنو الى أفـــــق مدمى مخرج مخضوب
تتوالى ألوانه ثم تتسا ب الى فوهة الظلام الرهيب
فأخاف انطفاء شعله أيا مى وأخشى جنوحها لامغيب
وأنا بعد لم أجذك ولم تســـــعد بلقياك مهجتى يا حبيبي

* * *

واذا الشطـــــب بعد أمس كئيب — قر قينا بالسباحات اللطاف
واستدارت على الأحاديث فى الرمـــــل جموع الصحاب والألاف
واذا البوق أيقظ المرقص النا ثم فى حمرة المساء الغافى

مشرئبا كالديك مختلج الصو ت يغنى للراقصات النحاف
واذا نامت البحار وراح الزورق الفرد داعم المجداف
وتولى النهار يسترق انخطو وينجر دامى الاطراف
وتجافت عن عرش بهجتها الشمس بوجه مفزع رجاف
قلت للشمس : « شد ما طفت عن توأم روحى فأشفقى من طوافى
خبرينى من أى أفق تحيى وجهه قبلة الشعاع الدافى ؟
هذه أرضنا تقلب فى يمينك كالكأس فى يد العراف »
لكن الشمس جانبتنى وخلتـنى وحيدا فى ظلمة المصطاف
فخشيت امتداد ظلمة ليلى وضياعى فى لجه المتلاف
ولقائك الحبيب ليس سوى حلم مطيف بمهجتى رفاف

* * *

واذا أقبل الخريف وولت بهجة الصيف وازدهار المصيف
وتعرت خمائل الروض والأيك وصارت خرسا بغير حفيف
وتهاوت أوراقها كتهاولى سقط الريش فى ضياع مخيف
واذا الريح طوحت بالعصافير على السفح فى صراع عنيف

دب في نفسى القنوط فقالت — وهى تبكى على الجمال القصيف:—
«هكذا .. كل هداة للأعاصير — وكل التماعاة للكسوف»
فخشيت انطواء رحلى ولما — أتقيا فى مجتناك الوريث
انما أنت يا حبيبى رجاء — ولقد يخلف الرجاء ويوفى

* * *

واذا أقفر الزقاق وطاب السمر — الحلو فى ليالى الشتاء
واذا قاسم الأليف أخاه — ظلة الماء أو جناح الرداء
واذا اكتظت المسارح بالناس — وس غصت أبوابها فى المساء
والخطيبات ينتظرن على الجم — أمام الشباك فى استحياء
بين همس الهوى وجهر المذاييع — مع وريح الطباقي والكستناء
حن قلبى الى الرفيق فناديت — فضاغ النداء اثر النداء
ويطول المدى وينصرم العم — وما من صدى وما من لقاء
فأخاف انطفاء شعلة أيا — مى وأخشى جنوحها للمغيب
وأنا بعد لم أجذك ولم تن — عم بلقياك مهجتي يا حبيبى

أبو بكر المتونى

طنجة

حول آثار ابن رشيق

عبد العلي الودغيري

١ - الشعر

ترك ابن رشيق ، ديوان شعر متفرق في بطون المصادر القديمة ، وقد قام الاستاذ عبد العزيز الميمنى بمجهود طيب ، اداه الى جمع ما استطاع العثور عليه من المتفرقات ، وطبعه مع اشعار ابن شرف في كتيب سماه : (النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين) وقد بلغ ما جمعه هنالك 496 بيت ، اشتملت على 155 مقطوعة وقصيدة . ثم قام بعده الدكتور عبد الرحمان ياغي بتتيميم ما بداه الميمنى اذ استطاع ان يضيف الى مجموعته مقدارا آخر ، فخرج ديوان ابن رشيق الذي طبعه بدار الثقافة في بيروت ، في 741 بيت تشتمل على 214 مقطوعة وقصيدة . على ان هذه الجهود التي بذلها الرجلان ، لا تدل على اكتمال الديوان ، اذ مقدار ما سلم منه لا يمثل الا جزءا - ربما كان ضئيلا - من

الأصل ، وذلك لأسباب منها أن أكثر ما تضمنته المجموعة المنشورة ، لم يكن في الأصل إلا أبياتا أو مقاطع متنوعة من قصائد طويلة . وقد كان عدد أبيات النونية التي قالها في رثاء القيروان 122 بيت ، فلم يسلم منها الآن غير هذا القدر الذي يقل عن النصف ، وهو 56 بيتا ، ومع ذلك فهي تعد أطول قصيدة في الديوان ، مع أن طول البحث يمكن أن يخرج أشعارا أخرى لم تقع عليها يد الرجلين ، ومن هذا القبيل بيت ورد في قراضة الذهب ، من أصل ثلاثة أبيات قالها الشاعر في الخروج للاستسقاء ، وذكر منها ياغي في مجموعته بيتين فقط ، وهذا البيت هو قوله :

قد خرجنا بنية الفيث نستسقى — قى ، وقد أوحشت وجوه البلاد
.... الأبيات (1)

ثم إن المجموعة التي استخرجها الرجلان من بطون كتب الأدب والتراجم والتواريخ كالذخيرة لابن بسام ، وزهر الآداب للحصري ، ووفيات ابن خلكان ، ومعالم الإيمان ، وغيرها ... ومن مؤلفات الشاعر نفسه التي وصلتنا كالعمدة ، والقراضة ، وما تبقى من كتاب الانموذج ، ليست في الواقع سوى منتخبات واختيارات من ديوان ابن رشيق ، كان صاحبها وكان الأدباء والكتاب يوشحون بها صفحات مؤلفاتهم على وجه الاستشهاد ، والتمثيل ، لا على جهة الإحصاء أو الاستقصاء ، فلذلك أتت ولها من الخصائص ما يكون لأبيات الشواهد والقطع المبتسرة ، فكل بيت أو مقطوعة منها وردت وهي معزولة عن جو القصيدة الأصلي ، فقدت ما يكون لها من الارتباط العضوي بما قبلها وما بعدها ، وقد ذكرنا كل هذا لنصل إلى نتيجة ، وهي أن كل الأحكام والنتائج التي يمكن ترتيبها أو استخلاصها من هذا الشعر الذي بين أيدينا يجب أن تبنى على جانب كبير من الحذر والتحفظ ، وليس بوسع الباحث الذي يريد الاستفادة من الديوان في ربط نتائج ابن رشيق الشعري بأطوار حياته وأفكاره مثلا ، أن يعتمد هذه النصوص إلا على سبيل الاستئناس ، ولعل الصعوبة التي

(1) الأبيات في قراضة الذهب . ص . 101 ، تحقيق الشاذلي بويحيى ، وقد أغفل المحقق إلى التنبيه على هذا ، وقابل بالديوان . ص . 69 .

يلقاها الناقد لشعره ، هي أكثر من أية صعوبة أخرى ، لأنه يجد نفسه أمام نصوص ناقصة مبتورة .

غير أن هذه التحفظات التي إبدناها ، لا ينبغي أن تصدنا عن إبراز بعض الجوانب والقضايا النقدية التي تطرحها هذه النتف المتبقية ، أمام القارئ . وسأقتصر هنا على ثلاث زوايا محددة في النظر الى هذا الشعر ، هي جانب الاصاله والتقليد ، وجانب المعاصرة ، والجانب الذاتي .

١ - بين الاصاله والتقليد :

ان جل الذين بحثوا في حياة ابن رشيق وشعره ، قد وقفوا هنيهة امام ابيات ومقاطع كثيرة من ديوانه ، وربطوا بينها وبين ما يشابهها في المعنى او المبنى لدى شعراء المشرق المشهورين كالمتنبي ، والبحتري ، وأبي تمام ، وأبي نواس ، وابن المعتز ، وحكموا على شاعرنا بأنه كان يجري في فلك هؤلاء ، وأمثالهم ، مقلدا او سارقا ، والواقع ان اتهام ابن رشيق بالتقليد لكبار الشعراء ليس أمرا جديدا ، فقد تعرض في حياته لامثال هذه التهم ، مما دفعه اولا الى كتابة باب طويل عن السرقات الشعرية في « العمدة » وقسمها الى أنواع ، ثم بين ما يعد منها سرقة في نظره ، وما يعد توليدا ، وما يحصل من ذلك عن طريق التوارد والاتفاق ، والف ثانيا كتابا خاصا في أمر السرقات والخلق الفني ، وذلك هو (قراضة الذهب) الذي كان السبب في تأليفه هو الرد على من اتهم بعض شعره بالسرقة وطعن عليه ونازعه في معناه .

وابن رشيق كشاعر ، كان يعتقد ان السرقة باب (متسع جدا لا يقدر احد من الشعراء ان يدعي السلامة منه) (العمدة . 2 / 280) . بل انه في القراضة يصل الى حقيقة مهمة ، تسلط بعض النور على طريقة من الطرق العديدة التي تلهم الشاعر ، فقد يورد الشاعر لفظا لمعنى فيفتح به لصاحبه معنى سواء ، لولاه لم ييفتح . (القراضة . ص 43) . فكما ان الشاعر تقع اذنه على كلمة شاردة يسمعها في السوق او الشارع صدفة ، فتثير فيه دوافع الخيال وتحفزه على الخلق والابداع ، فاذا

الكلمة العابرة السوقية ، قصيدة طويلة ذات صور شعرية موحية ، فكذاك المعاني التي يمر بها في قراءاته . وقد يكون هذا الابداع بعد ذلك شيئا مبتكرا رغم انه استوحاه من معنى او لفظ سابق ، وقد يكون ذلك العمل الشعري مجرد توليد وتنويع للمعاني والصور وذلك بالاضافة ، والتذييل ، أو النقص والطي ، والاجمال ، والتركيز . فمن هذا الطريق يتوصل ابن رشيق الى تبرئة كثير من شعره ، وشعر غيره ، مما يمكن اتهمه بالسرقه والتقليد ، على ان راي ابن رشيق اذا كان وجيها ومحترما في مجال التنظير ، فاننا لا نحاسبه على هذا النوع من التقليد بل علينا ان نعهده من حسناته ، اذ ليس هناك عمل فني يأتي صدفة ، مائة في المائة ، دون ان يكون مسبقا باثارة وايحاء ، او الهام ، او حافز ، ولكننا نحاسبه على التقليد الذي جعلنا ننتقل من شعره الى شعر غيره فلا نحس اثناء ذلك بصعوبة الانتقال ، او بتغيير يطرا على الجو الشعري ، فالذي يقرأ من قصيدته في رثاء المعز هذا البيت :

فالصوت في صحن ذاك القصر مرتفع والستر من باب ذاك البهو منهتك

لا يلبث ان يتبادر لذهنه بيت البحتري الشهير في قصيدته التي رثى بها المتوكل :

واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل ، استقاره وستائره

فالصياح المتعالي في صحن القصر ، والاستار المتهتكة ، صورة مكررة بالفاظها ومعانيها في هذين البيتين ، والغريب في الامر هو ان تكرر هذه الصورة او بعض منها عند ابن شرف القيرواني ، زميل صاحبنا ومعاصره وصديقه ، وذلك حين يقول من قصيدة رثى بها خراب القيروان على يد الاعراب القادمين من صعيد مصر ، وهي على وزن وقافية البحتري :

ترحل عنها قاطنوها فلا ترى سوى سائر او قاطن وهو سائر
تكشفت الاستار عنهم وربما اقيمت ستور دونهم وستائر

(النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف . ص . 98) ولا يحسبن
أحد ان المشكلة هنا منحصرة في كلمة (الاستار) ولا في عبارة (ترحل
عنها قاطنوها) التي عوض بها الشاعر قول البحتري :

تحمل عنه ساكنوه فجاءة

ولكنها تتعدى ذلك الى الجو الشعري كله ،

وفي موضع آخر من الديوان نقرا لابن رشيق قوله :

في الناس من لا يرتجى نفعه الا اذا مسس باضرار
كالعود لا يطمع في طيبه الا اذا احرق بالنار

(الديوان . ص . 78) فهي نفس طريقة ابي تمام التي يستعملها في
توكيد المعاني عن طريق التمثيل ، كما في قوله :

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت ، اتاح لها لسان حسود
لولا اشتغال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

هذا زيادة على ان المعنى عند الشاعرين مكرر ، وان اختلف المقام،
وهذه الامثلة كثيرة في الديوان .

غير ان المشكلة الاساسية التي يطرحها موضوع التقليد في
ديوانه هي اكبر مما تحتملها هذه العجالة ، ذلك ان ادب العرب الاسلامي
كله بما فيه افريقيا الشمالية ، ظل فترة طويلة واقعا تحت تأثير
« الشرقية » ، وقد كان ابو علي القالي الذي مر بالقيروان في فترة ما
بين 328 و 330 هـ احد الرجال الذين دعموا اسس هذه الشرقية في
الادب الاندلسي والمغربى بما له من تأثير خاص . وقد تزايل عنه
حسب ما رواه ابن خير الاشبيلي عدد من كتب الشعر التي قدم بها من
بغداد ، واخذت عنه بالقيروان . وقد كان من اسباب هذا التأثير

الشرقي - كما هو معروف - اعتماد المغاربة على الكتب الشرقية في تثقيفهم ، والاتصال الوثيق بين الشرق والغرب الاسلاميين ، هذا الاتصال الذي تم عن طريق الرحلات المتبادلة ، فظل عبر العصور يمسك على الامة العربية وحدة عراها ، رغم الانقسامات السياسية والمذهبية .

واذا كانت الاندلس والمغرب ايضا قد عرفا الموشحات والازجال ، والمسمطات والمخمسات ، والمزدوجات ، كما عرفا نوعا من الاستقلال في الشخصية الادبية ، حين بدا ادباء الغرب الاسلامي منذ القرن الرابع الهجري ، يحسون بوجوب ابراز هذه الشخصية وقيامها ، فان ابن رشيق على كل حال ، لم يكن من الوشاحين والزجالين ، كما لم يهتم بالمخمسات والمسمطات والمزدوجات لانها في نظره لا تتفق الا لذوي الفراغ واصحاب الرخص ، كما يقول في باب التقفية والقرصيع ، من كتاب العمدة : (وهذا الجنس موقوف على ابن وكيع ، والامير تميم بن المعز ، ومن ناسب طبعهما من أهل الفراغ ، واصحاب الرخص) (1/182)

وهكذا لو ان الباحث اراد ان يطرح على نفسه هذا السؤال : هل كان لابن رشيق مدرسة شعرية خاصة ، في تونس او المغرب ، كله او العربية عامة ؟ فانه لا يستطيع ان يجيب عن ذلك بالاثبات ، بل ان ظللا كثيرة لشخصيات شرقية واندلسية قد عكست الوانها على شعره ، وتركت فيه خصائصها ، وقد كان من الشخصيات الاندلسية التي قلدها ابن دراج القسطلي ، كما يحكي عن نفسه في القراضة (ص 53) ولا غرابة في هذا التأثير او ذاك ، فقد كانت القيروان - واقعة بين الشرق والغرب الاسلاميين ، وكان الوسط الذي احتك به ممتلئا بالعلماء والادباء والنقاد المتأثرين بالشرق وعلومه ، كأبي جعفر القزاز اللغوي الاديب . وكانت اللغة العربية التي هي وسيلة التعليم في كل الاقطار الاسلامية ، من اكبر العوامل في ربط ثقافة المشرق بالمغرب ، كما ان اللغة الفرنسية المنتشرة اليوم في شمال افريقية من اكبر العوامل في ربط ثقافة المتكلمين بها بثقافة الغرب . واذا كان ابن رشيق ماجنا في شعره كأبي نواس ، ومولدا للمعاني والبديع كأبي تمام ، ومفرما بالتشبيهات ، ووصف الازهار والثمار والنوريات ، كأبي المعتز . فانه مع

هذا كله كان يحس بشخصيته بشكل قوي ، وذلك منذ تفتت فيه قريحة الشعر ، وازداد هذا الاحساس بالشخصية الشعرية حين رأى شيخه ابا اسحاق الحصري القيرواني يتكلم فى بعض مجائسه عن نيته فى كتابة مصنف يرتب فيه الشعراء حسب اسنانهم ، فوجه اليه هذين البيتين :

رفقا ابا اسحاق بالعالم حصلت فى اضيق من خاتم
لو كان فضل السبق مندوحة فضل ابليس على آدم

(الديوان ص 174) . فهو لا يحب ان تذييل باسمه لائحة الشعراء اذ كان اصغرهم ، ثم ليست الشاعرية مشروطة بالسن فى رايه ولعل من اثر الاحساس بالذات ، انه عقد بابا للقدماء والمحدثين فى (العمدة) قال فى اوله متابعا صيحة ابن قتيبة : (كل قديم من الشعراء فهو محدث فى زمانه بالاضافة الى من كان قبله ..) 1 / 90 . وهو فى ذلك معجب ومتأثر برأى استاذ عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى الذى يقول : (قد تختلف المقامات والازمنة ، والبلاد ، فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند اهل بلد ما لا يستحسن عند اهل غيره ..) العمدة 1 / 93 . فحكمه بالمساواة بين القديم والمحدث لما تقتضيه البيئة المتغيرة ، والظروف الزمانية ، مع حثه ودعوته الى دراسة القديم دراسة عميقة ، وتكرار الدعوة الى ضرورة الثقافة للشاعر ، اقول ان رايه هذا لا شك ايضا نابع عن احساسه بشخصيته التى لم تكن دائما مستلبة ، ولا ادل على هذا الاحساس فى جانب آخر ، انه فى كتبه كان دائما يضع نفسه ونماذجه الشعرية بازاء اشعار الفحول القدامى من امثال امرئ القيس ، والمتنبى ، والبحتري . . الخ . وهذا امر سبق الاستاذ عبد الرؤوف مخلوف ان اشار اليه فى بحثه حول ابن رشيق وتقد الشعر .

فاذا كان ذلك هو ابن رشيق كما تصوره آراؤه ومؤلفاته ، فلماذا لم يعمل على ابراز هذه الشخصية فى انتاجه الشعري ؟ او بعبارة ، لماذا لم يتخط مرحلة المقلد المحسن الى مرحلة المبدع المبتكر ؟

والحق ان شاعرنا مهما اتهمناه بالقصور والتقليد ، فاننا لو بحثنا في ديوانه ، لوجدنا بعض مناحي التجديد او الابداع باصح تعبير ، ولو حسب النظرة التي ينطلق منها هو في فهم الابداع والابتكار ، فهو في كتابه العمدة ، حين تعرض لباب المخترع والبديع (ص . 262 / 1 وما بعدها) جعل المخترع ثلاث درجات ، ووضع اسما خاصا لكل درجة ، فهذه **المخترع** ، وهناك **التوليد** ، وهناك **البديع** . فالمخترع هو ما لم يسبق اليه قائله ، ولا عمل احد من الشعراء قبله نظيره ، او ما يقرب منه . والتوليد ، خاص بالمعنى ، وهو ان يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، او يزيد فيه زيادة ، وان كان فيه نوع من الاقتداء يتجلى في الجناس بالبيت الاول ، والمقابلة في الثاني ، والاستعارة في الاثنيان بالمستطرف الذي لم تجر العادة بمثله ، ويقصد بذلك المحسنات البديعية التي منها المجاز والاستعارة ... الخ .

فاذا فتشنا في ديوانه ، لنقيس شعره بهذه المقاييس التي وضعها بنفسه ، وجدنا فيه نتفا لا بأس بها من هذه الانواع التي ذكرها ، كهذا المعنى الذي نجده في قوله :

من ذا يعالج عني ما أعالجه	من حر شوق اذاب القلب لاعجه
ومن يكن لرئيس الشوق داخله	يكن لفرط الضنى والسقم خارجيه
كادت خلاخيل من أهوى تبوح به	سرا ، وغصت بما فيها دمالجه

(الديوان . ص . 47) . فبالاضافة الى ما في الابيات من بديع يتجلى في الجناس بالبيت الاول ، والمقابلة في الثاني ، والاستعارة في الثالث ، هناك هذه الصورة الطريفة التي ولدها الشاعر حين زعم ان الخلاخيل تبوح بسر الحب ، وان الدمالج قد غصت بهوى المحبوب .

ومن ذلك هذه الصورة البديعة التي تبدو من خلالها الثريا :

كانها ربوة شماء كللهما نور البهار وقد هبت لها ريح

(الديوان . ص . 53) .

وهذه التي يصور فيها البرق لأول مرة بامرأة تدعى سليمي ، وقد
أشرفت من أعالي القصر المنيف ، وهي تمسك كفها تارة ، وتقبضها
أخرى :

أرى بارقا بالابلق الفرد يومض يذهب ما بين الدجى ويفضض
كان سليمي من أعاليه أشرفت تمد لنا كفا خضيبا وتقبض
إذا ما توالى نبضه نفض الدجى له صبغة المسود أو كاد ينفض

(الديوان . ص . 97)

وهذا الاستغلال الجديد لصورة متكررة ، في حياة المثقف العربي
القديم الذي اعتاد على الرواية والسند :

أصح وأقوى ما سمعناه في الندى من الخبر الماثور منذ قديم
أحاديث ترويه السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم

(الديوان . ص . 170)

ومن المواضيع التي لا أعلم من طرقها قبله في الأدب العربي ، وصفه
للزرافة بأبيات طويلة ، في قصيدة مدح بها المعز بن باديس ، الديوان .
ص . 17) . ولا أجد بعد هذا ما أصف به هذه الأبيات التي قالها متفzلا
سوى أنها جمعت بين خفة الوزن ، ورقة العبارة وطرافة المعنى :

بين أجفانك سحر ولاغصانك بدر
جردت عيناك سيفي من ، لذا أمرك أمر
فعلى خديك من نـز ف دما العشاق اثـر

ومن الكثبان شطـرـ لك ، والاغصان شطـرـ
وسواء قلت : در ما ارى ، او قلت ثغرـ
وبماذا اصف الخصـ ر ، وما ان لك خصـ
بك شغلي واشتغالي ومضى زيد وعمـرو

(الديوان . ص 72) . ولا ما اصف به ايضا هذه الابيات التي
قالها كما يبدو وهو على ظهر السفينة التي حملته الى صقلية ، وغيبـت
عنه وجه الوطن الى الابد ، سوى انها تمثل مرحلة النضج الشعري ،
واكتمال الرؤيا لدى الحسن بن رشيق (الديوان . ص 48) :

ولقد ذكرتـك في السفينة والردى متوقع بتلاطم الامواج
والجو يهطل والرياح عواصف والليل مسود الذوائب داح
وعلى السواحل للاعادي غارة يتوقعون لفارة وهيـاج
وعلت لاصحاب السفينة ضجة وانا وذكرـك في الذ تنـاج

والحق اني بدأت استشعر هذا النضج فى شاعرية ابن رشيق ،
منذ ان اصيب بأول نكبة اثر ضياع القيروان وتخريبها ، فرغم انه لم يكن
قد توفى فى نونيته التي رثى بها القيروان كل التوفيق بالقياس الى مرثي
ابن شرف ، اذ كان هذا اصدق منه تعبيرا ، واكثر شفافية ، اقول . رغم
ذلك ، فان بدور النضج والاكتمال بدأت تجد مجالها الخصب فى نفسه
منذ ذلك الحين .

ب - الشاعر والعصر :

ولعله من باب الاصاله لدى الشاعر ، عصريته التي تكشف عنها بعض
المقطوعات من ديوانه ، فقد كان ابن رشيق فى كثير منها مؤرخا - على
الاقل - لذلك الجانب المترف الذي عاشته الطبقة الحاكمة والتي تفيأ

بظلها ، وتنعم بأرزاقها وعطاياها . وكان الامير المعز بن باديس — وقد اتخذه مع زميله ابن شرف شاعره الخاص — يقترح عليه كثيرا من المواضيع للقول فيها ، اما على سبيل الاختبار ، او على سبيل التندر والتفكه ، فقد امره مع صديقه يوما ان يصنع شعرا في وصف سوق النساء وما يكون فيها من الزغب الناعم ، وفي فترات اخرى كان يدعو للقول في اتفه الاغراض وأحقرها ، فمن هنا تدرب صاحبنا على الارتجال ولديهة في وصف كثير من خصائص البيئة القيروانية ، من الثمار على اشكالها ، كالشمش والتفاح والاترج ، والباذنجان . الخ . والحيوانات الآهلة والغريبة ، كالبغال ، والزرافة والحمار ، والفرس ، والاوز .

ومن جانب ثان ، كان العصر في القيروان مشبعا باللهو والمجون ، لانت فيه طباع الناس ، ورقت الاذواق ، وتساهل رجال الدين والفقهاء ، وتغاضوا عن بعض مظاهر الانحلال ، بل ان الشيخ الكبير في السن والعلم ، لم يكن يجد غضاضة في ان يقضي سحابة نهاره في مجالس العلم والتدريس ثم ذبالة ليله بجانب طنبور و غلام . وبعبارة ، يمكن القول ان الشخصية القيروانية في هذا العصر كانت اشبه ما تكون بالشخصية الحجازية في العصر الاموي كما صورها كتاب الاغاني لابي الفرج ، من انها شخصية جمعت بين العلم والدين ، وبين الغناء والموسيقى واللهو ، فكان احد كبار علمائهم لا يستنكف من ايقاف الدرس لسماع الغناء .

وقد كان ابن رشيق امينا في تصوير هذه البيئة القيروانية ، بمجونها ولهوها ، على اننا لا يجب ان نذهب بعيدا في التصور ، اذ انه في الواقع لم يهتم الا بطبقة معينة من المجتمع ، تلك التي انتمى اليها فأحبها واخلص اليها ثم بكأها اخيرا حين افتقد نعيمها .

وهناك قسم آخر من شعره ، ارخ فيه لاحداث مهمة عرفتھا تونس مثل خراب القيروان ، وموت المعز ، والهدية التي بعث بها الفاطميون من مصر ، وانقضاء النورمان الروم على شواطئ البلاد ، وحالة الاندلس في عصره ، الى احداث اخرى صغيرة . على انه لو حاولنا ان نطرح مفهوم المعاصرة ، كمعناة لمشاكل العصر ، ووعي بالتاريخ وقضاياه السياسية

والاجتماعية والفكرية ، وكموقف والتزام ، على شاعر مثل ابن رشيق ، عاش في القرون الوسطى ، فان ذلك سيكون من احدى جنيات النقد حين يقيس الماضي بمقاييس جد معاصرة .

ج - الشاعر والذاتية :

والمجموعة الثالثة من اشعار الديوان . تتناول الجانب الذاتي لابن رشيق ، وتقدم لنا ملامح عن شخصيته من زوايا مختلفة ، فمنها ما يصور لهوه ومجونه ، ومن خلالها يبدو الشاعر مغرقا في حب الفلمان ، والتفنن في الحديث عن ملاحظتهم وجمالهم . وتطفئ صورة الفلام في الديوان حتى تكاد المرأة معه تختفي من حياة الشاعر ، وهو في ذلك يبلغ حد الفحش ، والتصريح بالشهوة ، مما لا يحتمل المقام ذكره ، وربما بلغ به التصريح احيانا الى ذكر اسماء معشوقيه كقوله :

اسلمني حب سليمانكم الى هوى ايسره القتل

(الديوان . ص . 142) . واذا كان المعروف عن هذا النوع من الشعر ، انه يعتمد على المبالغة في تصوير محاسن الفلام الشهوانية ، وابرار مواطن الفتنة به ، فان شاعرنا كان موفقا في ذلك كل التوفيق ، وان كان لم يخرج عن النطاق الذي رسمه من قبل ، شعراء المجنون الكبار ، كأبي نواس وامثاله ، ومن املح قطعه في هذا للموضوع قوله :

يا من يمر ولا تمــــ	ر به القلوب من الفرق
بعمامة من خــــده	او خده منها استــــرق
فكأنه وكأنها	قمر تعمم بالشفــــق
فاذا بدا اذا اثــــنى	واذا شدا واذا نطــــق
شغل الخواطر والجــــوا	نح ، والمسامع ، والحدق

(الديوان . ص . 28 1) . واما الجانب الوجداني العاطفي ، في
شعر الفزل فيكاد يختفي من الديوان ، لان الشاعر لم يكن كما يبدو - يعاني
من عاطفة حب صادق .

ومنها ما يصور مجالس الشراب والخمر والندماء والسقا ، فيبدو
الشاعر من خلالها مغيبا في كؤوس الخمر لا يصحو ، وان كانت الخمرة
عنده ليست الا وسيلة من وسائل التلذذ والمتعة ، مثلها مثل الغناء
والموسيقى ، ولا تكتسي اي بعد آخر ، كأن تكون وسيلة هروب ، او رمزا
من الرموز ، ويظهر انه في مرحلة مجهولة من حياته ، قد اقلع عن تعاطي
الخمر وانصرف عن اللهو ، او على الاقل - ذلك ما يوحي به قوله :

نزعنت عن اللهو وعن المدامة	فلا مللا نزعنت ، ولا سامة
ولكن خان معشوق واضحى	نديم وهو من عدد الندامة
فيا اجفاني اعتنقي مناما	ويا قلبي قدمت على السلامة

(الديوان . ص . 180) . وربطه في البيت الاول بين الخمر والهوى ،
له من الدلالة ما يوحي بأن الشاعر انما كان يتخذ منهما معا ، وسيلة الى
لذته ، وانسه .

ومنها ما يصور نفسيته وبعض أخلاقه ، ومن خلالها يبدو الشاعر
كريم الاخلاق . واليد ، مسرفا ومبذرا لا ينتهي عن ذلك ، ودودا محبا
لاخوانه وان تجافوا عنه ، مترفعا عن مقابلة العداوة بمثلها ، بعيدا عن
النميمة ، رقيق الدين ، مع ايمان بالله لا يحيد ...

وقد كان ابن رشيق مع رقة دينه التي صورتها اشعاره وافصح عنها
قوله :

اني لقيت مشقة	فابعث الي بشقه
كمثل وجهك حسنا	ومثل ديني رقة

(الديوان . ص . 131) . لا يفقد الوجه الآخر من شخصيته ، اذ كان مع ذلك اماما في الادب واللغة والنقد ، وكاتبا من كتاب الديوان ، وواحدا من رجال القصر وحاشية الامير ، وهي وظائف تقضي ان لا يجعل من اللهو وكده وغايته ، وان لا تفقده الخمر مروءته واحترامه ، ومن هنا فاننا لا نجد ابن رشيق يستغل حالات سكره والتذاذه للطعن في الدين او الجهر بالشك والالحاد ، على نحو ما كان يفلت من لسان ابي نواس وامثاله ، بل هو في احدى غلامياته لا ينسى ان يؤكد اسلامه :

كذا بلا ذنب ولا زلة يقتل هذا الرجل المسلم

(الديوان . ص . 186) . وما لنا نذهب بعيدا في الدفاع عن ايمانه العميق ، وهو احد من ينسب اليهم التأليف في شرح الحديث ، فقد ذكروا ان من مؤلفاته ، كتابا في شرح موطأ مالك ، وآخر في اختصاره .

ومنها الاشعار التي تمثل الجانب التأملی ، ضمنها خلاصة تجاربه وحياته المتقلبة ، والجانب التعليمی الذي يقصد به التوجيه ، كقوله :

اختر لنفسك من تعادي كاختيارك من تصادق
ان العدو اخو الصديق —————
ق وان تخالفت الطرائق

(الديوان . ص . 130) نحا فيها الشاعر الحكيم ، منحى المتنبي وغيره من الذين جرت الامثال الشعرية على لسانهم ، وبعض من هذه الاشعار التأملية ما بث فيه شكواه وآلامه ، وبعض قليل منها ضمنه رايه في الشعر والشعراء يقول من قصيدة :

فهاك من محكمات القول معلمة بالشعر فيك وشر الشعر ساذجة
فان حولك قوما زاد شرهم في البرد حتى اصاب الناس فالجه

(الديوان . ص . 48) . فهو ممن يومنون « بالصناعة الشعرية » ولا يقنعون منه بما كان بسيط النسخ . وإذا كان في العمدة قد دافع في فصول طويلة عن الشعر ، كفن تعبيرى ، وأتى بالادلة والشواهد على حاجته وضرورته ، فهو قد نظم ذلك في أرجوزة قصيرة ، فقال :

الشعر شيء حسن	ليس به من حرج
اقل ما فيه ذها	ب الهم عن نفس الشجى
	... الايات (الديوان . ص . 50)

ورغم ان هذا الدفاع او ذاك التعريف ، للشعر لا يقدم لنا مفهوما جديدا عما نعده عند غيره ، فانه على كل حال يصور لنا رؤياه للشعر ، كناقدا أولا ، وشاعر ثانيا .

وهناك بعد هذا اغراض تناولها الديوان في ابيات ومقطوعات ، كالعتاب والاخوانيات ، والمدح والهجاء والثناء ... الخ . وهي كلها لو اردنا - تدخل تحت الاقسام الثلاثة التي ذكرت .

عبد العلي الودغيري

الرباط

مختارات "بابلونيزودا"

ترجمة : د. الطاهر أحمد مكي

— 1 —

لكم تمنيت لو كانت ملابسى
حيكت من نسيج ممزق ، من دخان ،
كى أظل هناك ، غير مرئى ،
أشهد كل شىء ، ولكن من بعيد ،
أحتفظ بطابعى الذاتى ، غامضا ،
مشدودا الى ايقاع الربيع .

— 2 —

— 307 —

أعشق الحب موزعا
بين قبيلات ، وفراش ، وخبز ،
الحب الذى قد يكون أبديا خالدا ،
ويمكن أن يصبح برقاً خاطفا ،
الحب المقدس الذى يقترب ،
والحب المقدس الذى يمضى .

— 3 —

على بيت الشعر أن يكون مفتاحا
يفتح ألف باب ،
وعلى الشاعر أن يخلق مما يقع عليه نظره جديدا
لماذا تتغنون بالوردة أيها الشعراء ؟
عليكم أن تجعلوها تتفتح فى قصائدكم .

— 4 —

انى أذكر جيدا كيف كنت فى نهاية الخريف ،
كنت بقبعة شهباء ، والقلب مطمئن .
وفى عينيك يتدافع لهيب الشفق ،
وتتساقط الاوراق فى نهر روحك .
الى الجميع ، الى الجميع ،
الى كل هؤلاء الذين لا أعرفهم ، وكل أولئك

— 308 —

الذين لم يسمعوا باسمى يوما ،
الى الذين يعيشون
على ضفاف أنهارنا الطويلة ،
وعلى سفوح البراكين ، وفى ظل النحاس الملتهب ،
الى الصيادين والفلاحين ،
الى الهنود الزرق ، المقيمين
على شواطئ البحيرات ، متألقة كالزجاج ،
الى الاسكافى ، الذى يتساءل الآن ،
وهو يخيظ الجلد بأيدي معروقة ،
ايك أنت الذى كنت تنتظرنى دون أن تعرف ،
اليكم جميعا أنتمى ، وبكم اعترف ، ولكم أغنى .

— 5 —

الى الوردية ،
الى الوردية الناضجة ،
الرشيقة المتفتحة ،
الى ما فى قطيفتها من عمق ،
الى نهدها الاحمر المتفجر .
ما أكثر ما ظنوا
اننى تخليت عنك

— 309 —

— نعم ،
لقد ظنوا ذلك —
واننى لا أتغنى بك ،
وانك لست منى ،
أيتها الوردة ،
ولا أنا منك ،
واننى أضرب
فى أرجاء الدنيا ،
لا أنظر اليك ،
ولم أعد أهتم
الا بالانسان ،
وأزمتنه ،
لا ، ليس ذاك حق
يا وردتى .

— 6 —

امـرأة !
لكم تمنيت لو كنت ابنك أرضع
لبن نهديك ، قبل ما أشرب من نبع عذب ،
لكى أنظر اليك ، وأحس أنك بجانبى ، واحتويك

— 310 —

فى بسمـة ذهبية ، وصوت شفـاف .

— 7 —

حررنى من نفسى ، أريد أن أخرج من روحى ،
أنا ذلك الذى يئن ، ذاك الذى يحترق ، ذلك الذى يقاسى .

— 8 —

آه ، يا حزينتى ، ان البسمـة تمتد على وجهك كفراشة ،
ومن أجلك يا أختى ، فانى لم أتشح بالسواد .

— 9 —

أحب عشق البحارة ،
الذين يقبلون ثم يذهبون ،
يتركون وعدا
ولا يعودون أبدا ،
وفى كل ميناء امرأة تنتظر ،
والبحارة يقبلون ثم يذهبون

— 10 —

أنا فى الاحلام طفل ضائع !

— 11 —

حبى طفل ييكى

الطاهر احمد مكى

القاهرة

علم النفس في مؤسسات العمل

د. فرج عبدالقادر طه

تمهيد :

قبل أن ندخل في موضوع هذا البحث علينا أن نعرف ما تقصده بمؤسسات العمل في هذا البحث ، حتى يكون حديثنا واضحا منذ البداية . اننا نقصد بمؤسسات العمل كافة المؤسسات والمصالح والادارات والهيئات التي تمارس عملا وتقوم بنشاط وتؤدي واجبات ايا كان نوعها . وعلى هذا يصدق هذا التعريف على المصنع حيث يزاول فيه العمال والموظفون والمديرون نشاطا ويؤدون واجبات ، كما يصدق على المعهد العلمي حيث يقوم أساتذته بواجب التدريس ويقوم طلابه بواجب الحضور ومتابعة الدروس واستذكارها . كما يصدق هذا التعريف على الجيش والمصالح الحكومية والاهلية وغيرها .

اهداف مؤسسة العمل :

اذا تساءلنا عن الاهداف التي ينبغي ان تحققها اية مؤسسة عمل (بالمفهوم الذي سبق ان اصطلحنا عليه) لكانت الاجابة ثلاثة اهداف اساسية خاصة في المجتمعات النامية الشبيهة بمجتمعاتنا العربية والافريقية . وهي :

1 - انتاج وافر كميا (بمعنى كثير العدد كبير الحجم) جيد كيفيا (بمعنى ان يكون من النوع الممتاز الذي يلقي استحسانا ويصادف تفضيلا من جانب المجتمع) .

2 - راحة نفسية ورضى مهني يعم العاملين بالمؤسسة (بمعنى ان من يعمل بهذه المؤسسة سواء عاملا او موظفا ، رئيسا او مرؤوسا يكون سعيدا بعمله فيها ويفضل الاستمرار فيها عن الانتقال الى غيرها ، كما يجد في علاقاته بزملائه وبرؤسائه وبعمله كله متعة وسعادة واحساسا بالثقة في مستقبله والاحسان في عمله دون خشية الفصل التعسفي منه او الاجحاف في حقه او امتهان كرامته وانسانيته في هذه المؤسسة) .

3 - سمعة طيبة للمؤسسة بين الجمهور ورضاء عن منتجاتها ونشاطها (فلو كانت هذه المؤسسة معهدا علميا فيكون المجتمع راضيا عن مستوى خريجيه ومستوى التعليم واللوائح التي تطبق فيه ، وراضيا عن الاشخاص المسؤولين عن تسييره وادارته ، ولو كانت هذه المؤسسة مصنعا يكون المجتمع او الجمهور راضيا عن انتاجه ومقتنعا بأهميته وبدوره في الاقتصاد الوطني وبكفاءة العاملين فيه وتنظيمهم ومستواهم وسمعتهم) هذا ، ويمكننا ان نضيف ان نجاح اية مؤسسة عمل في مجتمع نام رهن بكفاءتها في تحقيق هذه الاهداف الثلاثة السابقة ، بدرجة مرضية .

اسهامات علم النفس في مؤسسات العمل :

لما كان العمل الانساني يمثل الدعامة الكبرى لاقتصاد أي مجتمع فقد تسابقت مختلف العلوم بالاسهام في خدمته وترشيده لرفع كفاءة

مؤسساته ومساعدتها على تحقيق أهدافها على أفضل وجه ممكن . ولقد ظل علم النفس غائبا عن القيام بدور فعال فى مؤسسات العمل حتى مطلع هذا القرن نظرا لحداثة النسبية ، بحيث سبقته الى ذلك علوم كثيرة كالإيكانيك والهندسة والكيمياء والطبيعة والمحاسبة والاقتصاد . لكن من حسن الحظ أن علم النفس ما أن اكتسب شخصية مستقلة ، وحقق كيانا خاصا به مع نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي حتى أدرك أهمية الإسهام فى مجال العمل بما يستطيع من تطبيق مبادئه ومعلوماته ونظرياته ومنهجه فى البحث لخدمة مؤسسة العمل . ولقد بلغ علم النفس فى هذا حدا جعله يفرد فرعاً خاصاً من فروع تحقيق هذا الغرض بالذات وهو ما يعرف الآن بعلم النفس الصناعى . وهذا الفرع يكاد يدرس فى مرحلة ما قبل الليسانس أو البكالوريوس فى معظم جامعات العالم ، وعلى الأخص فى كليات الآداب والتجارة والاقتصاد والعلوم الهندسية .

ولما كان المجال يضيق عن تعداد وشرح أوجه إسهامات علم النفس وتطبيقاته فى مؤسسات العمل فإننا سوف نكتفى بالإشارات السريعة الموجزة فقط لبعض هذه الإسهامات وتلك التطبيقات .

أولاً : فى التوجيه والاختيار المهني :

يقصد بالتوجيه المهني والاختيار المهني وجهين لعملية واحدة هي وضع الشخص فى العمل الذى يناسب مستوى كفاءته وقدراته واستعداداته وميوله وخصائصه الشخصية جسمية وعقلية ونفسية . فإذا كان التوجيه يعنى أن يختار للشخص نوع العمل الذى يناسبه أو للطلاب نوع الدراسة التى تلائمه فإن الاختيار يعنى أن نختار من بين المتقدمين لشغل عمل معين أفضلهم صلاحية لهذا العمل أو أن نختار من بين المتقدمين للمعهد العلمى المعين أفضل المناسبين لنوع الدراسة المتخصص فيها هذا المعهد ممن يتقدم له من الطلاب .

ولهذا فإن كلا من عمليتي التوجيه المهني والاختيار المهني تقوم على أساس علمي واحد فى شقين أحدهما هو أن كل عمل يختلف عن غيره - أن

كثيرا أو قليلا - فيما يتطلبه من خصائص نفسية لا بد من توافرها فيمن يشغله حتى ينجح فيه . اما الشق الثاني فهو ان كل فرد - بالمثل - يختلف عن غيره - ان قليلا أو كثيرا - في مدى توافر هذه الخصائص النفسية (كالذكاء والقدرة اللغوية والقدرة الحسابية والقدرة الميكانيكية والقدرة الفنية والقدرة اليدوية والتأزر الحسي الحركي والمعرفة النظرية والخبرة العملية والميول والصفات الخلقية والشخصية كالامانة والثقة بالنفس واللباقة الاجتماعية والمرح والانطواء والاكتئاب والعدوانية والصحة النفسية ... الخ) .

وعلى هذا يكون واجب الاختصاصي النفسي في مؤسسة العمل هو القيام بما يعرف « بتحليل العمل » لتحديد ما يتطلبه كل عمل من خصائص نفسية مختلفة والقيام بما يعرف « بتحليل الفرد » الذي يراد توجيهه أو اختياره لتحديد خصائصه النفسية . ثم يقوم الاختصاصي النفسي بعد ذلك بعملية مطابقة بين متطلبات العمل وخصائص الفرد فيوجه الى العمل أو يختار له الاشخاص الأكثر مناسبة له . ويستعين الاختصاصي النفسي في القيام بدوره هذا بوسائل من أهمها ملاحظة العمل وكيفية أدائه وسؤال المختصين فيه عن متطلباته وظروفه وواجباته ... وتطبيق الاختبارات النفسية المناسبة على الافراد واجراء المقابلات النفسية لهم ... وكلها أمور ينبغي ان تتم بشكل علمي متقن يجيده الاختصاصي النفسي عبر دراساته العلمية وتدريباته وخبراته العملية .

وأعرض فيما يلي تجربة واحدة كمثال فقط لبيان فوائد التوجيه والاختيار المهني على أساس علمي سليم :

لاحظت احدى شركات النقل والمواصلات بباريس كثرة عدد حوادث سياراتها مما كان يتسبب عنها فقد الكثير من الارواح واصابة الكثير من المارة والركاب وما يصاحب ذلك كله من خسائر مادية ومعنوية ومن اساءة

(1) دكتور احمد عزت راجح : علم النفس - الصنامي - القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر - 1965 .

لسمعة الشركة وانحراف العملاء عنها . فاستدعت الشركة احد علماء النفس ويدعى لاهي Lahy حيث كلفته بدراسة المشكلة ووضع الحلول لها . وبالفعل قام لاهي بتحليل عمل سائق السيارة ، وانتهى منه الى تحديد الخصائص النفسية اللازمة للسائق الناجح مثل القدرة العالية على تركيز الانتباه وسط مشتتات الانتباه المختلفة ومثل التأزر الكبير بين العين واليد والقدم ومثل الاتزان النفسي العالي ومثل الذكاء المتوسط وغير ذلك . واعد الاختبارات والوسائل اللازمة لقياس هذه الخصائص في الافراد واختيار السائقين بناء عليها فكان من اهم نتائج ذلك ما يلي :

1 - انخفض معدل حوادث السائقين بالشركة حتى وصل الى اقل من ربع ما كان عليه قبل التجربة من (2.2 الى 0.5) .

2 - انخفضت نسبة الذين كانوا يستبعدون اثناء التدريب لعدم صلاحيتهم حتى وصلت الى حوالي خمس ما كانت عليه قبل التجربة (من 20 ٪ الى 4 ٪) .

3 - انخفضت المدة التي كانت تلزم لتدريب السائقين للشركة من خمسة عشر يوما الى عشرة ايام فقط ، مما وفر الكثير من نفقات التدريب على الشركة .

هذا ، وينبغي الا يفهم من ذلك ان عملية الاختيار المهني تركز على اختيار افضل الاشخاص امتلاكا للقدرات والخصائص النفسية المختلفة ، كان يختار الاذكي مثلا في كافة الاحوال ويستبعد من عداه . فالذي يحدث هو اختيار من يمتلك القدرة او الخاصية النفسية بالمستوى المناسب فقط للعمل . فمثلا اذا كان العمل يحتاج لذكاء متوسط اخترنا له او وجهنا اليه ذا الذكاء المتوسط فقط واستبعدنا ذا الذكاء المرتفع او المنخفض وهكذا . . . ولو حدث عكس ذلك ، فاخترنا الممتاز في قدرة ما لعمل يتطلب ان تكون هذه القدرة متوسطة لدى الشخص الذي يشغله فانه غالبا سوف يمل هذا العمل ويحتقره حتى لو بدا راضيا عنه في بداية تعيينه فيه ،

بحيث ينتهي به الامر الى الفشل فيه وتركه نهائيا في غالب الاحوال سواء برغبته او رغما عنه بالفعل لتكرر فشله فيه ، ولقد قام بل Bill (2) بدراسة على 133 شخصا من مستويات ذكاء مختلفة يعملون في خمسة اعمال كل منها يختلف في مستوى الذكاء المناسب له . فكان العمل الاول يتطلب ذكاء مرتفعا جدا ، والثاني يتطلب ذكاء مرتفعا ، والثالث يتطلب ذكاء متوسطا ، والرابع يتطلب ذكاء دون المتوسط بينما كان العمل الخامس يتطلب ذكاء منخفضا . وبعد سنتين ونصف عاد بل الى هؤلاء الاشخاص يحصي من استمر منهم في عمله فتيين له ان غالبية مرتفعي الذكاء تركوا الاعمال التي تتطلب ذكاء منخفضا وان غالبية منخفضي الذكاء تركوا الاعمال التي تتطلب ذكاء مرتفعا ، بينما استمرت غالبية منخفضي الذكاء في الاعمال التي تتطلب ذكاء منخفضا واستمرت غالبية مرتفعي الذكاء في الاعمال التي تتطلب ذكاء مرتفعا . ولا شك في ان ترك الفرد لعمله يؤدي في الغالب الى خسارة مادية ومعنوية جسيمة تعود عليه وعلى أسرته ، في نفس الوقت الذي يؤدي فيه الى خسارة مادية ومعنوية أيضا لمؤسسة العمل حيث يتعطل العمل الذي كان مكلفا به هذا الفرد لحين ان تعين المؤسسة بديلا عنه وتدريبه حتى يصل الى مستوى المهارة اللازم لانجاز العمل والقيام بواجباته بكفاءة واقتدار . هذا بالاضافة الى ان وضع الفرد في العمل الذي يناسبه يعتبر من اهم ما يسبب له السعادة والراحة النفسية في حياته ليوفق فيه وينجح . ونظرا لاختلاف الاعمال فيما بينها من حيث متطلباتها ، ونظرا لاختلاف الافراد فيما بينهم من حيث الخصائص الشخصية المعطلة للاعمال ، فان من لا يصلح لعمل قد يكون اول المناسبين لعمل آخر .

ثانيا : في التاهيل المهني :

التاهيل المهني في جوهره نوع من التوجيه المهني يختص بالمعوقين وذوي العاهات . فقد يحدث ان يصاب الفرد بعاهة منذ طفولته أو أثناء

(2) دكتور السيد محمد خيرى : علم النفس الصناعي - القاهرة - دار النهضة العربية .

عمله او فى الحروب او فى الحوادث او غير ذلك مما تتخلف عنه عاهة او عجز دائم يقعه عن العمل او عن القيام بعمله المعتاد . وواجب التأهيل المهني فى كل هذه الحالات هو مساعدة هذا المعوق على انتقاء عمل آخر يتناسب واستعداداته الحالية ولا يتأثر بحالة عجزه الراهنة ، ثم تدريب المعوق عليه والحقاقه به بعد استكمال تدريبه ، ومتابعته بعد ذلك وهو يزاول العمل للتأكد من نجاحه فيه ، ومساعدته على حل ما يجابهه فيه من مشاكل وعقبات .

والتأهيل المهني بهذا يحقق هدفين أساسيين : اولهما المحافظة على تعبئة واستثمار كافة الطاقات البشرية للمجتمع فى عملية الانتاج ، اذ يعيد القدرة على الانتاج لأولئك الذين أصيبوا بأنواع من العجز منعتهم من القدرة عليه او من الاستمرار فى أعمالهم المعتادة . اما الهدف الثانى فهو إعادة الاحساس بالكرامة الانسانية والثقة فى النفس والاهمية الشخصية والفعالية فى المجتمع المعوق عن طريق استعادته لقدرته على العمل والانتاج فيقل بذلك احساسه بالعجز ليحل محله احساس بالقدرة والفعالية وتحقيق الذات ، مما يخفف عنه الكثير من الاحساس بالضعف والهوان . وبهذا يعود المعوق عالة على المجتمع بل يصبح ذا أهمية فيه ، يعيش واسرته من اجر عمله وعائد انتاجه عيشة انسانية كريمة .

هذا ، وكل ما سبق ان ذكرناه عن الاساس العلمي للتوجيه والاختيار المهني (فى البند السابق) يصدق بنفس الكيفية على التأهيل المهني اذ ان التأهيل المهني ليعود كونه نوعا متخصصا من التوجيه المهني يقوم على نفس أسسه ويحقق نفس اهدافه .

وقد يظن البعض ان المعوقين (ذوي العاهات) لا يصلحون للعمل والانتاج . الا انه ليس أبعد عن الحقيقة من هذا الراى المجحف . فقدرة المعوقين الذين احسن تأهيلهم على العمل والانتاج فيما تأهلوا عليه لا تقل عن مثيلاتها لدى زملائهم من الأسوياء . ذلك انه فى التأهيل يوجه المعوق الى العمل الذي يتلاءم وبنائوه النفسى وقدراته الذاتية ولا يتأثر بحالة

عجزه الراهنة . وليس هناك عمل يحتاج الى كافة قدرات الفرد الا القليل النادر من الاعمال . لهذا يوجه المعوق الى العمل الذي يحتاج لما بقيت له من قدرات ، والذي لا يتأثر بما حرم منه من امكانيات بسبب العاهة . بل ان الدراسات الميدانية التي قارنت بين مدى اقتدار المعوقين المؤهلين على العمل ومدى اقتدار زملائهم من الأسوياء مالت الى اثبات عدم وجود فرق بينهما ، وفي بعض الدراسات كان الفرق في صالح ذوي العاهات ، فعلى سبيل المثال فقط قام نوبيس Novis (3) بدراسة على 1008 عاملا من ذوي العاهات في 63 مؤسسة تبين منها ان كفايتهم الانتاجية كانت فوق المتوسط حسب تقارير اصحاب الاعمال وان نسبة تعرضهم للحوادث كانت قليلة وانهم اكثر انتظاما في العمل من زملائهم الأسوياء . ومن يزور مؤسسات يعمل بها معوقون مؤهلون يلمس بنفسه قدرتهم على العمل والانتاج والتي قد تزيد احيانا على قدرة زملائهم من الأسوياء ، مما يجعله يخرج بقناعة عميقة بأن التأهيل المهني لا يحسن فقط الى المعوق او ذوي العاهة بل وايضا الى الانتاج حيث يعبىء كافة الطاقات البشرية في المجتمع لخدمة الانتاج فلا يستثنى منها حتى من اصابته عاهة معوقة .

ثالثا : في ترشيد الادارة ::

ان الهدف الاساسي من اختيار وتوجيه وتأهيل العاملين على اساس علمي هو ان ننجح في وضع الشخص في العمل الذي يناسبه ويتفق وتكوينه النفسي والشخصي الخاص به . وليس ادعى الى نجاح الفرد في عمله وتوفيقه فيه وارتياحه له من ان يكون هذا العمل مناسباً وتكوينه النفسي وخصائصه الشخصية . الا ان هذا وحده لا يضمن النجاح في العمل والراحة النفسية فيه . بل ان الامر يحتاج بجانب ذلك الى ادارة رشيدة ترأس العاملين (ونقصد بالعاملين كل من يعمل في مؤسسة العمل

(3) كنيث هاملتون : اسس التأهيل المهني - ترجمة الدكتور سيد عبد الحميد مرسى - القاهرة - النهضة المصرية - 1962 .

من اي مستوى كان موظفا او عاملا ، رئيسا او مرؤوسا . .) وتقودهم وتديرهم بكفاءة ووعي سديدين . فمهما كان العاملون مناسبين لاعمالهم فلن تنجح مؤسسة العمل الا اذا اضيف الى هذا الشرط الاساسي شرط آخر لا يقل أهمية هو وجود ادارة رشيدة على راس المؤسسة . لهذا كم من مؤسسة فاشلة نجحت بعد تغيير القائمين على ادارتها ، وكم من اخرى ناجحة فشلت بعد ان ابعد عنها رؤساؤها الاكفاء ، هذا فى حين تظل بقية العاملين فى كلتا الحالتين دون تغيير . ويرجع السبب فى ذلك الى تغيير نوعية الادارة ومدى كفاءتها - فالادارة الرشيدة الواعية ترفع الانتاج فى مؤسساتها كما تشيع بين مختلف العاملين فى المؤسسة مناخا نفسيا مريحا وترفع الروح المعنوية لهم .

ولقد قام كثير من الباحثين بدراسات تجريبية لاستخلاص افضل الاجواء الادارية للانتاج والراحة النفسية للعاملين . ومن اشهر هذه الدراسات تلك التي قام بها ليفن Liwin وزملاؤه (4) ففى احدى تجاربهم اتوا بثلاث مجموعات من الافراد المتعادلين تقريبا فى خصائصهم النفسية ، وجعلوا الادارة فى احدى المجموعات ادارة ديكتاتورية (حيث كان الرئيس يفرض على الاعضاء نوع العمل ويقرر الخطط دون اخذ رأيهم) واخرى ادارة فوضوية ، وفى الثالثة ادارة ديموقراطية (حيث كان أعضاء الجماعة كلهم يتناقشون ويبدون الراي ويشتركون فى وضع الخطط وتقرير نوع العمل) . وكلفوا كلا من المجموعات الثلاث بنفس العمل وأمدوهم بنفس الادوات والخدمات ، ثم اخذوا يلاحظون الفروق بين مستوى الانتاج والروح المعنوية والعلاقات الانسانية داخل كل مجموعة . فتبين لهم ان الانتاج فى المجموعة الديموقراطية كان مرتفعا كما وجيدا كيفا ، كما كان يستمر حتى فى غياب الرئيس ، وكان الرئيس محبوبا من مجموعته ، كما كان أعضاء المجموعة الديموقراطية هذه يحبون بعضهم وتقل

(4) موريس فيتلسي : علم النفس المهني - ترجمة الدكتور احمد زكي صالح - فى ميادين علم النفس - اشرف على تاليفه جيلفورد - اشرف على ترجمته الدكتور يوسف مراد - القاهرة - دار المعارف - 1956 .

بينهم المشاحنات وترتفع الروح المعنوية لهم ، وكان الامر عكس ذلك تماما فى المجموعة الفوضوية . اما المجموعة الديكتاتورية فعلى الرغم من ان انتاجها كان مرتفعا كما وجيدا كيفا فى مستوى قريب من مستوى المجموعة الديمقراطية الا ان الانتاج كان يتوقف عند غياب الرئيس كان الرئيس مكروها من اعضاء مجموعته وكانت العلاقات الداخلية بين الزملاء سيئة ، والروح المعنوية لهم منخفضة . ولما قام المجربون بتغيير الجو الاداري فى المجموعة الفوضوية الى جو ديموقراطي ارتفع انتاجها وتحسنت العلاقات الانسانية بين اعضائها وارتفعت روحهم المعنوية . ومع ابدال الجو الاداري فى كل مجموعة من المجموعات الثلاث واعادة التجربة تأكدت نفس النتائج من ان الجو الاداري الديموقراطي افضل الاجواء الادارية على الاطلاق لصالح الانتاج ولصالح العلاقات الانسانية والراحة النفسية للافراد فى نفس الوقت . ولهذا فاننا نقر ما جاء فى احد تقارير الامم المتحدة (1) من ان السبب الاول فى فشل المشروعات التى تقدمها الامم المتحدة للدول النامية هو عدم وجود ادارة واعية رشيدة تستطيع ان تدير المشروع وتسيره .

ومن هنا كانت الاهمية البالغة لتدريب المديرين والرؤساء على الاساليب النفسية العلمية السليمة لادارة العاملين . وفى هذا يساعد علم النفس على ترشيد الادارة وامدادها العلمي النفسى للادارة الناجحة وللعلاقات الانسانية الصحيحة والصحية فى نفس الوقت . اما الاساس العلمى والفنى اللازم للادارة فان التعليم النظرى والتدريب العملى والدراسة العلمية المنظمة بالمعاهد والجامعات كفيلا بتوفيره .

رابعاً : فى الارشاد النفسى :

قد تعترض بعض العاملين فى المؤسسة مشاكل توافقية او مشاكل نفسية كسوء العلاقة مع الرؤساء او الزملاء او الضيق بالعمل او نقص مفاجيء فى القدرة الانتاجية او تعرض متكرر لحوادث واصابات اثناء العمل او خلافات عادية او ضيق عام بالحياة او الفرار النفسى من اي نوع . وعلم النفس يقدم لكل هؤلاء خدماته المعروفة بالارشاد النفسى للمشكلات

التوافقية النفسية الخفيفة ، او خدماته المعروفة بالعلاج النفسي للاضطرابات النفسية الاكثر عمقا وخطورة . وهكذا تعالج هذه المشكلات التوافقية وتلك الاضطرابات النفسية بأساليب الارشاد والعلاج النفسي العلمية ، فيستعيد الفرد بذلك قدرته على العمل ويعبىء لصالح الانتاج طاقته التي كانت تبدها المشكلات والاضطرابات النفسية . وتحسن تبعاً لذلك علاقات العامل بزملائه وبرؤسائه ، كما يحسن الراحة والسعادة النفسية .

وكمثال - فقط - للفائدة التي تعود من جراء الارشاد والعلاج النفسي نذكر ان 154 عاملاً باحدى شركات السكك الحديدية ممن تكرر وقوعهم فى حوادث كثيرة عولجوا لمدة عام فنقص معدل حوادثهم نتيجة لذلك حتى وصل الى قرابة خمس ما كان عليه قبل علاجهم اذ انخفض هذا المعدل من 208 حادثة قبل العلاج الى 51 حادثة بعد العلاج ، وهو معدل أصبح يقل كثيراً عن معدل حوادث زملائهم من العاملين بنفس الشركة (5) . ولا شك ان هذا كسب كبير يعود على العامل كما يعود على الانتاج فى نفس الوقت .

خامساً : فى دراسة وعلاج مشكلات المؤسسة :

كثيراً ما تظهر مشكلات داخل مؤسسات العمل او داخل بعض اقسام منها مثل انخفاض فى حجم انتاجها او تدهور فى مستوى جودة منتجاتها او خدماتها ، او انخفاض الروح المعنوية للعاملين بها ، او سخط بعض العاملين على رؤسائهم او زملائهم او على طريقة العمل ونظمه ، او سوء سمعة المؤسسة بين الجمهور الخارجى ... الخ . وفى كل هذه الحالات يمكن لعلم النفس ان يسهم ، الى جانب اسهامات العلوم الاخرى - بدراساته العلمية مستخدماً منهجه فى البحث للوقوف على اسباب هذه المشكلات ، وباستخدام نتائج بحثه ومعلوماته ، اقتراح وتطبيق انسب الحلول لها .

(5) دكتور يوسف مراد : دراسات فى التكامل النفسى - القاهرة - مؤسسة الخانجي - 1958 .

خاتمة :

استعرضنا في هذا المقال امثلة لبعض ما يمكن لعلم النفس ان يقدمه من اسهامات وتطبيقات في مساعدة مؤسسة العمل بالمجتمع النامي على تحقيق اهدافها الاساسية الثلاثة والتي راينا انها تتركز في الانتاج الوفير الجيد ، والراحة النفسية للعاملين ، والسمعة الطيبة للمؤسسة بين الجمهور .

بل يمكن ان نضيف الى كل ذلك ان كثيرا من المشكلات التي تعاني منها المجتمعات النامية تخف حدتها بتطبيقات علم النفس واسهاماته في مؤسسات العمل . فعلى سبيل المثال فقط ، نجد ان المشكلة المصطلح على تسميتها « بهجرة العقول » اي هجرة ذوي الكفاءات العالية من بلادهم النامية - والتي هي في امس الحاجة اليهم ليسهموا في بنائها وترقيتها - وهي المشكلة التي تضخمت في الآونة الاخيرة ، واصبحت تشكو منها مختلف البلاد النامية ، يمكن ان تعالج بوضوح هؤلاء الاشخاص في الاعمال التي تناسبهم وبادارتهم وبرئاستهم بكيفية رشيدة ، وبتهيئة مناخ نفسي مريح في عملهم ، وبدراسة وعلاج مشكلاتهم بكيفية علمية . فهذا كله سوف يعمل ولا شك على التقليل من هجرتهم وعلى بقائهم في بلادهم ركيزة لبنائها ودفعها لتطورها المنشود اقتصاديا واجتماعيا .

ولما كانت البلاد النامية عموما تشكو من فوضى العمل ونقص الانتاج ، فهي اذن في امس الحاجة الى استخدام الاساليب العلمية التي تكثر من استخدامها البلاد المتقدمة ، ومنها اساليب علم النفس في ترشيد العمل والانتاج وفي رسم السياسة المثلى لتوظيف الطاقات البشرية في البناء الاقتصادي والاجتماعي ، والله الموفق .

الرباط

فرج عبد القادر طه

ابن سيده المريسي

3

بقلم: المستشرق الاسباني
الدكتور داريو كابرانيلاس رودريغس
ترجمة وتعليق: حسن الوراكلي

في بلاط دانية

يصمت ما في متناولنا ، لحد الآن ، من مصادر عن ابن سيده ، ازاء التاريخ الذي غادر فيه مدينة مرسية ليتوجه الى دانية ، والبواعث الحقيقية التي حملته على ذلك ، ويكتفي الحميدي بالإشارة الى انقطاع ابن سيده الى امير دانية ابي الحبش مجاهد بن عبد الله العامري ، وعن الحميدي تناقل هذه الإشارة بعض المترجمين فيما بعد من امثال الضبي وياقوت والقفطي والصفدي ، ويعتبر ابن خاقان ، من بين مترجمي ابن سيده ، اكثرهم تفصيلا في ايراد الخبر على هذا النحو : « وكان منقطعا الى الموفق صاحب دانية ، وبها أدرك أمانيه ، فأثر تجرده للعلم وفراغه ، وتفرد به بتلك الأراغة (1) » .

(1) انظر ، ابن خاقان : مطمح الانفس ، طبعة القسطنطينية ، (1302 هـ / 1884 م) ص 60 الحميدي ، جدوة المقتبس ، طبعة ابن تاووت الطنجي ، القاهرة (1953 م) ص 293

ويبدو لنا أنه من الممكن - من خلال ما وصلنا من أخبار عنه في دانية - تحديد تاريخ وفوده عليها بالتقريب فيما بين 1037 م - 1040 م وقد أشرف على الثلاثين من عمره . والذي لا شك فيه أن إقامته بدانية بدأت قبل 436 هـ / 45 - 1044 م ، وهي السنة التي توفي فيها ولي نعمته مجاهد العامري وبالأحرى قبل سنة 1053 م ، وهي السنة التي توفي فيها أبو عمرو بن سعيد الذي تلمذ عليه ابن سيدة كما رأينا في الفصل السابق .

ولسنا نستبعد أن يكون من بين البواعث الرئيسية التي حملته على ترك بلده والهجرة بمحض إرادته ، إلى دانية ، باعث الرغبة في الاستجارة برعاية أمير ، تناح له في كنفه فرصة التأليف والتصنيف والظفر في الآن مينة ببجوحة العيش وذيوع الصيت .

مجاهد العامري :

في دانية ، المدينة الواقعة في الشمال الشرقي من إقليم القنـت Alicante الحالي ، ظهرت إحدى مماليك الطوائف الأولى على يد الأمير أبي الجيش مجاهد بن عبد الله بن يوسف العامري الموفق وأصله مسيحي ، كان مولى من موالي المنصور ابن أبي عامر ، فانتسب كما انتسبوا جميعا ، للعامريين ، وكان مجاهد يتحلى بشجاعة وإقدام منقطعي النظر ، وفي خلافة هشام الثاني ولي من قبل العامريين حكم دانية وما حولها ، فلما تفككت أوصال الخلافة الأموية بقرطبة أعلن استبداده بدانية واستقلاله بحكمها حوالي عام 400 هـ / 10 - 1009 م ؛ وتلبية لرغبته الشديدة في الإبقاء على الخلافة الأموية في الأندلس ولو بشكل صوري بايع في عاصمة أمارته أمويا اسمه عبد الله بن الوليد المعيلي ؛ المدني : لكن هذا (أبو عبد الرحمن المنتصر بالله) لم يلبث طويلا حتى خلع .

وفي ظل مجاهد - أشهر الفتيان الصقالبة العامريين ، و ((الملك النـب)) كما يسميه المؤرخون المسيحيون - أصبحت دانية إحدى المدن الهامة في الأندلس لموقعها في منطقة غنية للغاية ، تدر حقولها محاصيل

موفورة على طول السنة تقريبا ، وفي ذات الوقت لعبت اماره مجاهد التي كانت تتألف من دانية (العاصمة) وجزائر شرق الاندلس (ميورقة ومنورقة ويابسة) دورا هاما باعتبارها قاعدة بحرية في حوض البحر الابيض المتوسط ، ومن مصنع السفن بها خرجت قطع من اسطول ضخيم يعتبر اقوى ما عرفه البحر الابيض المتوسط من اساطيل ، وبه كان مجاهد يصل ويحول في سواحل قطلونية وىروفسا وايطاليا ، وبه قاد حملته المشهورة لفتح سرسانية عام 406 هـ / 16 - 1015 م بعد ان قد استولى قبل سنة على جزائر البليار (2) .

وكان مجاهد ، على جانب عظيم من الثقافة الادبية والعلوم العربية ، وقد عرف عنه حذقة لمعاني القرآن وغريبه وقراءاته ، وتحدث المؤرخون بانه شغل نفسه بتحصيل ذلك والتعميق فيه طول حياته ، ومن اجل ذلك استدعى الى بلاطه من الشرق ومن مدن الاندلس أشهر القراء وفي طليعتهم ابو عمر الداني ، وكان مجاهد يبالغ في اكرام وفادتهم ؛ الامر الذي جعل من اهل دانية أكثر اهل الاندلس شغفا بالقراءات القرآنية (3) .

ولعل ما جمعه مجاهد من الكتب والتصانيف فى القراءات وفى غير القراءات من العلوم والفنون لم يتح لغيره من معاصريه جمعه ، ولم يكتف مجاهد بذلك ؛ بل أحاط نفسه بعلماء وشعراء وفدوا عليه من أنحاء شتى ، وكان ، أحيانا ، يأويهم فى قصره الخاص ، وهكذا كانت مجالسه العلمية تشهد مشيخة العلماء ومبرزهم من أمثال ابي عامر بن شهيد واحمد بن رشيق وابن مقانا الاشبوني وابن عبد البر وثابت بن محمد الجرجاني وهشام

-
- (2) انظر عن دانية بدائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة ٦ 1 ص 114 - 115 (مادة دانية) وعن مجاهد ، انظر أيضا ، دائرة المعارف الاسلامية ، 3 ص 666 (مادة مجاهد) ؛ وينبغي أن يضاف الى ثبت المصادر والمراجع فى هذا الموضوع مثل ما كتبه بالدرجة الاولى أمارى وسفورتا وكوديرا وغيرهم ، كتاب هام نشرته بالعربية المستشرقون الإيطالية السيدة كلايسرني تركوا ، وهو : « مجاهد العامري قائد الاسطول العربى فى غرب البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجرى » (القاهرة 1961) .
- (3) ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة القاهرة (1324 هـ / 1906 م) ج 4 ، ص 28 ، (مادة دانية) وفيما يتعلق بنشأة وتطور علم القراءات وأشهر القراء ، انظر مقدمة بلاشير للقرآن ص 102 - 35 .

أبن أحمد الكناي وغيرهم (4) ، ولم يكن وجود هؤلاء العلماء والشعراء في بلاط دانية سببا فقط في ذيوع أمر مجاهد واضفاء البهاء والروعة على مملكته ، بل ان وجودهم كان سببا في انتشار العلم وشيوع الثقافة بشكل لافت بين اهل دانية ، بما فيهم غلمان القصر وجواريه .

وقد بنى مجاهد بتضلعه في العلم وامتلاء خزائن امارته ، أغلب ملوك الطوائف ، وفي الحكاية التالية ما يصور لنا حبه للعلم ومدى ما كان يبذله في سبيله ، وقد تناقلت هذه الحكاية مختلف المصادر ، ونحن ننقلها كما أوردها الشقندي (5) : « ومن أعظم ما يحكى من المكارم التي لم نسمع لها اختا أن أبا غالب اللغوي ألف كتابا ، فبذل له مجاهد العامري ملك دانية ألف دينار ومركوبا وكسى على أن يجعل الكتاب باسمه ، فلم يقبل ذلك أبو غالب وقال : كتاب الفته ليتتفع به الناس ، وأخلد فيه همتي ، أجعل في صدره اسم غيري ، وأصرف الفخر له ، لا أفعل ذلك ، فلما بلغ هذا مجاهدا استحسنت أنفته وهمته وأضعف له العطاء ، وقال : هو في حل من أن يذكرني فيه ، لا نصده عن غرضه (6) » .

وقد دفع بمجاهد حبه للغة العربية وتمكنه من عروض شعرها الى المشاركة في التأليف ، ويقال بأنه أملى كتابا في العروض يدل على قوته فيه (7)

(4) عنيت السيدة كلايسري بالحديث عن هذه الشخصيات العلمية وذكر مؤلفاتها ؛ انظر كتابها « مجاهد العامري ... » ص 221 - 251 ، وقد تحدثت عن ابن سيدة في ص 226 - 227 معتمدة على بعض المترجمين الذين تحدثنا عنهم في الفصل الاول ونفيد منهم في هذه الدراسة .

(5) رسالة في فضل الاندلس ، الترجمة الاسبانية لغرسية غومس (مدريد - غرناطة ، 1934) ص 49 ، وعن المصادر الاخرى التي تقدمت الشقندي أو تأخرت عنه ، انظر ، كلايسري (مجاهد العامري) ص 220 - الحاشية رقم 1 .

(6) حول تمام بن غالب بن عمر المعروف بابن التياني أبو غالب المرسي المتوفى 436 هـ / 1044 م انظر ، P. Boigues البحث رقم 98 ، ص 123 - 124 ، « والترجمات » الواردة هناك التي خص بها ابن التياني كلا من ابن بشكوال والضبي وابن خلكان ، وانظر القمري ، النفح ج 2 ، 117 ، وانظر

Cayangos, « The Hist. of the Moh. Dynasties in Spain » وحسب هؤلاء المؤلفين ان الحادثة كانت حين دخول مجاهد مرسية حيث التقى بابي غالب ، والمعجم المتحدث عنه كان اسمه « الموعب » .

(7) مقدمة محققي « المحكم » ج 1 ص 6 .

ويبدو انه كان يرغب حتى فى تصنيف معجم كامل ، لكنه لم يستطع ان يحقق هذه الرغبة لانشغاله بمهام الحكم فاستدعى ابن سيده وكلفه بذلك (8) .

ولاشك ان ابن سيده وجد فى مجاهد - وقد كان يذكره بلقب «الموفق» - الصورة المثلى للوفاء والاخلاص والكرم فى الرعاية ، فلقد افسح له مكانا للاقامة فى قصره وشجعه على تأليف أعماله المعجمية واضعا فى تناوله كل ما يحتاجه لانجاز عمله على نحو ما سنرى حين الحديث عن مؤلفاته .

ومثل هذه الرعاية التي نعم بها ابن سيده فى كنف مجاهد ، وقد كان هو الذي استدعاه الى حضرته ، تدلنا على ان شهرة ابن سيده ، يومئذ كانت قد طارت كل مطار فى الاندلس وأن انتاجه فى حقل اللغة والادب كان مما يتسابق اليه ، وما هو ذا ياقوت يحدثنا عن ذلك ملما فى حديثه برأي صاعد الطليطي : « كان مع اتقانه لعلم الادب والعربية متوفرا على علوم الحكمة وألف فيها تأليفات كثيرة ولم يكن فى زمنه أعلم منه بالنحو واللغة والاشعار وأيام العرب وما يتعلق بعلومها وكان حافظا (9) » .

على اننا نستنتج من مختلف التلميحات الواردة فى مقدمة المحكم أن ابن سيده لم يكن ، مع ذلك ، يشعر بكامل الرضى ازاء الاكرام والخطوة التي خصه بها مجاهد فى بلاطه ، فهما فى تقديره لا يتناسبان وما هو جدير به لسمو مكانته العلمية والادبية .

واذا كانت حياة ابن سيده فى قصر مجاهد تبدو أحيانا طافحة بالسعادة ، فانها بعمامة ، تتراءى مشوبة بالحزن والحسرة والقنوط لما كانت تعج به بيئة القصر من حسد ونزوات ودسائس تعكر عليه صفوه وهدوءه ؛ ولعل ذلك كان يؤثر فى نفسيته على نحو عميق نظرا لعماه .

(8) هكذا يصفه ابن سيده فى مقدمته للمحكم ، 1 ، ص 8 وسانقل تلك الفقرة فى اول الفصل الخامس ولا بد من التنبيه حتى يتجنب خلط ممكن الى أن مقدمة محققى المحكم ج 1 (القاهرة ، 1958) ، رقت من (ص 5 الى 28) أسفل الصفحات ؛ على حين رقت مقدمة المؤلف (من 1 - الى 18) أعلى الصفحات .

(9) ياقوت : ارشاد الارب ، طبعة مرجليوث ، ص 85 .

اقبال الدولة :

غير أن هذا الاحساس سيزداد تفاقما عند ابن سيده بوفاة مجاهد سنة 436 هـ / 45 - 1044 م وتسلم ابنه اقبال الدولة مقاليد الحكم في دانية ، وكان اقبال الدولة وهو في السادسة من عمره قد وقع مع أمه المسيحية ، أسيرا ، في يد الألمان حين أوقعت جيوش الائتلاف المسيحي بزعامه بنيدكتو الثامن الهزيمة بمجاهد واستردت جزيرة سردانية ، وبذلك قيض له أن يتلقى تربيته الأولى في بلاط فردريك - فريدكو الثاني - ملك المانيا ، ولم يتخلص من الأسر الا بعد سنوات عديدة .

وقد سارع اقبال الدولة بعد اطلاق سراحه باعتناق الاسلام ، ولو أن هذا لم يحمله على التحلي بأية صفة من صفات والده ، فلقد كان بخيلا، منغمسا في الملذات ، مخلدا الى الدعة والكسل ، يستنزف أموال الرعية ليحيا هو مرخي العنان في بحبوحة النعيم والترفيه ؛ وهذا هو السر في عجزه عن مقاومة صهره أحمد سيف الدولة المقتدر ثاني ملوك بني هود بسرقسطة حين أراد أن يوسع رقعة امارته على حساب دانية سنة 1076 ، فلقد تفرق عنه رعاياه وأسرعوا يسلمون المدينة للامير الظافر الذي ضم اماره دانية لمملكة بني هود بسرقسطة بعد أن خلع اقبال الدولة وساقه اسيرا الى سرقسطة حيث كانت وفاته سنة 474 هـ / 82 - 1081 م (10)

ويصف ابن سيده في مقدمته للمحكم الامير اقبال الدولة بأنه (مولاي نجيب النجباء وخير البنين الاكرم الالباء ، محي الادب ومقيم دولة لسان العرب ، فرع من أصل ، ونوع تشكل من جنس وفصل ، لا تنبت البقلة الا الحلقة (11)) .

(10) عن هذا الحادث انظر ليفي برفنصال ،
Les « Mémoires » de Abd Allah, dernier roi de Grenade
مجلة الاندلس العدد 4 (1936 - 1939) ، 42 - 44 ، وعن حكم اقبال الدولة ،
انظر المصادر التي تحدثت عن والده ، ولبحث R. Chabas أهمية خاصة ، وعنوانه :
(مجاهد ابن يوسف ، وعلي ابن مجاهد) ، أسهم به في تكريم كوديرا ونشر في
الكتاب الذي صدر بالمناسبة ص 434 - 411 ، كما ينبغي مراجعة (مجاهد العامري) .
السيدة كلاليارسرتي .

(11) طبعة القاهرة ، جزء 1 ، ص 17 .

وفى أرجوزته السالفة الذكر لا نعدم تلميحات لفترة هامة جدا من حياته ، هي تلك الفترة التي أمضاها فى بلاط دانية على عهد مجاهد وابنه وخلفه اقبال الدولة ، وفى حرف اللام ، مثلا ، نقرأ أربعة عشر بيتا ينتقد فيها بقساوة بالغة سلوك الملوك على العموم ثم يمدح سيرة علي بن الموفق قبل أن يعتلي عرش دانية :

لكن ولي أمرنا علي	فى كل مجد جده علي
وفى للعبد وللرثاد	فهو فتى السؤدد ذي السداد(12)
مضمر الکتىم ، أشم المنكب	واضحة غرته كالكوکب

وفى أربعة أبيات فآط من حرف الخاء ينوه بانشغال مجاهد بالعلم وما أنجزه من تصانيف لديه ، وفى نفس الوقت يشير ، فى تناقض الى ما طرا على حياته من تغير جذري فى كنف ابنه اقبال الدولة نتيجة لسعايات النماميين والحساد :

صبحت خير ملك مجاهدا	وكان فى جمع العلوم جاهدا
ولم أزل بشغله سميـرا	فما أفدن عنده قطميـرا
لكنما سليله أبو الحسن	قد ظلت منه فى ذرى عيش حسن
ان لم يقيض لي هناك حاسدا	اذ كل ذي صدر علي حاقدا(13)

وفى فصل الزاي أبيات يمدح فيها ابن سيده من جديد اقبال الدولة ويصفه بالنبل والاخلاص فى رعاية العلماء والشعراء ، الذين (مالهم من بعده من آوي) :

قد بار سوق الفهم الا عند من	فاق الورى، نجل العلى، ابي الحسن
علي بن الملك الموفق	لولاه سوق أدب لم ينفق

(12) مجلة المشرق العدد 36 ، ص 185 - 186 .

(13) مجلة المشرق العدد 36 ، ص 186 .

ياوي الى حضرته اهل السنن	والحكمة الفراء والذهن الحسن
وحاملو لقرءان والاداب	فى كنف منه وفى جناب
يسقيهم وابله وطله	وينشر النهر عليهم ظلله
يكرمهم بالقصد والامام	فعل ابيه ، الملك الهمام
يوسعهم رفعا اذا ما اظمـاوا	ولا يزحيهم اذا ما ابطـاوا
الا بمالوف من الحباء	كذلك فعل الاب بالابناء
سا لهم من بعده آوي	كل الورى عمرو وهم كالواو (14)

وبرغم هذا المديح ، فان ابن سيده ، فيما يبدو ، لم يلبث ان احس من الامير فتورا فى المعاملة تكشف له عن عداء الامير له ، ففر بنفسه من القصر ومن اماره دانية ، والحق اننا نجهل كنه الظروف التي دفعت بابن سيده الى اتخاذ هذا القرار الخطير ؛ وفقط فى مقدمة المحكم يزاح ، برفق ، الستار الذي يخفي استيائه ازاء جو القصر المشحون بالقلق والكدر .

ويعد الحميدي ، من بين مترجمي ابن سيده ، اول من اشار الى هذه الحادثة - وعنه نقل مباشرة او بطريق غير مباشر ، ياقوت والصبى والقفطي والصفدي - ويفترض الحميدي ان نبوة حدثت له فى ايام اقبال الدولة (خافه فيها فهرب الى بعض الاعمال المجاورة لاعماله) .

غير انه من المحتمل جدا الا يكون موقف اقبال الدولة من ابن سيده بما فيه من جفاء وازعاج ، صادرا عنه بكيفية شخصية وذاتية ؛ بل ان هذا الموقف جاء نتيجة لتلك المؤامرات التي كان يدبرها فى الخفاء بعض رجال البلاط ضد ابن سيده ، يحملهم على ذلك حسدهم على مكائنه المرموقة خلال حكم مجاهد ، وفى رأيي ان فى تفسير ابن خاقان لهذه

(14) مجلة المشرق ، العدد 36 ، ص 187 - 186 .

الحادثة سدادا لا يطالعنا به مصدر آخر (15) : (ولما مات الموفق رآش جناحه ومثبت غرره وأوضحه خاف من ابنه أقبال الدولة وأطاف به مكروه

(15) بعد الاستاذ محمد رشاد الحمزاوي⁶ من بين الذين عنوا بالكتابة عن ابن سيده قديما وحديثا ، أول من وفق الى الكشف عن أسباب ودواعي النبوة التي حدثت بين الامير اقبال الدولة وابن سيده⁶ وقد دعم ذلك بجملة حجج ودلائل يمكن الاطمئنان اليها ما لم يظهر جديد يدحضها ويفندها ، وهو يرى أن النبوة حدثت بسببين⁶ أولهما يعود الى (مؤامرة دبرت ضد ابن سيده بايعاز من منافسيه ومنازعيه من العلماء بدانية وقد أصبحت حاضرة علم ومعرفة في أيام مجاهد وبعده) (انظر الذخيرة ق1 ج1 ورقة 5 و ص8) يرأس الاولين ابن أرقم ويتزعم الآخرين ، حسبما يفهم من كلام الذخيرة أبو الحسن علي ابن سيده ، فلقد ذكر ابن أرقم في دفاعه عن نفسه وشكواه لابن صاحب الاحراس وفي فصل منها : وتفسير ما أجملته وتفصيل ما أبهمته أورده عليك محلول العقيدة منضو البردة ؟ وذلك أن اقبال الدولة أيدته الله أمرني بانشاء رسالتين الى مصر فلما علت شرفاتهما وروضت عرصاتهما ورد عليهم منها المقيم المقعد وكاد يهلكهم الحسد (...) وجالوا جولان اللباب بين الازهار مرة يستفتون الفقهاء ومرة يستشهدون السفهاء ومرة يقولون هذا يسأل عنه ان كان يقال وربما كان له في مضمار اللغة مجال ويتشورون حديث النساء بعد البعول وهريف الائمة دون الكفيل (...) فانفق رأيهم واستمر هديهم الى سؤال أبي الحسن ابن سيده فلم يفكر أبو الحسن في العواقب ولم ينظر نظر أهل التجارب فسلم لهم واغتر بمثل وشي الحيات وانقاد في زمام الزخارف والترهات » .

ثم يردف الاستاذ الحمزاوي : (ولا شك ان مهاجمة وزير من وزراء اقبال الدولة المقربين وانتقاد الرسالتين الرسميتين الموجهتين الى المستنصر بالله الفاطمي ووزيره اليازوري⁶ المعبرتين عن رأي الامير ، يعدان داعيين هامين الباء جماعة ابن أرقم علي ابن سيده واثارا غضب الامير على كاتبنا كما يشهد على ذلك ابن خاقان في مطمح الانفس (ص 60). » (وأطاف به مكروه بعض من كان حوله للطلب كحيات مساورة) وبقلب على الظن أن غضب اقبال الدولة كان على قدر أهمية الرسالتين اذ يجب ان نذكر ان ندران علي بن مجاهد كان قد كتبهما حسبما جاء في نصهما (الذخيرة 107 ص 204) سعيا للمحافظة على عادة قد سنّها والده من قبله في ربط علاقات طيبة مع الفاطميين الذين كانوا على مقربة منه في جزيرة صقلية وفي افريقية (تونس) اللتين تولي امرهما الزيريون⁶ وكان مجاهد يكتبهم أيضا بعد تحررهم من سلطة الفاطميين سعيا في الاطمئنان على ملكه وتمنيا لحسن الجوار (الذخيرة ورقة 98 وص 186)⁶ ولا بد لنا أن نلاحظ أيضا أن الرسالتين قد كتبتا على لسان علي بن مجاهد اذ أن عبارتهما منسوبة اليه ، فالظن فيهما ظعن في راسلها رغم أنه لم يحررها ، فلعله اعتبر ذلك طعنا في سلطته وتعديا على مهابته فغاضه نقد شيخ أعمى ليس له شأن بالسياسة) .

والسبب الثاني (مرتبط بالاول ولعله سابق له وهو يتعلق بقضية سياسية بحثية تتلخص في النزاع الذي كان قائما بين اقبال الدولة وأخيه حسن للاستيلاء على الحكم بعد موت مجاهد) انظر تفصيل القول عن ذلك في بحث الاستاذ الحمزاوي « تكلمة في ترجمة ابن سيده » (بحوليات الجامعة التونسية) العدد الخامس - سنة 1968 .
تونس -
المترجم -

بعض من كان حوله للطلب كحيات مساوره ، ففر الى بعض الاعمال المجاورة
وكتب اليه منها مستعطفا (16) .

على ان ابن سيده بعد ان ظل فترة في منفاه الاختياري ، ولعله
اشتاق الى ما كان ينعم به من رفاهية واکرام فى بلاط دانية ، قرر ان
يجرب حظه من جديد مع ولي نعمته القديم عله يعود فيشملة بعطفه ورضاه،
ولكى يحظى ذلك كتب قصيدة استعطاف ، وهي تمثل مسلکا اذا كان بعامة
يؤتي ثمراته لدى الناس دائما ، فلعله لم يستعمل بهذه الصورة من الوفرة
كما هو الشأن أيام ملوك الطوائف سواء فى الاندلس أو المشرق ، والشاعر
فى قصيدة الاستعطاف - كما نجد ابن سيده من خلال قصيدته هذه
وغيره - يمدح أميره أو ولي نعمته ، بمختلف ألوان المدح ، مستخدما
قوالب من الاستعارات فى تصوير صفات الأمير أو ولي النعمة ، الجسمية
والخصال الخلقية والفكرية حتى ولو لم يكن ، غالبا ، لهذه الصفات
والخصال وجود فى مخيلة الشاعر كما هو واضح بلا شك فى القصيدة التي
استعطف بها ابن سيده اقبال الدولة .

وينص المترجمون على ان هذه القصيدة كانت فى الاصل طويلة ؛
ولكنها لم تصلنا كاملة ، فالحميدي ، وهو أول من أشار اليها يورد منها
ثلاثة عشر بيتا ، وكذلك يفعل الضبي ، ويجتزئ ياقوت من ذلك العدد
بأحد عشر بيتا وابن خاقان بعشرة أبيات والصفدي بثلاثة أبيات ، أما
القفطي فلا يورد منها بيتا واحدا ويكتفى بالإشارة اليها (17) .

ونظرا لاهمية هذه القصيدة فى حياة ابن سيده ، لأنه بها استطاع ان
يعود الى قصر دانية ويظفر من جديد بثقة أميرها اقبال الدولة ، نورد فيما
يلي الابيات الثلاثة عشر وهي ما يعرف من القصيدة اليوم :

(16) مطمح النفس ، ص 60 .

(17) انظر ايضا ، المقرئ ج 2 ، ص 258 حيث يورد البيتين الاولين من القصيدة ،
أما محققا « المحكم » فلم يثبتا من القصيدة البيت العاشر والحادي عشر والثاني
عشر ، وأدخلا بعض التغيرات على ما أثبتنا من أبيات ، (ج 1 ، ص 6 - 7) فى
حين أوردت السيدة كللياسرني (مجاهد العامري ...) ص 270 - 271 الابيات
الثلاثة عشرة وأشارت الى امكان استبدال كلمة بأخرى فيها .

الا هل الى تقبيل راحتك اليمنى
صخيت فهل في برد ظلك نومة
ونضو هموم طلحته طياته
هجان ناي اهله عنه وشفه
فيا ملك الاملاك اني محوم
تحيفني دهري واقبلت شاكيًا
وان تتأكد في دمي لك نية
دم كونته مكرماتك والذني
اذا ما غدا من حر سيفك باردا
وهل هي الا ساعة ثم بعده
ولله دمعي ما أفل استناناه
وما لي من دهري حياة الذهب
اذا قتلة ارضيتك منا فهاتها

سبيل فان الامن في ذاك واليمن
لذي كبد حري وذني مقلة وسنا
فلا غاربا ابقين منه ولا متنا
فراق فامسى لا يدس ولا يهنا
على الورد لا عنه اذاد ولا ادنى
اليك امازون لعبدك ام يشنى
بسفك فاني لا احب له حقنا
يكون لا عتب عليه اذا أفنى
فقدما غدا من برد برك لي سخنا
ستقرع ما عمرت من ندم سنا
اذا في دمي امسى سنانك مستنا
فيعتها نعمى علي ويمتننا
حبيب الينا ما رضيت به عنا (18)

وفاة ابن سيادة :

لسنا نعرف بالضبط تاريخ عودة ابن سيده الى دانية ، ومع اننا نرجح أن فراره من دانية ربما كان خلال سنة 1044 ، اي بعد تولية اقبال الدولة بمدة ليست طويلة ، الا اننا نجهل المدة التي قضها ابن سيده بعيدا عن بلاط دانية ، غير اننا نعتقد برغم ذلك أن مدة نفيه لم تطل ، ولعلها لم تدم أكثر من سنتين او نحوهما حسب ما يستشف مما يقوله مترجموه عن ذلك ، فاذا صح هذا استطعنا القول بأن ابن سيده قبض له

(18) الحميدي : جذوة المقتبس ، رقم 808 ، ص 293 ، والابيات من بحر الطويل وقافية النون .

أن يعيش في كنف اقبال الدولة عشرين سنة أخرى ، أي بصورة تقريبية من سنة 1046 الى سنة وفاته 460 هـ / 68 - 1067 م (19) .

ومع أن ثمانية مصادر من المصادر الاحدى عشر التي نعتمد عليها ، نصت على سنة وفاة ابن سيده ، فانها اختلفت في تحديد هذه السنة ؛ وهكذا نجد الحميدي - وعنه ينقل ابن بشكوال والقفطي - يحدد تاريخ وفاة ابن سيده بسنة 460 هـ / 68 - 1067 م ، في حين ينص صاعد الطليطلي ، وعليه يعتمد باقي المترجمين بما فيهم من لا يوافقوه ؛ على أن وفاة ابن سيده كانت سنة 458 هـ / 66 - 1065 م ، ويضيف بأن ابن سيده كان حينئذ قد بلغ ستين سنة أو نحوها ، وشاركه في هذا أيضا يافوت وابن خلكان والصفدي والسيوطي لكن ابن خلكان ينفرد بتسجيل اليوم والساعة بالتقريب والظروف التي لفظ فيها ابن سيده نفسه الاخيرة (20) : (وتوفي بحضرة دانية عشية يوم الاحد لاربع بقين من شهر ربيع الآخر ، سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، وعمره ستون سنة أو نحوها ، ورايت على ظهر مجلد من المحكم بخط بعض فضلاء الاندلس أن ابن سيده المذكور كان يوم الجمعة قبل صلاة الصبح صحيحا سويا الى وقت صلاة المغرب ، فدخل المتوضأ ، فأخرج منه وقد سقط لسانه وانقطع كلامه ،

(19) ينقل القفطي ، كما اشرنا ، عن الحميدي ، وينص على أن ابن سيده توفي (قريبا من سنة ستين وأربعمائة) ولكنه يضيف في آخر ترجمته لابن سيده حين يورد نصا لابن بشكوال ، فيقول : (وتوفي - ابن سيده - سنة ثمان وأربعين وأربعمائة (57 - 1056) وقال القاضي صاعد : توفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، وقد بلغ ستين سنة أو نحوها) ، والراجع أن القفطي أو ناسخ كتابه أخطأ في نقل سنة وفاة ابن سيده كما وردت عند الحميدي ، ونقلها عنه ابن بشكوال والقفطي نفسه .

(20) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 1 ، ص 431 ، وج 2 ، ص 273 من ترجمة De Slane ويوجد نفس هذا النص في الورقة الاولى من مخطوط « المحكم » المحفوظ بدار الكتب المصرية - لسنة 51 - ، وقد ضاعت الكلمات الاولى منه بخروم في اعلى الورقة المذكورة ، هذا ونلاحظ أن ابن خلكان بدوره يورد الرأي القائل بوفاة ابن سيده سنة 448 هـ / 57 - 1056 م ؛ ولعل سرد ذلك الى تأييد رأي أو (خطأ) القفطي كما اشرنا في التعليق السابق .

فبقى على تلك الحال الى العصر من يوم الاحد المذكور ، ثم توفي ، رحمه الله تعالى ، وقيل : سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، والاول أصح وأشهر (21)

ويقول أبو الفدا : (وفيها) سنة 458 هـ / 1066 م ، توفي الحافظ أبو الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيده المرسى ، وكان أماما فى اللغة ، صنف فيها المحكم ، وهو كتاب مشهور ، وله غيره عدة مصنفات ، وكان ضريرا ، وتوفي بدانية من شرق الاندلس وعمره نحو ستين سنة (22)

على تلك الصورة مضت حياة اللغوي المرسى فى بلاط دانية ، وبرغم ما كان يعكر صفوها ، أحيانا ، وعلى نحو ظاهر ، من ضروب الحسد وألوان المكيدة ، مما تعج به أجواء القصور ، فإن صاحبها لم يتخل قط عن الاشتغال بالبحث والنقد والتأليف ، وهذا هو ما انعكس لينا عبارة ابن خاقان : « فآثر تجرده للعلم وفراغه (23) وتفرد بتلك الأراغة ، ولا سيما كتابه المسمى بالمحكم فإنه أبدع كتاب فى اللغة وأحكم » .

حسن الوراكي

تطوان

(21) أورد القفطي نفس الخبر على صورة موجزة ، ولعله نقله عن ابن خلكان ، انظر : نكت الهميان ص 205 .

(22) تاريخ أبي الفداء ، الطبعة العربية واللاتينية لـ J.G. Chr. Adler ج 3 (هافني 1791) ، ص 209 .

(23) مطمح النفس ، ص 60 ، وللإطلاع على تعليق مختصر حول حياة ومؤلفات ابن سيده ، انظر ، بروكلمان ، ج 1 ، ص 376 ، والملحق ج 1 ، ص 542 و ج 3 ص 1216 ؛ وانظر أيضا ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 2 ، ص 444 (مادة ابن سيده) ويمكن الرجوع كذلك الى كتب أخرى ترجم أصحابها لابن سيده فى إيجاز ، ولم نعتمدها فى هذه الدراسة لخلوها من جديد نفيد منه ، ومنها على سبيل المثال : مسالك الأبصار للعمري ، ولسان الميزان لابن حجر ، والديباج لابن فرحون و مرآة الجنان للتميمي الخ ؛ وفى طبعة أبي الفضل إبراهيم لانباء الرواة للقفطي ج 2 (القاهرة 1952) ، ص 225 ثبت بالهامش لكل المصادر التى ترجمت لابن سيده .

أنطونيو ماثشادو

(1875 / 1939)

شاعر وكاتب مسرحي ، ولد بأشبيلية ، وتوفي في مكان مجهول بفرنسا . دكتور في الفلسفة والآداب ، عضو المجمع الملكي للغة . من أكبر شعراء اسبانيا ، امتاز شعره بالطابع الاندلسي الذي جمع بين الرومنسية ، والبساطة ، والوحشة ، والحرارة الحزينة ، مع التغنى بالطبيعة ، والجمال ، والحب .

اثر في الشعر الاسباني تأثيرا احدث مدرسة . صدرت عنه كتب ودراسات ، وترجم انتاجه الى عدة لغات . وبمناسبة مرور مائة سنة على مولده ، اقامت له اكااديمية اللغة بمدريد ، احتفالا بتاريخ 16 مارس الماضي .

وفيما يلي ترجمة لمقتطفات من حكمه الشعرية مع مطلع قصيدة طويلة ذائعة الصيت في اسبانيا :

(1)

العين التي ترى ،
ليست عيننا لأنك تراها ،
هى عين لأنها تراك

(2)

بين الحياة والحلم ،
هناك شىء ثالث ،
فكر فيه

(3)

جميل بنا أن نعرف أن
الاقداح تصلح للشرب ؛
وليس من الجميل بنا أن نجهل
الظمأ لأى شىء يصلح

(4)

وراء الحياة والحلم
يوجد ما هو أهم :
اليقظة

(5)

في وحدتى رأيت أشياء واضحة
وليسست حقيقة .

(6)

نصيححتى
ألا تعمل بنصيححتى .

صورة

طفولتى مجموعة ذكريات بهو فى اشبيلية ،
وحقل بهيج نضير بأشجار الليمون .
شبابى عشرون سنة فى قشتالة .
تاريخى بعض أشياء لا أريد أن اذكرها .

ترجمة الشاعر

أبحاث اندلسية

ذيلٌ وتعليقٌ حول "قضية" المعتمد بن عباد القسم الثالث

عبد الرحمن الفايبي

لقد قيل حينما دهمت المنية فرديناند (458 هـ / 27 / 1065) :
لقد قضى غير مأسوف عليه ، وان ملوك الجزيرة قد تنفسوا الصعداء .

والواقع انه ما كان لهم متنفس طبيعي في غير هواء العدو ، يزجيه
لساحتهم أولئك المثلثون الصحراويون الأشداء ، فالثابت والمفهوم ان
أسيرة فرديناند ما كانت لتعدم بين بنينا من ينتصب لزعامه حركة
الاسترداد ، والسير بها قدما إلى الأمام ، فما كان شعار هذه الحركة
حبرا على ورق ، او مجرد تعبير عن اتجاه في السياسة مما تختلف فيه
المبادئ والأفكار ، وإنما قام على عصبية لثيمة في الجنس والدين ، وعلى
أسطورة القديس جيمس ، وهو المسمى عندهم « ستياجودي
كومبوستيلا » ، وكانوا يؤمنون به هاديا وحاميا ومثيبا ، ولقد أقسم أكثر

من ملك منهم وقائد ، أنهم راوا هذا القديس راى العين قبل المعركة ،
او تحت نقع الخيل ، وهو يمتطي جوادا ابيض ويلوح بسيف براق ، فكان
من تم تهورهم الجامح فى محاربة الاسلام والمسلمين ، وتوحشهم فى
اهراق الدماء وتقتيل الأسارى ، وبقر بطون الصبيان والحبالي ، وتحريق
الحرث والنسل فى كل حرب او غارة .

وهكذا فبعزم من احتوى واحتضن ، وبحق من ملك ووضع اليد ،
قسمت المناطق الاسلامية فى الجزيرة متاعا فى تركة الهالك فرديناند ،
ووزعت على الصغير والكبير كما توزع التركات بالقسمة والمخارجة وهالك
وهات ، وذلك منتهى ما يصل اليه الضعف والاستضعاف ، فكان من
حظ سانشو (1) - الوارث الكبير - قشتالة مع الاتارة المفروضة على
مملكة سرقسطة ، وكانت ((ليون)) و ((اشتوريش)) وجزيرة طليطلة من
قسمة الفونسو الولد الأوسط ، وخرج أصغرهم غرسيا ((بجليقة)) والبرتغال
موحدين ، وبالجزيرة المفروضة على أشبيلية وبطليوس مقرونتين .

وهذا التصرف الواثق العازم يوحى مثلما اوحى ولا ريب قبلنا
للمعتضد عباد ، الذي اكنوى بنار هذه العزمات ، ان الحالة بعد
فرديناند ، هي نفس الحالة على عهده ، ولا مبدل لسيد او مسود ،
ولا مفر من قضاء مكتوب .

وبذلك لم يسع المعتضد الا ان يوالى دفع الجزية للأمير الصغير
مثلما دفعها بالامس للهالك الكبير .

واذا كانت المناورة او المداورة فى الاداء قد ندت من بعض اولئك
المسلمين الاقيال فى بعض الفترات والظروف المواتيات ، ولاسيما
اثر وفاة فرديناند بالذات ، فان سانشو عندما خلف اياه احتوى على
التركة بمواردها وغللها ، وجعل همه القيام على ساق ، لتلا يقلت من

(1) اعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالاندلس ، ص 380 ط الرباط - دول الطوائف للاستاذ
محمد عبد الله عنان ، ص : 375 .

يده دائق ، او يتزع الى التواني جابي اتاوة ، او يحاول ان يتخلص مما
فى عنقه وعهده دافع جزية .

وحتى عندما ذهب الناس فى اجراء عاداتهم من المال اعلن للملا : (2)
(انما كان ذلك المال لفرزلند وهو ثابت ابدًا ، حسناته لا تزول ، وانما
نصالحكم على ما يختص بي ، فاضعف له العدد) .

وكان مفهوما ان مسيرة الدنيا فى نفس دروب الأمس ، واعادة التاريخ
نفسه ان فى الجنوب او فى الشمال ، بمثل الأحداث ونفس التصرفات ...
كل هذا كان خليقا ان يعيد مظاهر السيادة الى نصابها ويحيل ذلك اللد
الى تطارح ، وتلك المناورة الى الاستخذاء والاستعطاف .

وحقا ، فقد كانت فترة ما بعد وفاة فرديناند اشبه بفترة ما بعد
وفاة والده سانشو الكبير ، وصورة مقدودة عليها ، فحل الخلاف بين
الاخوة ، واستحرت بينهم الحروب الاهلية ، وهم اكبرهم سانشو بمملكة
(نبرة) و (ارجوثة) ، ولكنه ارتد مهزوما امام عزيمة الدفاع ، فانبرى
ليوحد تحت تاجه مملكتي اخويه الوارثين المذكورين ، (ليون ، وجليقية)
ثم الانتصاب خلفا لآبيه فى ترعم حركة الاسترداد .

ونعرف من سياق آخر فى ذيل سابق ان الحرب الداخلية بين الاخوة
قد أدت الى التجاء الفونسو (3) عند صاحب طليطلة ، والى احتماء اخيه
الاصفر غارسيا بمملكة اشبيلية .

وفى اثناء فترة الصراع بين هؤلاء الاخوة التى امتدت من سنة 1067 م
الى سنة 1072 م ، عاش الملوك المسلمون الذين جدت فى اعناقهم فروض
الجزية على الوجه المذكور ، هذه الفترة على طولها وكانها لحظات تعليق
النبحة بالشفرة التى لا تريح النبيحة ، فكانوا يحاولون الوقوف على

(2) اعمال الاعلام الجزء الخاص بالاندلس ، ص : 279 ط الرباط .

(3) المناهل العدد : 1 ، ص : 231 - اعمال الاعلام جزء الاندلس ص : 381 ط الرباط .

الركب ، ولكنهم انما كانوا يمثلون رقصة النبيح الأخيرة بمب الانفاس
تشبها بالحياة ، ولا يستطيعون فى الواقع تنفس الصعداء .

وبدا كبيرهم عباد فى اخريات ايامه ، وتحت تأثير عقدة الضعف وكأنه
يحاول أن يمارى وهنه ، ويمارس الحيلة النفسية اللاشعورية ليحتفظ
بثقة نفسه ويختبر قواه ، وليلقى فى روع الكبار والصغار من الملوك
المنافسين الشامتين ، أن ما حدث انما هو حس خفيف ، ليس من شأنه
أن يغير الأوضاع ، وما الالتزام بدفع الجزية غير تقية ، ودرية لصعد
العادية ، وما زال عباد الأمس هو هو بحوله وسطوته ذلك (الذي صاد
الطير تحت أجنحة العقبان ، وأخذ الفريسة من فم الثعبان) وهو
الذي (يختطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر ، وينتصف منهم بالدهاء
والمكر) حسبما يقول الفتح بن خاقان فى القلائد والمطمح ، وهكذا
انصرف بوحي عقده يتابع مخطط الاسرة العبادية فى القضاء على الامارات
البربرية فى الجهات الجنوبية ، وكان قد قضى من قبل بالقلبة والقهر
على معظمهم فى الجهات الغربية ، وفى عام 458 وتحت تأثير الاحساس العابر
أو الحالم بادبار ذلك الشبح المريع الذي قوض القيم ، وغير دنيا الجزيرة
من حال الى حال ، انبرى يقتص لنكبته الماحقة فى اشخاص اولئك
الزعماء البرابرة الصغار من بيوت البرازلة (4) بالذات ، ومن آل ابي نور
ابن قرة اصحاب « تاكرنا » ، وبني عبدون بن خزرون اصحاب كسورة
« شونونة » والدمريين اصحاب كسورة
« مورور » ، وجعل همه الاول تجاه البرازلة اصحاب « قرمونة »
و « استجة » و « حصن المدور » ، وكانت بين الطرفين ثارات فى
حروب سالفات ، وشاخت بينهم الحرب ، وضافت احوال اميرهم وآخر
رؤسائهم العزيز بن اسحاق ، فحاول أن يكيد المعتضد بعرض تقدم به الى
المأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة ، لما يعلمه من أن المنافسة بينهما
فى الزعامة سائرة نحو الريعان ، وذلك أنه عمد لماقترح على ابن ذى النون أن

(4) البيان المغرب ج 3 ، ص : 267 ، وما بعدها - ذيل البيان المغرب ص : 294 وما
بعدها - أعمال الاعلام الجزء الخاص بالاندلس ، ص 271 وما بعدها .

يتنازل له عن (5) قرمونة لقربها من املاكه ، على ان يعطيه عوضا عنها ففى بلاده الجوفية ، حتى يكون بنجوة من الاعتداءات العبادية ، وتم تنازل ، واستقر الأمير البرزالي فى المدور ينتظر تمام الصفقة ، واذا بالمعتضد ينهد للعمل فى حينه ولكنه بحكم حالته النفسية وطبيعة النازلة ، يعرض سيف بطشه ، وبجئح الى اختبار سلاح حيلته ، وختله ، فيدخل المامون ، ويطعمه فى المساعدة على تملك قرطبة ، وكان يعلم اربه فيها ، ومنتهى امانيه فى ضمها .

ونجعت الحيلة ، وتنازل المامون للمعتضد عن قرمونة ، وظل صاحبها العزيز البرزالي يدور فى ((المدور)) الى ان تلاشى ، فكان آخر العهد به ، وبمملكة هؤلاء البرازلة .

وتجرا للثانية ، ففي نفس السنة (458) انطلق فى محاولاته يختبر قوته المستيقظة الثانية ، فارسل على ((مورور)) بلاد الدمريين حملة اثر حملة ، حتى اضطر صاحبها عماد للدولة ابن نوح الدمري ان يخلع (6) نفسه ، ويجلو عن بلاده للاقامة بمنفاه النهائي باشبيلية .

وبمثل السلاح ، وعلى نفس الصورة ، تقريبا ، وفى نفس السنة (7) كانت نهاية آخر بني ((خزرون)) الأمير محمد بن خزرون ، صاحب ((شلونة)) و ((اركش)) و ((شريش)) .

اما بالنسبة لنهاية بني قرة فقد كان ابو نصر صاحب ((تاكرنا)) زعيمهم يومئذ ، وعمد المعتضد فداخل بعض الخوة بمدينة ((رندة)) قصبة الاقليم ، واشترى ذممهم بالمال الى ان ثاروا على ابي نصر (8) عام 459 ، فلم يسعه امام هيعة المناداة ببني عباد الا ان يلقي بنفسه من شاهق منتحرا .

(5) البيان المغرب الجزء الثالث ص 283 ، 269 - ذيل البيان المغرب ، ص 312 - ابن خلدون ، ج 4 ، ص 57 - اعمال الاعلام الجزء الثالث الخاص بالاندلس ص 273 .

(6) ذيل البيان المغرب ج 3 ، ص 296 .

(7) انظر ص 294 من ذيل البيان المغرب ج 3 ، حيث يجعل الواقعة باخر بني خزرون عام 461 ، وهذا الاختلاف لا يؤثر فيما نحن بصدده .

(8) ابن خلدون ج 4 ص 339 ، ط دار الكتاب اللبناني .

والملاحظ في هذه التحركات ولا سيما بالنسبة للامارات الثلاث الاخيرة انها كانت اشبه بحركة من يستنسر على البغات ، فقد كانت امارات صغيرة ، ولا قبل لها بمثل هذه المصاولات ، وكان امرؤها في بداية تسلمهم زمام الامر في عواصمهم المذكورة ، وهم بالضبط خلف رؤسائها الذين لقوا مصرعهم قبل سنوات معدودة مختنقين في الحمام الذي اطبقه عليهم عباد ، وهم ضيوفه في حفلة (9) الاعذار ، فالاجهاز عليهم بهذه السرعة وبمثل هذا الاستغلاظ انما هو مظهر لقلقه المتزايد الذي لمحت اليه ، او هو نزوع الى التسلية حسبما توحى بذلك قطعه الشعرية التي قالها في رنّة ، وكأنه طفل يتغنى بمسرة صبيانية ، وكأنما شاءت القدرة الالهية لهذه الامارات الصغيرة التي ظلت = فيما يبدو = بنجوة من كلفة الجزية النصرانية وصفارها ، أن تأخذ حظها كاملا بواسطة عقدة عباد ، فكانت فيه نهاية أمرها .

وليس بالمفاجيء - والامر على ما سمعت - أن نرى المعتضد قد عني في شعره بالتمليح الى عنده في محاربة هذه الفئات ، فيرفع عقيرته في بعض مقطعاته الشعرية بما ينظر اليه من اجر عند الله في محاربة الضلالة (10) وهو في هذا يشير الى بدعة الخارجية الاباضية التي كانت فاشية في قبيل الدمرين والبرازلة .

ومن شعره في ذلك :

عتادي اجرما اوليت فيهم +++ من الفتاكات بكر او عوان

وحسبي في سبيل الله موت +++ يكون ثوابه دار الجنان

وتسلمنا خبطات المعتضد الهوج الى خاتمة المطاف التي انبهرت عندها

(9) البيان المغرب لابن عذاري ، الجزء الثالث صحيفة 267 - 270 ، 271 - 295 - ابن خلدون الجزء الرابع ص 339 ، ط دار الكتاب اللبناني - أعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالاندلس ، الصحيفة 274 ط الرباط .

(10) الحلة السيرة ج 2 ، ص 49 - أعمال الاعلام الجزء الخاص بالاندلس ص 272 ط الرباط

الأنفاس ، وذلك حين استشرّف منتفضاً انتفاضته الأخيرة نحو (11) مالقة وهي يومئذ على ملك باديس كبير البرابرة، وصاحب (12) ثارات تلك الإمارات الصغيرة ، فاستغل عباد فرصة تعصب عرب مالقة على باديس البربري وتشيعهم لعباد العربي ، وانتفخ يحكي صولة أسد الأمس ، حتى لكان الشاعر كان ينظر إليه حين قال :

مما يزهدني في أرض أندلس +++ سماع معتصد فيها ومعتمد

القاب مملكة في غير موضعها +++ كالأهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

وصدق الشاعر ولكن الأسد استهر ، وأرسل كتائبه معصبة بآبئه أبي القاسم (المعتمد) ، وهبت له رياح فتحها في غيبة باديس صاحبها ، غير أن حصنها استعصى ، لاستماتة حماته السود المفاربة ، ولتهاون المعتمد كما - يقال - في الصمود والمنازلة ، فكانت فرصة لباديس الذي خف بتسيير النجدة ، واستطاع أن يشتت الغزاة ، ويلحق بجيش عباد هزيمة نكراء .

فرمى بها طعنة نجلاء اتت على البقية الباقية في نفسية عباد ، وهي قصة الرائية الشهيرة التي وجه بها المعتمد معتذرا إلى والده من ((رندة)) ، وقد كان أوى إليها في انتظار حلول الصفح ، وذهاب آثار الموقعة ، وفي مطلعها يقول :

سكن فؤادك لا تنهب بك الفكر +++ ماذا يعيد عليك البث والحنر

وحاول أن يدارى فشله بمكسب الاستيلاء على قرطبة ، التي تعثرت المحاولات العبادية في الانتزاع عليها غير ما مرة ، وبدأ له سهم الحيلة فيها نافذا ، وتاه وهو يستعرض في مرأى ذاكرته ، كيف واتاه التوفيق في

(11) البيان المغرب الجزء الثالث ، ص 273 - فلاند العقيان للفتح بن خاقان ص 20 ط باريس (ترجمة المعتمد) .

(12) ابن خلدون المجلد الرابع ص 339 ، ط دار الكتاب اللبناني .

اشترع شبكة حيلته (13) ، منذ قعدت الزماتة والمرض بابي الوليد ابن جهور ، وهالت شيخوخته تلك الفاشيات التي المت بالجزيرة ، فوكل امر (14) المملكة الى ولديه عبد الملك وعبد الرحمن ، وكان التدبير الفعلي من قبل لوزير الجهاورة ابن السقاء ، الذي كان مدبر شؤونها ، والضام لاطراف ملكها ، ولكن عبد الملك نزع اليه الاستبداد ، والضرب على يد الوزير صاحب التدبير ، (فليس المعتضد الى الوزير ابن السقاء من اغراه بحب الملك ، واغرى في نفس الوقت اميره عبد الملك بعملية الفتك) ونجعت الحيلة وقتل ابن السقاء ، وانصرف (15) عبد الملك الى الطفيان والفسوق والعسف في الرعية والتكره الي الناس ، كما عمد الى تنحية اخيه وزيد فاستنام غفلة منه الي المعتضد والي المامون ابن ذي النون ، وكل منهما جعل قرطبة مهوى طموحه وقبلة مداخلاته ، وبذلك جهزها عبد الملك وعرضها في احسن حلة وابهي جلوة ، الي خطابها الأشداء ، وعندها ، انهك ابن ذي النون في شراء الضمائر والمداخلة بالأموال ، وانهك المعتضد في اصطناع الرجال ، ومداخلة العناصر العريضة والقادة والأعيان ، وتداغت خواطر المعتضد عباد فتذكر أيضا وعده لابن ذي النون بالمساعدة على مرامه في قرطبة حسبا قدمناه فتداغت عزمته ، والفي نفسه أمام سباق، انبهرت له أنفاسه، وألح عليه الشعور بالضعف وهو يرى ابن ذي النون يقوى فيه الطموح المشبوب ، واليرابرة الفرما شيعه الامارات الصغيرة المنهارة ، يستعدون للتكاث والمواجهة ، فتسعرت هواجسه ، واخذت فاجعة ولده أبي القاسم (المعتمد) في ماله تنكا جراح مصابه القديم بولده اسماعيل الذي ختم انفاسه بيده، فأخذ ينهار، وهذه ضغط دمه الفوار ، اثناء الليل وأطراف النهار . وانتابته (16) سورة التطير من كل سائح وبارح ، ومن كل ما يتغنى به تسرية عنه في المجالس ، فأفاء الى المنجمين والناظرين في الجفريات والى قراء الطوالع لعله يظفر باطلاة على ايامه القادمة .

(13) البيان المغرب ج 3 ص 256 .

(14) الذخيرة لابن بسام قسم اول ، مجلد 2 ص 121 - البيان المغرب ج 3 ص 256 .

(15) أعمال الاعلام الجزء الخاص بالاندلس ص 173 وما بعدها .

(16) الحلة السيرة ج 2 ص 53- 54 .

وفى بهرة هواجسه الضارية أصيب بأبنته الطاهرة ، وكانت فى سن
الأزاهير ، مستاثرة بنلك الوشل الضعيف من عواطفه وانسانيته ، وما
احسب أن أسد الجزيرة قد اظهر الجزع بقدر ما بدا مفجوعا كما
يقصون ، فلم يسهه الا أن يكضم أنفاسه حتى لا تشي بما يضطرم فى
نفسه ويلتهب فى خاطره التهاب مشروع السيادة على الجزيرة ، ويتبخر فى
ناظره تبخر اسطورة هشام ، وعهده له الذى أصبح فى خبر كان ، ودعمت
عيناه لدخان مشاريعه الملهيات (وأثقل رأسه) كما يقول ابن الأبار فى
الحلة السبراء (زكام حاد) وتحشرجت أنفاسه المكظومة بالرغم عنه ،
وأخيرا أسلمها للهمود ، وقضى ليلة واحدة من فجيعته فى البنية التى
كانت له آخر سلوة من الحياة .

تلك مظاهر الضعف النفسى وآثارها فى جسم المعتضد عباد وفى
سيرته .

وبادبار هذا الرجل سنة احدى وستين وأربعمائة ، يمكن القول باننا
استدبرنا عهدا كان لحكامه - بالرغم من سيرهم التى أرسل عليها الامام
ابن حزم لعنته - نفوس حية استشعرت خزي الدنية فى استعلاء النصارى ،
وآذاها فى اجسامها وفى نفوسها صفار الجزية على نحو ما عرضناه
واستشعرناه فيما قصصنا .

وأصبح من الطبيعى بحكم سير الزمان على وفق ما كان ، أن نستقبل
بعد وفاة رجل ذلك العهد وزعيمه جيلا جديدا من الرؤساء ، ومن مواطنهم
الذين نشأوا وتربوا تحت ذلك الاستعلاء ، وفى حمئة تلك الدنية ،
وتأصلت فى نفوسهم السيادة الأجنبية ، ولاستها بالسماع فى عهد
الطفولة ، وبالمعانة والممارسة والاحتمال فى خضم الحياة ، وذلك كان
حال المعتمد فى الطفولة ثم فى الولاية أو القيادة ، حتى اذا ألفت اليه
المملكة زمامها بين زملاء ورعايا من نفس الطينة بالتربية والنشأة
والمعانة ، لم يكن له ولا لهم عاصم من سورة هذا النفوذ النصراني المطبق
المستحكم ، غير عاصم الدين ، ولكن هذا كان عندهم فى الدرك من الضعف
واللين ، بشهادة غير ما واحد من اعلامهم النابهين ، وما زال يرن فى آذاننا

صدي كلمات اللعنة التي ارسلها الامام ابن حزم على رؤساء عصره ، وهم سلف المعتمد وقدوة رؤساء زمانه ، ومواطني جيله ، وملثها كلمة شيخ المؤرخين ابن حيان وقد زفر بها آهة طويلة النفس حينما زلزلت ارض الاندلس ، وطارت افئدة اهلها بهول موقعة ((بربشتر)) وبما نزل عندها بالمسلمين من تكبات ، وفي فصل منها يقول عن الامراء بعدما وصفهم بالقاسطين : (ولقد (17) طم العجب لهؤلاء الامراء ، ان لم يكن عندهم لهذه الحادثة الشنعاء في ((بربشتر)) الا الفرع الى حفر الخنادق وتعليق الاسوار ، وسد الأركان ، وتوثيق البنيان كاشفين لعدوهم عن السواة من القائهم يومئذ بايديهم اليهم) .

ولقد جاءت - وايم الله - كلمة ابن حيان حين عبر بالقائهم ايديهم في ايدي اعدائهم معبرة اصح تعبير بهذه الكناية عما انبثق في نفوس قوم هذا الجيل من استعداد لمسايرة الهيمنة النصرانية التي غزت قابلياتهم ، فكانوا لها خانعين شاعرين وغير شاعرين ، وذلك نحو مما نراه من اثر الغزو الفكري عند ابناء بعض الاقطار التي احتواها الاستعمار فكانوا معه ظالمين .

ويسير علينا ان نستجلى هذا بمسايرته مع جرية بعض الاحداث على هامش سيرة الفونسو والمعتمد بن عباد : وهما زعيما قومهما في هذا العهد ، وذلك نفس الصنيع الذي جرت عليه في العهد السابق بالنسبة

(17) البيان المغرب ج 3 ، ص 254 .

للمعتضد وفرديناند (18) .

(18) لم التفت هناك الى نشاط الامارات النصرانية الصغيرة (برشلونة - نبرة - ارجونة) في الضغط على المسلمين ، ولا الى مكاسبها في ترابهم على عهد فرديناند او قبله مما سجله التاريخ من اوليات الاستردادات النصرانية ، كاحتلال سانشو المعروف بالعظيم لحصن « وخشة » ، وحصن « شيرون » ، وكتسلم الكونت رامون امير برشلونة حصونا ومعقل من يد المظفر يحيى ابن المقتدر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة وكاستيلاء « غارسيا » امير « نبرة » وشقيق فرديناند على مدينة « قلهرة » من مملكة سرقسطة صدر عام 437 الى غيرها من المكاسب الترابية التي صارت الى يد العدو في وقت مبكر لا يتصل بالظروف التي تعتبر خلفية متصلة مباشرة بالظروف التي نحن فيها ، هذا بالاضافة الى ما لاحظته فيها من انها مما يعد ارباحا شخصية انجرت اليهم عرضا مع تطور الاحداث ، بينما كانت مكاسب فرديناند في التراب الاسلامي محسوبة لصالح حركة الاسترداد القومية الدينية ، وحصل عليها طبق مخططة المرحلي الذي استجلى القارىء في الذيل السابق اتجاهه وطبيعته وخطوطه .

وهكذا فالصنيع الآن مركز على ما يخص الكبيرين ايضا المعتمد والفونسو ، ولا نلم ببعض الاسماء كالفارس « رودريجو دياث » (السيد الكمبيوتر) الا عندما يتصل به ما نسوقه من احداث ، وهي الاحداث التي تواكب مخطط « فرديناند » ومعها نستقرىء مظاهر مخلفات الضعف النفسي في سير وأخلاق الملوك ورعاياهم لنصل الى العوامل النفسية التي كانت تعمل في الظروف المحيطة بقضية المعتمد بن عباد ، وتعتبر خلفيات أساسية لفهم الدواعي التي أدت بكل من الملوك والرعايا للانسياق نحو الخطيئة المشتركة في الحاقة التي نزلت بالجزيرة ، وأزعجت أمير المسلمين لعملية الانقضاء .

وبذلك ميلا حظ القارىء ان هذا البحث سيتابع الان جرية تلك الاحداث الممينة على هامش سيرة الفونسو السادس والمعتمد بن عباد ، مسائرا مسالك مخطط والده « فرديناند » لتطويق التراب الاسلامي حتى نصل مع الولد والخلف الى نهاية الطوق النصراني ، مثلما صاحبنا والده في بدايته ، وهذا هو الاصل في انني لم أعرج هنا ايضا على النشاط الجانبي في هذا العهد كنشاط « ريموند » الكبير (الكونت برنجار) صاحب « برشلونة » و « قطلونية » الذي قاتل المسلمين بحماس شديد ، وانتزع منهم اراضي بالصفة اليمنى بنهر « لوبريجات » ، وفرض على بعض رؤسائهم الجزية ، كما لم اكن في حاجة للتعرض لا الى « سانشو » الرابع ملك « نبرة » ، ولا الى سانشو الاول ملك « ارجونة » لان نشاط هؤلاء جميعا في الضغط على الولايات الاسلامية في هذه المرحلة هو ايضا اما محدود ، او غير حاسم ، وهو على العموم من جنس الذي قبله من حيث انه لم يكن خاضعا لمخطط او نظام ، ولو انه انطلق عن مبدأ وعاطفة ، ثم ان حركات هؤلاء الامراء الصفار قد انطوت كلها في مخطط زعامة حركة الاسترداد ، حيث نجد عمل « فرديناند » وعمل ولده الفونسو عند نهاية المطاف بالاستيلاء على طليطلة ، ومحاصرة « سرقسطة » ، يمثلان على وجه الخريطة الخطوط الرئيسية لعملية التطويق الكاملة التي مثلت الخطر النصراني ، في صورته التامة ووضعيته الكاملة ، واعني بهذا انني استعرض بعض الاحداث بعينها لفرض استجلاء الفاتيتين معا ، المشار اليهما ، لا الى قص الرواية التاريخية بأكملها كما لا يخفى .

ويعترضنا أبو القاسم محمد بن عباد خلفا لوالده بلقب الظافر ، ثم
المعتمد على الله ، والقوة النصرانية يومئذ في حروبها الداخلية التي
استحرت بين الاخوة اولاد فرديناند : سانشو ، والفونسو ، وغارسيا ،
فاتيح له ان يتنفس حقا عند بداية ملكه في جو من حريسة ، وان يتنزع
بحركاته الى اصالته العبادية ، فابتدا من حيث انتهى والده في مشروع
قرطبة ليقطف ثمار حيلته التي نهبت بابن السقاء ، وزيرها الضابط
لشؤونها ، الذاب بتدبيره عن حوزتها ، وغدا زمامها بعد هلاكه معقودا
بالاستحواذ على ضمائر رجالها ومداخلة واليها ، وبسرية فرسان ترسل في
ساعة من نهار عليها .

ولكن الامامون ابن ذي النون كان لا يزال منتصبا في الحطبة على
ساق ، وقد طال نفسه واستطال بادبار عباد ، الذي كان ينظر الى
الزعامة الاندلسية بعين لا تنام .

فالساحة للامامون وحده كما يتخيل الآن ، فملكة بطليوس منصرفة
الى الحرب القائمة بين الاخوين يحيى وعمر ابني المظفر الذي توفي في نفس
سنة وفاة المعتضد عباد ، وكانما كان معه على ميعاد .

وسرقسطة في الطرف الآخر هي هي ، ما زالت كما كانت جزيرة
مكتنفة بالامارات النصرانية ، فهي معهم في حرب لا تدعها لساعة راحة ،
او لحظة هناة ، فاين هي من التفكير في سيادة او زعامة .

فما لها غير ابن ذي النون ، وقد عرفنا انه املاك بالامس بلنسية (راجع
الذيل الثاني في (المناهل) العدد : 2 ، ص : 344) ثم انه تخلص بعد موت
فرديناند من اصر الجزية القشتالية ، وسيظل على موفور الالباء ، وذلك ما
يضمن له الشفوف في اقطار الجزيرة ويظفره بالاعتبار ، ولن يتوج هلكه
المؤهلات غير الطلوع في فلك قرطبة ، وان انفة اهلها مبن طموس رسم
الخلافة ، واستمسكهم بدعوة الخلفاء ، لمن شأنه ان يجعل له منها حين
يمتلك زمامها منطلق الزعامة والامتداد .

وهذه النظرة الى قرطبة التي كانت تخامر امانيه ، وتجيش بخاطر
في هذه اللحظات ، هي ولا ريب نفس النظرة التي كان يركزها على عاصمة

الخلافة جميع من تعلقت آمالهم بالزعامة على ممالك الأندلس كالجهاورة ،
وبني عباد ، ومن قبلهما الادارسة ، واليهما ايضا التفتت سياسة الهالك
فرديناند ، فقد نفذ الى ما وراء نظرة هؤلاء المتزعمة ، فجعل همه أن تظل
عاصمة الخلافة القديمة بمنجاة من اطماعهم ، لأن في بقائها صغيرة وضعيفة
بحكم وضعيتها وحكامها الجهاورة الضعفاء ، ضمانا لتحقيق سياسة اضعاف
ملوك الجزيرة ، والحيولة دون قيام مملكة موحدة كبرى تعنته عند اللقاء ،
وقد تتناول الى نفخ الروح في المعنويات ، ونشر عهد الخلافة الماضية .

وذلك ما توحى به طبيعة سير الأحداث .

وحرك المامون سراياه نحو (19) قرطبة ، فهلع عبد الملك للمفاجاة ،
واستغاث باشبيلية ، فسارعت لنجدته بكتيبة اولى ، واردفتها بثانية ، ولم
يسع جيش المامون بعد الاشتباك الا ان ينسحب وجحيم الضغن المستحضر
على منافسه ابن عباد يزعجه لتبييت اخذ الثار ، وبينما كان عبد الملك
يستعد لتوديع اجناد اشبيلية الحامية ، اذا به يفاجأ باصوات المناداة بابن
عباد ، وبدا له في الحال أن (حاميا حراميا) كما يقال ، وطوق الجنود
الحامي محميته ، وسد منافذها ، واحاط بقصرها ، وتنافعت الدهماء الى
ساحته (تجار) بالبراءة من حكم عبد الملك وسيرته ، وقبض رجال المعتمد
على عبد الملك واخوته وجميع اهل بيته وذهبوا في انتهاك حرمة ، واخفار
ذمتهم ماشاءت لهم نشوة الظفر ، ومواناة العقلية القرطبية ، والوعود والهبات
المعتصدية السنية .

وتقول القصة ان الشيخ ابا الوليد بن جهور والد عبد الملك كان قد
لوى الى مقصورة المسجد ببنايه وكرائمه ، فكبسها عليهم لفيق من الجنود
(20) النصراني وجردوهم ونهبوا ما عندهم ، ثم حملوا الشيخ على زاملة وكان
عندهما مائل الشق ، مفلوح الشدق ، فاردف بمن يمسك به من وراء ، وكان
ذلك آخر عهد قرطبة وبمملكة الجهاورة .

(19) البيان المغرب ج 3 ص 257 وما بعدها .

(20) البيان المغرب ج 3 ص 261 - اعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالاندلس ص 175 .

وتلك هي الواقعة التي سماها ابن حيان بالبطشة الكبرى وجعلها عنوان كتابه الذي افرده لها ، وساعود اليها في سياق ملحوظة اخرى .

والمقصود من تسجيل احداثها هنا انما هو الوصول الى خبر الجند النصراني الذي تولى كبس المقصورة على الشيخ ابي الوليد وحريمه، ولا يسع الباحث الا ان يحترس بادىء ذي بدء تجاه هذه الظاهرة من صاحب اشبيلية فقد تكونت هذه العصابة مجرد كتيبة من نوع الكتائب التي اعتاد الأندلسيون القدامى ترتيبها في جيوشهم كالصقالبة والخصيان ، والسود الأفارقة ، وقد تكون من نصارى الشمال الذين اتخذوا الارتزاق مهنة في ساحات القتال ، وضربوا برماحهم في نحور اخوانهم في دينهم ، وضد سياسات ملوكهم ، حتى كان فرسانهم النبلاء يعرضون جهد قتالهم وكانهم في سوق نخاسة على قارعة المحجات ، وكيفما كانت وضعية هذه العصابة فهي بالنسبة الى المنطقة الجنوبية تستحق الالتفات ، وذلك لما يلاحظ من ان هذه العصابة هي التي تولت مهمة اساسية في هذه العملية الفادرة ضد الجهاورة الحلفاء ، فالامر يتجاوز ماكان متعارفا في القديم مما أقدم عليه هذا او ذاك واعتده عليه الناس ، كما يتجاوز ذلك التآلف بين الجنسين الذي كان من خواص البنية الأندلسية وطابع مجتمعاتها ولامراء ، فهو الآن بادرة تعترضنا باخوات لها متواليات وعلى وجه ادخل من هذه في باب ما سماه ابن حيان آنفا بالقاء اليد في اليد ، وذلك تجاوبا مع الاستعداد الناشئ الذي نحاول تبيان مظاهره في هذا المجال .

وفي هذا المقام نتذكر ايضا ما عرضت اليه قبل في ذيل سابق عند سياق تصوير ما آل اليه امر ملوك المسلمين بوجه عام منذ نكبوا بالفتنة الكبرى من استنصارهم واستنجادهم بالأعداء ، وذلك حين لفتت النظر الى محاربة المستعين ابن هود صاحب سرقسطة اخاه المنذر بالكونت رودريجو دياث المعروف بالسيد الكمبيادور ، وبمرتزقة جيشه ، واستعانة اخيه المذكور بسانشو ملك ((ارجونة)) و ((رامون)) أمير برشلونة ، وهي احداث ترجع بطبيعتها ومظاهرها الى ما نحن فيه الآن .

ومن هذه الاستعدادات التي اصبحت تطالع الباحث في تحركات اشبيلية باللات ، ما يسوقه المحدثون هنا رواية عن المستشرقين ((كوندي))

و « بيدال » ، ويتعلق الأمر بقصة تحرك جيوش المامون للانتقام من هزيمته في قرطبة ، وذلك أنه انقض على « مرسية » و « اريولة » وما حواليهما مما كان بيد العامريين حلفاء اشبيلية ، وقد هبت نجدات المعتمد باشراف وزيره الشاعر النابة ابي بكر بن عمار الذي كان يندب للمهمات ، ويوكل اليه الحل والعقد في فواجيء الأحوال ؛ وعند اللقاء على ابواب « مرسية » كان جيش المامون معززا كذلك بقوات قشتالية وجليقية ، وتقول القصة حسب احدى روايتها - وهنا تتفق الرواية النصرانية مع الرواية العربية الى النهاية - ان ابن عمار عندما لاحظ هذه المكائنة التي لم يكن لكتائبه طاقة بلقائها ، عمد الى استئجار المدد من الكونت « ريموند » صاحب برشلونة ، وقد انجلت المعركة عن هزيمة الاشبيليين هزيمة ما حقه لدرجة ان ابن عمار كان بين الاسرى في هذه الباساء صحبة الرشيد بن المعتمد بن عباد .

والقصة ولو على وجه بدايتها تستجمع دواعي القبول بانسجامها مع سياق الاحداث وطبيعة صراع العاهلين ، وما يخص المامون منها ليس من اول بركاته فسوابقه معروفة منذ اوائل عهد حكمه ، واستعانت به بالنصارى في هجومه الاخير على قرطبة ، وان لم تشهر به الرواية العربية كتابها في التفاضل احيانا عن هذه الانحرافات الدينية والقومية ، فان ابن بسام قد افاد بها ملمحا ، وعرفنا بما هنالك تلويحا (21) ، ولكن ما يخص الجانب العبادي منها يعتبر حقا ظاهرة وخروجا باشبيلية عن مهيع المرحوم المعتضد عباد ، مع العلم بان اشبيلية قد كان لها من قبل اتصال بملوك الشمال ، ولكن ليس تحت وطأة الاستعلاء وذلك ما يشير الى ما وصل اليه الاطمئنان النفسي الى هذه العناصر الأجنبية ، في هذا العهد بالذات ، الذي اصبحت فيه الاستعانة بالملوك والأمراء النصارى طابع جميع تحركات حكام الجزيرة حسبما سجل ذلك المؤرخ ابن الكردبوس وهو يتحدث عن حالتهم على عهد الفونسو حين قال : (وضعف بعضهم عن بعض الابعونة الروم) .

(21) الاخيرة القسم الاول ، المجلد الثاني ص : 126 ، 128 - القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص : 112 .

وعلى كل حال فقد ظل ملوك الطوائف يتناطحون يميننا وشمالا فى هذا العهد وفى جو من الحرية حتى أواخر سنة 1072 .

ففى أكتوير منها اغتيل سانشو وهو يحاصر اخته اركا (اراكة) (22) بسمورة ، وذلك بتدبير منها فيما يقال ، وربما بممالة أخيه الأوسط الفونسو الذي كان يومئذ منفيا عند المامون ابن ذي النون فى قصره الملكى بطليطلة ، وبهلاك سانشو كانت نهاية الحرب العاصفة بين الاخوة أبناء فرديناند ، ونودي فى اثر ذلك على الفونسو من منفاه ليتوج خلفا لأخيه المقتال ، ثم عمل على استدراج أخيه الأصفر غارسيا لاجيء اشبيلية ، وطوح به الى منفاه ، مدال الملك والقسمة الموروثة ، الى أن لقي حمامه بعد أعوام ، وبذلك خلصت لأنفوسو الممالك الثلاث ، وتوجه النبلاء باسم ملك ((قشتالة)) و ((ليون)) و ((جليقية)) ثم انتصب ليخلف والده فرديناند فى ترعم حركة الاسترداد ، وموالة الخطوات من حيث انتهى والده فى مخططة لتطويق ممالك الاسلام .

والآن وقد سائرنا فى الذيل السابق أحداثا تاريخية معينة فى نطاق تتبع ملامح مخطط فرديناند ، واكتنهننا وسائل تنفيذه القائمة على الفوز النفسى ، واحناء الرؤوس بفرض الجزى ، وضغوط الارهاب ، وعلى المطاولة (وتجنب الكلفة) والتركيز بوجه عام على وسائل التوهين المادية والمعنوية ، حتى اذا لم يبق مال ولا رجال (اخذوها) بلا تكلف حسبما كان صرح به سابقا المستعرب « ششناند » لصاحب غرناطة (23) الملك عبد الله .

فمن اليسير علينا اذا جعلنا هذا نصب العين ان نستروح منه خطة الزعيم الجديد فى حرب المسلمين ، القائمة أصالة على ما ذكر ، وكأنها ماثلة فى خريطة للعيان بكل المقاييس والابعاد ، غير أن عنصرين اثنين جاءت بهما تغيرات الزمان ، قد كان لهما اثر فى تيسير مهمة الفونسو ،

(22) أعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالاندلس ص : 381 ط الرباط .
(23) كتاب التبيان المطبوع باسم مذكرات الامير عبد الله ص : 73 ، ص 101 ، وانظر المناهل العدد 2 ، ص : 345 .

وسرعة انجازه ، وتوسيع طموحه ، مما حده الى تغيير بعض طرق
الخطة ، وذلك بالنزوع الى الاحتلال والاستقرار والاستغلال المباشر للسكان
بعد ما كانت خطة سلفه - بحكم البدايات - قائمة على الاحتراس باجلاء
السكان وتنكب المناطق الآهلة ، خشية المواجهة والانتفاضات (24) .

واول هذين العنصرين : انهيار معنوية السكان بما تسرب الى نفوسهم
جيلا بعد جيل من آثار الضعف العسكري والنفسي الذي اوهن الحكام ،
فنشأ في نفوس هؤلاء الشعبيين وهم يعانون الاستيلاء النصراني مباشرة
وبالواسطة ، وبالممارسة وبالموارثة ، ما نشأ عند أولئك الرؤساء من استعداد
لقبول الظهور النصراني ومناصرته ، حيث اخنى على جميعهم الياس من
تبدل الأحوال ، وركبتهم عقد النقص حالا بعد حال ، واذا هذه الطبقة
الشعبية وخصوصا العامة منها يشاركون الطبقة الحاكمة في الخطيئة ،
ونراهم متحركين على مسرح الأحداث كملوكهم سواء بسواء كما سيأتي
بيانه بعض لحظات .

وثاني العنصرين : ضعف شخصيات الوجوه الجديدة التي واجهها
الفونسو في الرقعة الاسلامية ، وكان لها تأثير في مجرى الأحداث ، وقيام
الظروف التاريخية التي احاطت بقضية المعتمد بن عباد .

ففيما يخص العنصر الأول المشار اليه قبل هذا الاخير ، يلاحظ ان
العامة في الأندلس قد كانت تتحمل في مرتقاتها ومعاشها القسط الأكبر
من مفروضات الجزية النصرانية ، وعلى مناكبها كان الملوك يرتبون ضرائب
اضافية على كل انتاج وكل غلة ، حتى يستطيعوا مواجهة مطالب الغالب
المتراذفة ، وكانت في ضرب المغارم والاتاوات مفرقة ، ولقد تحمل الآباء
العبء الفادح الذي مادت له الكواهل والظهور ، وضعفت تحت وطأته
النفوس ، وخربت العقول ، وتلقف ذلك العبء بثقله المادي والعنوي
ابناؤهم الذين تشربوا الضعف النفسي بالوراثة ، وتسربت اليهم من

(24) انظر العدد 2 من « المناهل » ص 346 .

شرايين الدم عقدة الضعة ، وتجرعوها كاسا دهاقا على يد الفونسو الذي عرف من سياسة أبيه مدى ما فعلته الجزية في انهالك همم الملوك ، وفي أضعاف النفوس ، فكان من تم تمسكه بهذه السياسة ، وتزوع ((سانشو)) قبله اليها كما هو معلوم .

ونددع الامام ابن حزم يحدثنا من رسالته : ((التلخيص في اوجه التخليص)) (25) عن انواع الضرائب والمغارم وتأثيرها في نفسية العامة على عهد المعتضد وفرديناند ، وقد كان اخف وطأة من عهد خلفهما الفونسو والمعتمد بن عباد ، وفي ذلك يقول الامام بعدما سجل ان المغارم في القديم ، انما كان يفرضها السلاطين على الارضين : (واما اليوم فانما هي جزية على رؤس المسلمين يسمونها بالقطيعة ، ويؤدونها مشاهرة ، وضريبة على احوالهم من الفم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل ما يباع في الأسواق ، وعلى اباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد ، هذا كله ما يقبضه المتغلبون اليوم ، هذا هو هتك الاستار ونقض شرائع الاسلام) .

والمفهوم ان هذا الدخل الذي كان يواجهه الملوك به كما أسلفنا مطالب الجزى والهدايا المرفوعة الى ابواب ملوك النصارى ، قد ارتفع وتضخم ولا سيما في هذا العهد الذي تطور فيه الانعطاف الى ملوكهم من الاستمداد والاستعانة ، الى الاستعداد لتوجيهات الفونسو واللياذ بساحته ، والدوران في فلك مقاصده ، وفي هذا المعنى ، وعن ملوك المسلمين وعن الفونسو وعهده يقول ابو طالب عبد الجبار المعروف بالمتنبي في منظومته .

وزادهم في الجهل والخذلان * * ان ظاهروا عصاة الصليان (26)

ويوضحه ايضا المؤرخ ابن الكردبوس (27) حين تعرض لحالة ملوك

(25) انظر هذه الرسالة ضمن مجموعة رسائل ابن حزم التي نشرها الاستاذ احسان عباس تحت اسم الرسالة الاولى منها : الرد على ابن النفلة .

(26) الاخيرة لابن بسام القسم 1 ، مجلد : 2 ص : 401 - 430 .

(27) تاريخ ابن الكردبوس ط : المعهد المصري بمطبعة : ص : 57 .

الطوائف على عهد الفونسو السادس ، وذلك حين قال : (وكل واحد منهم ينافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرات من المشرق كي يوجهها الى « الفنش ») هدية يتقرب بها اليه ، ويحظى بمطالبه لديه ، الى ان ضعف من أولئك الثوار الطالب والمطلوب ، وذل الرئيس والمرؤوس ، وافتقرت الرعية ، وفستت أحوال الجميع بالكلية ، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية ، واذعن من بقى منهم خارج الذمة الى اداء الجزية ، وصاروا للفنش عمالا يجبون له الاموال ، لا يخالف امره أحد ولا يتجاوز له أحد) .

وفي فصل آخر من نص الامام ابن حزم المسجل آنفا يقول في معرض قبول المتشابه : (وهو في غير زماننا هذا باب جديد لا يؤثم صاحبه ، ولا يوجر ، وليس على الناس ان يبحثوا عن أصول ما يحتاجون اليه في اقواتهم ، ومكاسبهم ، اذ كان الاغلب هو الحلال ، وكان الحرام مغمورا ، واما في زماننا هذا وبلادنا هذه فانما هو باب اغلق عينيك واضرب بيدك ، ولك ما تخرجه اما ثمرة واما جمرة (28) .

ويا ما كان افصح الامام ابن حزم في هذين المقطعين الأخيرين من هذا النص حين صور ذلك الاستعداد الذي نشأ في نفس ابن الشعب الأندلسي ، وما ترتب عليه من تدهور في اخلاقه حتى قبل - كما اشرت في آخر الذيل الأول - الدنية في دنياه ودينه ، وطبع الله على قلبه فحرمه من بوائع المحبة ومن مقومات الانسانية ، وذلك هو المنتظر ممن اخنى عليه الياس من تبدل الاحوال ، ومن ركبته العقد ، فاقدم في تصرفه تصرف المفلق العينين ، الضارب باليدين ، والناج بعد هذا عنده سيان ، ان كانت ثمرة او جمرة كما قال الامام .

(28) هاتان الجملتان المؤشر تحتها بخط (وهما محل الشاهد للمعنى الذي نريد) قد صادف موقعهما بيانا في النسخة التي اعتمدها الاستاذ احسان عباس عند نشر رسائل ابن حزم التي منها : « رسالة التلخيص في اوجه التلخيص » وقد اعتمدت في تعميم البياض المذكور بالجملتين المسجلتين هنا على معتمد شيخ مؤرخي الاندلس ، الاستاذ محمد عبد الله عنان (دول الطوائف ، الصحيفة 404) الذي يذكر في التعليق انه نقل النص من اوراق مخطوطة لابن حزم نشرها الاستاذ مجيل آسين بلا ليوس في مجلة الاندلس سنة 1934 ، ص : 35 - 37 .

وذلك هو الاسعداد الذي تجشمت عرض منشئة وتطورات مظاهره بالنسبة الى الملوك حتى صار كما لاحظ القارىء ، وكما سيلاحظ حتى النهاية ، نفس استعداد ابن الشعب الذي تهاوت أخلاقه الى الترك الذي سمعناه .

ويبقى وقد ضرب لنا الامام المثل ، ان نعقبه بامثلة من التاريخ حتى نفتح العين على ما كان لحركة الاسترداد من مكسب فى هذه الاستعدادات، من ابناء الشعب بالذات .

ولنستمع الى المؤرخ ابن الكردبوس وهو يقدم لنا بعض الامثلة ، وذلك فى معرض استعراضه لتصرفات العامة ومظاهرتهم الحكم النصراني عند دخول القادر يحيى ابن ذي النون الى بلنسية تحت حماية البرهانس قائد الفونسو الذي كان قد تسلم طليطلة ، وعوض عنها القادر بالحماية فى بلنسية ، فابن الكردبوس يحدثنا الآن عن تصرفات ابن الشعب الاندلسي وابن الجيل والظرف الذي يعيننا ، وذلك حين يقول : (29) وتعلقت (اي جماعة) بالبرهانس ، لعنه الله ، فكانت تقطع ذكور الرجال ، وفروج النساء ، ورجعوا له من جملة الخدمة والعمال ، وفتنوا فتنة عظيمة فى اديانهم ، وسلبوا جملة ايمانهم) .

وسنظل موقتا فى بلنسية وفى نفس الظروف ومع المؤرخ ابن الكردبوس وهو يفيدنا بما كان لابن الشعب من يد فى نزول (الملم الفادح) ببلنسية ، وفى تمهيد البساط لحكم السيد القمبيطور بعد الذي سمعناه عن تمهيدهم لحماية القائد ((البرهانس)) فيها للقادر ابن ذي النون حسبا يستفاد من هذه النصوص ، وفى ذلك يقول ابن الكردبوس (30) : (وفى هذه المدة انتطع الى ((القمبيطور)) وغيره ، من اشرار المسلمين وارذالهم ، وفجارهم ، وفسادهم وممن يعمل باعمالهم خلق كثير ، وتسموا بالدوائر ، وكانوا يشنون على

(29) تاريخ ابن الكردبوس ، نشر المعهد المصري بمديرية ، تحقيق : الاستاذ احمد العبادي ، ص : 104 .

(30) المصدر السابق ، ص : 103 .

المسلمين الفارات ، ويكشفون الحرمات ، ويقتلون الرجال ويسلبون النساء والأطفال ، وكثير منهم ارتد عن الاسلام ، ونبذ شريعة النبي صلى الله عليه وسلم ، الى ان انتهى بيعهم للمسلم الاسير بخبزة ، وقدر خمر ، ورطل حوت ، ومن لم يفد بنفسه ، قطع لسانه) .

ولعل هذه الأمثلة من (الاستعداد) لاجتراح مثل هذه الكباشير في بلنسية كقيلة بأن توضح لنا فيما بعد الأسباب التي وطأت البساط للفونسو السادس ليقم في قصر المنية المنصورة على قيد مسافة بسيطة من العاصمة طليطلة ، وبين الفادين والرائحين من سكانها ، ومن زراع حقول أرباضها ، ولقد أتبع أيضا للسيد الكمبيادور بفضل إقامته في بلنسية متغلبا وحاكما ، وبفضل نفوذه الواسع قبل ذلك في سرقسطة على عهد المقتدر وخلفه المؤتمن ، حيث كان الحاكم الفعلي الحاذق أن يتغلب حتى على العواطف ، فأصبح ((السيد)) على لسان الناس ، وهو القلب الذي ظل به معروفا في التاريخ حتى اليوم ، ولقد استطاع وهو صاحب الصولة والسلطان أن يستغل السداجة المعروفة في طبقة أبناء الشعب عامة من غير استثناء ، فاشترى الضمائر ، وكبس العواطف ، والعامة في كل زمان ومكان أقرب إلى الاستجابة والتقلب ، وإلى السير وراء كل من ظهر بالجاء والتقلب ، وأي دعوة لتبديل الأحوال أو الأشخاص تريغهم بمجرد الخيط الواهي من غير كلفة توثيق العنان ، وإن الأبحاث الاجتماعية ، والحديث منها القائمة على الإحصاء والاستقراء في مختلف الأنحاء ، لتقرر أن الطبقات الشعبية لا تتوفر على فضيلة الصبر ، ولا على الرضى بما قسم لها في حاضرها ، ولا تقوى على انتظار ما يأتي به الغد ، أو الثاني ريثما تبديل الأحوال .

وذلك ما سيوحى لنا بعد ، أن الفونسو السادس قد أخذ يستغله في أبناء شعب طليطلة ، منذ رد القادر إلى عرشه فيها عام 473 هـ 1081 م حتى تاريخ استيلائه عليها في المحرم 6،478 ماي 1086 ، ولا سيما منذ استوى في قصر المنصورة ، (31) واتخذ منه مقر قيادته ومنطلق

(31) الذخيرة لابن بسام ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص : 128 .

بطانته وجنده الى مراتع غاراتهم السياسية والاستنزافية ، وما ان حلت اللحظة الفاصلة حتى امدته الشعبية الأندلسية بجيش خامس فى قلب المدينة حسبما ستراه عبر ما سنستقبله من أحداث ، وسنلتقى مرة أخرى بالمؤرخ ابن الكردبوس وهي فرصة لقاء آخر منتظر مع صديقنا الدكتور عباس الجرارى صاحب البحث فى مجلة الثقافة الجزائرية بعنوان : قضية المعتمد ابن عباد، وبذلك نستدرك ما فاتنا أو فاتته من مشاطرتنا الانصات الى افادات ابن الكردبوس حول ما كان من شر أبناء الشعب على بلنسية ، فليكن هذا اللقاء على أرباض طليطلة وفى معرض بسط ما سجلته فى أول هذه الديبول من انه كان يجوز أن يتجه البحث الى التعمق فى فهم الأحداث مع الالتفات الى السوابق منها واللاحق ، فقد تتراءى لنا فيها الى جانب الفوضى والانقسام ، اما نقائص أخرى مما ينسب الى الملوك ، واما نقائص فى رعاياهم - كما ترى - ، واما أمراض مجتمعية غير خاصة بملوكه وامرائه ، وانما هي من فصيلة أمراض الشعوب الرعايا والملوك .

وفيما يخص العنصر الثانى من العناصر التى سهلت مهمة ((الفونش)) أو الفونسو كما يقول المحدثون ، فذلك ما ساستهل به حديثا تاليا من أحاديث هذه الديبول :

عبد الرحمن الفاسي

الرباط

(يتبع)

مع الأدب والأدباء

لعبد الكريم غلاب . 284 ص . 21 x 15 سم .
دار الكتاب بالدار البيضاء . 1974

تلقيت بيد الشكر ، منذ أيام ، الهدية الجديدة ، التي اتحفني بها
الصديق العزيز الاستاذ عبد الكريم غلاب ، وهي كتابه الموسوم بـ
(مع الادب والادباء) الذي اخرجته له اخراجا جميلا ، (دار الكتاب)
في الدار البيضاء .

وحيث ان هذا الاديب الكبير ، عودني ، على ان اقرا كل ما يدبجه
قلمه برغبة وشوق ، لانه لا يكتب عن هوى ، بل خدمة للفكر والادب ،
لكل هذا ، سارعت بقراءة هذا الكتاب الجديد ، الذي تقاسم موضوعاته ،
بابان ، تناول الاول منهما عددا من الابحاث الخاصة بالادب ، من شعر
وقصة ونقد ، وتناول الثاني وهو (في صحبة الشعراء والكتاب) جوانب
من حياة بعض الشعراء في مشرق الوطن العربي ومغربه !

وفي وقتي هذه ، سأعطى القارئ ، فكرة عما قدم في الباب الاول من ابحاث ، لانه حري بمثل هذه الوقفة ، فقد افدت كثيرا مما جاء في هذه الابحاث الدسمة ، لانها قدمت لنا معلومات قيمة عن الشعر والقصة والنقد الادبي ، في المغرب العربي ، ووفق الاستاذ غلاب توفيقا كبيرا حين اعطى لنا بابحاثه هذه ، صورة واضحة المعالم عن تطور الادب في ذلك الجناح العربي المطل على البحر الابيض والمحيط الاطلسي ! ففى بحثه عن (الشعر الحديث في المغرب) ، الذى استغرق (46) صفحة من الكتاب ، قدم لنا خلاصة جيدة ، عن تطور الشعر في تلك الربوع الغوالي ، اذ تحدث عنه ، منذ بداية النهضة الحديثة فيها ، مستعرضا مراحل هذا التطور ، شارحا الاساليب ومبينا الاغراض التى عالجها ونظم بها شعراء كل مرحلة من مراحل الحياة الادبية ، ولم ينس ان يقدم لكل فترة من فترات هذا التطور ، بعض النماذج الشعرية ، ابتداء من شعير الزعيم الراحل علال الفاسي ، فالمختار السوسي فمحمد القرى وانتهاء بشعراء الشعر الحر امثال احمد الجماطي وعبد الكريم الطبال وابن ميمون والخمار ! !

والقارئ لهذا البحث ، يحس ان الاستاذ غلاب قد (مسح الشعر في المغرب العربي مسحا انتقائيا خلال فترة تربو على اربعين عاما ، وجاء بنماذج ليست ميسورة لاغلب القراء) في المغرب ولاكثرهم في المشرق ! !

وقد اعجبت ايما اعجاب ، بتلك القصيدة التى اختارها من شعير الزعيم الراحل المرحوم علال الفاسي ، واعنى بها قصيدته التى جعل عنوانها (عهارة الفكر) ولشدة اعجابي بها لما حوت من مضامين وآراء ، اقترح على الاستاذ غلاب ، وهو الاديب الكبير ، ان تقوم (العلم الثقافى) بطبعها بكراس مستقل وتوزعها على القراء العرب في كل مكان ! !

اما بحثه عن (تطور الادب القصصى في المغرب العربي) الذى استغرق (20) صفحة من الكتاب ، فقد جاء خلاصة وافية ، استطعنا بواسطتها ان نلم بالكثير عن تطور الادب القصصى في كل من تونس

والجزائر والمغرب وليبيا ، وان نعرف العوامل والاسباب التي أدت الى تأخر هذا الادب في بعض هذه الاقطار ، وتقدمه في بعضها الآخر ! ! وعلما منه بعد ذاك (ان الادب القصصى في المغرب العربي ، يجتاز مرحلة النضج ، واهم ظاهرة للنضج هي ان الكتاب مايزالون يبحثون عن طريقهم لاستكمال تقنية القصة والرواية من حيث الشكل ومايزالون يبحثون عن الموضوعات التي تتصل بنضال شعوبهم من اجل الحياة الافضل لاستكمال تقنية القصة والرواية ، من حيث المضمون !)

ثم حدثنا في بحثه عن (حركة النقد في المغرب) عن مفهوم النقد الادبي ، قديما وحديثا وعن نظريات النقد ومقاييسه المختلفة ، وعن وضع النقد في المغرب ، مشيرا الى موقف الاشفاق على الادب المغربي والخوف عليه من النقد ، ونقل لنا بهذا الخصوص رأى الاستاذ عبد المجيد ابن جلون الذي يقول (ان نقد الادب المغربي ، في ظروفه الحاضرة انما يسمى الى الادب اكثر مما يحسن اليه ، فمن الضروري ان نترك الادب ينمو ويزدهر دون ان نعرقل مساعيه بالنقد الخ .

واشار كذلك الى ظاهرة الخوف من النقد ، وما يجلبه النقد على الناقد من مشاكل يثيرها ضده ذوو الاعمال المنقودة ، وتلك ظاهرة معروفة عندنا كذلك ! !

ولم ينس بعد ذاك الاشارة ، الى النقاد (الايديولوجيين) فقد ذكر ان هؤلاء (يحاولون في ميدان النقد ربط الاثر الادبي بوضع الكاتب الاجتماعي ومركزه الطبقي وتأثره بايديولوجية معينة !) وفي رأيه ، ان هذا النوع من النقد ، نقد عشوائى لا ينتمى الى الذوقية او المنهجية (مع ان هذا الاتجاه ، لم يعد يطبع النقد الادبي الحديث حتى في البلاد الشيوعية ، لان المنهجية العلمية الذوقية ، عادت لتطبع النقد الادبي كنقد يصدر عن النقاد ، لا عن رجال الحكم ! !) .

وقد ختم بحثه هذا برجاء وجهه الى المشرفين على الدراسات الادبية في الكليات طالبهم فيه (ان يهتموا بتكوين الذوق الادبي الرفيع بوضع النظريات النقدية الجادة امام طلبتهم حتى لا يهيموا بالافكار العائمة ،

بعيدين عن التذوق اولا ، وعن وضع الانتاج امام الحقائق الادبية
والنظريات السليمة ! !) .

وتحدث في بحثه عن (ازمة الشعر العربى) حديثا مفصلا ، بين
فيه اسباب المعركة القائمة بين القديم والجديد من الشعر ، وبعدما حلل
وعلل ، قال متسائلا — لماذا يسد المحدثون آذانهم ، ويفتحون افواههم ،
حين يصعد على المنبر شاعر يزن ويقفى ؟ !

— ولماذا يهجو القدماء ، المحدثين — شعرا ونثرا — دون ان
يحاولوا تفهم هذه القصائد ، او خلق حوار فنى وفهمى معها ؟ !

وبعد أن ذكر ما بذله الجيل السابق من الشعراء فى اخراج الشعر
من وهدهته ، وتخليصه من طغيان المحسنات البديعية والجناس اللفظى
وتفاهة المضمون ! ثم قال :

(وجاء عصر التحرر من الاستعمار وقيادة الشعوب لنفسها
ومواجهة تحديات العصر بكل مظاهرها الامبريالية والاستعمارية
والحضرارية والفكرية والاجتماعية ، وكان على الادب ان يكون فى الميدان ،
غير بعيد عن التحول الذى يتطلبه العصر . وكان على الشعر بالاخص
ان يتطور فى الشكل والاسلوب والموسيقى والمضمون ليثبت ذاته ويؤكد
وجوده فى عصر التحول الذى تعيشه الامة ، شعر الشعراء بضرورة
هذه المحاولة ، فكان الشعر الجديد المتحرر من الوزن والقافية !) وقال
بعد ذاك (ان التحرر من الوزن والقافية عملية ضخمة جريئة فى فن
اعتمد ازيد من اربعة عشر قرنا على الوزن والقافية ! !)

وبعد ان بين ما اتصفت به قصيدة (الشعر الحر) من عدم
الموسيقية ، والغموض ، والرمزية ، ختم بحثه القيم هذا بقوله (لا أقصد
من وراء اشارة مظاهر الازمة فى الشعر ، الا ان الفت انتباه شباب
المغرب الذين أغرقوا فى تقليد بعض الشعراء المحدثين ، الذين يحاولون
ان يكسبوا الشهرة على مطية الاغراب تارة فى التحلل من كل القيم الفنية

فيما ينتجون ، وتارة في التستر وراء الغموض لاختفاء الفراغ والخواء الذي لم يمكنهم من ابداع أى جديد ! !) .

اما في بحثه (بين الاقليمية والانسانية) فقد حدثنا عنه قائلا (وفيما يخص الادب العربى وفنونه ، لا احب ان ادرسه موزعا بين الاقطار العربية ، على منهج اقليمية الادب ، فلم اومن باقليمية الادب العربى ، رغم انها كانت محور الدراسة التى قام بها استاذنا المرحوم امين الخولى ، وهو يدرس معنا (الادب المصرى) بكلية الاداب بجامعة القاهرة !) وهو اذ يؤمن بهذا الراى ، له من المبررات التى تسنده فيه ، فهو يعتبر (تشابه المنطق العقلى والفكرى والاجتماعى والخلقى ورواسب الحضارة والتاريخ والدين واللغة والاصول المشتركة للقبائل العربية التى انداحت فى الوطن العربى ولو تغيرت الفروع بالالتحام والتزاوج والتساكن والتعايش ، ثم التاريخ المشترك الذى تعيشه البلاد العربية ، فى ظروف متشابهة) انه يعتبر كل ذلك (عامل وحدة فى الوطن العربى ومن ثم عامل وحدة الادب العربى ، قديمه وحديثه !) .

تلك هي نظرة عجلى ، على اهم الابحاث التى ضمها (الباب الاول) من كتاب الاستاذ غلاب ، درسناها دراسة الراغب فى المعرفة ، فاذا نحن نقف بعد قراءتها ، على تطور الادب فى المغرب العربى ، وان نقرا نماذج طيبة من نتاج اخواننا فى تلك الربوع الشقيقة ، فى الشعر والقصة والرواية والنقد الادبى ، وهو ما لم يكن بمقدورنا الوقوف عليه لولا قراءتنا هذا الكتاب النافع المفيد ! !

ويطيب لى ، بعد هذه الوقفة القصيرة مع كتاب (مع الادب والادباء) ، ان ابدى ، بعض ما عن لى من ملاحظات وتعليقات ، ونسق ما يلى :

أولا :- جلب نظرى ، وانا اقرا هذه الابحاث ، ان الكتاب ، قد خلا من الحديث عن موقف المرأة فى المغرب العربى ، لاسيما فى ميدان الشعر والقصة !

ولا اخال استاذنا الكبير ، غير محيط بهذا الموقف ، ولذلك اقول ،
لعله قد خصص لهذا الموضوع دراسة خاصة سيطلع بها علينا في القريب
ان شاء الله !

ثانيا : — لقد ذكرتنى اشارة الاستاذ غلاب الى محاولة التحرر من
الوزن والقافية ، بتلك المحاولات التي جرت في اوائل هذا القرن ،
واعنى بها محاولات التخلص من القافية كخطوة اولى ، وبمقدار ما تحمل
القائمون بها من متاعب ، وما دمننا بصدد هذا الحديث ، انقل للقارئ ،
راى الشاعر الكبير الزهاوى الذى نشره منذ نصف قرن حول القافية (
اذ قال) والسبب الاكبر لتأخر الشعر بالعربية هو القافية ذلك القيد الذى
ينوء به الشعر . فاذا حرر الشعر من قيد القافية ، انصرف الشعراء
الى المعانى التي يريدونها ، لا الى الالفاظ والى اظهار الشعور الحقيقى
الذى تجيش به نفوسهم ، لا الى الشعور الكاذب الذى تضطرهم الى
تصنعه ضرورة القافية وضرورة كون حركة خاصة من الاعراب فى آخر
كل بيت ، هذه الضرورة ، هى التي تضطر اكثر الشعراء ، الى استخراج
المعانى من القافية فتكون المعانى تبعا لها عوض ان تكون هى تبعا لها !)
وعلى هذا الاساس خرج بدعوته للشعر (المرسل) والى تعدد وتنوع
القوافى ، فى القصيدة الواحدة ! !

ثالثا : — لقد اثبت الاستاذ فى بحثه عن (ازمة الشعر العربى)
الراى القائل بتخلف الشعر عن مسيرة ركب الحضارة والتحولات
العصرية ، ومحاربة الاستعمار وما الى ذلك ، وقد تراءى ، لى ، وانا
اقرا هذا الراى ، ان اتساءل قائلا :

— هل ان هذه الحضارة ، وهذه التحولات العصرية ، بدأت فى
الاربعمينات (وهى السنين التى ظهر فيها الشعر الحر) حتى كان (الشعر
الحر) نتيجة من نتائجها ؟ ام ان الشعر العمودى لم يكن متخلفا هذا
التخلف الذى يتصورنه وهم يجهزون عليه ؟ ! الواقع ان الشعر العمودى
لم يكن كما يتولون ، فاننا مازلنا نحفظ تلك القصائد الوطنية والقومية
والانسانية ، بل وتلك التى حثت الشعب على النهوض من وهدة الجهل
والتخلف والثورة على كل بال وقديم ، واخيرا تلك القصائد الثورية التى

الهبّات النفوس وهى تحارب الاستعمار لا فرق فى ان تكون تلك القصائد فى ثورة العشرين او ثورة سوريا او الثورة الجزائرية او الثورة الفلسطينية او غيرها من الثورات فى الوطن العربى الكبير !

اقول هذا لآخرج الى التأكيد بأن وصف الشعر بهذه الوصفة قد تحتاج الى وقفة منصفة ! ،

ويطيب لى ما دما بصدد الاشارة الى المعركة بين الشعر القديم والحديث ، ان اثبت ما قاله عميد الادب العربى ، الدكتور طه حسين فى هذا الخصوص ، قال (1) (وانا اعلم ان من الشباب طائفة يرون لانفسهم الحق فى ان ينحرفوا عن مناهج الشعر القديم واوزانه وقوافيه خاصة ، ولست اجادلهم فى هذا الحق ، بل ليس لى ان اجادلهم فيه ، فاوازن الشعر القديم وقوافيه ، لم تنزل من السماء ، وليس ما يمنع الناس ان ينحرفوا عنها ، انحرافا قليلا او كثيرا ، ولكن للشعر ، قديما كان او حديثا ، أسسا ، يجب ان تراعى ، وخصائص يجب ان تتحقق ، فليس يكفى ان ينشئ الانسان كلاما على اى نحو من انحاء القول ، ثم يزعم انه قد انشأ شعرا حديثا ، وانما يجب ان يحقق فى هذا الكلام ، الذى ينشئه ، اشياء ليس الى التجاوز عنها سبيل . فالشعر يجب ان يبهز النفوس والاذواق ، بما ينشئ فيه الخيال من الصور ، ويجب ان يسحر الاذان والنفوس معا بالالفاظ الجميلة التى تمتاز احيانا بالرصانة ، وتمتاز احيانا بالركة واللين ، وتمتاز كل حال بالامتزاج مع ما تؤديه من الصور ، لتنشئ هذه الموسيقى الساحرة التى لا تنشأ مع انسجام الالفاظ فحسب ، ولا من التثام الصور فحسب ، وانما تنشأ من هذا الائتلاف العجيب بين الصور انفسها وبينها وبين الالفاظ التى تجلوها بحيث لا يستطيع السمع ان ينبو عنها ، ولا تستطيع النفس ان تمتنع عليها ولا يستطيع الذوق الا ان يذعن لها ، ويطمئن اليها ويجد فيها الراحة والبهجة ما يرضيه ، فاذا استطاع الذين يحبون هذا (الشعر الحديث) ان يقدموا لنا منه ما يمتعنا حقا فمن الحمق ان ننكره ، او نلتوى عنه ، لا لشيء الا لانه لم يلتزم ما كان القدماء يلتزمون من الاوزان والقوافى ! !)

رابعاً :- وفي بحثه عن (الاقليمية والانسانية) اشار الاستاذ الى المرحوم الاستاذ امين الخولي باعتباره في مقدمة القائلين باقليمية الادب وبصدد الاشارة الى هذا الموضوع اقول ، اني قلت ، ما ذهب اليه استاذنا غلاب ، في عدم الايمان بالاقليمية ، منذ عام 1947 ، حين نشرت مقالا في مجلة الاعتدال النجفية ، ارد فيه على ما كتبه احد طلاب المرحوم الخولي ، هو الاستاذ الدكتور مهدي المخزومي ، وختمت مقالى ذاك قائلًا (ومهما يكن من شيء غانى ارى ، ان الادب العربى ، قد بدأ يكسر قيود الاقليمية بانتشار الثقافة بين معظم اقطار العروبة ، ودخول المخترعات الحديثة فيها واستخدامها في الاتصال المادى والثقافى والروحى ! ولعل السنين القلائل القادمة ستكشف لنا عن اثر ذلك ، حيث لا يبقى هناك ادب عراقى او مصرى او لبنانى او سورى ، انما هناك ادب واحد ليس غير ، هو الادب العربى !) .

وبمناسبة الحديث عن الاقليمية في الادب اود ان انقل للاخ الاستاذ غلاب ، تلك المحاور الشعرية الطريفة التى دارت بينى وبين الصديق الكبير شاعر الاهرام الاستاذ محمد عبد الغنى حسن والباعث على تلك المحاور ما يأتى بيانه :

حين اصدرت كتابى المرسوم بـ (دراسات وتراجم عراقية) واهدت نسخة منه الى الاستاذ محمد عبد الغنى ، شاء ان يداعبني كعادته ، فبعث الى بقصيدة يعاتبني فيها على تسمية دراستى هذه بـ (العراقية) اذ كان الاجدر ان تسمى (عربية) لان جميع المبحوث عنهم (عرب) عاشوا في العراق ، ومما قال في قصيدته هذه الابيات :

ماذا تقول اخى ؟ ائمة فارق في المجد بين فعالكم وفعالنا ؟
كنا على الماضى المبارك امة لم يدخل التمزيق فى اوصالنا
فسهولكم ممدودة بسهولنا ورحالكم موصولة برمالنا
حتى اتى المستعمرون فأمعنوا فى البت بين حبالكم وحبالنا
جعلوا لكل جماعة آدابها وتوزعوا المنثور من اقوالنا

وقال :

ان الذين الى العراق نسبتهم هم زين امتنا وفخر رجالنا
ان كان انبتهم عراقك انما هم في العروبة ملتقى آمالنا
انا لتجمعنا العروبة امة لا فرق بين هلالكم وهلالنا

* * *

فلما تسلمت منه هذه القصيدة الرائعة ، اجبته بقصيدة من نفس
الروي والقافية مبينا السبب الذي حملني على تسميتها بـ (العراقية)
قائلا فيها :

قد جئت تسألني امة فارق في الجاد بين فعالكم وفعالنا
وعلام تنسب للعراق فطاحلا هم زين امتنا وفخر رجالنا
او ما تراهم للعروبة مشعلا وهم منار في طريق نضالنا ؟
فاسمع اخي مني الجواب معبرا عما قصدت ومعربا عن حالنا
ما كان تخصيص الدراسة بدعة لتؤكد التمييز في اوصالنا
او انها تدعو لفرقة امة كلا ولا للخط من آمالنا
بل انت تدري انها قد خصت لدراسة الباقي من افضالنا
فلقد احاط الجهل في ما ابدعوا زمنا وكان الداء في افعالنا
فاذا نسبنا للعراق جماعة لم يخطر التفريق قط ببالنا
لكنها جاءت تترجم نخبة هم في العراق طليعة لنضالنا
ادب العروبة في العراق سما بهم وسموا به فهو منار فعالنا
فاسلم اخي عبد الفنى فائنى اتعشق الماثور من اقوالنا

من ذاك قولك وهو قول رائـع قد جاء يعرب عن رؤى امانا
انا لتجمعنا العروبة امة لا فرق بين هلالكم وهلالنا

* * *

فماذا يقول الاستاذ غلاب بهذا الدفاع ؟ !

وبعد :

فتلك هى اهم الملاحظات والتعليقات التى رغبت فى اثباتها ، بعد
قراعتى للباب الاول ، من كتاب الاستاذ غلاب حفظه الله .

ابعث بها من المشرق العربى ، الى المغرب العربى ، لتتشر فى تلك
الربوع الغوالى ، ولست أشك فى أن الصديق العزيز ، سيبتسم ابتسامته
الهادئة ، ويقول لمن حوله : هذه بضاعتنا ردت الينا ! !

فشكرا له على هديته الثمينة ، التى لولاها لما تسنى لنا كتابة هذه
الكلمة التى نرجو ان تكون مقبولة عنده .

عبد الرزاق الهلالى

بغداد

عندلة

لحمد الصباغ . 94 ص . صور ملونة .
15 x 22 سم . مطابع دار الكتاب
بالدار البيضاء - المغرب . مقدمة المؤلف
فبراير 1975

رحلة إلى عالم مسحور

احب المؤلف الطفولة ، فصنع لها جنة وفي هذا يذكرني بما صنع
« والت ديزنى » من بنائه مدينة للأطفال ، فيها مختلف الملاحى ، اعدت
للصغار ، وينعم بها الكبار مع ذرايرهم ، وكأنها مستهم عصا سحرية ،
فعادوا لاولادهم اذدادا لا امهات او اباء . اما صاحب « عندلة » فيحملنا
الى جنة ابداع واوسع ، نعم اوسع ، لأنها بلا حدود ، وابدع ، لانك
تقطف فيها الضوء ، وتمسك بعناقيد النجوم ، وتركب على سهوات
الغزلان . . . ثم ان مدينة « والت ديزنى » آلية ، ميكانيكية . اما
عالم « عندلة » فيشدنا الى الطبيعة ومفاتها ، بل يضيف الى ما تزخر
به من روائع وبدائع .

ليست دنيا « عندلة » جنة للحواس وحدها ، انها جنة للمشاعر ،
الحب فيها هواء ، نتنفسه ، والحب يخالط الحياة ، وهو هنا واسع ،
وعميق ، وحميم ، وذكى . اما انه واسع ، فلأن القلب يتسع لكل
الطفولة ، طفولة بنى الانسان ، والفرحة بكل ما يبدع الخلاق الاعظم ،
من براعم الازهار ، وصغار الافراخ على الارض ، الى بنات الطير في
الجو ، الى صغار المحار في البحر ، الى الفجر الوليد في انزلاقه من السماء
الى الارض . هذا حب عميق يتمثل في الاحتفال بمولد « عندلة » : تتبرج
الطبيعة لهذه المناسبة . وفي حفل عيد الميلاد ، تنصب مائدة شهية ،
تعلوها ، شموع تتضوا ، وتتعلق حولها : « عندلة » كرمز لبنى الانسان ،
مع اصدقاء لها من صغار الحيوان ، واقربهم اليها « مواء » قطيبتها ،
ويشارك ويشرف الحفل : حمائم ، وفراشات ، ويكون رقص ، وغناء ،
وفرح ، ومرح .

اما السلام في دنيا « عندلة » فرموزه عديدة : منها « مواء »
قطيبتها التي تنال الحب والتدليل ، فينسكبان عليها في سقاء من
« عندلة » ، وكأنها تهيأ بذلك من طفولتها الباكرة الى عواطف الامومة ،
بما فيها من غيرة وايتار ، ويحترم اهل « عندلة » هذه المشاعر الرقيقة
الخلوة المتبادلة : ذلك ان « مواء » لا تأكل الا من يد « عندلة » ،
و « عندلة » تكثر من تدليل « مواء » ، والاسرة تعزز هذا التجاوب ،
فاذا اهدت ، فهديتين متماثلتين للحبيبتين « عندلة » و « مواء » . ارايت
الى معايشة الصغار ومسايرتهم في اخيلتهم الجميلة ، وفي مشاعرهم
النبيلة ؟ ومن رموز السلام كذلك ركوب « عندلة » على سهوات الغزلان ،
ومصادقتها للحمل الوديع « ارجوان » ، وخلقتها لجو من الونام والمودة
بين الذئب والحمل ، والقطيطة والفيران . نعم ، انه عالم اسمى من
عالمنا ، فمن القسوة ومن الظلم للصغار ، ان نقدم لهم دنيا الواقع ، على
انها صور للنفي والعدوان ، بل الدنيا في عالم « عندلة » حب ، حب
الانسان للانسان وللحيوان للطبيعة وللحياة والمعرفة . نعم حتى المعرفة
حب ، والعلاقة بها حب ، والحروف الابجدية ، هي كائنات كلها جمال
ورقة ، وترتبط بكل ما هو حلو ، ورائع وساحر ، ومحبوب . (الفاء)
فجر ، (السين) سراج ، (النون) نقوة ، (الواو) وتر ،

(العين) عنقود ، عذليب . اجمع خصائص هذه المسميات ، تجد بعض معالم العالم المسحور ، الذى ابتدعه المؤلف الانسان الشاعر ، والقصاص الملهم . ومن هذه الكلمات تنطلق وتندفق موجات من نور ، واغاريد ، وموسيقى ، وحلاوة . فالمعرفة تقدم للطفولة بحب ، وتعطى فى جـو فردوسى ، وبلا قهر ، بل فى حنان ، والمعرفة متمثلة فى حروف الهجاء ، تمنح للصغار قوى السحرة ، فيخلقون من الحروف ، ابداع واروع ، ما يحبون من آى الجمال . واذا كانت فرشاة الرسام الفنان تنتج صورا اخاذة ، ناطقة معبرة ، شبيهة بالحياة ، فان الحروف هنا اشياء ملموسة — على لطافة فائقة — يمسك بها الصغار ، باليد ينثرونها او يرشونها ، على هذا النحو او ذاك ، فتخلق كائنات جميلة حية تزخر بالحياة الحقيقية ، من ورود وازاهير ، وحمائم وعصافير ، وفراشات ونحل . ثم لا ينسى خيال الشاعر المحب للزهور ، حاجتها الى ان تنضج وجوها بما يزيد لها نضارة على نضارة ، وغضارة على غضارة ، فترش عليها « عندلة » ثلاثة حروف فيكسوها من نثار الندى ، لآلىء حية وليدة طرية .

وبعد فأتى أتساءل : هل « عندلة » قصة ؟ انها كذلك ، ففيها شريحة من تاريخ طفولة : تبدأ من ميلاد « عندلة » ، فى جو كله حب وحنين ، وفى احتفال للطبيعة كلها ، فنتابع النمو لنحضر حفلة عيد ميلاد ، ثم تكبر « عندلة » ، وتمر بأحداث وتجارب نفسية شعورية ، وتعيش مشاعر « ارجوان » ومخاوفه ، وتحل مشكلاته ، وتكبر « عندلة » وتتعلم حروف الهجاء ، ثم تضع اقدامها الصغيرة على عتبات قلعة المجد ، اى المدرسية ، او بالاحرى « روضة الاطفال » ، ام ان « عندلة » اسطورة ؟ ففيها عالم مسحور ، فيه فتيات النجوم ، وخصلات الضوء ، وزوارق الورود ، وعربات من سبائك الجوهر ، وذات عجلات من قوس قزح ، يجرها فجران . وفى هذا العالم اسرة للنوم ، تضى جنباتها نجوم تشعلها « عندلة » بيدها او تطفئها كما تشاء ، وفى دنيا « عندلة » حروف تولد ، وتكبر ، وترقص ، وتغنى . . . ؟ ام ان « عندلة » قصيدة واغنية بها ؟ يهديها المؤلف الشاعر الى جميع الاطفال ، فى كل زمان ومكان ، والى الطفل الذى فينا ، والى الطفولة ، كحاملة لاسمى رموز

الانسانية : البراءة ، والخيال ، والصباحة ، والبساطة ، والطلاقة ،
والنقاء .

ان « عندلة » قصة ، واسطورة ، واغنية وقصيدة ومعزوفة ، هي
هذا كله ، هي جو رومانسى ما اشد حاجتنا اليه ، هي عالم من الصور
الفنية الغيبية ، ومن الاخيلة المنغومة الشجية ، ومن الاثرات السارة .
صنع ليسعد به اطفالنا بأكثر من واسطة : اذكياءهم يقرأون فيتعلمون
وهم في نشوة ، ونحن الكبار — نقرا فنعود — لحظات الى طفولة هي بكل
تأكيد اسعد من تلك التى اجتزناها ، ونعب عبا من هذه الاخيلة والمثاعر
والاحاسيس ، فننقلها الى صغارنا . ونحن نروى ونحكى ، ليحبوا
الطبيعة ، والمعرفة ، وليحبوا الآخرين ، فالحياة الحب ، والحب
الحياة . وفي « عندلة » جاذبية ارجو ان تشد شبابتنا من الجنسين
ليعلموا — برك الله فيهم — ان ادب الجنس ، ليس وحده مصدر السحر
والفتون . هنا في اجواء « عندلة » رومانسية صحية عفة طاهرة ، يتشرب
فيها الفتى والفتاة مثاعر انسانية عالية ، مثاعر الابوة والامومة ،
يتلقيان بذورها لتنمو فيهما ، وليمارساها مع اخوتهم واخواتهم ومع كل
الاطفال ، فما احوجنا نحن بنى الانسان الى التعاطف والتواد والحنان
في كل عمر وفي كل اوان ، هنا اذن جو من الرومانسية عفيف نظيف ،
يعد شبابتنا لحياة اكثر سعادة ، واكثر تساميا وتعاليا على لذات الحس ،
واكثر رقمة وطيبة .

وفي « عندلة » ، في عالمها مردوس ، يمكن ان يفرغ اليه ، ويستجم
فيه ، كل من آذاه الواقع المرير ، او لطمته الحياة ببعض صدماتها .
وفي صحبة « عندلة » ، في عالمها ، راحة النفس لكل مكدود ، او
مجهود . هنا تذوب آلامنا ، وتتجدد في اجهزتنا النفسية خلايا الحسب
والطيبة والاقبال على الحياة ، وانى لاقرر هذا عن تجربة واعية ، فقد
عشت ما عشت ابا شديد الحنو ، واغتربت طويلا عن احبائى ، وما ازال ،
ولكن « عندلة » ، جعلتنى مرة اخرى ، اعيش ابوتى على مستويين ،
كأب شديد الشغف بأولاده ، حتى بعد ان كبروا فصار اصغرهم فى
الجامعة ، وكجد لطفلة حلوة هي حفيدتى « رباب » ، عشت من خلال

احاديث « عندلة » ، وتجاريها ، عشت طفولتين « لرباب » : عامها
الذى سلخته ، واعواما اتخيلها مسئلتها ما حدث « لعندلة » ، متخيلا
حفيدتى تكبر ، فتتشر الحروف بيديها فى الفضاء ، فى هيئة ازاهير وعصافير ،
واستمتعت مع « عندلة » ، بروعة الفن من مصدرين ، متكاملين للالهام
والابداع اولهما : نبع خلقه ، او فجره تفجييرا اديب ، قصاص ،
شاعر ، ناثر ، اب عاشق . واما المصدر الآخر ، فانتججه فنان رسام
موهوب حول عواطفه الشاعرية المشبوبة ، وتوحيده او اندماجه مع
احداث القصة واجوائها واخيلتها ومشاعرها . . . حولها رسوما حية ،
تكاد تتواثب امامك ، مرحة ناطقة ، فللاستاذين محمد الصباغ ، وميمون
الفرخانى — عن القراء وعن نفسى — ازجى خالص الشكر والعرفان ،
وتمنى المزيد من الابداع فى لوحات ترسمها الفرشاة والبيان .

د . محمد محمد الزلبانى

الرباط

الادب والثقافة

مناهل الأطفال

تستعد وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية (مصلحة الانتاج الثقافي) لاصدار ملحق بـ « المناهل » سيكون خاصا بالاطفال ، بعنوان « مناهل الاطفال » مشتملا على قصص مترجمة من الادب الغربي ، وقصص موضوعة ، وقصائد ، واناثيد ، وعلى عرض عام عن نوابع الاطفال في العالم ، ودراسات مبسطة عن مسرح الاطفال ، ولعب الاطفال ، وما الى ذلك من المواضيع التي سيستفيد منها الطفل في عالمه الصغير .

اجتماع اللجنة الوطنية الخاصة بإعداد مهرجان ابن زيدون

برئاسة السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، اجتمعت
اللجنة الوطنية الخاصة بإعداد مهرجان « ابن زيدون » للمرة الثانية .

واطلع أعضاء اللجنة في هذا الاجتماع الموسم ، على ما توصلت به
الوزارة من رسائل المدعوين وما تضمنته من اقتراحات فيما يخص موعد
المهرجان ، كما اطلعت كذلك على مجموعة نفيسة من الدراسات والابحاث
والقصائد التي تسلمتها الوزارة من بعض المشاركين ، بالإضافة الى
اطلاعها على طائفة من اللوحات الزيتية ، والاشربة الموسيقية التي شارك
بها أصحابها في مسابقات هذا المهرجان .

ثم تفرغت اللجنة لدراسة مختلف جوانب الاحتفالات بهذه الذكرى
لتم في أحسن الظروف .

وفي ضوء هذا الاجتماع ، اصدرت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون
الثقافية بلاغات في الموضوع نصبتها فيما يلي :

بلاغ حول الاحتفال بالذكرى الألفية لابن زيدون

لقد كانت نية وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية معقودة على
اقامة الاحتفال بالذكرى الألفية لابن زيدون ، في الفترة الواقعة بين 15
ابريل و 15 ماي 1975 ، غير أن الاتصالات التي اجرتها الوزارة مع مختلف
الشخصيات الفكرية والادبية من الشرق والغرب ، المدعوة للمشاركة في
الاحتفال ، لم تفض الى الاجماع على اسبوع محدد في الفترة المقترحة .

وحرصا من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، على توفير
اكثر ما يمكن من حظوظ النجاح للاحتفال بالذكرى الالفية لابن زيدون .

وحرصا منها على اتاحة الفرصة لمساهمة اخوان لنا في الوطن
العربي في المباريات المعلن عنها من موسيقية وتشكيلية .

ونزولا عند رغبة كثير من الشخصيات العلمية المرموقة الذين رجوا
التأخير ليتمكنوا من اعداد أبحاثهم .

استنادا الى كل ذلك ، رأت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
من الأنسب الاحتفال بهذه الذكرى في الخامس عشر من أكتوبر المقبل
بحول الله .

وتفتنم الوزارة هذه الفرصة للتنبه بما توصلت به من أبحاث جادة
ورصينة ، وأشعار رقيقة ، الأمر الذي يبشر بيقظة عربية تعطي الدليل
العلمي على تكريم الأثر الطيب ، والعمل الصالح ، وتذكر الخلف بما
أثله السلف من حضارة زاهية ، ومجد رفيع ، ونبىء - فى نفس الوقت -
عن الصلات الوثيقة ، والأواصر القوية ، المتمثلة فى وحدة الرغائب والآراء
الطيبة فى المشرق والمغرب ، لدعم صرح الثقافة العربية ، واغناء التراث
الإنساني .

بلاغ حول مباراة الفنون التشكيلية

فى نطاق الاستعداد لآحياء الذكرى الالفية للشاعر ابن زيدون وتبعا
لما سبق ان اعلنت عنه وزارة الثقافة ، يهيب السيد وزير الدولة المكلف
بالشؤون الثقافية بالفنانين التشكيليين مغاربة وغيرهم من أبناء الوطن
العربي ان يتخيلوا صورا تعبر عن شخصية الشاعر ابن زيدون وولادة بنت

المستكفى وملاحمها او تترجم جانباً من حياتهما النفسية والعاطفية بعد دراسة عميقة لحياة الشاعرين وأوصافهما من خلال الكتب والمرويات .

وقد رصدت الوزارة لذلك جوائز قيمة قدر كل واحدة منها خمسة آلاف درهم .

فعلى الراغبين فى المساهمة الالتزام بما يلى :

- ان يكون طول اللوحة بالنسبة للرسامين من 50 سنتيماً فما فوق
- ان لا يكون الانتاج موقعا رسماً كان او نحتاً او نقشاً .
- ان يرفق برسالة بها بيانات توضيحية عن الانتاج ومذيلة باسم المنتج وعنوانه .

آخر اجل للقبول ، منتصف غشت المقبل بحول الله ويبعث الانتاج او يسلم الى مصلحة التنشيط الثقافي بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، شارع غاندي الرباط .

بلاغ حول المباراة الموسيقية

فى نطاق الاستعداد لآحياء الذكرى الالفية للشاعر ابن زيدون القرطبي الاندلسي وتبعاً لما سبق ان أعلنت عنه وزارة الثقافة يهيب وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بالفنانين الموسيقيين مغاربة وغيرهم من ابناء الوطن العربي ان يقوموا بتلحين احدى القطع المناسبة من شعر ابن زيدون .

وقد خصصت لذلك ثلاث جوائز قيمة قدر كل واحدة منها خمسة آلاف درهم :

- جائزة لأمثل لحن عربي مبتكر ومستوحى من البيئة الاندلسية
- جائزة لأمثل لحن عصري عربي
- جائزة لأمثل لحن عصري غربي

وستخصص الجوائز لكل لحن جديد خاص بالمناسبة ، متوفر على دقة العزف وحسن الصوت ، متمكن من النويات ، محسن للتصرف فيها مع سلامة الأداء للشعر العربي .

فعلى الراغبين فى المساهمة ان يبعثوا بانتاجهم مسجلا على شريط تشجيلا جيدا بسرعة 50 ، 7 (19) الى وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية : شارع غاندي . الرباط . وآخر اجل لتقديم الانتاج منتصف غشت للمقبل بحول الله .

شروط المسابقة الموسيقية

1 — فى حالة اختيار المؤلف المشارك فى المسابقة ، التلحين وفق النمط الموسيقى الاندلسي يجب عليه ان يلتزم بالقوالب الموسيقية الاندلسية التي نلخصها فيما يلي :

(ا) قالب الصنعة المبنية على القصيدة

(ب) قالب الصنعة المبنية على التوشيح

(ج) قالب التخليل

ويشترط ان يكون اللحن مبنيا على اوزان الموسيقى الاندلسية الخمسة وهي :

البسيط — القائم ونصف — البطايحي — الدرج القدام .

وللمؤلف الاختيار فى وضع لحنه وفق الحركتين الموسيقيتين
(البطيئة وحركة الانصراف - السريعة) مع مراعاة النقرات الزمنية
لكل وزن .

2 - يتعين على المؤلف الذي سيختار التلحين وفق القوالب الموسيقية
العربية الالتزام بالانغام والاوزان الشرقية ، وان يراعى فى عمله
الابتكار والتطوير حسب قالب الذي سيختار التلحين فيه .

3 - على الملحن الذي يفضل التلحين على النمط الغربي ان يضع فى
اعتباره خضوع عمله للطريقة العلمية مع مراعاة ادخال عناصر
هرمونية بالاضافة الى توزيع آلى يتمشى والطرق المستعملة فى
الموسيقى العالمية .

4 - المقطوعات الغنائية يجب ان لا تقل عن خمس دقائق وان لا تتعدى
عشر دقائق .

5 - ترسل القطع الى مصلحة التعليم الفني مسجلة على شريط بسرعة
(50 ، 7) (19) ، اما القطع الموضوعية وفق الاسلوب الغربي
فيستحسن ان ترسل مكتوبة وموزعة بالنرطة الموسيقية ، وآخر
اجل لقبول القطع المرشحة 15 غشت المقبل بحول الله .

الابحاث والدراسات الخاصة بمهرجان ابن زيدون

توصلت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، بمجموعة قيمة من
الابحاث والدراسات والقصائد من بعض الشخصيات العلمية والفكرية
والادبية المدعوة من طرف الوزارة المذكورة للمشاركة فى الاحتفال
بالذكرى الالفية للشاعر « ابن زيدون » .

ونشبت فيما يلي قائمة باسماء هذه الشخصيات مع عناوين انتاجهم :

— الأبحاث والدراسات —

الاسم	الموضوع	القطر
د. محمد رضوان الدايدة	ابن زيدون : محاولة لاعادة النظر في دراسة شخصيته وشعره	مصر
د. عبد الجليل عبد الرضا الراشد	عصر ابن زيدون دراسة تاريخه	العراق
عبد الرزاق الهلالي	ولادة بين الهستيريا والشذوذ الجنسي	العراق
وليم الخازن	ابن زيدون في مقاييس الشعر العربي الجديد	لبنان
عبد العزيز الرفاعي	تلميحات شواهد ابن زيدون في رسالته الجديدة	السعودية
محمد ابن تاويست	نظرة على ابن زيدون في شعره	المغرب
د. تمام حسان	شاعرية ابن زيدون في ضوء منهج مستحدث	مصر
محمد مفتاح	قراءة جديدة لغزل ابن زيدون	المغرب
د. احسان عباس	بنو ذكوان وابن زيدون	لبنان
د. تقولا زيادة	الاندلس في عصر ابن زيدون	لبنان
د. وداد القاضى	بين الجاحظ وابن زيدون	لبنان
البيير مطلق	مبنى الرسالة في نثر ابن زيدون وشعره	لبنان
عثمان الكعك	بين ابن زيدون الاندلسي وبتراكية الايطالي	تونس

الاسم	الموضوع	القطر
د. محمد عبد المنعم خفاجي	محنة ابن زيدون كما يصورها شعره	مصر
عبد الهادي التازي	ابن زيدون اسيرا وسفيرا	المغرب
د. محسن جمال الدين	صورة ابن زيدون في الادب العربي الحديث	العراق
وواعدنا كل من المستشرقين الكبيرين شارل بيلا	الرسالة الهزلية من ابي عثمان الى ابي الوليد	فرنسا
بموضوع : و د. فلهلم هونريخ بموضوع :	شخصية ولادة وشعر ابن زيدون	ألمانيا

— القصائد —

الاسم	الموضوع	القطر
محمد احمد المحجوب	الفردوس المفقود	السودان
صالح جودت	ابن زيدون	مصر
عاتكة الخزرجي	في تحية ابن زيدون	العراق
عزيزة هارون	ابن زيدون	سوريا
عبد الله الخليلي	ذكرى ابن زيدون	سلطنة عمان
سعيد خلف الخروصي	ذكرى ابن زيدون	سلطنة عمان
سليمان خلف الخروصي	ذكرى ابن زيدون	سلطنة عمان
عبد الكريم الطبال	بكائيات قرطبة	المغرب
نذير العظيمة	ابن زيدون ومرايا الزمن	سوريا
صالح الاشقر	في ظلال ابن زيدون	سوريا
حسن الطريبق	اغنية الذكرى	المغرب
محمد بهجة الاثري	ذكرى ابن زيدون في « عكاظ »	العراق

من بريد ابن زيدون مقتطفات من رسائل المدعوين

كان للدعوة - التي دبجها الوزير الاديب الحاج امحمد ابا حنيني الى الشعراء والكتاب يدعواهم فيها للاسهام في الذكرى الالفية لابن زيدون - شديد الوقع وبالع الاثر ، فجاءت ردودهم معبرة اصدق تعبير عما خالج نفوسهم ، وتمثلت لنا ورودا زاهية ذات الوان واشكال ، فأحببنا ان نقتطف للقراء منها باقة فواحة ، تعج بالعواطف ، فتحملهم كما حملتنا على اجنحة من صادق الود ، وعميق التجاوب والتواصل ، المتجسمين في حرارة النبوة ودفئها واشراقها ونصاعتها .

ومن خلالها ، ومن خلال ما توصلنا به من بحوث وقصائد نتصور ما يمكن ان تحققه الملتقيات العلمية والادبية من عطاء . ويتجلى ذلك في القصائد والبحوث التي توصلنا بها او التي نحن معها على موعد . وان القلم لعاجز عن الشكر والتقدير للكتاب والادباء الاوفياء ، عاجز عن ان يضم في تحية واحدة نظير باقة حملتها الينا اقلام مشرقة ما فتئت تنير للمفرمين بالثقافة سبيل المعرفة الصحيحة ، والادب الرفيع :



وبعد ، فقد تلقيت كتابكم الكريم المؤرخ في 10 / 1 / 75 فاغتنبت بما تضمنه من الاشارة الى اهتمامكم بابرار معالم ادبنا العربي ، ولا سيما الاندلسي منه ، وتجسيد ذلك فيما قررتموه من الاحتفال بادب الشاعر الخالد العظيم ابي الوليد احمد ابن زيدون . ولقد اصبتم في اختياركم الهدف ، فان ادب ابن زيدون قد ارتفع الى الذروة في طلاوة البيان وحلاوته ، ورقة الاحاسيس وجمالها ، وعلو النفس وكمالها ، وفي حمله

نفحات الفردوس المفقود ، وتذكيره الخلف بما آتله السلف الصالح من
حضارة زاهية ومجد رفيع في ذلك الصقع الأوربي الذي صيره جزءا من
المغرب متما لوجوده .

بهجة الاثري
المراق

* * *

واني اذ اعرب لمعاليكم عن امتناني لهذه الدعوة ، واستعدادي
لتبيتها ، شأن كل دعواتكم الكريمة لي ، ليخامرني اليقين بأن المهرجان
المزمع اقامته للشاعر الكبير بعناية الاديب الكبير سيكون نسيج وحده بين
المهرجانات الادبية حسن قيادة ، ونفاضة اثر ، وملتقى اقلام شرقية
وغربية عز تلاقيا لولا شأن الاديب الداعي ، وشاؤ الاديب المدعو له ،
وهكذا يتراءى لي ابن قرطبة العظيم يتململ في قبره ، وهو يستشعر يدا
كريمة تمتد اليه ، فتبعثه من مرقده بعد مئات السنين ، لتلبسه من حلل
الخلود اجدها وازهاها ، ولتكشف عن وجهه الذي كاد غبار القرون
المتلاحقة يخفي ما عرف له من سحر وتلاؤ ونضارة .

الشاعر علي الصقلي
المغرب

* * *

واني لاحيي فكرتكم النبيلة في احياء ذكرى هذا الشاعر الذي طالما
ملا دنيانا وغذى رؤانا بعذوبة نسجه ، ودقة معانيه وسحر صوره ، واهواء
قلبه ، وسيرة حبه ، والذي ما زالت الاجيال العربية المتعاقبة تتنسم من
شعره عبق الفردوس المفقود .

واني بعد لعظيم الثقة بان مهرجان ابن زيدون سيلقى لدى
المتخصصين، عربا ومستشرقين، ما هو جدير به من ترحيب وعناية واقبال،

وان عشاق الآداب العربية حيثما وجدوا سيذكرون عظيم فضلكم في جمع القلوب والافكار حول هذه الذكرى المجيدة .

امجد الطرابلسي
استاذ بكلية الآداب - بفاس



وان احياء الذكرى الالفية لابن زيدون لمن انفس الذكريات الادبية ، لانها ستظل على المدى رمز شاعر عظيم ، لفت نظر المشرق الى المغرب ، معلنا عن اصالته مؤكدا لعبقريته . وهي ايضا رمز اعتزاز المغرب بماضيه وقد ظلل الاندلس بوارف حذبه ورعايته . لانه كان يعدها امتدادا لكيانه ، يترسمها في تخليد بيانه ، ويستلهمها في نسيج بيانه ، ويحتضنها او يحميها بشوكة سلطانه . وان تخليد ذكراه من لدن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية لاستشفاف لهذه المعاني ، واستعادة لتلك الامجاد .

محمد الكتاني
استاذ بكلية الآداب - بفاس



في يقيني ان احياء هذه الذكرى ، لواحدة من المع العبقريات العربية التي اثرت في الاحداث والفكر في المغرب وحملت على مدى العصور الطويلة ذلكم الأريج من الاندلس ، الفردوس المفقود ، وما زالت بالوانها الماتعة للحضارة الانسانية عامة - يغمم القلب غبطة ويترعه سكينه روحية غير محدودة ويعطي الدليل الحي على يقظة الوجدان العربي الذي يكرم الاثر الطيب وفي بالعمل الصالح .

ومن حسن الحظ ان يظفر ابن زيدون بهذا القدر من العناية والاهتمام بباعث من صفاء ارومة الامة العربية التي انبتت هذا العملاق الذي ظل على

مدى عشرة قرون ، وسيبقى الى ما شاء الله ، ينبوعا صادقا متدفقا
بالعاطفة والحنان وموردا صافيا لكل ما يمت الى الفضائل العريضة من
سلائق كريمة وخلال نبيلة .

صبيح الغافقي العراق



ابارك لكم جميل السعي المحمود ، وجيل العمل المشكور ، من اجل
تتويج السنة الالف من مولد بديع زمانه ابي الوليد احمد ابن زيدون ،
تجليلا لعمر نفح الشعر لاعج الاسرار ، ولفح العواطف بلهيب النار ، ورصع
المعاني بلوعة الاشجان ، ورنم الاوزان بحنين الالحان . ففردت معه قرطبة،
وتناغت لها اشيلية ، وتسارعت المجالس في ارجاء الاندلس كلها الى
اقتطاف اطايب بيانه ، وحكايات ايامه ، وسارت بها كل مسار حتى اصبحت
انشودة تغردها نسيمات الاشجار ، وتبث لوعتها شذى الازهار ، فينشر
عبقها ذكريات من انين ، واصداء رعشات خواطر المحبين ، مشبوبة بالام
الغصن الرطيب ، وقد ابلى الجفاف عوده . فروى ابن زيدون من عصارة
قلبه وزناد فكره نبتة بوغرسه ، حتى اوراق مع بني جهور وازهر ، واينق
مع بني عباد واثمر ، ومد الله في عمره الايام والسنين .

فاكرم بها من ذكرى عزيزة ينداح عنها غبار الايام . وكأني بصاحبها
قد دعى لنفسه وهو يمدح بن جهور قائلا :

هنيئا لك العيد الذي بك اصبحت تروق الضحى منه وتندى الاوائل
تلقاك بالبشرى وحيالك بالمنى فبشراك الف بعد عامك قابل

واكرم بها ماثرة توشع غرر اعمال ذي الرياستين معالي الوزير الاديب،
في احياء امجاد لطالما افتقدت نفسا زكيا يذكي فيها الحياة ، ويهيئها
ساعة اجلال كما وهبت خلاصة حياة غالية يضمن الزمن بمثلها . فالمناسبة

توجب التقدير البالغ لمجهودكم والثناء العطر على سن هذه السنة الحميدة
فى بلادنا .

د. عبد اللطيف السعداني

استاذ بكلية الآداب - بفاس



وانه لا يسعني الا ان اعبر عن اكناري لهذا المسعى الجليل الذي به
تخدمون الفكر والادب العربيين وبالتالي الحضارة العربية الاسلامية التي
كان ابن زيدون رمزا لصرح من صروحها العملاقة .

البشير بن سلامة

مجلة الفكر - تونس



واني لجد مفتبط بقبول المشاركة ، وبلاستجابة لهذه الدعوة
الكريمة ، ذلك ان ابن زيدون ، اعطى للكلمة شفوفا ، ومكن للايقاع
والموسيقى فى الشعر حضورهما ، وخبر الحب بحسه وقلبه ، ونطق به
فى ولع ودنف وتقاء . . . فهو اذن ، شاعر عظيم ، ولكن للأسف لم يعط له
حقه من الدارسين والنقد ، وحتى من المبدعين . ونحن الذين نعتبره قيمة
ثقافية وأدبية كبيرة ، نكون اول من يجب عليه القيام بأخذ زمام المبادرة .
فجزاكم الله خيرا عن احياء ذكرى شاعرنا العظيم .

للشاعر حسن الطريق

المغرب



فقد تلقيت دعوتكم الكريمة أمس بعيد عودتي من الكويت الشقيق
واني لأرفع لجنابكم العالي اسمي آيات الامتنان ، وانها لفرصة العمر ان
نلتقي واشقاءنا على صعيد المغرب الطهور في ذكرى شاعر من أكابر السلف
الصالح فنصل حاضرا بماض وطريفا بتالد .. فمرحى .. مرحى ..

عاتكة الخرجي
العراق

* * *

وليس من شك في ان لقاء ادبنا وعلميا يقام في المغرب - وعلى
مستوى عظيم - لاهياء ذكرى ميلاد شاعر ، لمظهر دال على اهتمام بقطاع
الثقافة في بلدنا ، سوف تتلوه لا ريب مظاهر رعاية أخرى من شأنها ان
تتيح لهذا القطاع ان ينهض برسائله الطليعية في تنمية المجتمع وتقدمه .

وليس من شك كذلك في ان مثل هذا اللقاء يعقد في مرحلة تاريخية
كالتى نجتاز ، سيضاف الى سلسلة اللقاءات التى ما فتىء المغرب بزعامة
رائده الحسن العظيم ، يستقطب بها القوى والجهود ، سواء على مستوى
العالم العربي او الاسلامي او الافريقي ، وكذلك على المستوى الدولي ،
من اجل تحرير الارض والانسان واقرار الحق والعدل . وان الوعي العالمي
بابعاد هذه السياسة التى يحق لنا ان نفخر بها هو الذى جعل الدول
والشعوب جميعا تساند المغرب فى النضال المشروع الذى يخوض
لتحرير الصحراء ومختلف اراضيه المغتصبة .

الدكتور عباس الجراري
استاذ بكلية الآداب - بالرباط

* * *

واذ اعرب عن سروري لتلبية الدعوة ، اتشرف بان اخبركم انني
سأسهم فى المهرجان بتقديم مخطوطة محققة تحقيقا علميا لم تنشر قبل
اليوم عنوانها « المختار من اشعار اهل الاندلس » لابن الصيرفي .

هلال ناجي
رئيس اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين

الأسبوع الثقافي التونسي بالمغرب

توطيدا للروابط العريقة ، والعلاقات الاخوية والثقافية المتينة ، التي تربط المغرب بتونس الشقيقة ، نظم بالمغرب اسبوع ثقافي تونسي ، افتتحه بمسرح محمد الخامس بالرباط ، الوزيران الاديبان : وزير الثقافة التونسي السيد محمود المسعدي ، ووزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، السيد الحاج امحمد ابا حيني ، في مساء يوم الجمعة 4 أبريل الماضي . وقد بذلت وزارة الثقافة التونسية مجهودات مشكورة ، لتقديم هذه التظاهرة الثقافية الى الشعب المغربي ، نهدما يدعم الاواصر التاريخية والحضارية المتصلة بين البلدين الشقيقين ، وعينت للإشراف عليها نخبة من ذوي الكفاءات في ميادين الآثار ، والموسيقى ، والمسرح ، والسينما ، والفنون الشعبية ، والتشكيلية .

كما ان وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، عملت على اشاعة هذا البرنامج الثقافي ، في عدد كبير من المدن المغربية ، وكان محتويا على سهرات موسيقية ، وحفلات مسرحية ، وعروض سينمائية ، ومعارض للفنون التشكيلية والشعبية بالإضافة الى معرض للصحافة .

وحضر حفلة تدشين هذا الاسبوع - بمسرح محمد الخامس - بعض اعضاء الحكومة المغربية ، ورجال السلك الدبلوماسي العربي والاجنبي ، الى جانب مجموعة كبيرة من الشخصيات الثقافية والصحفية والعلمية .

وبهذه المناسبة تبادل الوزيران خطبتي الافتتاح

* * *

وفيما يلي نص الخطاب الذي القاه معالي وزيرنا في الثقافة ، الاستاذ السيد الحاج امحمد ابا حيني :

خطاب

السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية
الأستاذ السيد الحاج محمد ابا حنيثي
في حفلة افتتاح الأسبوع الثقافي التونسي بالمغرب

بين بلادك أيها الاخ العزيز وبلادي من اواصر الاخاء ووشائج المحبة ما يغني عن تشقيق القول وترصيع الكلام للتأهيل بك والترحيب ، وحسبي من التعبير والتعبير ان اقول ان مسرتي بحلولك بالمغرب مسرة لا انفرد بها دون غيري من المواطنين المغاربة ، فقد حلت في كنف الاهل والعشيرة وتمهدت رحب الاقرباء والانساب وتفيات من ظلال الود والاخاء ما توارثته اجيال وجرت به سنة الاولين والآخرين ، ولم تفسد أيها الاخ العزيز على المغرب طلبا لصلة رحم ماسة فحسب ولا جعلت زيارتك مصروفة الى الراحة والاستجمام وانما اتى بك الى هذه الديار بالاضافة الى الارتقاب المتبادل والاشتياق المتقاسم حدث من احداث دابنا المشترك ووكدنا المشاع ، وهذا الحدث الذي تشهده بلادنا باعتزاز وابتهاج اسبوع انتقلت فيه تونس الشقيقة في موكب بليغ وفصيح من مواكبها فحطت الرحال فوق ارض حبيبة درجت على ايثار ضروب البلاغة والفصاحة بوافر التقدير وسابغ الاعجاب ، ولا بدع ان يتلقى المغرب هذا الاسبوع الموقوف على تكريم الثقافة بحفاوة القلب والفكر وحرارة الكلف والشغف بالقديم والجديد من الابداع والابتكار ، ولئن كان لك فضل الاشراف على انفساح ابواب هذا الاسبوع فلك الى ذلك فضل المشاركة لاشقائك المغاربة في الاستمتاع بما يتبرج في نطاق هذه الايام المعدودة من الوان المهارة واصناف الثراء ويتهلل من افانين الاصالة والطرافة .

ثم انك الى هذا وذاك وفدت على هذه البلاد من قطر اثير وفادة رجل من رجال الدولة الذين تستشرفهم الابصار ويشار اليهم بالبنان ووفد علينا في شخصك مجتمعين متحدين متناخيين وزير الثقافة الطائر الصيت الشائع الذكر والكاتب الذي ارتقى بآثاره الى مراقبي الاعتناء والاهتمام ،

فأي غرابة بعد هذا أن تطبع صفاتك المرموقة ومزاياك الماثورة
ثقافة بلادك وهذا الأسبوع الذي يؤوي ويظل ما تكافلت القرائح على
إبداعه وتناصرت المواهب على إبدائه في رائق الحل ورائع الأزياء .

ولو وافيتنا أيها الأخ العزيز في ظروف غير ظروفنا الراهنة لكان
في التذكير بما بين بلدك الزائر وبلدنا المزور من توافق وتعاطف بلاغ
للسامعين ولحصلت الكفاية بالاختصار على الإمام بما يفيد الضائف
والمضيف من هذه اللقاءات الكاشفة لخصائص الشعوب الفاسحة لافاق
المعرفة الهادية إلى التثقيف بما لهذا اللفظ من مدلول مستحدث وأصيل
العاملة على تأكيد عرى الأخاء وتوطيد صرح الصفاء ، ولاكنك وردت علينا
واشقاؤك المفارقة بقيادة عاهلهم العظيم الحسن الثاني ربيب الكفاح
والنضال وسليل الأبوة الأشاوس الأبطال مصرون على بكرة أبيهم على
اقتضاء حقوق لهم مهضومة جادون في المطالبة بتحرير أراض لهم مفضوبة
مكلومة وإن حلوك بهذا الوطن الذي يؤازر وطنك مطالبه ورغائبه ويناصر
باللسان والجنان تصميمه ومضائه وجهاده وبلاءه لاسترداد حق مشروع
واسترجاع سيادة ثابتة لحلول يحمل من المعاني والدلالات ما يشهد بأن
علاقات بلدينا الموهلة في القدم الحديثة حداثة الشباب علاقات لا تتصف
بالمثانة والاستحصاد فحسب وإنما تتسم بسمة تتجاوز بها حد الامتياز
المتعارف إلى رحاب التضامن والائتلاف والاتحاد ، واني لأحمد مناسبة
هذه الزيارة الميمونة التي تساعد على رفع قواعده المغرب العربي
وتأسيس بنيانه بعمل دائب وراي صائب وخطى ثابتة قويمه وأخاء يعز
نظيره وضريبه بين ألوان الاعزاز وأصناف الأخاء ، وأحمد هذه المناسبة
حمدا آخر - ذلك أن كل ما يتلاقى في إطار هذا الأسبوع الثقافي من
إصالة وطرافة ويتساق في من قديم الإبداع وحديث الابتكار ويتراشق خلاله
من اهتمام بمجد غابر وحرص على مجد حاضر وتطلع إلى مجد يشتد
الحرص على إبتنائه وكل ما يلوح من هذا العين الناظر الذي يتداوله
الاعجاب بما تم وتكامل والأمل أن ينداح ويتسع مجال الثقافة اتساعا

تمتد عائلته وجذواه الى ارحب قاعدة ولوفر جمهور - كل هذا - يفيض
المسرة ويشيع الارتياح ويشحذ العزيمة لأننا واياكم جرينا الى غاية
واحدة طلقا وتمادت جهودنا وجهودكم نسقا وتشابهت الاماني وتمثلت
الأهداف واستقرت الارادات هنا وهناك في القطرين المتحابين على صعيد
لا يتعدد ولا يختلف .

أيها الأخ العزيز

حضرات السيدات والسادة

إذا كانت الثقافة وسيلة من وسائل التقويم وسبيلا مشرعا فسيحا
من سبل التلقين والتكوين وعاملا ذا اثر بعيد من عوامل النمو والوقاية
للذاتية المستقلة والشخصية التي تكره أن تشتبه وتلتبس وتذوب وتغور ،
فانها أداة فعالة صالحة لتحويل الأغفال والأعطال من الشعوب الى جماهير
قادرة على ان تضطلع بما تضطلع به المجتمعات التي تتعشق نباهة الشأن
وعلو المكان .

لقد انفتحت أيها الأخ الكريم ردحا من حياتك في الاشراف على
التربية والتعليم واعداد الناشئة للمهام التي يلقي حرصنا على مسابقة
الزمان وطلي المراحل والأشواط بأعبائها واثقالها على الكواهل ، وها أنت
اليوم وقد أصبحت وزيرا للثقافة تواصل الانفاق لا تبخل بجهد ولا تضن
بوسيلة من وسائل تطوير المجتمع وتأهيله الى ما يؤمن النفع ويمهد للبلاد
سبل الارتقاء ، وانه لشرف عظيم أن تتوافر لك هذه الاسباب ويناط بك
شأن جليل بعد شأن عظيم .

أعانك الله ووفقك وجعل النجاح ظهيرك ونصيرك وشكر الله لك
حفي المقدم والوفادة .

* * *

وقد رد وزير الثقافة التونسي ، على خطاب وزير الثقافة المغربي
بخطاب مرتجل ، ثبت فيما يلي ملخصا له :

خطاب السيد وزير الشؤون الثقافية التونسي الاستاذ السيد محمود المسعدي

ايها الأخ الكريم .

ايها المأ الفاضل ، من رجالات المغرب الأقصى ، بلد البطولة
والبسالة والحضارة والأصالة ، السلام عليكم جميعا .

ان الذي استمعت اليه من كلمات الترحيب من الأخ الفاضل ، الذي
يضطلع في هذه الربوع بمسؤولية الاشراف على شؤون الثقافة ، قد
يعجز اللسان عن وصفه أو التعبير عنه .

ان الأسبوع الثقافي التونسي الذي يقام في هذا القطر الشقيق ،
وما لقيناه من كرم يعتبر أقل ما يترقب من بلد كريم ومن اهله الكرماء .
واكنني لا أجد فيه رغم ما به من ترحاب وحفاوة حرجا ، لأنني في بلدي ،
وبين أهلي وقومي .

حللت بالمغرب آتيا من بلد مغربي آخر ، لأقوم بعمل احسب انه في
خدمة هذا البلد ، قبل أن يكون في خدمة بلدي ، ذلك اننا مؤمنون جميعا
بأن أبعاد كيانات الحضاري والثقافي ، بل أبعاد مصيرنا المشترك ، لا تقف
عند حدود رقعة ما من وطننا الكبير ، لا تقف عند حدود البلاد التونسية
أو بلاد المغرب الأقصى ، أو بلاد الجزائر ، ولا عند حدود أي بلد آخر من
العالم العربي ، بل مصيرنا مصير مشترك ، وحضارتنا حضارة مشتركة ،
وبالتالي فمسؤولياتنا في العالم العربي مسؤوليات مشتركة .

فنحن نريد أن نعطي دليلا على أن عملنا عمل صالح ، عمل سلام وخير ،
بل نحن لا نريد إلا الخير للإنسانية ، وكل ما نقوم
به من خدمات في سبيل أمننا ، انما هو في سبيل

حضارة ومدنية سامية نريد أن نحياها من جديد ، ووفائنا الى ما آمنا به قرونا طويلة ، وما نزال نؤمن به ، يفرض علينا في الوقت الحاضر ، أن نخدم الثقافة بمعناها الاصيل ، أن نبعثها من جديد ، لنقيم الدليل للامم الاخرى، على اننا ما نزال قادرين على أن نخلق من جديد ، ونزود الحضارة بما نبتكر ، وبما نبتدع .

لسنا امما عالة على امم اخرى ، تستهلك حضارة الغير ، بل نحن نريد بعد استقلالنا السياسي ، أن نستقل ثقافيا وحضاريا ، حتى نخرج من حالة التبعية للامم المستهلكة ، الامم التي تأخذ عن غيرها وتحيا تحسب سيطرة ثقافة وحضارة غيرها . نريد أن نشارك من جديد ، في بعث الحضارة الانسانية وتقدمها ورقيتها ، بذلك فقط نفرض على العالم احترامنا، لاننا نزال نشاهد أن العالم الذي نحن ننكر مسح حضارته المادية من طفيان المادة على الروح ، ومن طفيان القوة على العدل ، لا نزال نشاهد في هذا البلد حالة اليمه بقيت في جانبه كالدمل ، كقضية الصحراء او قضية الأراضي التي اقتطعت من جسد هذا الوطن ، تتصرف فيها دول الاستعمار وحضارته . ذلك اني تأثرت بالغ التأثير ، خاصة عندما اشار الاخ الفاضل الى ناحية من نواحي حياتنا التي نحياها ، وهي ناحية الكفاح والجهاد ، فنحن مؤمنون مسلمون ، وفي القيم الحضارية والقيم الثقافية الجوهرية لحضارتنا معنى الجهاد فعلى الجهاد قام ديننا - الجهاد الفكري والروحي ، أي الجهاد الثقافي ، على هذا ، قامت ثقافتنا وديننا وحضارتنا العربية السامية منذ قرون ، ونحن نؤمن بأن أول مظاهر الوفاء لحضارتنا وثقافتنا ، أن نكون مجاهدين طوال حياتنا . وقد اعطى المغرب الاقصى امثلة رائعة عن ايماننا بهذا الواجب المقدس ، واجب الجهاد ، اذ هذا البلد هو الذي تقدس فيه روح المرحوم المففور له محمد الخامس تغمده الله في فرايس جناحه ، بما أدى لهذه الامة ولعموم الامة العربية الاسلامية من جهاد .

ونحن في المغرب نجد على رأسه ، وعلى رأس حكومته الجالس على عرشه ، جلالة الملك الحسن الثاني ، الذي تربى على روح البسالة والبطولة والجهاد ، والذي يتم في هذه البلاد ، الرسالة التي قام بها المففور

له والده طوال حياته ، ونحن نحاول بوصفنا مجاهدين مناضلين ، كل فى منصبه ، أن نكون فى مستوى هؤلاء الأبطال الذين خاضوا فى الماضى ، والذين لا يزالون يخوضون مسيرة الحاضر . ذلك أن هذه الأمة العربية المسلمة ، وهذه الشعوب التي تحيا فى هذه الرقعة من الارض التي تمتد من المحيط الى الخليج ، ما تزال لها رسالة ، وما يزال عليها واجب عظيم جدا ، هو واجب المقاومة للشرارات التي طغت على العالم ، والتي تحاول أن تفقد الحضارة الانسانية أو تضل بها السبل ، فتصرف بها عن قيم نحن لا نزال مؤمنين ومدافعين عنها منذ قرون ، ألا وهي القيم الروحية المعنوية التي اقمنا عليها حضارتنا وعشنا عليها قرونا .

كل هذا قد اخذته عنا الأمم المتأخرة ، ونحن لا نزال والحمد لله ، أما حية لها طاقاتها الخلاقة ، فاذا قمنا بمثل هذه التظاهرة الثقافية ، والأسابيع الثقافية ، فانما نقوم بذلك بروح الجهاد والكفاح التي عرفناها فى عهد الاستعمار ، حينما قمنا لتحرير بلداننا ، وعندما كنا صفوفنا متراسة وراء أبطال مثل محمد الخامس رحمه الله ، ومثل الحبيب بورقيبة .

اخواني الاعزاء .

هذا ما رأيته لائقا بكم ، وبالمغرب الأقصى ، ومنزلته ومكانته السامية فى تاريخنا الحضاري ، وكفاحنا القومي . لهذا ينبغي ان نعطي لهذا الأسبوع الثقافي المتواضع ، الذي أردنا أن نقدم لكم أثناءه بعض عينات من نشاطنا الثقافي ، ولكن هذا النشاط ان كان متواضعا فى مظهره ببلادنا أو ببلادكم ، فان معناه الذي اشرت اليه الآن هو الذي يجعلنا نمتلىء حماسة له وندفع بروح الجهاد التي عرفناها حينما كنا نصيح : الوطن فوق الكل ، والثقافة والحضارة العربية الاسلامية فوق كل شيء . ونحن كلنا مضحون بمجهوداتنا وبصحتنا وافكارنا ، فى سبيلها ، عسانا أن نخلق لابنائنا ، العالم الذي يكون فى مستوى وكرامة الأمة التي ننسب اليها جميعا هي الأمة العربية والاسلامية . والسلام عليكم ورحمة الله .

الاتفاقية الثقافية بين المغرب وتونس

ضمن الأسبوع الثقافي التونسي بالمغرب ، نظم بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، حفل خصص للتوقيع على الاتفاقية الثقافية - بين المغرب وتونس - من طرف وزيري الثقافة في تونس والمغرب ، الأستاذين السيدين محمود المسعدي ، والحاج امحمد أبا حيني .

حضر هذا الحفل الى جانب الوزيرين ، أعضاء البعثة الثقافية التونسية ، وكبار موظفي وزارة الثقافة المغربية .

وسام الكفاية الفكرية للسيد وزير الثقافة التونسي

بمناسبة الأسبوع الثقافي التونسي ، وتقديرا للمجهودات ، التي بذلها السيد وزير الثقافة التونسي الأستاذ السيد محمود المسعدي في ميدان الثقافة ، وتنويعها بأعماله الفكرية ، أنعم عليه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني بوسام الكفاية الفكرية .

حفلة تكريم على شرف الأستاذ السيد أحمد عسة

بمناسبة انعام جلالة الملك الحسن الثاني على الأستاذ أحمد عسة ، بوسام الكفاية الفكرية ، تقديرا لكتابه ((المعجزة المغربية)) ، أقام السيد

وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، مآدبة عشاء على شرفه ، حضرها بعض أعضاء الحكومة ، وشخصيات من السلك الدبلوماسي العربي ، الى جانب كثير من المثقفين والأدباء ورجال الفن .

ونشبت فيما يلي ، الخطاب الحافل البليغ الذألقه معاليه فى هذا الحفل التكريمى :

حضرة الأخ الحبيب الأستاذ أحمد عسة

حضرات السادة

داخلك ولا ريب ايها الأخ المفضل كما داخلنا جميعا يوم تفضل صاحب الجلالة الحسن الثانى مد الله عمره وتأييده فأولاك طوق الكفاية الفكرية الاحساس بأن اكتفاء العاهل الكريم عند التقليد والانعام بخطاب مختصر وجيز اكتفاء مرده لا محالة الى ما أضفى الله على الملك من نفائس الشيم وكرائم الخلائق ، فما كان لصاحب الجلالة الحسن الثانى المفطور على ما اشتهر واستفاض من قصد ولباقة وتواضع ولياقة أن يخاطبك ويداه الكريمتان تنوط بعنقك اسمى آيات الاشادة والتنويه خطابا يمتد نفسه ويطول ويمتلئ بالثناء على اثر من آثارك طافح بمناثره ومكارمه ، ولئن قصر الحظ يومذاك بعض التقصير ففاتنا من الكلم الجوامع والبيان الساجم المشرق بسبب هاتيك الشمائل والفضائل نصيب غير يسير مما يشوق المسامع ويروق فما فاتتنا متعة تلك اللحظة التى تستثير مثيلاتها فى نفس كل اديب ونفس كل كاتب ونفس كل عالم سلمت طواياه وسرائره واستمرت على الصفاء مرآئره شعور الاعتزاز بالمشاطرة والمناصفة والابتهاء بالمسايرة والمواكبة والمسرة بالاكبار الموقوف على مستحقه المصروف الى الحري القمين من وجوهه .

على اننا واياك أدركنا ما يستكن وراء القول المختصر من مسهب
المشاعر وطائلها ويستسر خلف التعبير المجمل من ثري الأحاسيس
وجميلها ونفذنا على معبر الالماع والدلالة بالقليل الى معين الود الصحيح
والتقدير الصريح الذي لا يحتاج الى مدد من افصاح وسند من تبيان .

حضرة الاخ الأستاذ

يستقبل المغرب أصنافا من الناس يرتادونه زرافات ووحدا نا
فيكتسي اتصالهم به اشكالا والوانا وقد يطول هذا الاتصال أولا يطول وقد
تستحكم اواصره تارة وقد تسترخي اسبابه تارة أخرى الا ان المقام
بالمغرب يطبع في نفوس الواردين صورا متفارقة ويشيع بين جوانحهم
احاسيس متباينة ، فمنهم من يتعاطف ومنهم من يتجانب ومنهم القرم النهم
الذي يداوم الاستملاء ويثابر على الاستبصار ومنهم العزوف السادر الذي
يمر فلا يعوج ولا يلوي ، ومنهم من تحزبه آيات التوفيق وتكرثه دلائل
الاقلاع والتحليق الا أن منهم الى أولئك وهؤلاء من يذهب به الاعجاب كل
مذهب ويثبته الشغف فلا ينثني ولا يرتد الى غير ما تألفه من مستعجب
ومستعذب .

وظاهر من هذا التعداد لاصناف الوافدين ان زيارتك الأولى للمغرب
غب تكسيره للاغلال وفور استمرائه لنعمة الاستقلال لا يتعذر انتسابها ولا
يتستر انتماء الألوان الزاهية للعواطف التي عطفت قصدك وانتحاءك ؟

لقد جئت من بلد شقيق يستحثك ما يستحث الحبيب الظاميء الى
لقاء حبيبه ويشوقك ما يشوق الصب الهائم بالبطولات الى معاينة ارض
البطولات ومطالعة وجوه الرجال والنساء الذين ضغطوا على مجرى التاريخ

حتى حولوه تحويلا كانت له أبعاده المديدة وآثاره البعيدة ، وحللت على
الرحب والسعة بين الاخلاء والأصدقاء والأشقاء فما لبثتان وقر في قلبك من
هذا البلد ما وقر ، وواليت بعد ذلك الزيارات واختلفت الى هذه الديار
مرات بعد مرات وتكشف لك خلال ترددك ومقامك هذا الوطن في أجلى
مظاهره بعد النظر الفاحص فيما تجرم من أحقاب ماضيه وتتابع من أطوار
مسيرته واستحر من جهاد ملوكه وإبنائه في كثير من وجوه الأخذ والرد
وصح عندك بعد استعراض ضروب كفاحه على امتداد العصور وتطاول
الأزمان دفاعا عن الشرف الرفيع وحفاظا على الكرامة واسهاما في تمريد
صرح الحضارة وتوفير أسباب التكريم للعالمين ، ان شعاره الدائم
المستبين من خلال ما تعاوره من شدة ، ولين مرصع أبلغ وأصدق ترصيع
في هذا القول الشامخ الرصين :

قد هون الصبر عندي كل نازلة
ولين العزم حد المركب الخشن

ولم يقتصر همك ودابك على استشفاف ما غبر من أيام هذه البلاد
واستحضار ما تواتر واستطار من ملاحمها وانما قادك الاستشراف الى
اكتناه ما انجبتة الأطوار السالفة من أطوار خالفة والى استبار الحاضر
وتقييمه في وضح ما استنار به الماضي من معالم وامارات واستضاء به
من خصائص وسمات ، وكان لاتصالك بتاريخ هذه البلاد قديمه وحديثه
ولوقوفك على ما استجاشها ويستجيشها باستمرار ولشد اهتمامك الى
ما هي دائبة عليه من اهتمام جادة فيه من أعمال التطوير والتغيير والوان
الاغزار والتكثير لاسباب الرفعة ووسائل المجد - كان لهذا كله - العاقبة
التي تلازمك وتصاحبك كلما رأيت الحياة سارية متدفقة في المطاعم
والرغائب وتبينت ان العزائم موازية لمستوى المقاصد والمطالب والقرائح

والهم ماضية لا تنخذل ولا تستكين مصمة مصرة لا تهاود ولا تصانع ولا
تلين وما تلك العاقبة التي لا تفارقك ولا تجفوك عند كل مشاهدة ورؤية
من هذا القبيل الا الاعجاب الذي يدعوك بالحاح الى اعلان المعجزة والافتتان
الذي يقتضي منك الوصف والرسم والتسجيل والاثبات واظهار الجمهرة
من محبيك وقارئيك على ما يتدافع من مشاعرك ويتزاحم من خواطرك
ويتساق ويتناسق من بنات أفكارك .

وهكذا تتلو المعجزة اختها ويتم التصوير للاعجاب والافتتان ويقع في
ايدي القراء المؤلف الذي توافق القلب والعقل على وضعه وشحن صفحاته
الكثيرة بالغزير والمفيد من عصارة النظر الموغل والفكر الثاقب وخلاصة
البحث والتنقيب والاستفسار والاستملاء ، وهكذا يتلقى الباحثون
والدارسون مجهودا توخى الاستيفاء والاستيعاب والتحقيق والتدقيق
واستهدف التعريف بشيء كثير مما لم يكن معروفا وقصد الى تنبيه
الضمائر وتوجيه الانظار الى هذا البلد الأبي المجيد مثلما قصد الى الدلالة
على جلاد قديم وجهاد حديث وتجربة تناولت ميادين مختلفة وحالفها
النجاح في العدد العديد من مراحلها وأشواطها .

واني لموقن بأن مؤلفك الذي يوافي القراء بحقائق كانت تنتظر ان
يقيض الله من يزيح عنها القناع سينال بما يكفل من انتفاع واستمتاع ما
هو اهل له من اقبال واعزاز .

وفي الوقت الذي يخوض فيه هذا الوطن الذي أصبح وطننا لك
معركة مصيرية تحل « المعجزة المفريية » وتنتشر بين جماهير القراء
وتنتصب برهانا على ان قضية اراضينا المحتلة شمالا وجنوبا ستعالج بما
هو ماثور عن الحسن الثاني سليل الأبوة الفطاريف وعن شعب المغرب من
ثابت العقيدة وواطد العزيمة .

لقد كانت « المعجزة المغربية » التي صرفت الى ابرازها القيم الثمين من اراداتك وعزمك حرية بأن تثاب وتكافأ بما يكافأ به كل مجهود فكري تضافرت فيه المحبة والأمانة وانطلاقا من التقدير الذي يكنه صاحب الجلالة الحسن الثاني ادام الله رعايته لكل عمل فكري مستجد فقد اضى العاهل الكريم على مزاياك الفكرية اعظم تشريف ونوه بانتاجك أجل تنويه .
فهنيئا لك هذا الانعام وشكرا لك على ما اعطيت فأجزلت واسديت فأحسن وأجملت .

مشاركة وزارة الثقافة في الاحتفال بالسنة الدولية للمرأة

في اطار احتفالات ومهرجانات السنة الدولية للمرأة ، اقامت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية معرضا في بهوها ، اشتمل على بعض نماذج من لباس العروس المغربي التقليدي ، بالاضافة الى بعض المعروضات النسوية التي تسجل أنشطتها ، وتطورها في شتى المجالات ، فعرضت بعض الكتب التي قامت بتأليفها نساء مغربيات ، وبعض المجلات النسوية ، والاطروحات الجامعية ، ولوحات تعرف بالنشاط النسوي في المغرب ، في ميدان السينما ، والمسرح ، والإدارة ، وغيرها من الميادين ، كما اقامت حفلا شيقا في قاعتها ، تحت رئاسة وزير الثقافة ، حضره جميع المشاركات والمدعوات من موريطانيا ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا .

وفي هذا الحفل ، استعرضت على خشبة قاعة الوزارة ، نساء عرائس من مختلف المدن المغربية ، وكل واحدة منهن كانت تلبس لباسا

خاصا بمديتها فى استعراض اخاذ جميل ، وذلك على انغام الموسيقى
الاندلسية .

وقد اختتم هذا الحفل بمعرض الرسوم التشكيلية الذي نظم بمسرح
محمد الخامس .

جوائز لأحسن عازفة مغربية

اسهاما من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى العام الدولى
للمرأة ، وتكريما منها للفنانات المغربيات ، قررت الوزارة رصد ثلاث
جوائز هامة لأحسن عازفة مغربية سواء كان :

العزف على الطريقة التقليدية المغربية

العزف على الطريقة الشرقية

العزف على الطريقة الفريسية

وللمرشحة الحق فى اختيار الآلة الموسيقية التي ترغب فى العزف
عليها .

فمن ترغب فى المشاركة فى هذه المسابقة الهامة أن تتصل كتابيا
بالعنوان التالي :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية (مصلحة التعليم الفنى) .

وآخر أجل لقبول طلبات المشاركة هو 14 يونه 1975 .
وسيجري الاختبار يوم الثلاثاء 24 يونه 1975 ، وذلك بالمعهد
الوطني للموسيقى بالرباط .

محاضرات وزارة الثقافة

نظمت وزارة الثقافة سلسلة من المحاضرات فى مختلف شؤون
المعرفة ، قامت بالقائها صفوة من مفكرينا فى قاعة محاضراتها .

افتتح هذه السلسلة ، السيد وزير الشغل والشؤون الاجتماعية ،
الاستاذ السيد محمد العربي الخطابي ، بمحاضرة تحت عنوان : « جهود
المغرب فى الحقل الدولي لتحرير اراضيه المفتصة » ، وذلك بتاريخ 21
فبراير 1975 .

كما القيت فى نفس القاعة محاضرتان للأستاذين عبد العزيز بن عبد
الله ، بعنوان « ابعاد الحضارة المغربية فى افريقيا والبحر الأبيض
المتوسط والمحيط الأطلسي » ، فى مساء يوم 17 مارس 1975 ، وأخرى
للاستاذ السيد عباس الجراري فى موضوع « الشعر المغربي فى مرحلة
النهضة » (14 مارس 1975) .

وبمناسبة الاحتفال بالسنة الدولية للمرأة نظمت هذه الوزارة محاضرة
لقاها للدكتور علي عبد الواحد وافي فى نفس القاعة فى موضوع « المرأة
فى الاسلام » بتاريخ 13 ربيع الثاني 1395 الموافق 25 أبريل 1975 .

والقى الاستاذ قاسم الزهيري محاضرة بعنوان : « من باندونغ الى
أديس أبابا نضال موصول لتصفية الاستعمار » (26 / 5 / 1975) وذلك
بمناسبة الذكرى الثانية عشرة لتأسيس منظمة الوحدة الافريقية .

«روز اليوسف» تنشر استجواب وزيرنا في الثقافة

خلال الزيارة التي قام بها الى المغرب ، مندوب مجلة «روز اليوسف»
السيد عبد الفتاح رزق ، للاطلاع على سير الحركة الثقافية والفكرية في
بلادنا ، أجرى استجوابا مع السيد وزير الثقافة الأستاذ السيد الحاج
امحمد ابا حنينة ، تناول مختلف الجوانب الثقافية والادبية في بلادنا ،
والمجهودات المبذولة من طرف وزارة الثقافة المغربية بقصد تعزيز
الميدان الثقافي وتشجيع رجالاته .

نشر الاستجواب بمجلة « روز اليوسف » في عددها 2436 .

معرض الخناجر المغربية القديمة

بعد المعارض التي اقامتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ،
في بهوها للخزف المغربي ، والآلات الموسيقية المغربية ، واللباس
المغربي القديم ، اقامت اخيرا معرضا خاصا بنماذج الخناجر المغربية
عبر تاريخ المغرب .

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

تحتفل :

بعيد الربيع والشعر

ورد الربيع فمرحباً بوروده

وبنور بهجته ونور وُلوذه



بمناسبة فصل الربيع ، نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
امسية شعرية بقاعتها ، اشتملت على قراءات شعرية من ملف التحرير ،
شارك فيها الأساتذة :

— عبد الكريم غلاب .

— مولاي الطيب المريني .

— حبيبة البورقادية .

وكان برنامج الامسية يشتمل على ما يلي :

— السيمفونية (الريفية) لبتروفن .

— كلمة بالمناسبة للاستاذة حبيبة البورقادية .

— انشاد شعري من دواوين شعرائنا :

— علال الفاسي

- المختار السوسي
— محمد ابن ابراهيم
— عبد الكريم ابن تابت
وقد غصت القاعة بجمهور غفير من الادباء والشعراء والمثقفين .



من كل قطر ديوان

ذلك هو الشاعر الذي اطلقت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية (مصلحة التنشيط الثقافي) على المعرض الذي نظمته بيهوها ، بمناسبة فصل « الربيع » ، حيث اشتمل على مجموعة قيمة من الدواوين ، كل قطر من الاقطار العربية تمثله مجموعة من دواوين شعرائها المرموقين .
وكان لهذا المعرض الشعري صدى استحسان من لدن زائريه المثقفين .

كتب مغربية صدرت مؤخراً

- ♦ جولات في مغرب امس - قبيل الحماية :
- عبد المجيد ابن جلون .
- مكتبة المعارف - الرباط . 152 صفحة .

- ◆ عنبللة . قصة طفولة .
محمد الصبـاغ .
دار الكتاب - الدار البيضاء . 94 صفحة . صور ملونة .
- ◆ مجموعة قصص بسمة للأطفال .
9 حلقات :
- (1) نشيد مدرسي . (2) العش . (3) على مائدة الطعام . (4) موناليزا
(5) السمكة المسحورة . (6) اصوات . (7) الصياد . (8) عنكبوتة .
(9) مخلوق .
تأليف : محمد الصبـاغ .
دار الكتاب - اللبناني - بيروت 1975 .
- ◆ الأمير الشاعر أبو الريع سليمان الموحدي :
عباس الجراري .
دار الثقافة - الدار البيضاء . 239 صفحة مع فهارس .
- ◆ الصورة والصوت .
حنائية بنونة .
دار النشر المغربية - الدار البيضاء . 100 صفحة .

مناقب أهل الصحراء في تشييد صرح الدولة العربية الغراء

عنوان كتاب جديد سيصدر للأستاذ عبد الوهاب ابن المنصور ،
مشملا على ذكرياته ، و خلاصة مطالعته في مختلف الكتب التاريخية
والادبية والسياسية والديبلوماسية والوثائقية في هذا الموضوع الوطني ،

الذى يخوض الشعب المغربى بأسره معركة الحاسمة ، من اجل تحرير هذا الجزء الصحراوى المقتصب من وطننا .

وقد جاء الكتاب اضمامة من تاريخ وادب وسياسة وديبلوماسية ، بأسلوب يجذب اليه كل متذوق للأدب ، وكل متطلع الى هذه الأفاق الصحراوية فى مذقب اهلها ، ومحتد أرومتها ، وعراقة أصولها المغربية ، وذلك لاقامة الحجة على من ينكر حق المغرب فى صحرائه من الناقمين الحاسدين ، وابضاح الحجة امام الحائرين المتشككين ، كما يشير الى ذلك مؤلف الكتاب فى تصديره .

بلاغ حول نتيجة

جائزة الحسن الثانى للمخطوطات والوثائق العامة والوثائق المتعلقة بالصحراء المغربية المفتصبة

بناء على البلاغين الصادرين عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، المتعلق اولهما بجائزة الحسن الثانى للمخطوطات والوثائق العامة ، وثانيهما بالصحراء المغربية المفتصبة ، تسلمت الوزارة كثيرا من المخطوطات والوثائق الواردة من مختلف أنحاء المملكة ، وعينت لها لجنة من المختصين .

وقد تفرغت هذه اللجنة لفحصها ، ودراستها ، وتقييمها ، فتبين لها الاهمية البالغة لكثير من هذه المخطوطات والوثائق ، نظرا لما تكشف عنه من معلومات تاريخية جديدة ، من شأنها أن تفيد الباحثين والدارسين فى مختلف الميادين الثقافية والاجتماعية والسياسية .

وبعد ما عقد السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ،
اجتماعات متعددة مع اللجنة المذكورة للمداولة فى هذا الموضوع ، تقرر
النتيجة التالية :

جائزة الحسن الثانى للوثائق المتعلقة بالصحراء المغربية المفتصة

الجائزة الاولى :

فاز بها السيد البشير لحديم من طرفاية عن ست وثائق .

الجائزة الثانية :

فاز بها السيد عبد المنعم بركاش من الرباط ، عن وثيقتين .

الجائزة الثالثة :

فاز بها السيد احمد العنتري من القصر الكبير ، عن 21 صورة
شمسية ، تمثل احتفال سكان الصحراء المفتصة بعودة المففور نه جلالة
محمد الخامس واعلان استقلال المغرب .

جائزة الحسن الثانى للوثائق والمخطوطات العامة

الجائزة الاولى :

فاز السيد عبد المنعم بركاش من الرباط ، عن مجموعة من الوثائق
عددها 735 وثيقة .

الجائزة الثانية :

فاز السيد ابن الفاطمي ابن الحاج ، م. فاس. عن 3 مخطوطات .

الجائزة الثالثة :

فاز بها السيد محمد بن العربي الدرقاوي من فاس ، عن مجموعة من الرسائل العلمية .

الجائزة الرابعة :

فاز بها كل من السيدين :

أ - محمد كثير من فم الحصن ، عن 33 وثيقة متنوعة .

ب - السيد عبد الحق عادلي من الدار البيضاء ، عن مخطوط في غريب الحديث .

كما تقرر منح جوائز تشجيعية لثمانية وستين مرشحا .

وبما أن الوزارة تعتزم إقامة معرض للمخطوطات والوثائق في الإيام القريبة ، فإنها تهيب بأصحابها أن يرجئوا سحب معروضاتهم الى حين انتهاء المعرض ، حتى تتم الاستفادة على اوسع نطاق .

ندوة لدراسة الشعر الشعبي بتونس

دعا المركز الثقافي الدولي بالحمامات بتونس الى عقد ندوة للدراسة الشعر الشعبي في كل من مصر ، وليبيا ، والجزائر ، والمغرب ، وتونس، وذلك بمقر المركز المذكور من 28 يوليوز الى 2 غشت من هذه السنة .

وقررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية مشاركة المملكة المغربية في هذه الندوة ، بإيفاد مجموعة من الاختصاصيين للحضور في أعمالها .

معرض الكتاب العربي بتونس

أقيم بتونس العاصمة معرض الكتاب العربي من 14 ربيع الأول الى 23 منه 1395 / 28 مارس الى 6 أبريل 1975 ، شاركت فيه وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، بنماذج من الكتاب المغربي الحديث ، وأصدرت بالمناسبة كتيباً اشتمل على قائمة الكتب المغربية التي ساهم بها المغرب في هذا المعرض .

انعقاد مؤتمر الفنون التشكيلية بدمشق

بدعوة من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، التابعة للجامعة العربية ، انعقد بدمشق مؤتمر الفنون التشكيلية في الوطن العربي من 5 الى 14 جمادى الثانية 1395 / 17 الى 26 مايو 1975 .

ودرس المؤتمر أوضاع الفنون التشكيلية في الوطن العربي ، ومفهوم الأصالة والمعاصرة فيها ، ودورها في مجالات الحياة الحديثة ، وما تقوم به الدولة من رعاية واعداد ، ونشر للوعي بالفنون في الماضي والحاضر والمستقبل .

وشاركت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في هذا المؤتمر ، بوفد تالف من السادة :

حسن احمد المصمودي : رئيس مصلحة التعليم الفني رئيسا
المكي مغارة : استاذ بمعهد الفنون الجميلة بتطوان عضوا
سعد ابن سفاج : استاذ بمعهد الفنون الجميلة بتطوان عضوا

انعقاد مؤتمر الفنون المسرحية بدمشق

تعزيزا للعلاقات الثقافية بين المملكة المغربية والجمهورية السورية،
قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، الاسهام فى مهرجان
دمشق السادس للفنون المسرحية الذي نظم بعاصمتها من فاتح ماي الى
الخامس عشر منه ، بإيفاد فرقة مسرحية فى المستوى المطلوب .

المناهل

الفهرس

صفحة

عبد الله كنون	نظم مثلث قطرب وشرحه	5
محمد العربي الخطابي	الثقافة : لغة ، وفكرة ، وتنظيم	19
د. علي عبد الواحد واني	حماية الاسلام للانسباب	37
عبد العزيز بنعبد الله	معطيات الفن الاسلامي في المغرب	51
د. تمام حسان	موقف الاديب والفنان بين الحرية والالتزام	72
عبد الكريم غلاب	كالب وحق السماء ... ! (قصة)	90
د. عباس الجراري	النضال في الشعر العربي بالمغرب	106
محمد الصباع	هكذا ستتم رحلة ابن زيدون الى المغرب	153
د. شوقي عطا الله الجمل	العلاقات الانجليزية المغربية	157
للقصي الامريكي د. ب.	بطل الشطرنج (قصة)	188
وايانت		
ترجمة : عبد المجيد		
ابن جلون		
د. ندير العظيمة	صحراء يا شفة التاريخ (قصيدة)	199
عبد القادر زمامة	المغرب في كتب الجغرافيين القدماء	203
عبد الوهاب ابن المنصور	يا صحرائسي ... ! (شعر)	210
حيبة البورتاديه	ملامح الشعوب في ادب الرحلات	211
احمد عبد السلام البقالي	الخطبوط (قصة)	218
د. علي القاسمي	مكانة العربية بين اللغات العالمية	245
أبو بكر اللمتوني	الفصول (قصيدة)	288
عبد العلي الودغيري	حول آثار ابن رشيق	292
ترجمة : د. الطاهر	مختارات بابلو نيرودا (شعر)	307
أحمد مكسي		
د. فرج عبد القادر طه	علم النفس في مؤسسات العمل	312
بقلم المستشرق الاسباني:	ابن سيده المرسى - 3 -	324
داريو كابانيلاس		
رودريكي		
ترجمة وتعليق : حسن		
الوراكليسي		
ترجمة : « المناهل »	انطونييو ماتشادو (شعر)	337
عبد الرحمن الفاسي	ذيل وتعليق حول قضية المعتمد ابن عباد - القسم الثالث -	340
	في مكتبة المناهل :	
عبد الرزاق الهلالي	1 - مع الادب والادباء	362
د. محمد محمد الزباني	2 - عندلسة	372
المناهل	الاعلام الثقافي	376